

الميزان

في تفسير القرآن

ج ١٧/١

الجزء السابع عشر

مَكْتَابُ

الميزان

فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

لمؤلفه

الأستاذ العلامة

السيد محمد حسين الطباطبائي

شبكة كتب الشيعة

مدرسة الطباعة والنشر

الشيخ محمد الخوئي
تهتم

دار الكتب الإسلامية

طهران - سوق السلطاني

١٣٨٨ ق

مطبعة العبدري بطهران

shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة فاطر مكيّة وهي خمس و أربعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةَ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَنًى وَ ثَلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) .

﴿ بيان ﴾

غرض السورة بيان الأصول الثلاثة : وحدانيّته تعالى في ربوبيّته ورسالة الرسول والمعاد إليه و تقرير الحجّة لذلك وقد توسّل لذلك بعدّ جمل من نعمه العظيمة السماوية والأرضية والإشارة إلى تدبيره المتقن لأمر العالم عامّة والإإنسان خاصّة . وقد قدّم على هذا التفصيل الإشارة الإجماليّة إلى انحصار فتح الرحمة وإمساكها وهو إفاضة النعمة والكفّ عنها فيه تعالى بقوله : « ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها » الآية .

وقد قدّم على ذلك الإإشارة إلى وسائط هذه الرحمة المفتوحة والنعم الموهوبة وهم الملائكة المتوسّطون بينه تعالى وبين خلقه في حمل أنواع النعم من عنده تعالى وإيصالها إلى خلقه فافتتح السورة بذكرهم .

والسورة مكيّة كما يدلّ عليه سياق آياتها ، وقد استثنى بعضهم آيتين وهما قوله تعالى : « إنّ الذين يتلون آيات الله » الآية وقوله : « ثمّ أورثنا الكتاب الذين اصطفينا » الآية وهو غير ظاهر من سياق الآيتين .

قوله تعالى : « الحمد لله فاطر السماوات والأرض » الفطر - على ما ذكره الراغب - هو الشقّ طولاً فإطلاق الفاطر عليه تعالى بعناية استعارية كأنه شقّ العدم فأخرج من بطنها السماوات والأرض فمحصل معناه أنه موجد السماوات والأرض إيجاداً ابتدائياً من غير مثال سابق ، فيقرب معناه من معنى البديع والمبدع والفرق بين الإبداع والفطر أن العناية في الإبداع متعلقة بنفي المثل السابق وفي الفطر بطرد العدم وإيجاد الشيء من رأس لا كالصانع الذي يؤلف مواد مختلفة فيظهر به صورة جديدة لم تكن .

والمراد بالسماوات والأرض مجموع العالم المشهود فيشملهما وما فيهما من مخلوق فيكون من قبيل إطلاق معظم الأجزاء وإرادة الكل مجازاً ، أو المراد نفس السماوات والأرض اعتناء بشأنهما لكبر خلقتهما و عجيب أمرهما كما قال : « لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس » المؤمن : ٥٧ .

و كيف كان فقوله : « فاطر السماوات والأرض » من أسمائه تعالى أُجري صفة لله والمراد بالوصف الاستمرار دون الماضي فقط لأن الإيجاد مستمرّ و فيض الوجود غير منقطع و لو انقطع لانعدمت الأشياء .

والإتيان بالوصف بعد الوصف للإشعار بأسباب انحصار الحمد فيه تعالى كأنه قيل : الحمد لله على ما أوجد السماوات والأرض وعلى ما جعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة فهو تعالى محمود ما أتى فيما أتى إلا الجميل .

قوله تعالى : « جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع »

الملائكة جمع ملك بفتح اللام وهم موجودات خلقهم الله وجعلهم وسائط بينه وبين العالم المشهود وكلهم بأمر العالم التكوينية والتشريعية عباد مكرمون لا يعصون الله فيما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

فقوله تعالى : « جاعل الملائكة رسلاً » يشعر بل يدل على كون جميع الملائكة - والملائكة جمع محلى باللام مفيد للعموم - رسلاً ووسائط بينه وبين خلقه في إجراء أوامره التكوينية والتشريعية .

ولاموجب لتخصيص الرسل في الآية بالملائكة النازلين على الأنبياء ﷺ وقد أطلق القرآن الرسل على غيرهم من الملائكة كقوله تعالى : « حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا » الأنعام : ٦١ ، وقوله : « إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ » يونس : ٢١ ، وقوله : « وَمَا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَىٰ قَالُوا إِنَّمَا هَٰؤُلَاءِ أَهْلُ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الْعَنَكَبُوتُ : ٣١ .

والأجنحة جمع جناح و هو من الطائر بمنزلة اليد من الإنسان يتوسل به إلى الصعود إلى الجو والنزول منه والانتقال من مكان إلى مكان بالطيران .

فوجود الملك مجهز بما يفعل به نظير ما يفعله الطائر بجناحه فينتقل به من السماء إلى الأرض بأمر الله ويعرج به منها إليها ومن أي موضع إلى أي موضع ، وقد سمّاه القرآن جناحا ولا يستوجب ذلك إلا ترتب الغاية المطلوبة من الجناح عليه و أما كونه من سنخ جناح غالب الطير ذاريش و زغب فلا يستوجب مجرّد إطلاق اللفظ كما لم يستوجب في نظائره كالألفاظ العرش والكرسي واللوح والقلم وغيرها .

وقوله : « أُولَٰئِكَ أَجْنَحُهُ مِثْنَىٰ وَثَلَاثٌ وَرَبَاعٌ » صفة للملائكة ، و مثنى و ثلاث و رباع ألفاظ دالة على تكرّر العدد أي اثنين اثنين و ثلاثة ثلاثة و أربعة أربعة كأنه قيل : جعل الملائكة بعضهم ذا جناحين وبعضهم ذا ثلاثة أجنحة وبعضهم ذا أربعة أجنحة . وقوله : « يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ » لا يخلو من إشعار بحسب السياق بأنّ منهم من يزيد أجنحته على أربعة .

وقوله : « إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » تعليل لجميع ما تقدّمه أو الجملة الأخيرة والأوّل أظهر .

﴿ بحث روائي ﴾

في البحار عن الاختصاص بإسناده عن المعلّى بن مجاهد رفعه إلى أبي عبد الله ﷺ قال : « إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ الْمَلَائِكَةَ مِنْ نُورٍ ، الْخَبَرُ .

و في تفسير القمي قال الصادق ﷺ : خَلَقَ اللَّهُ الْمَلَائِكَةَ مُخْتَلِفَةً وَقَدْ أَتَى رَسُولُ

الله ﷻ جبرئيل و له ستّمائة جناح على ساقه الدرّ مثل القطر على البقل قد ملاّ ما بين السماء والأرض وقال إذا أمر الله عزّ وجلّ ميكائيل بالهبوط إلى الدنيا صارت رجله في السماء السابعة والأخرى في الأرض السابعة ، وإنّ لله ملائكة أنصافهم من برد وأنصافهم من نار يقولون : يا مؤلّفا بين البرد والنار ثبتّ قلوبنا على طاعتك .
و قال : إنّ لله ملكا بعد ما بين شحمة أذنه إلى عينه مسيرة خمس مائة عام بخفقان الطير .

و قال : إنّ الملائكة لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون وإنّما يعيشون بنسيم العرش ، وإنّ لله عزّ وجلّ ملائكة ركّعا إلى يوم القيامة وإنّ لله عزّ وجلّ ملائكة سجّدا إلى يوم القيامة .

ثمّ قال أبو عبد الله ﷺ : قال رسول الله ﷺ : ما من شيء ممّا خلق الله عزّ وجلّ أكثر من الملائكة وإنّه ليهبط في كلّ يوم أو في كلّ ليلة سبعون ألف ملك ، فيأتون البيت الحرام فيطوفون به ثمّ يأتون رسول الله ﷺ ثمّ يأتون أمير المؤمنين ﷺ فيسلّمون ثمّ يأتون الحسين ﷺ فيقيمون عنده فإذا كان عند السحر وضع لهم معراج إلى السماء ثمّ لا يعودون أبدا .

و قال أبو جعفر ﷺ : إنّ الله عزّ وجلّ خلق إسرافيل وجبرئيل وميكائيل من تسبيحة واحدة ، وجعل لهم السمع والبصر وجودة العقل وسرعة الفهم .

و قال أمير المؤمنين ﷺ في خلقه الملائكة : وملائكة خلقتهم وأسكنتهم سماواتك فليس فيهم فترة ، ولا عندهم غفلة ، ولا فيهم معصية ، هم أعلم خلقك بك وأخوف خلقك منك ، وأقرب خلقك منك ، وأعملهم بطاعتك ، لا يغشاهم نوم العيون ولا سهو العقول ، ولا فترة الأبدان لم يسكنوا الأصاب ، ولم تضمّهم الأرحام ، ولم تخلقهم من ماء مهين أنشأتهم إنشاء فأسكنتهم سماواتك وأكرمتهم بجوارك ، واثمنتهم على وحيك ، وجنتهم الآفات ، ووقيتهم البليّات ، وطهرتهم من الذنوب ، ولو لا قوتك لم تقووا ، ولو لا تثبتك لم يثبتوا ، ولو لا رحمتك لم يطيعوا ، ولو لا أنت لم تكونوا .

أما إنهم على مكاتبتهم منك و طاعتهم إيتاك و منزلتهم عندك وقلة غفلتهم عن أمرك لو عاينوا ما خفي عنهم منك لاحتقروا أعمالهم ، و لأزروا على أنفسهم ، و لعلموا أنهم لم يعبدوك حق عبادتك سبحانه خالقا و معبودا ما أحسن بلاءك عند خلقك .

و في البحار عن الدر المنثور عن أبي العلاء بن سعد أن رسول الله ﷺ قال يوما لجلسائه : أطئت السماء و حق لها أن تثط ليس منها موضع قدم إلا عليه ملك راکع أو ساجد . ثم قرء « و إنا لنحن الصافون و إنا لنحن المسبحون » .

و عن الخصال بإسناده عن محمد بن طلحة يرفعه إلى النبي ﷺ قال : الملائكة على ثلاثة أجزاء فجزء لهم جناحان و جزء لهم ثلاثة أجنحة و جزء لهم أربعة أجنحة . **اقول :** و رواه في الكافي بإسناده عن عبدالله بن طلحة مثله ، و لعل المراد به وصف أغلب الملائكة حتى لا يعارض سياق الآية و الروايات الأخر .

و عن التوحيد بإسناده عن أبي حيان التيمي عن أبيه عن أمير المؤمنين عليه السلام قال : ليس أحد من الناس إلا و معه ملائكة حفظه يحفظونه من أن يتردى في بئر أو يقع عليه حائط أو يصيبه سوء فإذا حان أجله خلوا بينه و بين ما يصيبه - الخبر .

و عن البصائر عن السياري عن عبدالله بن أبي عبدالله الفارسي و غيره رفعوه إلى أبي عبدالله عليه السلام قال : إن الكرويين قوم من شيعتنا من الخلق الأول جعلهم الله خلف العرش لو قسم نور واحد منهم على أهل الأرض لكفاهم . ثم قال : إن موسى عليه السلام لما أن سأل ربه ما سأل أمرواحدا من الكرويين فتجلى للجبل فجعله دكا .

و عن الصحيفة السجادية و كان من دعائه على حملة العرش و كل ملك مقرب : اللهم و حملة عرشك الذين لا يفترون من تسبيحك ، و لا يسأمون من تقديسك ، و لا يستحسرون عن عبادتك ، و لا يؤثرون التقصير على الجد في أمرك ، و لا يغفلون عن الوله إليك ، و إسرائيل صاحب الصور الشاخص الذي ينتظر منك الإذن و حلول الأمر فينبه بالنفخة صرعى رهائن القبور ، و ميكائيل ذوالجاء عندك و المكان الرفيع من طاعتك و جبريل الأمين على وحيك المطاع في سماواتك المكين لديك المقرب عندك ، و الروح الذي هو على ملائكة الحجب و الروح الذي هو من أمرك .

اللهم فصل عليهم و على الملائكة الذين من دونهم من سكاّن سماواتك و أهل الأمانة على رسالاتك ، و الذين لا يدخلهم سامة من دؤب ولا إعياء من لغوب ولا فتور ولا تشغلهم عن تسبيحك الشهوات ولا يقطعهم عن تعظيمك سهو الغفلات ، الخشع الأبصار فلا يرومون النظر إليك ، النواكس الأذقان الذين قد طالت رغبتهم فيما لديك المستهترون بذكر آلائك و المتواضعون دون عظمتك و جلال كبريائك ، و الذين يقولون إذا نظروا إلى جهنم تزفر على أهل معصيتك : سبحانك ما عبدناك حق عبادتك .

فصل عليهم و على الروحانيين من ملائكتك و أهل الزلفة عندك و حمّال الغيب إلى رسلك و المؤتمنين على وحيك و قبائل الملائكة الذين اختصتهم لنفسك و أغنيتهم عن الطعام و الشراب بتقديسك و أسكنتهم بطون أطباق سماواتك ، و الذين هم على أرجائها إذا نزل الأمر بتمام وعدك .

و خزّان المطر و زواجر السحاب و الذي بصوت زجره يُسمّع زجل الرعود ، و إذا سبحت به حفيفة السحاب التمعت صواعق البروق ، و مشيغي الثلج و البرد و الهابطين مع قطر المطر إذا نزل ، و القوام على خزائن الرياح ، و الموكّلين بالجبال فلا تزول ، و الذين عرفتهم مثاقيل المياه و كيل ما يحويه لواعيح الأمطار و عواجها و رسلك من الملائكة إلى أهل الأرض بمكروه ما ينزل من البلاء و محبوب الرخاء . و السفارة الكرام البررة و الحفظة الكرام الكاتبين ، و ملك الموت و أعوانه ، و منكر و نكير ، و مبشّر و بشير ، و رؤّمان فتّان القبور ، و الطائفين بالبيت المعمور ، و مالك و الخزنة ، و رضوان و سدنة الجنان ، و الذين لا يعصون الله ما أمرهم و يفعلون ما يؤمرون ، و الذين يقولون : سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار ، و الزبانية الذين إذا قيل لهم : « خذوه فغلّوه ثمّ الجحيم صلّوه » ابتدروه سراعا ولم ينظروه ، و من ألهمنا ذكره ولم نعلم مكانه منك وبأيّ أمر و كلته ، و سكان الهواء و الأرض و الماء ، و من منهم على الخلق .

فصل عليهم يوم تأتي كل نفس معها سائق و شهيد وصلّ عليهم صلاة تزبدهم كرامة على كرامتهم و طهارة على طهارتهم . الدعاء .

وفي البحار عن الدر المنثور عن ابن شهاب أن رسول الله ﷺ سأل جبرئيل أن يترآى له في صورته فقال جبرئيل : إنك لن تطيق ذلك . قال : إني أحب ذلك فخرج رسول الله ﷺ إلى المصلى في ليلة مقمرة فأثاه جبرئيل في صورته فغشي على رسول الله ﷺ حين رآه ثم أفاق وجبرئيل مسنده و واضع إحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه فقال رسول الله ﷺ : ما كنت أرى أن شيئاً ممن يخلق هكذا فقال جبرئيل : فكيف لو رأيت إسرافيل إن له لاثني عشر جناحاً جناح في المشرق وجناح في المغرب وإن العرش على كاهله ، وإنه ليتضأل الأحيان لعظمة الله حتى يصير مثل الوصع ^(١) حتى ما يحمل عرشه إلا عظمته .

وفي الصافي عن التوحيد بإسناده عن أمير المؤمنين ع في حديث قال : وقوله في آخر الآيات : « ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى » رأى جبرئيل في صورته مرتين هذه المرة ومرة أخرى وذلك أن خلق جبرئيل عظيم فهو من الروحانيين الذي لا يدرك خلقهم وصفتهم إلا الله .

وعن الخصال بإسناده عن محمد بن مروان عن أبي عبد الله ع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إن جبرئيل أتاني فقال : إننا معشر الملائكة لا ندخل بيتا فيه كلب ولا تمثال جسد ولا إناء يبال فيه .

أقول : وهناك روايات أخرى في صفة الملائكة فوق حد الإحصاء واردة في باب المعاد ومعراج النبي ﷺ وأبواب متفرقة أخرى ، وفيما أوردناه أنموذج كاف في ذلك .

وفي العيون في باب ماجاء عن الرضا ع من الأخبار المجموعة بإسناده عنه عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : حسنوا القرآن بأصواتكم فإن الصوت الحسن يزيد القرآن حسناً وقرء « يزيد في الخلق ما يشاء » .

وفي التوحيد بإسناده عن زرارة عن عبد الله بن سليمان عن أبي عبد الله ع قال : سمعته يقول : إن القضاء والقدر خلقان من خلق الله يزيد في الخلق ما يشاء .

(١) بفتح الصاد وسكونها طائر أصفر من المصفور .

وفي المجمع في قوله تعالى : « يزيد في الخلق ما يشاء » روى أبوهريرة عن النبي صلى الله عليه وآله قال : هو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن .
أقول : و الروايات الثلاث الأخيرة من قبيل الجري والانطباق .

﴿ كلام فى الملائكة ﴾

تكرر ذكر الملائكة فى القرآن الكريم ولم يذكر منهم بالتسمية إلا جبريل و ميكال و ما عدهما مذكور بالوصف كملك الموت و الكرام الكاتبين و السفرة الكرام البررة و الرقيب و العتيد وغير ذلك .

و الذى ذكره الله سبحانه فى كلامه - و تشايحه الأحاديث السابقة - من صفاتهم و أعمالهم هو أولاً أنهم موجودات مكرمون هم و سائط بينه تعالى و بين العالم المشهود فما من حادثة أو واقعة صغيرة أو كبيرة إلا و للملائكة فيها شأن و عليها ملك موكل أو ملائكة موكلون بحسب ما فيها من الجهة أو الجهات ، و ليس لهم فى ذلك شأن إلا إجراء الأمر الإلهي فى مجراه و تقريره فى مستقره كما قال تعالى : « لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » الأنبياء : ٢٧ .

و ثانياً أنهم لا يعصون الله فيما أمرهم بد فليست لهم نفسية مستقلة ذات إرادة مستقلة تريد شيئاً غير ما أراد الله سبحانه فلا يستقلون بعمل ولا يغيرون أمراً حملهم الله إيّاه بتحريف أو زيادة أو نقصان قال تعالى : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » التحريم : ٦ .

و ثالثاً أن الملائكة على كثرتهم على مراتب مختلفة علواً و دنواً فبعضهم فوق بعض و بعضهم دون بعض فمنهم آمر مطاع و منهم مأمور مطيع لأمره ، و الآخر منهم آمر بأمر الله حامل له إلى المأمور و المأمور مأمور بأمر الله مطيع له ، فليس لهم من أنفسهم شيء البتة قال تعالى : « و ما منّا إلا له مقام معلوم » الصافات : ١٦٤ و قال : « مطاع ثم أمين » التكويد : ٢١ ، و قال : « قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق » سبأ : ٢٣ .

و رابعا أنهم غير مغلوبين لأنهم إنما يعملون بأمر الله وإرادته « وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض » فاطر : ٢٢ ، وقد قال الله : « والله غالب على أمره » يوسف : ٢١ ، وقال : « إن الله بالغ أمره » الطلاق : ٣ .

و من هنا يظهر أن الملائكة موجودات منزّهة في وجودهم عن المادة الجسمانيّة التي هي في معرض الزوال والفساد والتغيّر و من شأنها الاستكمال التدريجي الذي تتوجّه به إلى غايتها ، وربما صادفت الموانع والآفات فحرمت الغاية و بطلت دون البلوغ إليها .

و من هنا يظهر أن ما ورد في الروايات من صور الملائكة وأشكالهم و هيئاتهم الجسمانيّة كما تقدّم نبذة منها في البحث الروائي السابق إنما هو بيان تمثلاتهم و ظهوراتهم للواقفين من الأنبياء والأئمّة عليهم السلام ، وليس من التصوّر والتشكّل في شيء ففرق بين التمثّل والتشكّل فتمثّل الملك إنسانا هو ظهوره لمن يشاهده في صورة الإنسان فهو في ظرف المشاهدة والإدراك ذو صورة الإنسان وشكله وفي نفسه والخارج من ظرف الإدراك ملك ذو صورة ملكية وهذا بخلاف التشكّل والتصوّر فإنّه لو تشكّل بشكل الإنسان وتصوّر بصورته صار إنسانا في نفسه من غير فرق بين ظرف الإدراك والخارج عنه فهو إنسان في العين والذهن معا ، وقد تقدّم كلام في معنى التمثّل في تفسير سورة مريم .

ولقد صدّق الله سبحانه ما تقدّم من معنى التمثّل في قوله في قصّة المسيح ومريم : « فأرسلنا إليها روحنا فتمثّل لها بشرا سويا » مريم : ١٧ وقد تقدّم تفسيره .

و أمّا ما شاع في الألسن أن الملك جسم لطيف يتشكّل بأشكال مختلفة إلا الكلب والخنزير ، والجنّ جسم لطيف يتشكّل بأشكال مختلفة حتّى الكلب والخنزير فمما لا دليل عليه من عقل ولا نقل من كتاب أو سنة معتبرة ، و أمّا ما ادّعاه بعضهم من إجماع المسلمين على ذلك فمضافا إلى منعه لا دليل على حجّيته في أمثال هذه المسائل الاعتقاديّة .



مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرِ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣) وَإِنْ يَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَآلِيَ اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَقَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨).

﴿بيان﴾

لَمَّا أَشَارَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ وَهُمْ وَسَائِطُ فِي وَصُولِ النِّعَمِ إِلَى الْخَلِيقَةِ أَشَارَ إِلَى نَفْسِ النِّعَمِ إِشَارَةً كَلِمَةً فَذَكَرَ أَنَّ "عَامَّةَ النِّعَمِ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ لَا غَيْرَ فَهُوَ الرَّازِقُ لَا يَشَارِكُهُ فِيهِ أَحَدٌ، ثُمَّ "احتج" بِالرَّازِقِيَّةِ عَلَى الرُّبُوبِيَّةِ ثُمَّ "على المعاد وأن" وعده تعالى بالبعث وعذاب الكافرين ومغفرة المؤمنين الصالحين حق"، وفي الآيات تسليّة للنبي ﷺ.

قوله تعالى : « مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ » الخ الملعنى أن " ما يؤتيه الله الناس من النعمة و هو الرزق فلا مانع عنه

و ما يمنع فلا مؤتي له فكان مقتضى الظاهر أن يقال : ما يرسل الله للناس الخ كما عبّر في الجملة الثانية بالإرسال لكنّه عدل عن الإرسال إلى الفتح لما وقع مكرراً في كلامه أنّ لرحمته خزائن كقوله : « أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب » ص : ٩ و قوله : « قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربّي إذاً لأمسكنكم خشية الإِنفاق » أسرى : ١٠٠ والتعبير بالفتح أنسب من الإرسال في الخزائن ففيه إشارة إلى أنّ الرحمة التي يؤتاها الناس مخزونة في خزائن محيطّة بالناس لا يتوقّف نيلهم منها إلّا إلى فتحها من غير مؤنة زائدة .

وقد عبّر عن الرزق الذي هو النعمة بالرحمة للدلالة على أنّ إفاضته تعالى لهذه النعم ناشئة من مجرد الرحمة من غير توقّع لنفع يعود إليه أو كمال يستكمل به . و قوله : « وما يمسك فلا يرسل له من بعده » أي وما يمنع من الرحمة فلا يرسل له من دونه ، وفي التعبير بقوله : « من بعده » إشارة إلى أنّه تعالى أوّل في المنع كما أنّه أوّل في الإعطاء .

و قوله : « وهو العزيز الحكيم » تقرير للحكم المذكور في الآية الكريمة بالاسمين الكريمين فهو تعالى لكونه عزيزاً لا يغلب إذا أعطى فليس لمانع أن يمنع عنه وإذا منع فليس لمعط أن يعطيه ، وهو تعالى حكيم إذا أعطى أعطى عن حكمة ومصلحة وإذا منع منع عن حكمة ومصلحة و بالجملة لا معطي إلّا الله ولا مانع إلّا هو ، و منعه و إعطاؤه عن حكمة .

قوله تعالى : « يا أيّها الناس اذكروا نعمة الله عليكم هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض » الخ لما قرّر في الآية السابقة أنّ الإعطاء و المنع لله سبحانه لا يشاركه في ذلك أحد احتجّ في هذه الآية بذلك على توحيده في الربوبية .

و تقرير الحجّة أنّ الإله إنّما يكون إلهاً معبوداً لربوبيّته وهي ملكة تدبّر أمراً للناس وغيرهم ، والذي يملك تدبیر الأمر بهذه النعم التي يتقلب فيها الناس وغيرهم ويرتزقون بها هو الله سبحانه دون غيره من الآلهة التي اتخذوها لأنّه سبحانه هو الذي خلقها دونهم والخلق لا ينفك عن التدبیر ولا يفارقه فهو سبحانه إلهكم لا إله إلّا هو

لأنه ربكم الذي يدبر أمركم بهذه النعم التي تتقلبون فيها وإنما كان رباً مدبراً بهذه النعم لأنه خالقها و خالق النظام الذي يجري عليها .

وبذلك يظهر أن المراد بالناس المخاطبين الوثنيون وغيرهم ممن اتخذوا شركاء .
و قوله : « اذكروا نعمة الله عليكم » المراد بالذكر ها يقابل النسيان دون الذكر اللفظي .

و قوله : « هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض » الرزق هو ما يمد به البقاء و مبدؤه السماء بواسطة الأشعة والأمطار وغيرهما والأرض بواسطة النبات والحيوان وغيرهما .

و بذلك يظهر أيضاً أن في الآية إيجازاً لطيفاً فقد بدلت الرحمة في الآية السابقة نعمة في هذه الآية أو لا ثم النعمة رزقاً ثانياً و كان مقتضى سياق الآيتين أن يقال : هل من رازق أو هل من منعم أو هل من راحم لكن بدل ذلك من قوله : « هل من خالق » ليكون إشارة إلى برهان ثان ينقطع به الخصام ، فإنهم يرون تدبير العالم لا لهتهم باذن الله فلو قيل : هل من رازق أو منعم غير الله لم ينقطع الخصام وأمكن أن يقولوا نعم آلهتنا بتفويض التدبير من الله إليهم لكن لما قيل : « هل من خالق » أُشير بالوصف إلى أن الرازق والمدبر هو خالق الرزق لا غير فانه قطع الخصام ولم يمكنهم إلا أن يجيبوا بنفي خالق غير الله يرزقهم من السماء والأرض .

و قوله : « لا إله إلا هو » اعتراض بالتوحيد يفيد التعظيم نظير قوله : « وقالوا اتخذ الله ولداً سبحانه » .

أي لا معبود بالحق إلا هو لأن المستحق للعبادة هو الذي ينعم عليكم ويرزقكم وليس إلا الله .

و قوله : « فأنى تؤفكون » توبيخ متفرع على ماسبق من البرهان أي فإذا كان الأمر هكذا وأنتم تقررون بذلك فإلى متى تصرفون عن الحق إلى الباطل ومن التوحيد إلى الإشراك .

و في إعراب الآية أعني قوله : « هل من خالق غير الله » الخ بين القوم مشاجرات

طويلة والذي يناسب ما تقدّم من تقرير البرهان أن « من » زائدة للتعميم ، و قوله : « غير الله » صفة لخالق تابع لمحلّه ، وكذا قوله : « يرزقكم » النخو « من خالق » مبتدء محذوف الخبر و هو موجود ، و قوله : « لا إله إلا هو » اعتراض ، و قوله : « فأنّى تؤفكون » تفرّيع على ما تقدّمه .

قوله تعالى : « وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك و إلى الله ترجع الأمور » تسليّة للنبي ﷺ أي وإن يكذبوك بعد استماع هذه البراهين الساطعة فلا تحزن فليس ذلك ببدع فقد كذبت رسل من قبلك كذبتهم أممهم وأقوامهم و إلى الله ترجع عامّة الأمور فيجازيهم بما يستحقّونه بتكذيبهم الحقّ بعد ظهوره فليسوا بمعجزين بتكذيبهم .

و من هنا يظهر أن قوله : « فقد كذبت رسل من قبلك » من قبيل وضع السبب موضع المسبّب وأنّ قوله : « و إلى الله ترجع الأمور » معطوف على قوله : « قد كذبت » النخ .

قوله تعالى : « يا أيّها الناس إن وعد الله حقّ فلا تغرّبكم الحياة الدنيا ولا يغربنكم بالله الغرور » خطاب عامّ للناس يذكّرهم بالمعاد كما كان الخطاب العامّ السابق يذكّرهم بتوحّده تعالى في الربوبية والألوهية .

فقوله : « إن وعد الله حقّ » أي وعده أنّه يبعثكم فيجازي كلّ عامل بعمله إن خيرا وإن شرا حقّ أي ثابت واقع ، وقد صرّح بهذا الوعد في قوله الآتي : « الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا و عملوا الصالحات لهم مغفرة و أجر كبير » .

و قوله : « فلا تغرّبكم الحياة الدنيا » النهي وإن كان متوجّها إلى الحياة الدنيا صورة لكنّه في الحقيقة متوجّه إليهم والمعنى إذا كان وعد الله حقّا فلا تغرّبوا بالحياة الدنيا بالاشتغال بزینتها والتلهي بما ينسيكم يوم الحساب من ملاذّها وملاهيها والاستغراق في طلبها والإعراض عن الحقّ .

و قوله : « ولا يغربنكم بالله الغرور » الغرور بفتح الغين صيغة مبالغة من الغرور

بالضمّ وهو الذي يبالغ في الغرور ومن عادته ذلك ، والظاهر - كما قيل - أن المراد به الشيطان ويؤيّد التعليل الواقع في الآية التالية « إن الشيطان لكم عدو » الخ . ومعنى غروره بالله توجيهه أنظارهم إلى مظاهر حلمه و عفوه تعالى تارة ومظاهر ابتلائه واستدراجه وكيد آخرى فيرون أن الاشتغال بالدنيا ونسيان الآخرة والإعراض عن الحق والحقيقة لا يستعقب عقوبة ولا يستتبع مؤاخذة ، وأن أبناء الدنيا كلما أمعنوا في طلبهم وتوغّلوا في غفلتهم واستغرقوا في المعاصي والذنوب زادوا في عيشهم طيبا وفي حياتهم راحة وبين الناس جاهاً وعزة فيلقي الشيطان عند ذلك في قلوبهم أن لا كرامة إلا في التقدّم في الحياة الدنيا ، ولا خبر عمّا وراءها وليس ما تتضمنه الدعوة الحقّة من الوعد والوعيد وتخبر به النبوة من البعث والحساب والجنّة والنار إلا خرافة . فالمراد بغرور الشيطان الإنسان بالله اغترار الإنسان بما يعامل به الله الإنسان على غفلته وظلمه .

وربّما قيل : إن المراد بالغرور الدنيا الفارّة للإنسان وإن قوله : « ولا يغرّ نكم بالله الغرور » تأكيد لقوله : فلا تغرّ نكم الحياة الدنيا » بتكراره معنى .
قوله تعالى : « إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا » الخ تعليل للنهي المتقدّم في قوله : « ولا يغرّ نكم بالله الغرور » والمراد بعداوة الشيطان أنّه لا شأن له إلا إغواء الإنسان وتحريمه سعادة الحياة وحسن العاقبة ، والمراد باتخاذ الشيطان عدواً التجنّب من اتباع دعوته إلى الباطل وعدم طاعته فيما يشير إليه في وساوسه وتسويلاته .
 و لذلك علّل عداوته بقوله : « إنّما يدعو حزبه » .

فقوله : « إنّما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » في مقام تعليل ماتقدّمه والحزب هو العدة من الناس يجمعهم غرض واحد ، واللام في « ليكونوا » للتعليل فكونهم من أصحاب السعير علّة غائيّة لدعوته ، والسعير النار المسعّرة وهو من أسماء جهنّم في القرآن .

قوله تعالى : « الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير » هذا هو الوعد الحقّ الذي ذكره الله سبحانه ، و تنكير العذاب

للدلالة على التفضيم على أن لهم دركات و مراتب مختلفة من العذاب باختلاف كفرهم و فسوقهم فالإيهام أنسب و يجري نظير الوجهين في قوله : « مغفرة وأجر » .

قوله تعالى : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً فإن الله يضل من يشاء و يهدي من يشاء » تقرير و بيان للتقسيم الذي تتضمنه الآية السابقة أعني تقسيم الناس إلى كافر له عذاب شديد و مؤمن عامل بالصلوات له مغفرة و أجر كبير و المراد أنهما لا يستويان فلا تستوي عاقبة أمرهما .

فقوله : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً » مبتدأ خبره محذوف أي كمن ليس كذلك ، والفاء لتفريع الجملة على معنى الآية السابقة ، والاستفهام للإيثار ، والمراد بمن زين له سوء عمله فرآه حسناً الكافر و يشير به إلى أنه منكوس فهمه مغلوب على عقله يرى عمله على غير ما هو عليه والمعنى أنه لا يستوي من زين له عمله السيئ فرآه حسناً و الذي ليس كذلك بل يرى السيئ سيئاً .

و قوله : « فإن الله يضل من يشاء و يهدي من يشاء » تعليل للإيثار السابق في قوله : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً » أي الكافر الذي شأنه ذلك و المؤمن الذي بخلافه لا يستويان لأن الله يضل أحدهما بمشيئته وهو الكافر الذي يرى السيئة حسنة و يهدي الآخر بمشيئته وهو المؤمن الذي يعمل الصالحات ويرى السيئة سيئة . وهذا الإضلال إضلال على سبيل المجازاة وليس إضلالاً ابتدائياً فلاضير في انتسابه إلى الله سبحانه .

و بالجملة اختلاف الكافر و المؤمن في عاقبتهمما بحسب الوعد الإلهي بالعذاب و الرحمة لاختلافهما بالإضلال و الهداية الإلهيتين و اختلافهما بالإضلال و الهداية باختلافهما في رؤية السيئة حسنة و عدمها .

و قوله : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » الحسرات جمع حسرة و هي الغم لمافات و الندم عليه ، و هي منصوبة لأنها مفعول لأجله و المراد بذهاب النفس عليهم هلاكها فيهم لأجل الحسرات الناشئة من عدم إيمانهم .

و الجملة متفرقة على الفرق السابق أي إذا كانت الطائفتان مختلفتين بالإضلال

و الهداية من جانب الله فلا تهلك نفسك حسرات عليهم إذ كذبوك و كفروا بك فإن الله هو الذي يضلهم جزاء لكفرهم و رؤيتهم السيئة حسنة وهو عليم بما يصنعون فلا يختلط عليه الأمر ولا يفعل بهم إلا الحق و لا يجازيهم إلا بالحق .

و من هنا يظهر أن قوله : « إن الله عليم بما يصنعون » في موضع التعليل لقوله : « فلا تذهب نفسك عليهم حسرات » فلا ينبغي للرسول ﷺ أن يهلك نفسه عليهم حسرات حيث ضلوا و حقت عليهم كلمة العذاب فإن الله هو الذي يضلهم لصنعهم و هو عليم بما يصنعون .





وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتَمُثِّرُ سَحَابًا فَمُسْقِنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا
 بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩) مَنْ كَانَ يَرْيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ
 الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ
 يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُبَوِّرُ (١٠) وَاللَّهُ
 خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ
 وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي
 كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ
 سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلٍ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ
 حَلِيمَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاجِرَ تَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ
 تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَیُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَتَخْرُ
 الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ
 وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ
 لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ
 بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) .



﴿ بيان ﴾

احتجاجات على وحدانيته تعالى في ألوهيته بعد جملة من النعم السماوية والأرضية التي يتنعم بها الإنسان ولا خالق لها ولا مدبر لأمرها إلا الله سبحانه ، وفيها بعض الإشارة إلى البعث .

قوله تعالى : « والله الذي أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميث »
 الخ العناية في المقام بتحقيق وقوع الأمطار و إنبات النبات بها ، و لذلك قال : « الله الذي أرسل الرياح » وهذا بخلاف ما في سورة الروم من قوله : « الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا » الروم : ٤٨ .

و قوله : « فتثير سحابا » عطف على « أرسل » و الضمير للرياح و الإتيان بصيغة المضارع لحكاية الحال الماضية و الإثارة إفعال من ثار الغبار يثور ثوراناً إذا انتشر ساطعاً .

و قوله : « فسقناه إلى بلديت » أي إلى أرض لانبات فيها « فأحيينا به الأرض بعد موتها » و أنبتنا فيها نباتا بعد ما لم تكن ، و نسبة الإحياء إلى الأرض و إن كانت مجازية لكن نسبته إلى النبات حقيقة و أعمال النبات من التغذية و النمو و توليد المثل و ما يتعلق بذلك أعمال حيوية تنبعث من أصل الحياة .

و لذلك شبه البعث و إحياء الأموات بعد موتهم بإحياء الأرض بعد موتها أي إنبات النبات بعد توقفه عن العمل و ركوده في الشتاء فقال : « كذلك النشور » أي البعث فالنشور بسط الأموات يوم القيامة بعد إحيائهم و إخراجهم من القبور .

و في قوله : « فسقناه إلى بلديت » الخ النفات من الغيبة إلى التكلم مع الغير فهو تعالى في قوله : « والله أرسل » بنعت الغيبة و في قوله : « فسقناه » الخ بنعت التكلم مع الغير و لعل النكتة في ذلك هي أنه لما قال : « والله أرسل الرياح » أخذ لنفسه نعت الغيبة و يتبعه فيه الإرسال فإن فعل الغائب غائب ، ثم لما قال : « فتثير سحابا »

على نحو حكاية الحال الماضية صار المخاطب كأنه يرى الفعل و يشاهد الرياح وهي
تثير السحاب و تنشره في الجو فصار كأنه يرى من يرسل الرياح لأن مشاهدة الفعل
كادت أن لا تنفك عن مشاهدة الفاعل فلما ظهر تعالى بنعت الحضور غير سياق كلامه
من الغيبة إلى التكلم و اختار لفظ التكلم مع الغير للدلالة على العظمة .

و قوله : « فأحيينا به الأرض » و لم يقل : فأحيينا مع كفايته و كذا قوله :
« بعد موتها » مع جواز الاكتفاء بما تقدمه للأخذ بصريح القول الذي لا ارتياب دونه .
قوله تعالى : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعا » قال الراغب في المفردات :
العزة حالة مانعة للإنسان من أن يغلب من قولهم : أرض عزاز أي صلبة قال تعالى :
« أيبغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا » انتهى .

فالصلابة هو الأصل في معنى العزة ثم توسع فاستعمل العزيز فيمن يقهر و لا
يُقهَر كقوله تعالى : « يا أيُّها العزيز مستأنا » يوسف : ٨٨ . و كذا العزة بمعنى الغلبة
قال تعالى : « وعزني في الخطاب » ص : ٢٣ و العزة بمعنى القلة و صعوبة المنال قال
تعالى : « وإنه لكتاب عزيز » حم السجدة : ٤١ و العزة بمعنى مطلق الصعوبة قال
تعالى : « عزيز عليه ما عنتم » التوبة : ١١٨ و العزة بمعنى الأثرة و الحمية قال
تعالى : « بل الذين كفروا في عزة و شقاق » ص : ٣ إلى غير ذلك .

ثم إن العزة بمعنى كون الشيء قاهرا غير مقهور أو غالبا غير مغلوب تختص
بحقيقة معناها بالله عز وجل إذ غيره تعالى فقير في ذاته ذليل في نفسه لا يملك لنفسه شيئا
إلا أن يرحمه الله و يؤتيه شيئا من العزة كما فعل ذلك بالمؤمنين به قال تعالى : « والله
العزة و لرسوله وللمؤمنين » المنافقون : ٨ .

و بذلك يظهر أن قوله : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعا » ليس بمسوق
لبیان اختصاص العزة بالله بحيث لا ينالها غيره و أن من أرادها فقد طلب محالا و أراد
ما لا يكون بل المعنى من كان يريد العزة فليطلبها منه تعالى لأن العزة له جميعا لا توجد
عند غيره بالذات .

فوضع قوله : « فلله العزة جميعا » في جزاء الشرط من قبيل وضع السبب موضع

المُسَبَّب وهو طلبها من عنده أي اكتسابها منه بالعبودية التي لا تحصل إلا بالإيمان والعمل الصالح .

قوله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » الكلم - كما قيل - اسم جنس جمعي يذكّر ويؤنث ، وقال في المجمع : والكلم جمع كلمة يقال : هذا كلم وهذه كلم فيذكّر ويؤنث ، وكل جمع ليس بينه وبين واحد إلا الهاء يجوز فيه التذكير والتأنيث انتهى .

و المراد بالكلم على أي حال ما يفيد معنى تاماً كلامياً ويشهد به توصيفه بالطيب فطيب الكلم هو ملاءمته لنفس سامعه ومتكلمه بحيث تنبسط منه وتستلذه وتستكمل به وذلك إنما يكون بإفادته معنى حقاً فيه سعادة النفس وفلاحها .

وبذلك يظهر أن المراد به ليس مجرد اللفظ بل بما أن له معنى طيباً فالمراد به الاعتقادات الحقّة التي يسعد الإنسان بالإذعان لها وبناء عمله عليها والمتيقن منها كلمة التوحيد التي يرجع إليها سائر الاعتقادات الحقّة وهي المشمولة لقوله تعالى : « ألم تركيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربّها » إبراهيم : ٢٤ و تسمية الاعتقاد قولاً وكلمة أمر شائع بينهم .

و صعود الكلم الطيب إليه تعالى هو تقرُّب به منه تعالى اعتلاء وهو العلى الأعلى رفيع الدرجات ، وإن كان اعتقاداً قائماً بمعتقدته فتقرُّب به منه تعالى تقرُّب المعتقد به منه ، وقد فسروا صعود الكلم الطيب بقبوله تعالى له وهو من لوازم المعنى .

ثم إن الاعتقاد والإيمان إذا كان حق الاعتقاد صادقاً في نفسه صدقه العمل ولم يكن به أي يصدر عنه العمل على طبقه فالعمل من فروع العلم وآثاره التي لا تنفك عنه ، وكلما تكرر العمل زاد الاعتقاد رسوخاً وجلالاً وقوي في تأثيره فالعمل الصالح وهو العمل الحريّ بالقبول الذي طبع عليه بذل العبوديّة والإخلاص لوجهه الكريم يعين الاعتقاد الحق في ترتب أثره عليه وهو الصعود إليه تعالى وهو المعزّي إليه بالرفع فالعمل الصالح يرفع الكلم الطيب .

فقد تبين بما مرّ معنى قوله: «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه»
و أن ضمير «إليه» لله سبحانه و المراد بالكلم الطيب الاعتقاد الحق كالتوحيد ، و
بصعوده تقرّ به منه تعالى ، و بالعمل الصالح ما كان على طبق الاعتقاد الحق و يلائم
و أن الفاعل في «يرفعه» ضمير مستكنّ راجع إلى العمل الصالح و ضمير المفعول راجع
إلى الكلم الطيب .

و لهم في الآية أقوال أخر :

فقد قيل : إن المراد بصعود الكلم الطيب قبوله و الإثابة عليه كما تقدّمت
الإشارة إليه ، و قيل: المراد صعود الملائكة بما كتب من الإيمان و الطاعات إلى الله
سبحانه ، و قيل : المراد صعودهم به إلى السماء فسمي الصعود إلى السماء صعوداً إلى
الله مجازاً .

و قيل : إن فاعل «يرفعه» ضمير عائد إلى الكلم الطيب و ضمير المفعول للعمل
الصالح و المعنى أن الكلم الطيب يرفع العمل الصالح أي أن العمل الصالح لا ينفع
إلا إذا صدر عن التوحيد ، و قيل : فاعل «يرفعه» ضمير مستكنّ راجع إليه تعالى و
المعنى العمل الصالح يرفعه الله .

و جملة هذه الوجوه لا تخلو من بعد و الأسبق إلى الذهن ما قدّمناه من المعنى .

قوله تعالى : « و الذين يمكرون السيّات لهم عذاب شديد و مكر أولئك هو

يبور » ذكروا أن « السيّات » وصف قائم مقام موصوف محذوف و هو المكرات، و وضع
اسم الإشارة موضع الضمير في « مكر أولئك » للدلالة على أنهم متعيّنون لامتثلون
بغيرهم و المعنى و الذين يمكرون المكرات السيّات لهم عذاب شديد و مكر أولئك
الماكرين هو يبور و بهلك فلا يستعقب أثراً حياً فيه سعادتهم و عزّتهم .

و قد بان أن المراد بالسيّات أنواع المكرات و الحيل التي يتخذها المشركون
وسائل لكسب العزّة ، و الآية مطلقة، و قيل: المراد المكرات التي اتّخذتها قريش على
رسول الله ﷺ في دار الندوة و غيرها من إثبات أو إخراج أو قتل فردّ الله كيدهم إليهم
و أخرجهم إلى بدر وقتلهم و أثبتهم في القلب فجمع عليهم الإثبات و الإخراج و القتل

و هذا وجه حسن لكن الآية مطلقة .

و وجد اتصال ذيل الآية بصدرها أعني اتصال قوله : « إليه يصعد » إلى آخر الآية بقوله : « من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً » أن المشركين كانوا يعتزّون بآلهتهم كما قال تعالى : « واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزّاً » مريم : ٨١ فدعاهم الله سبحانه و هم يطلبون العزّ إلى نفسه بتذكيرهم أن العزة لله جميعاً و بين تعالى ذلك بأن توحيده يصعد إليه و العمل الصالح يرفعه فيكتسب الإنسان بالتقرب منه عزّة من منبع العزة وأما الذين يمكرون كل مكر سيئ لاكتساب العزة فلهم عذاب شديد و ما مكروه من المكر بائر هالك لا يصعد إلى محلّ و لا يكسب لهم عزّاً .

قوله تعالى : « و الله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً » الخ يشير تعالى إلى خلق الإنسان فابتدأ خلقه من تراب و هو المبدء البعيد الذي تنتهي إليه الخلقة ثم من نطفة و هي مبدء قريب تتعلّق به الخلقة .

و قيل المراد بخلقهم من تراب خلق أبيهم آدم من تراب فإن الشيء يضاف إلى أصله و قيل : بل المراد خلق آدم نفسه و قيل : بل المراد خلقهم خلقاً إجمالياً من تراب في ضمن خلق آدم من تراب و الخلق التفصيلي هو من نطفة كما قال : ثم من نطفة . و الفرق بين الوجوه الثلاثة أن في الأول نسبة الخلق من تراب إليهم على طريق المجاز العقلي ، وفي الثاني المراد بخلقهم خلق آدم ولا مجاز في النسبة ، و في الثالث المراد خلق كل واحد من الأفراد من التراب حقيقة من غير مجاز إلا أنه خلق إجمالي لا تفصيلي و بهذا يفارق ما قد مناه من الوجه .

و يمكن تأييد القول الأول بقوله تعالى : « خلق الإنسان من صلصال كالفخار » الرحمن : ١٤ ، والثاني بنحو قوله : « وبدء خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين » السجدة : ٨ ، و الثالث بقوله : « و لقد خلقناكم ثم صوّرناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » الأعراف : ١١ و لكل وجه .

وقوله : « ثم جعلكم أزواجاً » أي ذكورا وإناثا ، وقيل : أي قدّر بينكم الزوجية و زوج بعضكم من بعض ، وهو كما ترى ، و قيل : أي أصنافا وشعوبا . وهو كسابقه .

وقوله : « وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه » من زائدة لتأكيد النفي ، و الباء في « بعلمه » للمصاحبة و هو حال من الحمل و الوضع و المعنى ما تحمل و لا تضع أنثى إلا و علمه يصاحب حمله و وضعه ، و ذكر بعضهم أنه حال من الفاعل و أن كونه حالا من الحمل و الوضع و كذا من مفعوليهما أي المحمول و الموضوع خلاف الظاهر و هو ممنوع .

وقوله : « وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب » أي و ما يمد و يزداد في عمر أحد فيكون معمرًا و لا ينقص من عمره أي عمر أحد إلا في كتاب .
فقوله : « وما يعمر من معمر » من قبيل قوله : « إنني أراني أعصر خمرا » يوسف : ٢٦ فوضع معمر موضع نائب الفاعل وهو أحد بعناية أنه بعد تعلق التعمير به يصير معمرًا و إلا فتعمير المعمر لا معنى له .

وقوله : « ولا ينقص من عمره » الضمير في « عمره » راجع إلى « معمر » باعتبار موصوفه المحذوف و هو أحد و المعنى ولا ينقص من عمر أحد و إلا فنقص عمر المفروض معمرًا تناقض خارق للفرض .

وقوله : « إلا في كتاب » و هو اللوح المحفوظ الذي لا سبيل للتغيير إليه فقد كتب فيه أن فلانا يزداد في عمره كذا لسبب كذا و فلانا ينقص من عمره كذا لسبب كذا و أما كتاب المحو و الإثبات فهو مورد التغيير و سياق الآية يفيد وصف العلم الثابت و لهم في قوله : « وما يعمر من معمر و لا ينقص من عمره » وجوه أخر ضعيفة لا جدوى في التعرض لها .

وقوله : « إن ذلك على الله يسير » تعليل و تقرير لما في الآية من وصف خلق الإنسان و كيفية إحداثه و إبقائه و المعنى أن هذا التدبير الدقيق المتين المهيم على كليات الحوادث و جزئياتها المقر ركل شيء في مقره على الله يسير لأنه الله العليم القدير المحيط بكل شيء بعلمه وقدرته فهو تعالى رب الإنسان كما أنه رب كل شيء .

قوله تعالى : « و ما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه و هذا ملح أجاج » إلى آخر الآية قيل : العذب من الماء طيبه ، و الفرات الماء الذي يكسر

العطش أو البارد كما في المجمع ، والسائغ هو الذي يسهل انحداره في الحلق لعذوبته والأجاج الذي يحرق لملوحته أو المر .

و قواه : « ومن كل » تأكلون لحما طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها » اللحم الطري الغض الجديد ، والمراد لحم السمك أو السمك و الطير البحري ، و الحلية المستخرجة من البحر اللؤلؤ والمرجان والأصداف قال تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » الرحمن : ٢٢ .

و في الآية تمثيل للمؤمن والكافر بالبحر العذب والمالح يتبين به عدم تساوي المؤمن والكافر في الكمال الفطري وإن تشاركا في غالب الخواص الإنسانية وآثارها فالؤمن باق على فطرته الأصلية ينال بها سعادة الحياة الدائمة والكافر منحرف فيها متلبس بما لا تستطيه الفطرة الإنسانية وسيعذب بأعماله فمثلهما مثل البحرين المختلفين عذوبة و ملوحة فهما مختلفان من حيث البقاء على فطرة الماء الأصلية وهي العذوبة والخروج عنها بالملوحة وإن اشتركا في بعض الآثار التي ينتفع بها ، فمن كل منهما تأكلون لحما طرياً وهو لحم السمك و الطير المصطاد من البحر و تستخرجون حلية تلبسونها كاللؤلؤ والمرجان والأصداف .

فظاهر الآية أن الحلية المستخرجة مشتركة بين البحر العذب و البحر المالح لكن جمعا من المفسرين استشكلوا ذلك بأن اللؤلؤ والمرجان إنما يستخرجان من البحر المالح دون العذب ، و قد أجابوا عنه بأجوبة مختلفة .

منها أن الآية مسوقة لبيان اشتراك البحرين في مطلق الفائدة وإن اختلفت ببعضها كأنه قيل : و من كل تنتفعون و تستفيدون كما تأكلون منهما لحما طرياً و تستخرجون من البحر المالح حلية تلبسونها و ترى الفلك فيه مواخر .

و منها أنه شبه المؤمن والكافر بالعذب و الاجاج ثم فضل الاجاج على الكافر بأن في الاجاج بعض النفع والكافر لا نفع في وجوده فالآية على طريقة قوله تعالى : « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة » ثم قال : « و إن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار و إن منها لما يشقق فيخرج منه الماء و إن

منها لما يهبط من خشية الله « البقرة : ٧٤ .

ومنها أن قوله : « و تستخرجون حلية تلبسونها » من تتمّة التمثيل على معنى أن البحرين وإن اشتركا في بعض المنافع تفاوتتا فيما هو المقصود بالذات لأن أحدهما خالطه ما خرج به عن صفاء فطرته و المؤمن و الكافر وإن اتفقا أحيانا في بعض المكارم كالشجاعة و السخاوة متفاوتان فيما هو الأصل لبقاء أحدهما على صفاء الفطرة الأصلية دون الآخر .

و منها أنه لا مانع من أن يخرج اللؤلؤ من المياه العذبة وإن لم نره فلا شكل باختصاص الحلية بالماء المالح ممنوع .

و منها منع أصل الدعوى و هو كون الآية « و ما يستوي البحرين » الخ تمثيلا للمؤمن و الكافر بل هي واقعة في سياق تعداد النعم لا إثبات الربوبية كقولنا قبلا : « و الله الذي أرسل الرياح » و قوله بعدا : « يولج الليل في النهار » الخ فالآية مسوقة لبيان نعمة البحر واختلافه بالعذوبة و الملوحة و ما فيهما من المنافع المشتركة و المختصة . و يؤيد هذا الوجه أن نظير الآية في سورة النحل واقعة في سياق الآيات العادية لنعم الله سبحانه و هو قوله : « وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحما طريّا و تستخرجوا منه حلية تلبسونها و ترى الفلك مواخر فيه و لتبتغوا من فضله و لعلكم تشكرون » النحل : ١٤ .

و الحق أن أصل الاستشكال في غير محلّه و أن البحرين يشتركان في وجود الحلية فيهما كما هو مذكور في الكتب الباحثة عن هذه الشؤون مشروح فيها (١) .

قوله تعالى : « و ترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله و لعلكم تشكرون » ضمير « فيه » للبحر ، و مواخر جمع ماخرة من المخر بمعنى الشقّ عدت السفينة ماخرة لشقّها الماء بجؤجئتها .

(١) وقد ذكر وجود الحلية في الماء العذب في مادة صدف من دائرة المعارف للبسناني

و ذكر أيضا في أمريكانا Encyclopædia و بريطانيا Encyclopædia وجودها

فيه و سميت عدة من الانهار العذبة في امريكا و اوربا و آسيا يستخرج منها اللؤلؤ .

قيل : إنما أُفرد ضمير الخطاب في قوله : « ترى » بخلاف الخطابات المتقدمة والمتأخرة لأنّ الخطاب لكلّ أحد يتأتى منه الرؤية دون المنتفعين بالبحرين فقط .
و قوله : « لتبتغوا من فضله و لعلكم تشكرون » أي مخر الفلك البحر بتسخيره لتطلبوا من عطائه وهو الرزق ورجاء أن تشكروا الله سبحانه ، وقد تقدّم أن الترجي الذي تفيده « لعل » في كلامه تعالى قائم بالمقام دون المتكلم .

وقد قيل في هذه الآية : « و ترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله » و في سورة النحل : « و ترى الفلك مواخر فيه و لتبتغوا من فضله » فاختلفت الآيتان في تقديم « فيه » على « مواخر » و تأخيريه منه و عطف « لتبتغوا » و عدمه .

و لعلّ النكتة في ذلك أن آية النحل مصدرية بكلمة التسخير فهي مسوقة لبيان كيفية التسخير و الأنسب لذلك تأخير « فيه » ليتعلّق بمواخر و يشير إلى مخر البحر فيصريح بالتسخير بخلاف ماهينا ثمّ التسخير له غايات كثيرة منها ابتغاء الفضل و الأنسب لذلك عطف « لتبتغوا » على محذوف ليدلّ على عدم انحصار الغاية في ابتغاء الفضل بخلاف ماهينا فإنّ الغرض بيان أنّه الرازق المدبّر ليرتدع المكذّبون - و قد تقدّم ذكر تكذيبهم - عن تكذيبهم و يكفي في ذلك بيان ابتغائهم الفضل غاية من غير حاجة إلى العطف . والله أعلم .

و قال في روح المعاني في المقام : و الذي يظهر لي في ذلك أن آية النحل سقت لتعداد النعم كما يؤذن بذلك سوابقها و لواحقها و تعقيب الآيات بقوله سبحانه : « وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها » فكان الأهمّ هناك تقديم ماهو نعمة وهو مخر الفلك للماء بخلاف ماهنا فإنّه إنّما سيق استطرادا أو تيمّة للتشبيك كما علمت آنفا فقدّم فيه « فيه » إيدنا بأنّه ليس المقصود بالذات ذلك ، و كان الاهتمام بما هناك اقتضى أن يقال في تلك الآية : « ولتبتغوا » بالواو و مخالفة ماهنا لذلك اقتضت ترك الواو في قوله : « لتبتغوا » انتهى .

قوله تعالى : « يُولِجُ الليل في النهار و يُولِجُ النهار في الليل و سَخَّرَ الشمس و القمر كلّ يجري لأجل مسمى » النح إيلاج الليل في النهار قصر النهار بطول الليل

وإيلاج النهار في الليل قصر الليل بطول النهار ، و المراد بالجملتين الإشارة إلى اختلاف الليل و النهار في الطول و القصر المستمر في أيام السنة بتغير الأيام و لذا عبّر بقوله : « يولج » الدال على استمرار التغير بخلاف جريان الشمس و القمر فإنه ثابت على حاله و لذا عبّر فيه بقوله : « وسخر الشمس و القمر كل يجري لأجل مسمى » و العناية صوريّة مسامحيّة .

و قوله : « ذلکم الله ربکم » بمنزلة النتيجة لما تقدّم أي إذا كان أمر خلقكم و تديرکم برّاً و بحراً و أرضاً و سماء منتسباً إليه مدبراً بتديره فذلکم الله ربکم الذي يملککم و يدبر أمرکم .

و قوله : « له الملك » مستنتج مما قبله و توطئة و تمهيد لما بعده من قوله : « والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطير » .

و قوله : « و الذين تدعون من دونه ما يملكون من قطير » القطير على ما قاله الراغب الأثر على رأس النواة و ذلك مثل الشيء الطفيف ، و في المجمع : القطير لفافة النواة .

و قيل : الحبّة في بطن النواة انتهى و الكلام على أيّ حال مبالغة في نفى أصل الملك .

و المراد بالذين تدعون من دون الله آلهتهم الذين كانوا يدعونها من الأصنام و أربابها .

قوله تعالى : « إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم و لو سمعوا ما استجابوا لکم » الخ بيان و تقرير لما تقدّم من قوله : « والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطير » أي تصديق كونهم لا يملكون شيئاً أنکم إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم لأنّ الأصنام جمادات لا شعور لها ولا حسّ و أرباب الأصنام كالملائكة و القدّيسين من البشر في شغل شاغل من ذلك على أنّهم لا يملكون سمعاً من عند أنفسهم فلا يسمعون إلّا بأسماعه .

و قوله : « و او سمعوا ما استجابوا لکم » إذ لا قدرة لهم على الاستجابة قولاً و لا فعلاً أمّا الأصنام فظاهر و أمّا أرباب الأصنام فقدرتهم من الله سبحانه و لن يأذن الله لأحد

أن يستجيب أحداً يدعوهُ بالربوبية قال تعالى : « لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته و يستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً » النساء : ١٧٢ .

وقوله : « ويوم القيامة يكفرون بشرككم » أي يردون عبادتكم إليكم ويتبرون منكم بدلا من أن يكونوا شفعاء لكم « إذ تبرء الذين اتبعوا من الذين اتبعوا » البقرة : ١٦٦ .

فالآية في نفي الاستجابة وكفر الشركاء يوم القيامة في معنى قوله : « ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون حتى إذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » الأحقاف : ٦ .
وقوله : « ولا ينبئك مثل خبير » أي لا يخبرك عن حقيقة الأمر مخبر مثل مخبر خبير وهو خطاب خاص بالنبي ﷺ بعد الإعراض عن خطابهم لعدم تفقههم بالبيان الحق أو خطاب عام في صورة الخطاب الخاص خوطب به السامع أي من كان كقوله : « و ترى الفلك فيه مواخر » الآية السابقة ، وقوله : « و ترى الشمس إذا طلعت الآية الكهف : ١٧ ، وقوله : « وتحسبهم أيقاظا وهم رقود » الكهف : ١٨ .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى : « كذلك النشور » حدثني أبي عن ابن أبي عمير عن جميل بن درّاج عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إذا أراد الله أن يبعث الخلق أمطر السماء على الأرض أربعين صباحا فاجتمعت الأوصال ونبتت اللحوم .

أقول : وفي هذا المعنى عدة روايات أخر .

وفي الدر المنثور أخرج الطيالسي وأحمد وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي في الأسماء والصفات عن أبي رزين العقيلي قال : قلت : يا رسول الله كيف يحيي الله الموتى ؟ قال : أما مررت بأرض مجدبة ثم مررت

بها مخصصة تهتز خضراء؟ قال : بلى . قال : كذلك يحيي الله الموتى و كذلك النشور .
و في تفسير القمّي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله
صلى الله عليه وآله : إن لكل قول مصداقا من عمل يصدق به أو يكذب به فإذا قال ابن آدم
و صدق قوله بعمله رفع قوله بعمله إلى الله ، و إذا قال وخالف عمله قوله ردّ قوله على
عمله الخبيث وهوى به في النار .

و في التوحيد بإسناده عن زيد بن علي عن أبيه عليه السلام في حديث قال : وإن لله
تبارك وتعالى بقاعا في سماواته فمن عرج به إلى بقعة منها فقد عرج به إليه . ألا تسمع الله
عز وجل يقول : « تعرج الملائكة والروح إليه » و يقول في قصة عيسى بن مريم عليها السلام
« بل رفعه الله » و يقول عز وجل : « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » .
اقول : و عن الفقيه مثله .

و في نهج البلاغة : ولولا إقرارهن^(١) له بالربوبية و إذعانهن له بالطواعية^(٢)
لما جعلن موضعا لعرشه و لا مسكنا لملائكته و لا مصعداً للكلم الطيب و العمل الصالح
من خلقه .

و في تفسير القمّي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى :
« و ما يستوي البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه و هذا ملح أجاج » الأجاج المر .
و فيه في قوله : « و الذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير » قال : الجلدة
الرقيقة التي على ظهر النوى .





يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥)
 إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ (١٧)
 وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ
 شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا
 الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (١٨) وَمَا
 يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ (٢٠) وَلَا الظِّلُّ
 وَلَا الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ
 يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ (٢٣) إِذَا
 أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤)
 وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
 وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ
 نَكِيرِ (٢٦) .

﴿بيان﴾

لَمَّا بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّ الْخَلْقَ وَالتَّدْيِيرَ إِلَيْهِ تَعَالَىٰ فَهُوَ رَبُّهُمْ لَهُ الْمُلْكُ دُونَ الَّذِينَ
 يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ فَيُمْلِكُونَ شَيْئًا حَتَّىٰ يَقُومُوا بِتَدْيِيرِهِ ، أَخَذَ يَبَيِّنُ ذَلِكَ بَيَانٍ آخَرَ

مشوب بالوعيد والتهديد وهو أنه تعالى غني عنهم وهم فقراء إليه فله أن يذهبهم ويأت بخلق جديد إن شاء جزاء بما كسبوا .

ثم وجه الخطاب إلى النبي ﷺ بما حاصله أن هذه المؤاخذه والإهلاك لا يشمل إلا هؤلاء المكذبين دون المؤمنين الذين يؤثر فيهم إنذار النبي ﷺ فيبينها فرق ظاهر وهو ﷺ نذير كالنذر الماضين وحاله كحال من قبله من المنذرين وإن يكذبوه فقد كذبوا الأنبياء الماضين مكذبوا أممهم فأخذهم الله أخذاً شديداً وسيأخذ المكذبين من هذه الأمة .

قوله تعالى : « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد » لريب أن في الآية نوع تمهيد بالنسبة إلى الآيتين التاليتين يتبين بها مضمونهما وهي مع ذلك مستقلة في مفادها .

بيان ذلك أن السياق يشعر بأن أعمال هؤلاء المكذبين كانت تكشف عن أنهم كانوا يتوهمون أنهم أن يستغنوا عن الله سبحانه بعبادة آلهتهم وأن الله إليهم حاجة و لذلك يدعواهم إلى نفسه بالدعوة الإلهيّة التي يقوم بها رسله فهناك غنى و فقر و لهم نصيب من الغنى والله نصيب من الفقر تعالى عن ذلك .

فرد الله سبحانه زعمهم ذلك بقوله : « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني » فقصر الفقر فيهم وقصر الغنى فيه سبحانه فكل الفقر فيهم وكل الغنى فيه سبحانه ، وإذ كان الغنى والفقر وهما الوجدان والفقدان متقابلين لا يرتفعان عن موضوعهما كان لازم القصر السابق قصر آخر وهو قصرهم في الفقر وقصره تعالى في الغنى فليس لهم إلا الفقر وليس له تعالى إلا الغنى .

فإنه سبحانه غني بالذات له أن يذهبهم ويستغنى عنهم وهم فقراء بالذات ليس لهم أن يستغنوا عنه بغيره .

و الملاك في غناه تعالى عنهم وفقرهم أنه تعالى خالقهم ومدبر أمرهم وإليه الإشارة بأخذ لفظ الجلالة في بيان فقرهم وبيان غناه ، والإشارة إلى الخلق والتدبير في قوله : « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد » وكذا توصيفه تعالى بالحميد وهو

المحمود في فعله الذي هو خلقه و تديره .

فيعود معنى الكلام إلى نحو من قولنا : يا أيُّها الناس أنتم بما أنتم مخلوقون مدبرون لله الفقراء إلى الله فيكم كل الفقر والحاجة والله بما أنه الخالق المدبر ، الغني لا غني سواه .

و على هذا لا ضير في قصر الفقر في الناس سواء أريد به المكذَّبون خاصة أو عامة الناس مع كون غيرهم من المخلوقات فقراء إلى الله كمثليهم وذلك أن عموم علّة الحكم يعمم الحكم فكأنه قيل : أنتم معاشر الخليقة الفقراء إلى خالقكم المدبر لأمركم و هو الغني الحميد .

و قد أُجيب عن إشكال قصر الفقر في الناس مع عمومهم لغيرهم بوجود من الجواب : منها أن في قصر الفقر في الناس مبالغة في فقرهم كأنهم لكثرة افتقارهم و شدة احتياجهم هم الفقراء فحسب و أن افتقار سائر الخلائق بالنسبة إلى فقرهم بمنزلة العدم و لذلك قال تعالى : « خلق الإنسان ضعيفا » و لا يرد الجن لأنهم لا يحتاجون في المطعم و الملبس و غيرهما كما يحتاج الإنسان .

و منها أن المراد الناس و غيرهم و هو على طريقة تغليب الحاضر على الغائب و أولي العلم على غيرهم .

و منها أن الوجه حمل اللام في الناس على العهد و في الفقراء على الجنس لأن المخاطبين في الآية هم الذين خوطبوا في قوله : « ذلكم الله ربكم له الملك » الآية أي ذلكم المعبود هو الذي وصف بصفات الجلال لا الذين تدعون من دونه و أنتم أشد الخلائق احتياجا إليه .

و منها أن القصر إضافي بالنسبة إليه تعالى لا حقيقي .

و غير خفي عليك أن مفاد الآية و سياقها لا يلائم شيئا من هذه الأجوبة نعم يمكن توجيه الجواب الأخير بما يرجع إلى ما قدّمناه من الوجه .

و تذييل الآية بصفة الحميد للإشارة إلى أنه غني محمود الأفعال إن أعطى و إن منع لأنه إذا أعطى لم يعطه لبدل لغناه عن الجزاء و الشكر و كل بدل مفروض

و إن منع لم يتوجه إليه لائمة إن لا حق لأحد عليه ولا يملك منه شيء .

قوله تعالى : « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز » أي إن يرد إذهابكم يذهبكم أيها الناس لأنه غني عنكم لا يستضر بذهابكم ويأت بخلق جديد يحمدونه و يشنون عليه لا حاجة منه إليهم بل لأنه حميد ومقتضاه أن يوجد فيحمدو ليس ذلك على الله بصعب لقدرته المطلقة لأنه الله عز اسمه .

فقد بان أن مضمون الآية متفرعة على مضمون الآية السابقة فقوله : « إن يشأ يذهبكم » متفرع على كونه تعالى غنياً ، وقوله : « ويأت بخلق جديد » متفرع على كونه تعالى حميداً ، وقد فرّع مضمون الجملتين في موضع آخر على غناه و رحمته قال تعالى : « وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم و يستخلف من بعدكم ما يشاء » الأنعام : ١٣٣ .

قوله تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » الخ قال الراغب : الوزر - بفتحين - الملجأ الذي يلتجأ إليه من الجبل قال تعالى : « كلاً لا وزر » و الوزر - بالكسر - فالسكون - الثقل تشبيهاً بوزر الجبل ويعبر به عن الائثم كما يعبر عنه بالثقل قال تعالى : « ليحملوا أوزارهم كاملة » الآية كقوله : « ليحملوا أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم » . انتهى فالمعنى لا تحمل نفس حاملة للائثم إثم نفس أخرى ولازم ذلك أن لا تؤاخذ نفس إلا بما حملت من إثم نفسها واكتسبته من الوزر .

والآية كأنها دفع دخل يشعره آخرها كأنه لما قال : إن يشأ يذهبكم و يأت بآخرين ، فهددهم بالهلاك و الإفناء قيل : هؤلاء المكذبون أخذوا بوزرهم فما حال المؤمنين ؟ أيؤاخذون بوزر غيرهم ؟

فأجيب أن لا تزر وازرة وزر أخرى ولا تحمل نفس حمل غيرها الذي أثقلها و إن كانت ذات قربي .

فهؤلاء المكذبون هم المعنيون بالتهديد ولا تنفع فيهم دعوتك و إنذارك لأنهم مطبوع على قلوبهم ، وإنما ينفع إنذارك الذين يخشون ربهم بالغيب و يقيمون الصلاة و الفريقان لا يستويان لأن مثلهن مثل الأعمى و البصير ، و الظلمات و النور ، و الظل

و الحرور ، و الأحياء و الأموات .

فقوله : « و لا تزر وازرة وزر أخرى » أي لا تحمل نفس حاملة للوزر و الإثم إثم إثم نفس أخرى حاملة .

و قوله : « و إن تدع مثقلة أثقلها حملها من الإثم غيرها إلى ما حملته من الإثم ليحمله عنها لا يستجاب لها و لا يحمل من حملها شيء ولو كان المدعو ذا قربي للداعي كالأب و الأم و الأخ و الأخت .

و قوله : « إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب و أقاموا الصلاة » أي هؤلاء المكذبون لا ينتفعون بالإذار و لا تتحقق معهم حقيقة الإذار لأنهم مطبوع على قلوبهم إنما تنذر و ينفع إذارك الذين يخشون ربهم بالغيب و يقيمون الصلاة التي هي أفضل العبادات و أهمها و بالجملة يؤمنون بالله و يعبدونه أي الذين يخشون ربهم بالغيب و يقيمون الصلاة إثر إذارك لأنهم يخشون ربهم و يصلون ثم يندرون بعد ذلك حتى يلزم تحصيل الحاصل فالآية كقوله : « إنني أراني أعصر خمرا » يوسف : ٣٦ .

و قوله : « و من تزكى فأنا يتركى لنفسه » بدل الخشية و إقامة الصلاة من التزكى للإشارة إلى أن المطلوب بالدعوة والإذار هو التزكى و تركية النفس تلبسها بالخشية من الله على الغيب و إقامة الصلاة .

و فيه تقرير و تأكيد لما تقدم من كونه تعالى غنياً حميداً فهو تعالى لا ينتفع بما يدعو إليه من التزكى بل الذي تزكى فأنا يتركى لنفسه .
و قد ختم الآية بقوله : « و إلى الله المصير » للدلالة على أن تركية من تزكى لا يذهب سدى ، فإن كلاً من الفريقين صائرون إلى ربهم لا محالة و هو يحاسبهم و يجازيهم فيجازي هؤلاء المتركين أحسن الجزاء .

قوله تعالى : « و ما يستوي الأعمى و البصير » الظاهر أنه عطف على قوله : « و إلى الله المصير » تعليل في صورة التمثيل لعدم مساواة هؤلاء المتركين لأولئك المكذبين ، و قيل : عطف على قوله السابق : « و ما يستوي البهران » .

قوله تعالى : « ولا الظلمات ولا النور » تكرار حروف النفي مرة بعد مرة في الآية وما يليها لتأكيد النفي .

قوله تعالى : « ولا الظل ولا الحرور » الحرور شدة حر الشمس على ما قيل وقيل : هو السموم وقيل : السموم يهب نهارا والحرور يهب ليلا ونهارا .

قوله تعالى : « وما يستوي الأحياء ولا الأموات » إلى آخر الآية عطف على قوله : « وما يستوي الأعمى والبصير » وإنما كرر قوله : « ما يستوي » ولم يعطف « الأحياء ولا الأموات » على قوله : « الأعمى والبصير » كرابته لطول الفصل فأعيد « ما يستوي » لئلا يغيب المعنى عن ذهن السامع فهو كقوله : « كيف يكون للمشركين عهد عند الله ورسوله - إلى أن قال - كيف وإن يظهروا عليكم » الخ التوبة : ٨ .

والجمل المتوالية المترتبة أعني قوله : « وما يستوي الأعمى والبصير - إلى قوله - وما يستوي الأحياء ولا الأموات » تمثيلات للمؤمن والكافر وتبعات أعمالهما . وقوله : « إن الله يسمع من يشاء » وهو المؤمن كان ميتا فأحياء الله فأسمعه لما في نفسه من الاستعداد لذلك قال تعالى : « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا » الأنعام : ١٢٢ ، وأما النبي ﷺ فإنما هو وسيلة والهدى هدى الله . وقوله : « وما أنت بمسمع من في القبور » أي الأموات والمراد بهم الكفار المطبوع على قلوبهم .

قوله تعالى : « إن أنت إلا نذير » قصر إضافي أي ليس لك إلا إنذارهم وأما هداية من اهتدى منهم وإضلال من ضل ولم يهتد جزاء له بسييء عمله فإنما ذلك لله سبحانه . ولم يذكر البشير مع النذير مع كونه ﷺ متلبسا بالوصفين معا لأن المقام مقام الإنذار فالمناسب هو التعرض لوصف الإنذار مع أنه مذكور في الآية التالية .

قوله تعالى : « إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا » وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » المفاد على ما يقتضيه السياق إنا أرسلناك بالبشيرة والإنذار وليس ببدع مستغرب فما من أمة من الأمم إلا وقد خلا ومضى فيها نذير فذلك من سنن الله الجارية في خلقه .

و ظاهر السياق أن المراد بالذير الرسول المبعوث من عند الله و فسر بعضهم الذير بمطلق من يقوم بالعظة و الإنذار من نبي أو عالم غير نبي و هو خلاف ظاهر الآية .

نعم ليس من الواجب أن يكون نذير كل أمة من أفرادها فقد قال تعالى :
« خلافيها » و لم يقل : « خلا منها » .

قوله تعالى : « و إن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات و بالزبر و بالكتاب المنير » البينات هي الآيات المعجزة التي تشهد على حقيقة الرسل ، و الزبر جمع زبور و لعل المراد بها بقرينة مقابلتها للكتاب الصحائف و الكتب التي فيها ذكر الله تعالى من غير أن تتضمن الأحكام و الشرائع ، و الكتاب المنير الكتاب المنزل من السماء المتضمن للشرائع ككتاب نوح و إبراهيم و توراة موسى و إنجيل عيسى عليه السلام ، و معنى الآية ظاهر .

قوله تعالى : « ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير » الأخذ كناية عن التعذيب ، و النكير الإنكار ، و الباقي ظاهر .

﴿ كلام في معنى عموم الإنذار ﴾

قد تقدم في أبحاث النبوة في الجزء الثاني و في قصص نوح عليه السلام في الجزء العاشر من الكتاب ما يدل من طريق العقل على عموم النبوة و يؤيده الكتاب .
فلا تخلو أمة من الأمم الإنسانية عن ظهور ما للدعوة الحقّة النبويّة فيها و أمّا كون نبي كل أمة من نفس تلك الأمة فلا دليل عليه ، و قد عرفت أن قوله تعالى :
« و إن من أمة إلا خلا فيها نذير » الآية مفاده ذلك .

و أمّا فعليّة الإنذار - بحيث يبلغ كل فرد فرد من الأمة مضافا إلى أصل الاقتضاء و أطراد الدعوة في كل واحد واحد فحكومة العلل و الأسباب المتراخمة في هذه النشأة الماديّة لاتوافقه كما لاتوافق سائر المقننات العامّة التي قد رها الصنع كما أن في بنية

كلّ مولود إنسانيّ أن يعمّر عمراً طبيعياً و الحوادث تحول بين أكثر الأفراد و بين ذلك ، وكلّ مولود إنسانيّ مجهّز بجهاز التناسل للاستيلاد والايّلاذ و كثير من الأفراد يموت قبل بلوغه فلا يبلغ ذلك إلى غير ذلك من النظائر .

فالنّبوة و الاّ نذار عامّ لكلّ أمة و لا يستلزم استلزاما ضرورياً أن تبلغ الدعوة كلّ شخص من أشخاصها بل من الجائز أن تبلغ بلا واسطة أو معها بعض الأمة وتتخلّف عن بعض لحيلولة علل و أسباب مزاحمة بينه و بين البلوغ فمن توجّهت منهم إليه الدعوة و بلغته تمتّ عليه الحجّة و من توجّهت إليه ولم تبلغه لم تتمّ عليه الحجّة وكان من المستضعفين و كان أمره إلى الله قال تعالى : « إلاّ المستضعفين من الرجال و النساء و الولدان لا يستطيعون حيلة و لا يهتدون سبيلا » النساء : ٩٨ .

﴿ بحث روائى ﴾

في الدرّ المنثور في قوله تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » أخرجه أحمد و الترمذيّ و صحّحه و النسائيّ و ابن ماجه عن عمرو بن الأحوص أن رسول الله ﷺ قال في حجّة الوداع : ألا لايجني جان إلاّ على نفسه لايجني والد على ولده و لامولود على والده .

و في تفسير القمّيّ في قوله تعالى : « إن الله يسمع من يشاء و ما أنت بمسمع من في القبور » قال : هؤلاء الكفّار لا يسمعون منك كما لا يسمع أهل القبور .

و في الدرّ المنثور أخرجه أبو سهل السريّ بن سهل الجندي سابوريّ الخامس من حديثه من طريق عبد القدّوس عن أبي صالح عن ابن عبّاس في قوله : « إنك لا تسمع الموتى و ما أنت بمسمع من في القبور » قال : كان النبيّ ﷺ يقف على القتل يوم بدر ويقول : هل وجدتم ما وعد ربكم حقّاً يا فلان بن فلان ألم تكفر بربك ؟ ألم تكذب نبيك ؟ ألم تقطع رحمك ؟ فقالوا : يا رسول الله أيسمعون ما نقول ؟ قال : ما أنتم بأسمع منهم لما أقول فأنزل الله : « إنك لا تسمع الموتى و ما أنت بمسمع من في القبور » ومثل ضربه الله للكفّار أنهم لا يسمعون لقوله .

اقول : وفي الرواية ما لا يخفى من لوائح الوضع فساحة النبي ﷺ أجل من أن يقول ما ليس له به علم من ربه حتى ينزل الله عليه آية تكذب به فيما يدعيه ويخبر به. على أن ما نقله من الآية لا يطابق المصحف فصدره مأخوذ من سورة النمل الآية ٨٠ و ذيله مأخوذ من سورة فاطر الآية ٢٢ .

على أن سياق الآية مكّي في سياق آيات سابقة ولاحقة مكّيّة .

وفي الاحتجاج في احتجاج الصادق عليه السلام : قال السائل : فأخبرني عن المجوس أفبعث إليهم نبياً ؟ فأني أجدلهم كتباً محكمة و مواظ بليغة و أمثالاً شافية ، و يقرّون بالثواب و العقاب ، و لهم شرائع يعملون بها . قال : ما من أمة إلا خلا فيها نذير ، وقد بعث إليهم نبيّ بكتاب من عند الله فأنكروه و جحدوا كتابه .





أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا
أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَ غُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَ غَرَابِيبُ
سُودَ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَ الدَّوَابِّ وَ الْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا
يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ
كِتَابَ اللَّهِ وَ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ أَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَ عَلَانِيَةً يَرْجُونَ
تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوقِيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَ يَرْبِدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ
شَكُورٌ (٣٠) وَ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا
بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ
اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سَابِقٌ
بِالْخَيْرَاتِ بَإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا
يَحَلُّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ لَوْثُوا وَ لِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣)
وَ قَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤)
الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا
لُغُوبٌ (٣٥) وَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا
وَ لَا يَخَفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ (٣٦) وَ هُمْ

يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ
نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مِنْ تَذَكَّرٍ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ
مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ
الصُّدُورِ (٣٨) .

﴿ بيان ﴾

رجوع إلى ذكر آيات أخر من آيات التوحيد وفيها انتقال إلى حديث الكتاب
وأنه حق فازل من عند الله تعالى وقد انجر الكلام في الفصل السابق من الآيات إلى
ذكر النبوة والكتاب حيث قال : « إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا » وقال : « جَاؤَا
بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبْرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ » فكان من الحري أن يتعرض لصفة الكتاب وما
تستتبعه من الآثار .

قوله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا
أَلْوَانُهَا » الخ حجة أخرى على التوحيد وهو أن الله سبحانه ينزل الماء من السماء
بالأمطار وهو أقوى العوامل المعينة لخروج الثمرات ، و لو كان خروجها عن مقتضى
طبائع هذا العامل وهو واحد لكان جميعها ذالون واحد فاختلف الألوان يدل على وقوع
التدبير الإلهي .

والقول بأن اختلافها منوط باختلاف العوامل المؤثرة فيها ومنها اختلاف العناصر
الموجودة فيها نوعا وقدرًا وخصوصية التأليف .

مدفوع بأن الكلام منقول حينئذ إلى اختلاف نفس العناصر وهي منتبهة إلى
المادة المشتركة التي لا اختلاف فيها فاختلفت العناصر المكونة منها يدل على عامل
آخر وراء المادة يدبر أمرها ويسوقها إلى غايات مختلفة .

والظاهر أن المراد باختلاف ألوان الثمرات اختلاف نفس ألوانها و يلزمه

اختلافات أخر من حيث الطعم و الرائحة و الخواص ، وقيل المراد باختلاف الألوان اختلاف الأنواع فكثيراً ما يطلق اللون في الفواكه و الأطعمة على النوع كما يقال : قدّم فلان ألواناً من الطعام و الفاكهة فهو من الكناية ، و قوله بعد : « و من الجبال جدد بيض و حمر » لا يخلو من تأييد للوجه الأول .

وفي قوله : « فأخرجنا به » النج التفات من الغيبة إلى التكلم . قيل : إن ذلك لكمال الاعتناء بالفعل لما فيه من الصنع البديع المنبئ عن كمال القدرة و الحكمة . و نظير الوجه يجري في قوله السابق : « إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيراً وَ نَذِيراً » و أمّا في الآية السابقة من قوله : « ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ » فعلّ الوجه فيه أن أمرهم إلى الله لا يتخلل بينه و بينهم أحد حتّى يشفع لهم أو ينصرهم فينجو من العذاب .

وقوله : « ومن الجبال جدد بيض و حمر مختلف ألوانها و غرايب سود » الجدد بالضم فالفتح جمع جدّة بضم الجيم و هي الطريقة و الجادة ، و البيض و الحمر جمع أبيض و أحمر ، و الظاهر أن قوله : « مختلف ألوانها » صفة لجدد و « ألوانها » فاعل « مختلف » ولو كانت الجملة مبتدئة و خبراً ل قيل : مختلفة ألوانها كما قيل ؛ و الغرايب جمع غريب و هو الأسود الشديد السواد و منه الغراب و « سود » بدل أو عطف بيان لغرايب . و المعنى ألم تر أن من الجبال طرائق بيض و حمر و سود مختلف ألوانها ، و المراد إمّا الطرق المسلوكة في الجبال و لها ألوان مختلفة ، و إمّا نفس الجبال التي هي خطوط مختلفة ممدودة على وجه الأرض بيض و حمر و سود مختلف ألوانها .

قوله تعالى : « و من الناس و الدوابّ و الأنعام مختلف ألوانه كذلك » أي و من الناس و الدوابّ التي تدبّ في الأرض و الأنعام كالإبل و الغنم و البقر بعض مختلف ألوانه بالبياض و الحمرة و السواد كاختلاف الثمرات و الجبال في ألوانها .

وقيل : قوله : « كذلك » خبر لمبتدئة محذوف و التقدير الأمر كذلك فهو تقرير إجماليّ للتفصيل المتقدم من اختلاف الثمرات و الجبال و الناس و الدوابّ و الأنعام . وقيل : « كذلك » متعلّق بقوله : « يخشى » في قوله : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ

العلماء» والإشارة إلى ما تقدّم من الاعتبار بالثمرات والجبال وغيرهما والمعنى إنّما يخشى الله كذلك الاعتبار بالآيات من عباده العلماء، وهو بعيد لفظاً ومعنى.

قوله تعالى: «إنّما يخشى الله من عباده العلماء» استئناف يوضح أنّ الاعتبار بهذه الآيات إنّما يؤثّر أثره ويورث الإيمان بالله حقيقة والخشية منه بتمام معنى الكلمة في العلماء دون الجهّال، وقد مرّ أنّ الإنذار إنّما ينجح فيهم حيث قال: «إنّما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة» فهذه الآية كالموضحة لمعنى تلك تبين أنّ الخشية حقّ الخشية إنّما توجد في العلماء.

والمراد بالعلماء العلماء بالله وهم الذين يعرفون الله سبحانه بأسمائه وصفاته وأفعاله معرفة تامّة مطمئنّ بها قلوبهم وتزيل وصمة الشكّ والقلق عن نفوسهم وتظهر آثارها في أعمالهم فيصدق فعلهم قولهم، والمراد بالخشية حينئذ حقّ الخشية ويتبعها خشوع في باطنهم وخضوع في ظاهرهم. هذا ما يستدعيه السياق في معنى الآية.

وقوله: «إنّ الله عزيز غفور» يفيد معنى التعليل فلعلّته تعالى وكونه قاهراً غير مقهور وغالباً غير مغلوب من كلّ جهة يخشاه العارفون، ولكونه غفوراً كثيراً لمغفرة الآثام والخطيئات يؤمنون به ويتقرّبون إليه ويشتاقون إلى لقائه.

قوله تعالى: «إنّ الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا ممّا رزقناهم سرّاً وعلانية يرجون تجارة لن تبور» تلاوة الكتاب قراءة القرآن وقد أثنى عليها الله سبحانه، وإقامة الصلاة إدامتها وحفظها من أن تترك، والإنفاق من الرزق سرّاً وعلانية بذل المال سرّاً تحذراً من الرياء وزوال الإخلاص في الإنفاق المفسنون، وبذل المال علانية ليشيع بين الناس كما في الإنفاق الواجب.

وقوله: «يرجون تجارة لن تبور» أي لن تهلك بالخسران، وذكر بعضهم أنّ قوله: «يرجون» الخ خبر إنّ في صدر الآية وعند بعضهم الخبر مقدّر يتعلّق به قوله: «ليوفّيهم» الخ أي فعلوا ما فعلوا ليوفّيهم أجورهم «الخ».

قوله تعالى: «ليوفّيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنّّه غفور شكور» متعلّق بقوله: «يتلون» وما عطف عليه في الآية السابقة أي أنّهم عملوا ما عملوا لأن يوفّيهم

ويؤتيهم إيتاء تاماً كاملاً أجورهم و ثوابات أعمالهم .

وقوله : « ويزيدهم من فضله » يمكن أن يراد بهذه الزيادة تضعيف الثواب أضعافاً كما في قوله : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » الأنعام : ١٦٠ وقوله : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء » البقرة : ٢٦١ ، و يمكن أن يراد بها زيادة ليست من سنخ ثواب الأعمال كما في قوله : « لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد » ق : ٣٥ .

و قوله : « إنه غفور شكور » تعليل لمضمون الآية وزيادة فهو تعالى لكونه غفورا يغفر زلاتهم و لكونه شكوراً يشيهم و يزيد من فضله .

قوله تعالى : « و الذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق » ضمير الفصل و اللام في قوله : « هو الحق » للتأكيد لا للقصر أي هو حق لا يشوبه باطل .

قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا » إلى آخر الآية . يقال : أورثه مالا كذا أي تركه فيهم يقومون بأمره بعده و قد كان هو القائم بأمره المتصرف فيه ، و كذا إراث العلم و الجاه و نحوهما تركه عند الغير يقوم بأمره بعد ما كان عند غيره ينتفع به فايراث القوم الكتاب تركه عندهم يتناولونه خلفا عن سلف و ينتفعون به .

و تصح هذه النسبة و إن كان القائم به بعض القوم دون كلهم قال تعالى : « و لقد آتينا موسى الهدى و أورثنا بني إسرائيل الكتاب هدى و ذكرى لأولي الألباب » المؤمن : ٥٤ ، و قال : « إننا أنزلنا التوراة فيها هدى و نور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا و الربانيون و الأخبار بما است حفظوا من كتاب الله » المائدة : ٤٤ ، و قال : « و إن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب » الشورى : ١٤ . فبنو إسرائيل أورثوا الكتاب و إن كان المؤدثون حقّه القائمون بأمره بعضهم لا جميعهم .

والمراد بالكتاب في الآية على ما يعطيه السياق هو القرآن الكريم كيف ؟ وقوله في الآية السابقة : « و الذي أوحينا إليك من الكتاب » نص فيه ، فاللام في الكتاب

للعهد دون الجنس فلا يعبأ بقول من يقول : إنَّ اللّام للجنس والمراد بالكتاب مطلق الكتاب السماوي المنزل على الأنبياء .

والاصطفاء أخذ صفوة الشيء و يقرب من معنى الاختيار والفرق أن الاختيار أخذ الشيء من بين الأشياء بما أنّه خيرها والاصطفاء أخذه من بينها بما أنّه صفوتها و خالصها .

و قوله : « من عبادنا » يحتمل أن يكون « من » للتبيين أو للابتداء أو للتبعض الأقرب إلى الذهن أن يكون بيانيّة وقد قال تعالى : « وسلام على عباده الذين اصطفى » النمل : ٥٩ .

و اختلفوا في هؤلاء المصطفين من عباده من هم؟ فقيل : هم الأنبياء ، وقيل : هم بنو إسرائيل الداخلون في قوله : « إنَّ الله اصطفى آدم و نوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » آل عمران : ٣٣ ، وقيل : هم أمة محمد ﷺ فقد أورشوا القرآن من نبيّهم إليه يرجعون و به ينتفعون علماؤهم بلا واسطة وغيرهم بواسطتهم ، وقيل : هم العلماء من الأمة المحمديّة .

وقيل : - وهو المأثور عن الصادقين عليهما السلام في روايات كثيرة مستفيضة - أن المراد بهم ذرّيّة النبي ﷺ من أولاد فاطمة عليها السلام و هم الداخلون في آل إبراهيم في قوله : « إنَّ الله اصطفى آدم و نوحا وآل إبراهيم » آل عمران : ٣٣ ، وقد نصّ النبي ﷺ صلى الله عليه وآله على علمهم بالقرآن و إصابة نظرهم فيه و ملازمتهم إيّاه بقوله في الحديث المتواتر المتفق عليه : « إنّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله و عترتي أهل بيتي لن يفرقا حتّى يردا عليّ الحوض » .

و على هذا فالمعنى بعد ما أوحينا إليك القرآن - ثمّ للتراخي الرتبي - أورشنا ذرّيّتك إيّاه و هم الذين اصطفينا من عبادنا إذا صطفينا آل إبراهيم و إضافة العباد إلى نون العظمة للتشريف .

و قوله : « فمنهم ظالم لنفسه و منهم مقتصد و منهم سابق بالخيرات » يحتمل أن يكون ضمير « منهم » راجعا إلى « الذين اصطفينا » فيكون الطوائف الثلاث الظالم

لنفسه و المقتصد و السابق بالخيرات شركاء في الوراثه و إن كان الوارث الحقيقي العالم بالكتاب و الحافظ له هو السابق بالخيرات .

و يحتمل أن يكون راجعاً إلى عبادنا - من غير إفادة الإضافة للتشريف - فيكون قوله : « فمنهم » مفيداً للتعليل و المعنى إنمّا أورثنا الكتاب بعض عبادنا و هم المصطفون لا جميع العباد لأنّ من عبادنا من هو ظالم لنفسه و منهم مقتصد و منهم سابق و لا يصلح الكل للوراثه .

و يمكن تأييد أوّل الاحتمالين بأن لا مانع من نسبة الوراثه إلى الكل مع قيام البعض بها حقيقة كما نجد نظيره في قوله تعالى : « و أورثنا بني إسرائيل الكتاب » المؤمن : ٥٤ .

و ما في الآية من المقابلة بين الظالم لنفسه و المقتصد و السابق بالخيرات يعطي أن المراد بالظالم لنفسه من عليه شيء من السيئات و هو مسلم من أهل القرآن لكونه مصطفى و وارثاً ، و المراد بالمقتصد المتوسط الذي هو في قصد السبيل و سواء الطريق و المراد بالسابق بالخيرات بائن الله من سبق الظالم و المقتصد إلى درجات القرب فهو أمام غيره بائن الله بسبب فعل الخيرات قال تعالى : « و السابقون السابقون أولئك المقربون » الواقعة : ١١ .

و قوله تعالى : « ذلك هو الفضل الكبير » أي ما تقدّم من الإيراث هو الفضل الكبير من الله لا دخل للكسب فيه .

هذا ما يعطيه السياق و تنفيده الأخبار من معنى الآية و فيها للقوم اختلاف عجيب فقد اختلف في « ثم » فقيل : هي للتراخي بحسب الإخبار ، و قيل : للتراخي الربّي ، و قيل : للتراخي الزماني . ثمّ العطف على « أوحينا » أو على « الذي أوحينا » .

و اختلف في « أورثنا » فقيل : هو على ظاهره ، و قيل : معناه حكمنا بإيراثه و قدرناه ، و اختلف في الكتاب فقيل : المراد به القرآن ، و قيل : جنس الكتب السماويّة ، و اختلف في « الذين اصطفينا » فقيل : المراد بهم الأنبياء ، و قيل : بنو

إسرائيل ، وقيل : أُمّة محمد ، وقيل : العلماء منهم ، وقيل : نذريّة النبي من ولد فاطمة عليها السلام .

و اختلف في « من عبادنا » فقيل : من للتبعيض أو للابتداء أو للتبيين و يختلف المراد من العباد بحسب اختلاف معنى « من » وكذا إضافة « عبادنا » للتشريف على بعض الوجوه و لغيره على بعضها .

و اختلف في « فمنهم » فقيل : مرجع الضمير « الذين » و قيل : « عبادنا » و اختلف في الظالم لنفسه و المقتصد و السابق فقيل : الظالم من كان ظاهره خيراً من باطنه و المقتصد من استوى ظاهره و باطنه و السابق من كان باطنه خيراً من ظاهره ، و قيل : السابق هم السابقون الماضون في عهد النبي صلى الله عليه وآله من أصحابه و المقتصد من تبع أثرهم و لحق بهم من الصحابة و الظالم لنفسه غيرهم ، و قيل : الظالم من غلبت عليه السيئة و المقتصد المتوسط حالاً و السابق هو المقرب إلى الله السابق في الدرجات .

و هناك أقوال متفرقة أخر تركنا إيرادها ولو ضربت الاحتمالات بعضها في بعض جاوز الألف .

قوله تعالى : « جنّات عدن يدخلونها يحلّون فيها من أساور من ذهب و لؤلؤا و لباسهم فيها حرير » التحلية هي التزيين والأساور جمع أسورة وهي جمع سوار بكسر السين قال الراغب : سوار المرأة معرب و أصله دستواره . انتهى .

و قوله : « جنّات عدن » الخ ظاهره أنّه بيان للفضل الكبير قال في المجمع : هذا تفسير للفضل كأنّه قيل : ما ذلك الفضل ؟ فقال : هي جنّات أي جزاء جنّات أو دخول جنّات و يجوز أن يكون بدلاً من الفضل كأنّه قال : ذلك دخول جنّات . انتهى . و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : « وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور » قيل : المراد بالحزن الذي يحمدون الله على إذهابه بإدخالهم الجنة الحزن الذي كان يتوجّه إليهم في الحياة الدنيا و ما يحفّ بها من الشدائد و النوائب .
و قيل : المراد به الحزن الذي كان قد أحاط بهم بعد الارتحال من الدنيا و قبل

الدخول في جنة الآخرة إشفاقاً مما اكتسبوه من السيئات .

و على هذا فالقول قول الظالم لنفسه منهم أو قوله وقول المقتصد و أما السابق بالخيرات منهم فلاسيئة في صحيفة أعماله حتى يعذب بها . وهذا الوجه أنسب لقولهم في آخر حمدهم : « إن ربنا لغفور شكور » .

قوله تعالى : « الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب » المقامة الإقامة ، و دار المقامة المنزل الذي لا خروج منه ولا تحوّل .

و النصب بقتجتيّن التعب والمشقة ، و اللغوب بضم اللام : العي و التعب في طلب المعاش و غيره .

و المعنى الذي جعلنا حاليّن في دار الخلود من فضله من غير استحقاق منّا عليه لا يمسنا في هذه الدار و هي الجنة مشقة و تعب و لا يمسنا فيها عي و لا كلال في طلب ما نريد أي إن لنا فيها ما نشاء .

و في قوله : « من فضله » مناسبة خاصة مع قوله السابق : « ذلك هو الفضل الكبير » .
قوله تعالى : « و الذين كفروا لهم نار جهنم » إلى آخر الآية اللام في « لهم » للاختصاص و يفيد كون النار جزاء لهم لا ينفكّ منهم ، و قوله : « لا يقضى عليهم فيموتوا » أي لا يحكم عليهم بالموت حتى يموتوا فهم أحياء على ما هم فيه من شدة العذاب و لا يخفّف عنهم من عذاب النار كذلك نجزي كلّ كفور شديد الكفران أو كثيره .

قوله تعالى : « وهم يصرخون فيها ربنا أخرجنا » إلى آخر الآية في المجمع : الاضطراخ الصياح و النداء بالاستغاثة افتعال من الصراخ انتهى .

و قوله : « ربنا أخرجنا » الخ بيان لاضطراخهم ، و قوله : « أولم نعمركم ما يتذكّر فيه من تذكّر » الخ جواب اضطراخهم و قوله : « فذوقوا » و قوله : « فما للظالمين من نصير » كلّ منهما متفرّع على ما قبله .

و المعنى و هؤلاء الذين في النار من الكفار يصرخون و يصيحون بالاستغاثة

فيها قائلين : ربنا أخرجنا من النار نعمل صالحا غير سييء غير الذي كنّا نعمل فيقال لهم ردا عليهم : - كلاً - أولم نعممركم عمرا يتذكّر فيه من تذكّر وجاءكم النذير فأندركم هذا العذاب فلم تتذكّروا و لم تؤمنوا ؟ فذوقوا العذاب فما للظالمين من نصير ينصرهم ليتخلّصوا من العذاب .

قوله تعالى : «إن الله عالم غيب السماوات والأرض إنه عليم بذات الصدور» فيعاملكم بما في باطنكم من الاعتقاد وآثار الأعمال ويحاسبكم عليه سواء وافق ظاهركم باطنكم أو خالف قال تعالى : «إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله» البقرة : ٢٨٤ ، وقال : «يوم تبلى السرائر» الطارق : ٩ .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : «إنما يخشى الله من عباده العلماء» الآية روي عن الصادق عليه السلام أنه قال : يعني بالعلماء من صدّق قوله فعله ، ومن لم يصدّق فعله قوله فليس بعالم . وفي الحديث أعلمكم بالله أخوفكم لله .

أقول : وفي روضة الكافي بإسناده عن أبي حمزة عن علي بن الحسين عليه السلام ما في معناه .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة و الترمذي والحاكم عن الحسن قال : قال رسول الله ﷺ : العلم علمان : علم في القلب فذاك العلم النافع ، و علم على اللسان فذاك حجة الله على خلقه .

وفي المجمع روى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال في قوله : «ويزيدهم من فضله» : هو الشفاعة لمن وجبت له النار ممن صنع إليه معروفا في الدنيا .

وفي الكافي بإسناده عن أحمد بن عمر قال : سألت أبا الحسن الرضا عليه السلام عن قول الله عز وجل : «ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا» الآية قال : فقال : ولد فاطمة عليها السلام ، و السابق بالخيرات الإمام و المقتصد العارف بالإمام و الظالم لنفسه الذي لا يعرف الإمام .

و عن كتاب سعد السعود لابن طاوس في حديث لأبي إسحاق السبيعي عن الباقر عليه السلام في الآية قال : هي لنا خاصة يا أبا إسحاق أما السابق بالخيرات فعلي بن أبي طالب والحسن والحسين والشهيد منّا ، وأما المقتصد فصائم بالنهار وقائم بالليل ، وأما الظالم لنفسه ففيه ما في الناس وهو مغفور له .

أقول : المراد بالشهيد بقرينة الروايات الأخر الإمام .

وفي معاني الأخبار مسندا عن الصادق عليه السلام في الآية قال : الظالم يحوم حوم نفسه و المقتصد يحوم حوم قلبه و السابق بالخيرات يحوم حوم ربّه .

أقول : الحوم و الحوامان الدوران ، و دوران الظالم لنفسه حوم نفسه اتّباعه أهواءها وسعيه في تحصيل ما يرضيها ، و دوران المقتصد حوم قلبه اشتغاله بما يزكي قلبه و يطهره بالزهد و التعبّد ، و دوران السابق بالخيرات حوم ربّه إخلاصه له تعالى فيذكره و ينسى غيره فلا يرجو إلاّ إيّاه و لا يقصد إلاّ إيّاه .

و اعلم أنّ الروايات من طرق الشيعة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في كون الآية خاصة بولد فاطمة عليها السلام كثيرة جدا .

و في الدر المنثور أخرج الفاريابي و أحمد و عبد بن حميد و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبراني و الحاكم و ابن مردويه و البيهقي عن أبي الدرداء سمعت رسول الله صلى الله عليه و آله يقول : قال الله تعالى : « ثمّ أوردنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله » فأما الذين سبقوا فأولئك يدخلون الجنة بغير حساب ، وأما الذين اقتصدوا فأولئك الذين يحاسبون حسابا يسيرا ، و أما الذين ظلموا أنفسهم فأولئك يحبسون في طول المحشر ثمّ هم الذين يلقاهم الله برحمة فهم الذين يقولون : الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن إنّ ربنا لغفور شكور الذي أحلنا دارالمقامة من فضله لا يمسنّا فيها نصب و لا يمسنّا فيها لغوب .

أقول : و رواه في المجمع عن أبي الدرداء عنه عليه السلام و في معناه أحاديث أخر ، و هناك ما يخالفها و لا يعبأ به كما فيه عن ابن مردويه عن عمر عن النبي صلى الله عليه و آله

قوله : « و منهم ظالم لنفسه » قال : الكافر .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « لا يمستنا فيها نصب ولا يمستنا فيها لغوب »

قال : النصب العناء و اللغوب الكسل و الضجر .

و في نهج البلاغة ، و قال : العمر الذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستون سنة .

أقول : و رواه عنه عليه السلام في المجمع و رواه في الدر المنثور عن ابن جرير عنه

عليه السلام .

و في الدر المنثور أخرج الحكيم الترمذي في نوادر الأصول و البيهقي في سننه

و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الطبراني و ابن مردويه و البيهقي في شعب

الإيمان عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال : إذا كان يوم القيامة قيل : أين أبناء

الستين و هو المعمر الذي قال الله : « أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر » .

أقول : و روى ذلك بطرق أخرى عن سهل بن سعد و أبي هريرة عنه ﷺ .

و في المجمع : و قيل : هو تويخ لابن ثمانى عشر سنة و روى ذلك عن الباقر

عليه السلام .

أقول : و رواه في الفقيه عنه ﷺ مضرا .





هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ
 الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩)
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ
 الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ
 بَلْ إِنَّ يَعْدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا الْغُرُورًا (٤٠) إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا
 غَفُورًا (٤١) وَاقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَعِنَ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِيَكُونُنَّ أَهْدَى
 مِنْ أَحَدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا تَقْوَرًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا
 فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ
 إِلَّا سَنَةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسَنَةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣)
 أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا
 أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي
 الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُوَاقِدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ
 عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُوَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ
 فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥).

﴿ بَيَان ﴾

احتجاج على توحيد الربوبية كقوله : « هو الذي جعلكم خلائف في الأرض » الآية ، وقوله : « إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا » الآية ، وعلى نفي ربوبية شركائهم « قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ » الآية وتوبيخ و تهديد لهم على نقضهم ما أبرموه باليمين ومكرهم السيئ .
ثمّ تسجيل أنّ الله لا يعجزه شيء وإنّما يمهّل من أمهله من هؤلاء الظالمين إلى أجل مسمّى فإذا جاء أجلهم جازاهم ما يستحقّونه وبذلك تختتم السورة .

قوله تعالى : « هو الذي جعلكم خلائف في الأرض » الخ الخلائف جمع خليفة ، و كون الناس خلائف في الأرض هو قيام كلّ لاحق منهم مقام سابقه و سلطته على التصرف و الانتفاع منها كما كان السابق مسلّطاً عليه ، وهم إنّما نالوا هذه الخلافة من جهة نوع الخلقة و هو الخلقة من طريق النسل و الولادة فإنّ هذا النوع من الخلقة يقسم المخلوق الى سلف و خلف .

فجعل الخلافة الأرضية نوع من التدبير مشوب بالخلق غير منفكّ منه ولذلك استدلّ به على توحّده تعالى في ربوبيته لأنّه مختصّ به تعالى لا مجال لدعواه لغيره .
فقوله : « هو الذي جعلكم خلائف في الأرض » حجة على توحّده تعالى في ربوبيته و انتفائها عن شركائهم : تقريره أنّ الذي جعل الخلافة الأرضية في العالم الإنسانيّ هو ربّهم المدبّر لأمرهم ، و جعل الخلافة لا ينفكّ عن نوع الخلقة فخالق الإنسان هو ربّ الإنسان لكن الخالق هو الله سبحانه حتّى عند الخصم فالله هو ربّ الإنسان .

وقوله : « فمن كفر فعليه كفره » أي فالله سبحانه هو ربّ الإنسان فمن كفر و ستر هذه الحقيقة و نسب الربوبية إلى غيره تعالى فعلى ضرره كفره .

وقوله : « ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربّهم إلّا مقتاً ولا يزيد الكافرين كفرهم

إلا خسارا» بيان لكون كفرهم عليهم وهو أن كفرهم يورث لهم مقتاعند ربهم والمقت شدة البغض لأن فيه إغراضا عن عبوديته واستهانة بساحته ، و يورث لهم خسارا في أنفسهم لأنهم بدّلوا السعادة الإنسانية شقاء و وبالاسيبيهم في مسيرهم و منقلبهم إلى دارالجزاء .

و إنما عبّر عن أثر الكفر بالزيادة لأن الفطرة الإنسانية بسيطة ساذجة واقعة في معرض الاستكمال و الازدياد فإن أسلم الإنسان زاده ذلك كمالا و قربا من الله وإن كفر زاده ذلك مقتاعندالله و خسارا .

و إنما قيّد المقت بقوله : « عند ربهم » دون الخسار لأنّ الخسار من تبعات تبديل الإيمان كفرا و السعادة شقاء و هو أمر عند أنفسهم و أمّا المقت و شدة البغض فمن عندالله سبحانه .

والحبّ و البغض المنسوبان إلى الله سبحانه من صفات الأفعال وهي معان خارجة عن الذات غير قائمة بها ، و معنى حبه تعالى لأحد انبساط رحمته عليه و انجذابها إليه و بغضه تعالى لأحد انقباض رحمته منه و ابتعادها عنه .

قوله تعالى : « قل أرايتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله » إلى آخر الآية إضافة الشركاء إليهم بعناية أنّهم يدعون أنّهم شركاء لله فهي إضافة لامية مجازية . و في الآية تلقين النبي ﷺ الحجّة على نفي ربوبيّة آلهم الذين كانوا يعبدونهم وتقرير الحجّة أنّهم لو كانوا أربابا آلهة من دون الله لكان لهم شيء من تدبير العالم فكانوا خالقين لما يدبرونه لأنّ الخلق و التدبير لا ينفك أحدهما عن الآخر ولو كانوا خالقين لدلّ عليه دليل والدليل إمّا من العالم أو من قبل الله سبحانه أمّا العالم فلا شيء منه يدلّ على كونه مخلوقا لهم ولو بنحو الشركة وهو قوله : « أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السماوات » .

و أمّا من قبله تعالى فلو كان لكان كتابا سماويا نازلا من عنده سبحانه يعترف بربوبيّتهم ويجوز للناس أن يعبدوهم ويتخذوهم آلهة ، ولم ينزل كتاب على هذه الصفة و هم معترفون بذلك وهو قوله : « أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه » .

وإنما عبّر عن نفي خالقيّتهم في الأرض بقوله : «أروني ماذا خلقوا من الأرض» ولم يقل : أنبتوني ألهم شرك في الأرض ؟ و عبّر في السماوات بقوله : « أم لهم شرك في السماوات » ولم يقل : أم ماذا خلقوا من السماوات .

لأن المراد بالأرض - على ما يدل عليه سياق الاحتجاج - العالم الأرضي وهو الأرض بما فيها وما عليها والمراد بالسماوات العالم السماوي المشتمل على السماوات وما فيها وما عليها فقوله : « ماذا خلقوا من الأرض » في معنى ألهم شرك في الأرض ولا يكون إلّا بخلق شيء منها ، وقوله : « أم لهم شرك في السماوات » في معنى أم ماذا خلقوا من السماوات ، وقد اكتفي بذكر الخلق في جانب الأرض إشارة إلى أن الشرك في الربوبية لا يكون إلّا بخلق .

وقوله : « أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه » أي بل آتيناهم كتابا فهم على بينة منه أي على حجة ظاهرة من الكتاب أن لشركائهم شركة معنا و ذلك بدلالته على أنهم شركاء لله .

وقد قال : « أم آتيناهم كتابا » ولم يقل : أم لهم كتاب ونحو ذلك ليتأكّد النفي والإنكار فإن قولنا : أم لهم كتاب ونحو ذلك إنكار لوجود الكتاب لكن قوله : « أم آتيناهم كتابا » إنكار لوجود الكتاب ممّن ينزل الكتاب لو نزل .

وقد تبين بما تقدّم أن ضمير الجمع في « آتيناهم » وفي « فهم على بينة » للمشرّكين فلا يعبأ بما قيل : إن الضميرين للشركاء .

وقوله : « بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلّا غرورا » إضراب عما تقدّم من الاحتجاج بأنّ الذي حملهم على الشرك ليس هو حجة تحملهم عليه ويعتمدون عليها بل غرور بعضهم بعضا بوعدهم الشفاعة والزلفى فأسلافهم يغترون أخلافهم ورؤسائهم وأئمتهم يغترون مرؤسيهم وتابعيهم ويعدونهم شفاعة الشركاء عند الله سبحانه ولا حقيقة لها . وحجة الآية عامّة على المشرّكين عبدة الأصنام وهم الذين يعبدون الملائكة والجنّ وقد يسي البشر ويتخذون لهم أصناما يتوجّهون إليها ، وعلى الذين يعبدون روحانيي الكواكب ويتوجّهون إلى الكواكب ثمّ يتخذون للكواكب أصناما ، وعلى

الذين يعبدون الملائكة والعناصر من غير أن يتخذوا لها أصناما كما ينقل عن الفرس القدماء ، و على الذين يعبدون بعض البشر كالنصارى للمسيح عليه السلام .

قوله تعالى : « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » الخ قيل : إن الآية استئناف مقرر لغاية قبح الشرك وهوله أي إن الله تعالى يحفظ السماوات والأرض كراهة أن تزولا أولئلا تزولا وتضمحلان لأن الممكن كما يحتاج إلى الواجب حال إيجاده يحتاج إليه حال بقائه . انتهى .

والظاهر أنه تعالى لما استدلل على توحيده في الربوبية بجعل الخلافة في النوع الإنساني بقوله : « هو الذي جعلكم خلائف في الأرض » الآية ثم نفى الشركة مطلقا بالحجة عمم الحجة بحيث تشمل الخلق كله أعني السماوات والأرض فاحتج على توحيده بإبقاء الخلق بعد إحداثه فإن من البين الذي لا يرتاب فيه أن حدوث الشيء وأصل تلبسه بالوجود بعد العدم غير بقائه وتلبسه بالوجود بعد الوجود على نحو الاستمرار فبقاء الشيء بعد حدوثه يحتاج إلى إيجاد بعد إيجاد على نحو الاتصال والاستمرار . وإبقاء الشيء بعد إحداثه كما أنه إيجاد بعد إيجاد كذلك هو تدير لا أمره فإنك إن دقت النظر وجدت أن النظام الجاري في الكون إنما يجري بالإحداث وإبقاء فقط ، والموجد والخالق هو الله سبحانه حتى عند الخصم فالله سبحانه هو الخالق المدبر للسماوات والأرض وحده لا شريك له .

فقوله : « إن الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا » الإمساك بمعناه المعروف وقوله : « أن تزولا » - وتقديره كراهة أن تزولا أولئلا تزولا - متعلق به ، وقيل : الإمساك بمعنى المنع أو بمعنى الحفظ وعلى أي حال فالإمساك كناية عن الإبقاء وهو الإيجاد بعد الإيجاد على سبيل الاتصال والاستمرار ، والزوال هو الاضمحلال والبطلان .

ونقل عن بعضهم أنه فسر الزوال بالانتقال المكاني ، والمعنى أن الله يمنع السماوات والأرض من أن ينتقل شيء منهما عن مكانه الذي استقر فيه فيرتفع أو ينخفض انتهى والشأن في تصور مراده تصورا صحيحا .

و قوله : « ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده » السياق يعطي أن المراد بالزوال ههنا الإشراف على الزوال إذ نفس الزوال لا يجتمع معه الإمساك والمعنى وأقسم لئن أشرقتا على الزوال لم يمسكهما أحد من بعد الله سبحانه إذ لا مفيض للوجود غيره ويمكن أن يكون المراد بالزوال معناه الحقيقي والمراد بالإمساك القدرة على الإمساك وقد تبين أن « من » الأولى زائدة للتأكيد والثانية للابتداء ، و ضمير « من بعده » راجع إليه تعالى ، وقيل راجع إلى الزوال .

و قوله : « إنه كان حليماً غفورا » فهو لحلمه لا يعجل إلى أمر و طغفرته يستر جهات العدم في الأشياء ، ومقتضى الاسمين أن يمسك السموات والأرض أن تزولا إلى أجل مسمى .

و قال في إرشاد العقل السليم : إنه كان حليماً غفورا غير معاجل بالعقوبة التي تستوجبها جناياتهم حيث أمسكهما و كانتا جديرتين بأن تهديا هدأ حسبما قال تعالى : « تكاد السماوات يتفطرن منه و تنشق الأرض » انتهى .

قوله تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم فلمّا جاءهم نذير ما زادهم إلّا نفورا » قال الراغب : الجهد - بالجيم - والجهد - بضمها - الطاقة والمشقة - إلى أن قال - و قال تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم » أي حلفوا واجتهدوا في الحلف أن يأتوا به على أبلغ ما في وسعهم . انتهى . و قال : النفر الانزعاج عن الشيء وإلى الشيء كالفزع إلى الشيء و عن الشيء يقال : نفر عن الشيء نفورا قال تعالى : « ما زادهم إلّا نفورا » . انتهى .

قيل ^(١) : بلغ قريشا قبل مبعث رسول الله ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا رسوله فقالوا : لعن الله اليهود والنصارى أتتهم الرسل فكذبوهم فوالله لئن آتانا رسول لنكونن أهدى من إحدى الأمم انتهى ، و سياق الآية يصدق هذا النقل ويؤيده .

فقوله : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم » الضمير لقريش وقد حلفوا هذا الحلف قبل بعثة النبي ﷺ بدليل قوله بعد : « فلمّا جاءهم نذير » ، و المقسم به قوله : « لئن

جاءهم نذير « النخ .

و قوله : « لئن جاءهم نذير ليكوننَّ أهدى من إحدى الأمم » أي إحدى الأمم التي جاءهم نذير كاليهود والنصارى وإنما قال : « ليكوننَّ أهدى من إحدى الأمم » ولم يقل : أهدى منهم لأنَّ المعنى أنهم كانوا أمةً ماجاءهم نذير ثمَّ لوجاءهم نذير كانوا أمة ذات نذير كما إحدى تلك الأمم المنذرة ثمَّ بتصدق النذير يصيرون أهدى من التي ماثلوها وهو قوله : « أهدى من إحدى الأمم » فافهمه .

وقيل : إنَّ مقتضى المقام العموم ، وقوله : « إحدى الأمم » عام وإن كان نكرة في سياق الإثبات واللام في « الأمم » للعهد ، والمعنى ليكوننَّ أهدى من كل واحدة من تلك الأمم التي كذبوا رسلهم من اليهود والنصارى وغيرهم .

وقيل : المعنى ليكوننَّ أهدى من أمة يقال فيها : إحدى الأمم تفضيلاً لها على غيرها من الأمم كما يقال : هو واحد القوم و واحد عصره . انتهى .

ولا يخلو الوجه الأخير عن تكلف و بعد .

وقوله : « فلمَّا جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا » المراد بالنذير النبي ﷺ والنفور التبعاد والهرب .

قوله تعالى : « استكباراً في الأرض و مكر السيئ » ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله قال الراغب : المكر صرف الغير عما يقصده بحيلة ، وذلك ضربان : مكر محمود وذلك أن يتحرى بذلك فعل جميل وعلى ذلك قال تعالى : « والله خير الماكرين » ومذموم وهو أن يتحرى به فعل قبيح قال تعالى : « لا يحق المكر السيئ إلا بأهله » انتهى .

وقال أيضاً : قال عز وجل : « ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله » أي لا ينزل ولا يصيب . قيل : وأصله حق فقلب نحولاً و زال وقد قرئ فأزلهما الشيطان وأزالهما و على هذا زمه و زامه . انتهى .

وقوله : « استكباراً في الأرض » مفعول لأجله لقوله : « نفورا » أي نفروا عنه و تباعدوا للاستكبار في الأرض وقوله : « ومكر السيئ » معطوف على « استكباراً »

و مفعول لأجله مثله ، وقيل : معطوف على « نفورا » والإضافة فيه من إضافة الموصوف إلى الصفة بدليل قوله ثانيا : « ولا يحق المكر السيئ » الخ .

وقوله : « ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله » أي لا يصيب ولا ينزل المكر السيئ إلا بأهله ولا يستقر إلا فيه ، فإن المكر السيئ وإن كان ربما أصاب به مكروه للممكور به ، لكنه سيزول ولا يدوم إلا أن أثره السيئ بما أنه مكر سيئ يبقى في نفس الماكر و سيظهر فيه و يجزى به إما في الدنيا وإما في الآخرة البتة ، و لهذا فسر الآية في مجمع البيان بقوله : و المعنى لا ينزل جزاء المكر السيئ إلا بمن فعله .

و الكلام مرسل إرسال المثل كقوله تعالى : « إنما بغيكم على أنفسكم » يونس : ٢٣ « و من نكث فإني نكث على نفسه » الفتح : ١ .

و قوله : « فهل ينظرون إلا سنة الأولين » النظر و الانتظار بمعنى التوقع و الفاء للتفريع و الجملة استنتاج مما تقدمها و الاستفهام للإنكار و المعنى و إذ مكروا المكر السيئ و المكر السيئ يحق بأهله فهم لا ينتظرون إلا السنة الجارية في الأمم الماضية و هي العذاب الإلهي النازل بهم إثر مكروهم و تكذيبهم بآيات الله .

و قوله : « فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا » تبديل السنة أن توضع العافية و النعمة موضع العذاب ، و تحويلا أن ينقل العذاب من قوم يستحقونه إلى غيرهم ، و سنة الله لا تقبل تبديلا و لا تحويلا لأنه تعالى على صراط مستقيم لا يقبل حكمه تبغيضا و لا استثناء .

و قد أخذ الله بالعذاب هؤلاء المشركين الماكرين يوم بدر فقتل عامتهم . و الخطاب للنبي ﷺ أو لكل سامع .

قوله تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم و كانوا أشد منهم قوة » استشهاد على سنته الجارية في الأمم الماضية و قد كانوا أشد قوة من مشركي مكة فأخذهم الله بالعذاب لما مكروا و كذبوا .

قوله تعالى : « و ما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات و الأرض إنه كان عليما قديرا » تميم لسابق البيان لمزيد إنذارهم و تخويفهم ، و المحصل ليتقوا الله و

ليؤمنوا به ولا يمكروا به ولا يكذبوا فإنَّ سنَّةَ الله في ذلك هي العذاب كما يشهد به ما جرى في الأمم السابقة من الإهلاك والتعذيب وقد كانوا أشدَّ قوَّةً منهم والله سبحانه لا يعجزه شيء في السماوات والأرض بقوَّة أو مكر فإنَّه عليم على الإطلاق لا يغفل ولا يجهل حتَّى ينخدع بمكر أو حيلة قدير على الإطلاق لا يقادمه شيء .

قوله تعالى : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة » الخ المراد بالمؤاخذه المؤاخذه الدنيويَّة كما يدلُّ عليه قوله الآتي : « ولكن يؤخِّرهم إلى أجل مسمًى » الخ والمراد بالناس جميعهم فإنَّ الآية مسبوقة بذكر مؤاخذه بعضهم وهم الماكرون المكذبون بآيات الله ، والمراد بما كسبوا المعاصي التي اكتسبوها بقرينة المؤاخذه التي هو العذاب وقد قال في نظيرة الآية من سورة النحل : « ولو يؤاخذ الله الناس بما ظلموا ما ترك عليها من دابة » النحل : ٦١ .

و المراد بظهرها ظهر الأرض لأنَّ الناس يعيشون عليه على أنَّ الأرض تقدِّم ذكرها في الآية السابقة .

و المراد بالدابة كلُّ ما يدبُّ في الأرض من إنسان ذكر أو أنثى أو كبير أو صغير ﴿١﴾ واحتمل أن يكون المراد كلُّ ما يدبُّ في الأرض من حيوان وإهلاك غير الإنسان من أنواع الحيوان إنَّما هو لكونها مخلوقة للإنسان كما قال تعالى : « خلق لكم ما في الأرض جميعا » البقرة : ٢٩ .

و قول بعضهم : ذلك لشؤم المعاصي وقد قال تعالى : « واتَّقُوا فتنة لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصَّة » مدفوع بأنَّ شؤم المعصية لا يتعدَّى العاصي إلى غيره وقد قال تعالى : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » فاطر : ١٨ ، وأمَّا الآية أعني قوله : « واتَّقُوا فتنة لا تصيبنَّ الذين ظلموا منكم خاصَّة » الأنفال : ٢٥ فمدلولها على ما تقدِّم من تفسيرها اختصاص الفتنة بالذين ظلموا منهم خاصَّة لا عمومها لهم ولغيرهم فراجع . و قوله : « ولكن يؤخِّرهم إلى أجل مسمًى » وهو الموت أو القيامة و قوله : « فإذا جاء أجلهم فإنَّ الله كان بعباده بصيرا » أي فيجازي كلاً بما عمل فإنَّه بصير بهم عليم بأعمالهم لأنَّهم عباده وكيف يمكن أن يجهل الخالق خلقه والربُّ عمل عبده ؟

و قد بان بما تقدم أن قوله : « فإن الله كان بعباده بصيرا » من وضع السبب موضع المسبب الذي هو الجزاء .

و الآية أعني قوله تعالى : « ولو يؤاخذ الله الناس الخ واقعة موقع الجواب عن سؤال مقدّر ناش عن الآية السابقة فإنه تعالى لما أُنذر أهل المكر و التكذيب من المشركين بالمؤاخذة و استشهد بما جرى في الأمم السابقة و ذكر أنه لا يعجزه شيء في السماوات و الأرض كأنه قيل : فإذا لم يعجزه شيء في السماوات و الأرض فكيف يترك سائر الناس على ما هم عليه من المعاصي ؟ و ما ذا يمنعه أن يؤاخذهم بما كسبوا ؟ فأجاب أنه لو يؤاخذ جميع الناس بما كسبوا من المعاصي كما يؤاخذ هؤلاء الماكرين المكذّبين ما ترك على ظهر الأرض أحداً منهم يدب و يتحرّك - و قد قضى سبحانه أن يعيشوا في الأرض و يعمروها إذ قال : « و لكم في الأرض مستقرّ و متاع إلى حين » البقرة : ٣٦ فلا يؤاخذهم ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى و هو الموت أو البعث فإذا جاء أجلهم عاملهم بما عملوا إنه كان بعباده بصيرا .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم من طريق سفيان عن أبي زكريّا الكوفي عن رجل حدثه أن النبي ﷺ قال : إياكم و المكر السيئ فإنه لا يحقيق المكر السيئ إلا بأهله و لهم من الله طالب .

وفي تفسير القمّي حدثني أبي عن النوفلي عن السكوني عن جعفر عن أبيه عليهما السلام قال : قال رسول الله ﷺ : سبق العلم ، و جفّ القلم ، و مضى القضاء و تمّ القدر بتحقيق الكتاب ، و تصديق الرسل ، و بالسعادة من الله لمن آمن و اتقى و بالشقاء لمن كذب و كفر ، و بالولاية من الله عزّ و جلّ للمؤمنين ، و بالبراءة منه للمشركين .

ثم قال رسول الله ﷺ : إن الله عزّ و جلّ يقول : يا بن آدم بمشيّتي كنت

أنت الذي تشاء لنفسك ما تشاء ، وبإرادتي كنت أنت الذي تريد لنفسك ما تريد ، وبفضل نعمتي عليك قويت على معصيتي ، وبقوتي وعصمتي وعافيتي أديت إليّ فرائضي وأنا أولى بحسناتك منك ، وأنت أولى بذنبك منّي ، الخير منّي إليك وأصل بما أوليتك به ، والشرّ منك إليك بما جنيت جزاء ، وبكثير من تسلّطي لك انطويت على طاعتي ، وبسوء ظنّك بي قنطت من رحمتي .

فلي الحمد والحجّة عليك بالبيان ، ولي السبيل عليك بالعصيان ، ولك الجزاء الحسن عندي بالإحسان ، لم أدع تحذيرك ، ولم آخذك عند غرّتك وهو قوله عزّ وجلّ : « ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة » ، لم أكلّفك فوق طاقتك ، ولم أحملك من الأمانة إلّا ما أقررت بها على نفسك ، ورضيت لنفسي منك بما رضيت به لنفسك منّي ثمّ قال عزّ وجلّ : « ولكن يؤخّرهم إلى أجل مسمى فاذا جاء أجلهم فإنّ الله كان بعباده بصيرا » .



سورة يس مكيّة وهي ثلاث و ثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَسَ (١) وَ الْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ
لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥)
لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى
أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى
الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَ جَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَ مِنْ خَلْفِهِمْ
سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ
تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تَنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَ خَشِيَ الرَّحْمَنَ
بِالْغَيْبِ قَبْرَهُ بِمَغْفِرَةٍ وَ أَجْرِ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَ
نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَرَهُمْ وَ كُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢) .

﴿بيان﴾

غرض السورة بيان الأصول الثلاثة للدين فهي تبتدىء بالنبوة و تصف حال
الناس في قبول الدعوة و ردّها و أنّ غاية الدعوة الحقّة إحياء قوم بركوبهم صراط
السعادة و تحقيق القول علي آخرين و بعبارة أخرى تكميل الناس في طريقي السعادة
و الشقاء ,

ثم تنتقل السورة إلى التوحيد فتعدّ جملة من آيات الوجدانية ثم تنتقل إلى ذكر المعاد فتذكر بعث الناس للجزاء و امتياز المجرمين يومئذ من المتقين وتصف ماتول إليه حال كل من الفريقين .

ثم ترجع إلى ما بدأت فتتلخص القول في الأصول الثلاثة وتستدل عليها وعند ذلك تختتم السورة .

ومن غرر الآيات فيها قوله تعالى : « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » فالسورة عظيمة الشأن تجمع أصول الحقائق وأعرافها وقد ورد من طرق العامة والخاصة أن لكل شيء قلبا و قلب القرآن يس^(١) .

والسورة مكيّة بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « يسّ و القرآن الحكيم - إلى قوله - فهم غافلون » إقسام منه تعالى بالقرآن الحكيم على كون النبي ﷺ من المرسلين ، وقد وصف القرآن بالحكيم لكونه مستقرا فيه الحكمة وهي حقائق المعارف وما يتفرع عليها من الشرائع والعبر والمواعظ .

وقوله : « إِنَّكَ لَمِنَ المرسلين » مقسم عليه كما تقدم .

وقوله : « على صراط مستقيم » خبر بعد خبر لقوله : « إِنَّكَ » ، وتنكير الصراط - كما قيل - للدلالة على التفخيم وتوصيفه بالمستقيم للتوضيح فإنّ الصراط هو الطريق الواضح المستقيم ، والمراد به الطريق الذي يوصل غايته إلى الله تعالى أي إلى السعادة الإنسانية التي فيها كمال العبوديّة لله والقرب ، وقد تقدم في تفسير الفاتحة بعض ما ينفع في هذا المقام من الكلام .

وقوله : « تنزيل العزيز الرحيم » وصف للقرآن مقطوع عن الوصفية منصوب على المدح ، والمصدر بمعنى المفعول ومحصل المعنى أعني بالقرآن ذاك المنزل الذي

(١) رواه الصدوق في ثواب الاعمال عن أبي عبدالله عليه السلام و السيوطي في الدر المنثور

عن أنس و أبي هريرة و معقل بن يسار عن النبي صلى الله عليه وآله .

أنزله الله العزيز الرحيم الذي استقرّ فيه العزّة و الرحمة .

والتذيل بالوصفين للإشارة إلى أنّه قاهر غير مقهور وغالب غير مغلوب فلا يعجزه إعراض المعرضين عن عبوديته ولا يستدله جحود الجاحدين وتكذيب المكذّبين ، وأنّه نور رحمة واسعة لمن يتّبع الذكر و يخشاه بالغيب لا لينتفع بإيمانهم بل ليهديهم إلى ما فيه سعادتهم و كمالهم فهو بعزّة و رحمته أرسل الرسول و أنزل عليه القرآن الحكيم لينذر الناس فيحقّ كلمة العذاب على بعضهم ويشمل الرحمة منهم آخرين .

و قوله : « لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون » تعليل للإرسال و التنزيل و « ما » نافية و الجملة صفة لقوله : « قوما » و المعنى إنّما أرسلك و أنزل عليك القرآن لتنذر و تخوّف قوما لم ينذر آباؤهم فهم غافلون .

و المراد بالقوم إن كان هو قريش و من يلحق بهم فالمراد بآبائهم آباؤهم الأذنون فإنّ الأبعدين من آبائهم كان فيهم النبيّ إسماعيل ذبيح الله ، و قد أرسل إلى العرب رسل آخرون كهود و صالح و شعيب عليهم السلام ، و إن كان المراد جميع الناس المعاصرين نظرا إلى عموم الرسالة فكذلك أيضا فأخر رسول معروف بالرسالة قبله عليه السلام هو عيسى عليه السلام و بينهما زمان الفترة .

و اعلم أنّ ما ذكرناه في تركيب الآيات هو الذي يسبق منها إلى الفهم و قد أوردوا في ذلك وجوها أخر بعيدة عن الفهم تركناها من أرادها فليراجع المطوّلات .

قوله تعالى : « لقد حقّ القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون » اللام للقسم أي أقسم لقد ثبت ووجب القول على أكثرهم ، والمراد بثبوت القول عليهم صيرورتهم مصاديق يصدق عليهم القول .

و المراد بالقول الذي حقّ عليهم كلمة العذاب التي تكلم بها الله سبحانه في بدء الخلقة مخاطبائها إبليس : « الحقّ و الحقّ » أقول لأملأنّ جهنّم منك و ممن تبعك منهم أجمعين » ص : ٨٥ و المراد بتبعية إبليس طاعته فيما يأمر به بالوسوسة والتسويل بحيث تثبت الغواية و ترسخ في النفس كما يشير إليه قوله تعالى خطاباً لإبليس : « إنّ

عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين وإن جهنم لم وعدهم أجمعين «
الحجر : ٣٣ .

و لازمه الطغيان والاستكبار على الحق كما يشير إليه ما يحكيه الله من تساؤل المتبوعين و التابعين في النار : « بل كنتم قوما طاغين فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون فأغويناكم إنا كنا غاوين » الصافات : ٣٢ ، و قوله : « و لكن حقّت كلمة العذاب على الكافرين قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين » الزمر : ٧٢ . و لازمه الانكباب على الدنيا و الإعراض عن الآخرة بالمرّة و رسوخ ذلك في نفوسهم قال تعالى : « و لكن من شرح بالكفر صدراً فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ذلك بأنهم استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وإن الله لا يهدي القوم الكافرين أولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم أولئك هم الغافلون » النحل : ١٠٨ . فيطبع الله على قلوبهم و من آثاره أن لا سبيل لهم إلى الإيمان قال تعالى : « إن الذين حقّت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون » يونس : ٩٦ .

و بما تقدّم ظهر أن الفاء في قوله : « فهم لا يؤمنون » للتفريع لا للتعليل كما احتمله بعضهم .

قوله تعالى : « إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون » الأغناف جمع عنق بضمّتين و هو الجيد ، و الأغلال جمع غلّ بالكسر و هي على ما قيل ما تشدّ به اليد إلى العنق للتعذيب و التشديد ، و مقمحون اسم مفعول من الإقماح و هو رفع الرأس كأنّهم قد ملأت الأغلال ما بين صدورهم إلى أذقانهم فبقيت رؤسهم مرفوعة إلى السماء لا يتأتّى لهم أن ينكسوها فينظروا إلى ما بين أيديهم من الطريق فيعرفوها و يميّزوها من غيرها .

و تنكير قوله : « أغلالا » للتفخيم و التهويل .

و الآية في مقام التعليل لقوله السابق : « فهم لا يؤمنون » .

قوله تعالى : « و جعلنا من بين أيديهم سداً و من خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » السدّ الحاجز بين الشيئين ، و قوله : « من بين أيديهم و من خلفهم »

كناية عن جميع الجهات ، و الغشي و الغشيان التغطية يقال : غشيه كذا أي غطاه و أغشى الأمر فلانا أي جعل الأمر يغطيه ، و الآية متممة للتعليل السابق و قوله : « جعلنا » معطوف على « جعلنا » المتقدم .

وعن الرازي في تفسيره في معنى التشبيه في الآيتين أن المانع عن النظر في الآيات قسمان : قسم يمنع عن النظر في الأنفس فشبه ذلك بالغل الذي يجعل صاحبه مقمحا لا يرى نفسه و لا يقع بصره على بدنه ، و قسم يمنع عن النظر في الآفاق فشبه ذلك بالسد المحيط فإن المحيط بالسد لا يقع نظره على الآفاق فلا يظهر له ما فيها من الآيات فمن ابتلي بهما حرم عن النظر بالكليّة .

و معنى الآيتين أنهم لا يؤمنون لأننا جعلنا في أعناقهم أغلا لا نشد بها أيديهم على أعناقهم فهي إلى الأذقان فهم مرفوعة رؤسهم باقون على تلك الحال و جعلنا من جميع جهاتهم سدا فجعلناه يغطّيهم فهم لا يبصرون فلا يهتدون .

ففي الآيتين تمثيل لحالهم في حرمانهم من الاهتداء إلى الإيمان و تحريمه تعالى عليهم ذلك جزاء لكفرهم و غوايتهم و طغيانهم في ذلك .

و قد تقدم في قوله تعالى : « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا » البقرة : ٢٦ في الجزء الأول من الكتاب أن ما وقع في القرآن الكريم من هذه الأوصاف و نظائرها التي وصف بها المؤمنون و الكفار يكشف عن حياة أخرى للإنسان في باطن هذه الحياة الدنيوية مستورة عن الحسّ المادي ستظهر له إذا انكشفت الحقائق بالهوت أو البعث ، و عليه فالكلام في أمثال هذه الآيات جار في مجرى الحقيقة دون المجاز كما عليه القوم .

قوله تعالى : « و ساء عليهم أنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » عطف تفسير و تقرير لما تتضمنه الآيات الثلاث المتقدمة و تلخيص للمراد و تمهيد لما يتلوه من قوله : « إنما تنذر من اتبع الذكر » الآية .

و احتمال أن يكون عطا على قوله : « لا يبصرون » و المعنى فهم لا يبصرون و يستوي عليهم إنذارك و عدم إنذارك لا يؤمنون والوجه الأول أقرب إلى الفهم .

قوله تعالى : « إِنَّمَا تَنْذَرُ مَنْ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ » القصر للإفراد ، والمراد بالإِ نذار الإِ نذار النافع الَّذِي لَهُ أَثَرٌ ، وبالذِّكْر القرآن الكريم ، و بِاتِّبَاعِهِ تصديقه و المِيلُ إِلَيْهِ إِذَا تَلَيْتَ آيَاتِهِ ، وَ التَّعْبِيرُ بِالْمَاضِي للإِ شَارَةِ إِلَى تَحَقُّقِ الْوُقُوعِ ، وَ الْمُرَادُ بِخَشْيَةِ الرَّحْمَنِ الْغَيْبَ خَشْيَتِهِ تَعَالَى مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ وَقَبْلَ انْكَشَافِ الْحَقِيقَةِ بِالمَوْتِ أَوِ الْبَعْثِ ، وَقِيلَ : أَيِ حَالِ غَيْبَتِهِ مِنَ النَّاسِ بِخِلَافِ الْمُنَافِقِ وَهُوَ بَعِيدٌ .

و قد علَّقت الخشية على اسم الرحمان الدال على صفة الرحمة الجالبة للرجاء للإِ شعار بأنَّ خشيَتَهُمْ خَوْفٌ مَشُوبٌ بِرَجَاءٍ وَهُوَ الَّذِي يَقْرَأُ الْعَبْدُ فِي مَقَامِ الْعِبَادَةِ فَلَا يَأْمَنُ وَلَا يَقْنَطُ .

و تنكير « مغفرة » و « أجر كريم » للتفخيم أي فبشره بمغفرة عظيمة من الله و أجر كريم لا يقادر قدره و هو الجنة ، و الدليل على جميع ما تقدّم هو السياق .
و المعنى إِنَّمَا تَنْذَرُ الْإِ نذار النافع الَّذِي لَهُ أَثَرٌ ، مِنْ اتِّبَاعِ الْقُرْآنِ إِذَا تَلَيْتَ عَلَيْهِ آيَاتِهِ وَ مَالِ إِلَيْهِ وَ خَشِيَ الرَّحْمَانَ خَشْيَةً مَشُوبَةً بِالرَّجَاءِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ عَظِيمَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ لَا يَقَادِرُ قَدْرَهُ .

قوله تعالى : « إِنَّا نَحْنُ نَحْيِي الْمَوْتَى وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ وَ كُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ » المراد بإِ حْيَاءِ الْمَوْتَى إِحْيَاؤَهُمْ لِلْجَزَاءِ .

و المراد بما قَدَّمُوا الْأَعْمَالُ الَّتِي عَمَلُوهَا قَبْلَ الْوَفَاةِ فَقَدَّمُوا عَلَى مَوْتِهِمْ ، وَ الْمُرَادُ بِآثَارِهِمْ مَا تَرَكَوْهَا لَمَّا بَعْدَ مَوْتِهِمْ مِنْ خَيْرٍ يَعْمَلُ بِهِ كَتَعْلِيمٍ عِلْمٍ يَنْتَفِعُ بِهِ أَوْ بِنَاءِ مَسْجِدٍ يَصَلِّي فِيهِ أَوْ مِيزَانٍ يَتَوَضَّأُ فِيهَا ، أَوْ شَرٍّ يَعْمَلُ بِهِ كَوَضْعِ سِنَةِ مُبْتَدَعَةٍ يَسْتَنُّ بِهَا أَوْ بِنَاءِ مَفْسَقَةٍ يَعْصِي اللَّهُ فِيهَا .

و ربّما قيل : إِنّ المراد بما قَدَّمُوا النِّسَاءَ وَ بِآثَارِهِمُ الْأَعْمَالُ الْمُتَرْتِبَةُ الْمُتَفَرِّعَةُ عَلَيْهَا وَهُوَ بَعِيدٌ مِنَ السِّيَاقِ .

و المراد بكتابة ما قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ ثَبَتُهَا فِي صَحَائِفِ أَعْمَالِهِمْ وَ ضَبْطُهَا فِيهَا بِوَسْطَةِ كُتُبِ الْأَعْمَالِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَ هَذِهِ الْكِتَابَةُ غَيْرُ كِتَابَةِ الْأَعْمَالِ وَ إِحْصَائُهَا فِي الْإِمَامِ الْمُبِينِ

الذي هو اللوح المحفوظ وإن توهّم بعضهم أن المراد بكتابة ما قدّموا وآثارهم هو إحصاؤها في الكتاب المبين وذلك أنه تعالى يثبت في كلامه كتابا يحصي كل شيء ثم لكل أمة كتابا يحصي أعمالهم ثم لكل إنسان كتابا يحصي أعماله كما قال : « ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين » الأنعام : ٥٩ ، وقال : « كل أمة تدعى إلى كتابها » الجاثية : ٢٨ ، وقال : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا » أسرى : ١٣ ، وظاهر الآية أيضا يقضي بنوع من البينونة بين كتاب الأعمال والإمام المبين حيث فرق بينهما بالخصوص والعموم واختلاف التعبير بالكتابة والإحصاء .

وقوله : « وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » هو اللوح المحفوظ من التغير الذي يشتمل على تفصيل قضائه سبحانه في خلقه فيحصى كل شيء وقد ذكر في كلامه تعالى بأسماء مختلفة كاللوح المحفوظ وأم الكتاب والكتاب المبين والإمام المبين كل منها بعناية خاصة .

ولعل العناية في تسميته إماما مبينا أنه لاشتماله على القضاء المحتوم متبوع للخلق مقتدى لهم وكتب الأعمال كما سيأتي في تفسير سورة الجاثية مستنسخة منه قال تعالى : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » الجاثية : ٢٩ . وقيل : المراد بالإمام المبين صحف الأعمال وليس بشيء ، وقيل : علمه تعالى وهو كسابقه نعم لو أريد به العلم الفعلي كان له وجه .

ومن عجيب القول في هذا المقام ما ذكره بعضهم أن الذي كتب في اللوح المحفوظ هو ما كان وما يكون إلى يوم القيامة لا حوادث العالم إلى أبد الآبدين وذلك أن اللوح عند المسلمين جسم وكل جسم متناهي الأبعاد كما يشهد به الأدلة وبيان كل شيء فيه على الوجه المعروف عندنا دفعة مقتض لكون المتناهي ظرفا لغير المتناهي وهو محال بالبدئية فالوجه تخصيص عموم كل شيء والقول بأن المراد به الحوادث إلى يوم القيامة هذا . وهو تحكّم وسنترّض له تفصيلا .

والآية في معنى التعليل بالنسبة إلى ما تقدّمها كأنه تعالى يقول : ما أخبرنا به

ووصفناه من حال أولئك الذين حق عليهم القول وهؤلاء الذين يتبعون الذكر ويخشون ربهم بالغيب هو كذلك لأن أمر حياة الكل إلينا وأعمالهم وآثارهم محفوظة عندنا فنحن على علم وخبرة بما تؤول إليه حال كل من الفريقين .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « فهم مقمحون » قال : قدرفعوا رؤسهم . وفيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » الهدى ، أخذ الله سمعهم وأبصارهم وقلوبهم وأعمالهم عن الهدى .

نزلت في أبي جهل بن هشام ونفر من أهل بيته وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم قام يصلي وقد حلف أبو جهل لعنه الله لئن رآه يصلي ليدمغه ^(١) فجاءه و معه حجر و النبي صلى الله عليه وسلم قائم يصلي فجعل كلما رفع الحجر ليرميه أثبت الله عز وجل يده إلى عنقه و لا يدور الحجر بيده فلما رجع إلى أصحابه سقط الحجر من يده .

ثم قام رجل آخر وهو رهطه أيضاً فقال : أنا أقتله فلما دانامنه فجعل يسمع قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم فأرعب فرجع إلى أصحابه فقال : حال بيني وبينه كهية الفحل يخطر بذنبه فخفت أن أتقدم .

و قوله تعالى : « وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » فلم يؤمن من أولئك الرهط من بني مخزوم أحد .

أقول : وروى نحواً منه في الدر المنثور عن البيهقي في الدلائل عن ابن عباس وفيه أن ناساً من بني مخزوم تواطؤوا بالنبي صلى الله عليه وسلم ليقتلوه منهم أبو جهل و الوليد بن المغيرة فبينما النبي صلى الله عليه وسلم قائم يصلي يسمعون قراءته فأرسلوا إليه الوليد ليقتله فانطلق حتى أتى المكان الذي يصلي فيه فجعل يسمع قراءته ولا يراه فانطلق إليهم فأعلمهم بذلك

(١) دمغه أى شجّه حتى بلغت الشجّة دماغه .

فأتوه فلما انتهوا إلى المكان الذي يصلي فيه سمعوا قراءته فيذهبون إليه فيسمعون أيضاً من خلفهم فانصرفوا فلم يجدوا إليه سبيلاً . فذلك قوله : « وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً » الآية .

و في الدر المنثور أخرج ابن مردويه و أبو نعيم في الدلائل عن ابن عباس قال : كان النبي ﷺ يقرأ في المسجد فيجهر بالقراءة حتى تأذي به ناس من قريش حتى قاموا ليأخذوه وإذا أيديهم مجموعة إلى أعناقهم وإذا هم لا يبصرون فجاءوا إلى النبي ﷺ فقالوا : نشدك الله و الرحم يا محمد و لم يكن بطن من بطون قريش إلا و للنبي ﷺ فيهم قرابة فدعا النبي ﷺ حتى ذهب ذلك عنهم فنزلت : يس و القرآن الحكيم - إلى قوله - أم لم تنذرهم لا يؤمنون » . قال : فلم يؤمن من ذلك نفر أحد .

اقول : و قد رواوا القصة بأشكال مختلفة في بعضها أن رسول الله ﷺ قرأ الآيات فاحتجب منهم فلم يروه و دفع الله عنه شرهم و كيدهم ، و في بعضها أن الآيات - من أول السورة إلى قوله : « فهم لا يؤمنون » - نزلت في القصة فقله : « إننا جعلنا » إلى آخر الآيتين يقصص صنع الله بهم في ستر النبي ﷺ عن أبصارهم و قوله : « و سواء عليهم » الخ يخبر عن عدم إيمان ذاك نفر .

و أنت خير بأن سياق الآيات يأبى الانطباق على هذه الروايات بما فيها من القصة فهو سياق متناسق منسجم يصف حال طائفتين من الناس وهم الذين حق عليهم القول فهم لا يؤمنون و الذين يتبعون الذكر و يخشون ربهم بالغيب .

و أين ذلك من حمل قوله : « لقد حق القول على أكثرهم » على الناس المُنذرين و حمل قوله : « إننا جعلنا في أعناقهم » و « جعلنا من بين أيديهم سداً » الآيتين على قصة أبي جهل و رهطه ، و حمل قوله : « و سواء عليهم » أنذرتهم أم لم تنذرهم » على رهطه و أضف إلى ذلك حمل قوله : « و نكتب ما قدّموا و آثارهم » على قصة قوم من الأنصار بالمدينة و سيوافيك خبره فيختل بذلك السياق و تنلم وحدة النظم .

فالحق أن الآيات نازلة دفعة ذات سياق واحد تصف حال الناس و تفرقهم عند بلوغ الدعوة و وقوع الإنذار على فرقتين ، و لا مانع من وقوع القصة و احتجاب النبي ﷺ

من أعدائه بالآيات .

وفيه أخرج عبدالرزاق و الترمذي وحسنه و البزازی و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و الحاكم و صححه و ابن مردويه و البيهقي في شعب الإيمان عن أبي سعيد الخدري قال : كان بنو سلمة في ناحية من المدينة فأرادوا أن ينتقلوا إلى قرب المسجد فأنزل الله : « إِنَّا نَحْنُ نَحْيِي الْمُتَوَنِّي وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ » فدعاهم رسول الله ﷺ فقال : إِنَّهُ يَكْتُبُ آثَارَكُمْ ثُمَّ قَرَأَ عَلَيْهِمُ الْآيَةَ فَتَرَكُوا .

وفيه أخرج الفريابي وأحمد في الزهد وعبد بن حميد و ابن ماجه و ابن جرير و ابن المنذر و الطبراني و ابن مردويه عن ابن عباس قال : كانت الأنصار منازلهم بعيدة من المسجد فأرادوا أن ينتقلوا قريباً من المسجد فنزلت « وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ » فقالوا : بل نمكث مكاننا .

اقول : و الكلام في الروايتين كالكلام فيما تقدّمهما .

و فيه أخرج ابن أبي حاتم عن جرير بن عبد الله البجلي قال قال رسول الله ﷺ : من سن سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء . و من سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده لا ينقص من أوزارهم شيء . ثم تلا هذه الآية « وَ نَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَ آثَارَهُمْ » .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « وَ كُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ » أي في كتاب مبين و هو محكم ، و ذكر ابن عباس عن أمير المؤمنين ع قال : أنا و الله الإمام المبين أئمة الحق من الباطل و رثته من رسول الله ﷺ .

و في معاني الأخبار بإسناده إلى أبي الجارود عن أبي جعفر عن أبيه عن جدّه عليهم السلام عن النبي ﷺ في حديث أنه قال في علي ع أنه الإمام الذي أحصى الله تبارك و تعالى فيه علم كل شيء .

اقول : الحديثان لو صحّا لم يكونا من التفسير في شيء بل مضمونهما من بطن القرآن و إشاراته ، و لا مانع من أن يرزق الله عبداً وحده و أخلص العبودية له العلم بما في الكتاب المبين و هو ع سيّد الموحدين بعد النبي ﷺ .



وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذِ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذِ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمَٰنُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبَّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجِمَنَّكُمْ وَنَحْكُمَنَّكُمْ مِنْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ أَنْنِ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ (١٩) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مِنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرْتُ رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ (٢٧) وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ (٢٨) إِنْ كُنْتُمْ إِلَّا صِخْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَاذَا هُمْ خَامِدُونَ (٢٩) يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٣٠) أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ (٣١) وَإِنْ كُلٌّ لَمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٣٢) .

﴿ بيان ﴾

مثل مشتمل على الإِذار و التبشير ضربه الله سبحانه لعامة القوم يشير فيه إلى الرسالة الإِلهية و ما تستتبعه الدعوة الحقّة من المغفرة و الأجر الكريم لمن آمن بها و اتّبع الذكر و خشي الرحمن بالغيب ، و من العذاب الأليم لمن كفروا كذب بها فحق عليه القول ، و فيه إشارة إلى وحدانيّته تعالى و معاد الناس إليه جميعا .

و لا منافاة بين إخباره بأنهم لا يؤمنون سواء أنذروا أم لم ينذروا و بين إنذارهم لأنّ في البلاغ إتماماً للحجّة و تكميلاً للسعاوة أو الشقاوة قال تعالى : « ليهلك من هلك عن بينة و يحيى من حيّ عن بينة » الأُنفال : ٤٢ ، و قال : و ننزل من القرآن ما هو شفاء و رحمة للمؤمنين و لا يزيد الظالمين إلاّ خسارا « أسرى : ٨٢ .

قوله تعالى : « و اضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون » المثل كلام أو قصة يمثّل به مقصد من المقاصد فيتّضح للمخاطب ، و ممّا كانت قصّتهم توضح ما تقدّم من الوعد و الوعيد أمر نبيّه ﷺ أن يضربها مثلا لهم .

و الظاهر أنّ « مثلا » مفعول ثان لقوله : « اضرب » و مفعوله الأوّل قوله : « أصحاب القرية » و المعنى و اضرب لهم أصحاب القرية و حالهم هذه الحال مثلا و قد قدّم المفعول الثاني تحرّزا عن الفصل المخل .

قوله تعالى : « إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعزّزنا بثالث فقالوا إنّنا إليكم مرسلون » التعزيز من العزّة بمعنى القوّة والمنعة ، و قوله : « إذ أرسلنا إليهم » بيان تفصيلي لقوله : « إذ جاءها المرسلون » .

و المعنى و اضرب لهم مثلا أصحاب القرية و هم في زمان أرسلنا إليهم رسولين اثنين من رسلنا فكذبوهما أي الرسولين فقوّيناهما برسول ثالث فقالت الرسل إنّنا إليكم مرسلون من جانب الله .

قوله تعالى : « قالوا إنّ أنتم إلّا بشر مثلنا و ما أنزل الرحمن من شيء إنّ أنتم إلّا تكذبون » كانوا يرون أنّ البشر لا ينال النبوة و الوحي ، و يستدلّون على ذلك

بأنفسهم حيث لا يجدون من أنفسهم شيئاً من ذاك القبيل فيسرون الحكم إلى نفوس الأنبياء مستنديين إلى أن حكم الأمثال واحد .

و على هذا التقرير يكون معنى قوله : « وما أنزل الرحمان من شيء » لم ينزل الله وحيا ولو نزل شيئاً على بشر لنلناه من نفوسنا كما تدعون أنتم ذلك ، وتعبيرهم عن الله سبحانه بالرحمان إنما هو لكونهم كسائر الوثنيين معترفين بالله سبحانه واتصافه بكرائم الصفات ^(١) كالخلق والرحمة و الملك غير أنهم يرون أنه فوض أمر التدبير إلى مقربي خلقه كالملائكة الكرام فهم الأرباب المدبرون والآلهة المعبودون ، وأما الله عز اسمه فهو رب الأرباب وإله الآلهة .

ومن الممكن أن يكون ذكر اسم الرحمان في الحكاية دون المحكي فيكون التعبير به لحلمه و رحمته تعالى قبال إنكارهم و تكذيبهم للحق الصريح .

وقوله : « إن أنتم إلا تكذبون » بمنزلة النتيجة لصدر الآية ، و محصل قولهم أنكم بشر مثلنا و لانجد نحن على بشريتنا في نفوسنا شيئاً من الوحي النازل الذي تدعون و أنتم مثلنا فما أنزل الرحمان شيئاً من الوحي فدعواكم كاذبة و إذ ليس لكم إلا هذه الدعوى فإن أنتم إلا تكذبون .

و يظهر بما تقدم نكتة الحصر في قوله : « إن أنتم إلا تكذبون » و كذا الوجه في نفي الفعل ولم يقل : إن أنتم إلا كاذبون لأن المراد نفي الفعل في الحال دون الاستمرار و الاستقبال .

قوله تعالى : « قالوا ربنا يعلم إننا إليكم لمرسلون و ما علينا إلا البلاغ المبين » لم يحك الله سبحانه عن هؤلاء الرسل جواباً عن حجة قومهم « ما أنتم إلا بشر مثلنا » الخ كما نقل عن الرسل المبعوثين إلى الأمم الدارجة لما احتجّت أممهم بمثل هذه الحجة « إن أنتم إلا بشر مثلنا » فردّها رسلهم بقولهم : « إن نحن إلا بشر مثلكم و لكن الله يمشي على من يشاء من عباده » إبراهيم ١١ و قدمّر تقريره .

(١) لكنهم مختلفون في تفسيرها و الصابئون يفسرونها بالنفي فمعنى العالم و القادر

بل حكى عنهم أنهم ذكروا للقوم أنهم مرسلون إليهم مأمورون بتبليغ الرسالة ليس عليهم إلا ذلك وأنهم في غنى عن تصديقهم لهم وإيمانهم بهم ويكفيهم فيه أن يعلم ربهم بأنهم مرسلون لأحاجة لهم إلى أزيد من ذلك .

فقوله : « قالوا ربنا يعلم إننا إليكم لمرسلون » إخبار عن رسالتهم وقد أكد الكلام بأن المشددة المكسورة واللام ، والاستشهاد بعلم ربهم بذلك ، وقوله : « ربنا يعلم » معترض بمنزلة القسم ، والمعنى إننا مرسلون إليكم صادقون في دعوى الرسالة ويكفيها في ذلك علم ربنا الذي أرسلنا بها ولا حاجة لنا فيه إلى تصديقكم لنا ولا نفع لنا فيه من أجر ونحوه ولا يهمننا تحصيله منكم بل الذي يهمننا هو تبليغ الرسالة وإتمام الحجة .

وقوله : « وما علينا إلا البلاغ المبين » البلاغ هو التبليغ والمراد به تبليغ الرسالة أي لم نؤمر ولم نكلف إلا بتبليغ الرسالة وإتمام الحجة .

قوله تعالى « قالوا إننا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجنكم وليمسنكم منا عذاب أليم » القائلون أصحاب القرية والمخاطبون هم الرسل ، والتطير هو التشائم وقولهم : « لئن لم تنتهوا » النح تهديد منهم للرسل .

و المعنى قالت أصحاب القرية لرسلكم : إننا تشائمنا بكم ونقسم لئن لم تنتهوا عن التبليغ ولم تكفوا عن الدعوة لنرجنكم بالحجارة وليصلن إليكم وليقعن بكم منا عذاب أليم .

قوله تعالى « قالوا طائركم معكم أئن ذكركم بل أنتم قوم مسرفون » القائلون هم الرسل يخاطبون به أصحاب القرية .

وقوله : « طائركم معكم » الطائر في الأصل هو الطير وكان يتشائم به ثم توسع واستعمل في كل ما يتشائم به ، وربما يستعمل فيما يستقبل الإنسان من الحوادث ، وربما يستعمل في البخت الشقي الذي هو أمر موهوم يروونه مبدء لشقاء الإنسان وحرمانه من كل خير .

و كيف كان فقوله : « طائركم معكم » ظاهر معناه أن الذي ينبغي أن تتشائموا

به هو معكم و هو حالة إعراضكم عن الحق الذي هو التوحيد وإقبالكم إلى الباطل الذي هو الشرك .

وقيل : المعنى طأثركم أي حظكم ونصيبكم من الخير والشر معكم من أفعالكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، هذا و هو أخذ الطائر بالمعنى الثاني لكن قوله بعد : « أئن ذكّرتم بل أنتم قوم مسرفون » أنسب بالنسبة إلى المعنى الأول .

و قوله : « أئن ذكّرتم » استفهام توبيخي و المراد بالتذكير تذكيرهم بالحق من وحدانيته تعالى و رجوع الكل إليه ونحوهما و جزاء الشرط محذوف في الكلام تلويحاً إلى أنه مما لا ينبغي أن يذكر أو يتفوه به و التقدير إن ذكّرتم بالحق قابلتموه بمثل هذا الجحود الشنيع و الصنيع الفظيع من التطير و التوعّد .

و قوله : « بل أنتم قوم مسرفون » أي مجاوزون للحد في المعصية و هو إضراب عما تقدّم و المعنى بل السبب الأصلي في وجودكم و تكذيبكم للحق أنكم قوم تستمرون على الإسراف و مجاوزة الحد .

قوله تعالى : « و جاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين » أقصى المدينة أبعد مواضعها بالنسبة إلى مبدء مفروض ، و قد بدلت القرية في أول الكلام مدينة هنا للدلالة على عظمها و السعي هو الإسراع في المشي .

و وقع نظير هذا التعبير في قصة موسى و القبطي و فيه « و جاء رجل من أقصى المدينة يسعى » فقدّم « رجل » هناك و آخر ههنا و لعلّ النكتة في ذلك أن الاهتمام هناك بمجيئ الرجل و إخباره موسى باثتمام الملاء لقتله فقدّم الرجل ثم أشار إلى اهتمام الرجل نفسه بإصال الخبر و إبلاغه فجئء بقوله : « يسعى » حالاً مؤخراً بخلاف ما ههنا فالاهتمام بمجيئه من أقصى المدينة ليعلم أن لا تواطؤ بينه و بين الرسل في أمر الدعوة فقدّم « من أقصى المدينة » و آخر الرجل وسعيه .

و قد اشدّت الخلاف بينهم في اسم الرجل و اسم أبيه و حرفته و شغله و لا يهمننا الاشتغال بذلك في فهم المراد و لو توقّف عليه الفهم بعض التوقّف لأشار سبحانه في كلامه إليه و لم يهمله .

وإنما المهم هو التدبر في حفظه من الإيمان في هذا الموقف الذي انتهض فيه لتأييد الرسل ﷺ ونصرتهم فقد كان على ما يعطيه التدبر في المنقول من كلامه رجلاً نور الله سبحانه قلبه بنور الإيمان يؤمن بالله إيمان إخلاص يعبد لا طمعا في جنة أو خوفاً من نار بل لأنه أهل للعبادة ولذلك كان من المكرمين ولم يصف الله سبحانه في كلامه بهذا الوصف إلا ملائكته المقربين وعباده المخلصين، وقد خاصم القوم فخصمهم وأبطل ما تعلق به القوم من الحجّة على عدم جواز عبادة الله سبحانه وجوب عبادة آلهتهم وأثبت وجوب عبادته وحده وصدق الرسل في دعواهم الرسالة ثم آمن بهم .

قوله تعالى : « اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون » بيان لقوله : « اتبعوا

المرسلين » وفي وضع قوله : « من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون » في هذه الآية موضع قوله : « المرسلين » في الآية السابقة إشعار بالعلية وبيانها أن عدم جواز اتباع قائل في قوله إنما يكون لأحد أمرين : إما لكون قوله ضلالاً والقائل به ضالاً ولا يجوز اتباع الضال في ضلاله ، وإما لأن القول وإن كان حقاً والحق واجب الاتباع لكن لقائله غرض فاسد يريد أن يتوسل إليه بكلمة الحق كافتناء المال واكتساب الجاه والمقام ونحو ذلك ، وأما إذا كان القول حقاً وكان القائل بريئاً من الغرض الفاسد منزهاً من الكيد والمكر والخيانة كان من الواجب اتباعه في قوله ، وهؤلاء الرسل مهتدون في قولهم : لا تعبدوا إلا الله ، وهم لا يريدون منكم أجرا من مال أوجاه فمن الواجب عليكم أن تتبعوهم في قولهم :

أما أنهم مهتدون فلقيام الحجّة على صدق ما يدعون إليه من التوحيد وكونه حقاً ، والحجّة هي قوله : « و مالي لا أعبد » إلى تمام الآيتين .

و أما أنهم لا يريدون منكم أجرا فلما دل عليه قولهم : « ربنا يعلم إننا إليكم لمرسلون » وقد تقدم تقريره .

وبهذا البيان يتأيد ما قدّمناه من كون قولهم : « ربنا يعلم إننا إليكم لمرسلون » مسوقاً لنفي إرادتهم من القوم أجرا أو غير ذلك .

قوله تعالى : « و مالي لا أعبد الذي فطرني وإليه ترجعون » تأخذ من دونه

آلهة - إلى قوله - و لا ينقذون » شرع في استفراغ الحجة على التوحيد و نفي الآلهة في آيتين و اختار لذلك سياق التكلم وحده إلا في جملة اعتراض بها في خلال الكلام و هي قوله : « و إليه ترجعون » و ذلك باجراء الحكم في نفسه بما أنه إنسان أوجده الله و فطره حتى يجري في كل إنسان هو مثله و الأفراد أمثال فقوله : « و مالي لا أعبد » الخ في معنى و ما للإ انسان لا يعبد الخ أيتخذ الإنسان من دونه آلهة الخ .

و قد عبّر عنه تعالى بقوله : «الذي فطرني » للإشعار بالعلية فإن فطره تعالى للإنسان وإيجاده له بعد العدم لازمه رجوع كل ما للإ انسان من ذات و صفات و أفعال إليه تعالى و قيامه به و ملكه له فليس للإ انسان إلا العبودية محضة فعلى الإنسان أن ينصب نفسه في مقام العبودية و يظهرها بالنسبة إليه تعالى و هذا هو العبادة فعليه أن يعبدته تعالى لأنه أهل لها .

و هذا هو الذي أشرنا إليه آنفاً أن الرجل كان يعبد الله بالآ خلاص له لا طمعا في الجنة و لا خوفا من نار بل لأنه أهل للعبادة .

و إذن كان الإيمان به تعالى و عبادته هكذا أمرا لا يناله عامة الناس فإن الأكثرين منهم إنما يعبدون خوفاً أو طمعاً أو كليهما التفت الرجل بعد بيان حال نفسه إلى القوم فقال : « و إليه ترجعون » يريد به إنذارهم بيوم الرجوع وأنه تعالى سيحاسبهم على ما عملوا فيجازيهم بمساوي أعمالهم فقوله : « و إليه ترجعون » كالمعتضة الخارجة عن السياق أو هي هي .

ثم إن الآيتين حجتان قائمتان على إبطال ما احتج به الوثنية و بنوا على ذلك عبادة الأصنام و أربابها .

توضيح ذلك أنهم قالوا : إن الله سبحانه أجل من أن يحيط به حس أو خيال أو عقل لا يناله شيء من القوى الإدراكية فلا يمكن التوجه إليه بالعبادة فسبيل العبادة أن نتوجه إلى مقر بي حضرته و الأقوياء من خلقه كالملائكة الكرام و الجن و القدّيسين من البشر حتى يكونوا شفعاء لنا عند الله في إيصال الخيرات و دفع الشرور و المكار .

و الجواب عن أولى الحجّتين بما حاصله أن "الإنسان وإن كان لا يحيط علماً بالذات المتعالية لكنّه يعرفه تعالى بصفاته الخاصّة به مثل كونه فاطراً له موجدّاً إيّاه فله أن يتوجّه إليه من طريق هذه الصفات وإنكار إمكانه مكابرة ، وهذا الجواب هو الذي أشار إليه بقوله : « وما لي لا أعبد الذي فطرني » .

و عن الثانية أن هؤلاء الآلهة إن كانت لهم شفاعّة كانت ممّا أفاضه الله عليهم والله سبحانه لا يعطيهم ذلك إلّا فيما لا تتعلّق به منه إرادة حاتمة و لازمه أن شفاعتهم فيما أذن الله لهم فيه كما قال : « ما من شفيع إلّا من بعد إذنه » يونس : ٣ أمّا إذا أراد الله شيئاً إرادة حتم فلا تنفع شفاعتهم شيئاً في المنع عن نفوذها فاتّخاذهم آلهة و عدمه سواء في عدم التأثير لجلب خير أو دفع شرّ ، و إلى ذلك أشار بقوله : « ءأَتُخَذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةٌ إِنْ يَرِدُنَ الرَّحْمَنُ بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً وَلَا يَقْنُذُونَ » .

و تعبيره عنه تعالى بالرحمان إشارة إلى سعة رحمته و كثرتها و أن النعم كلّها من عنده و تدبير الخير والشرّ إليه و يتحصّل من هنا برهان آخر على وحدانيّته تعالى في الربوبيّة ، إن لمّا كان جميع النعم و كذا النظام الجاري فيها ، من رحمته وقائمه به من غير استقلال في شيء منها كان المستقلّ بالتدبير هو تعالى حتّى أن تدبير الملائكة لو فرض تدبيرهم لشيء من رحمته و تدبيره تعالى و كانت الربوبيّة له تعالى وحده و كذا الألوهيّة .

قوله تعالى « إني إذا لفي ضلال مبين » تسجيل للضلال على اتّخاذ الآلهة .

قوله تعالى : « إني آمنت بربكم فاسمعون » من كلام الرجل خطاباً للرسل و قوله : « فاسمعون » كناية عن الشهادة بالتحمّل ، و قوله : « إني آمنت بربكم » الخ تجديد الشهادة بالحقّ و تأكيد للإيمان فإنّ ظاهر السياق أنّه إنّما قال : « إني آمنت بربكم » بعد محتاجته خطاباً للرسل ليستشهدهم على إيمانه وليؤيّدهم بإيمانه بمرئى من القوم و مسمع .

و قيل : إنّ خطاب للقوم تأييداً للرسل و المعنى إني آمنت بالله فاسمعوا منّي فإنّي لا أباي بما يكون منكم على ذلك أو المعنى إني آمنت بالله فاسمعوا منّي وآمنوا

بد أو أنه أراد به أن يغضبهم و يشغلهم عن الرسل بنفسه حيث إنه رأى أنهم بصدد الإيقاع بهم . هذا .

و فيه أنه لا يلائمه التعبير عن الله سبحانه بقوله « ربكم » فإن القوم ما كانوا يتخذونه تعالى رباً لهم وإنما كانوا يعبدون الأرباب من دون الله سبحانه .
ورد بأن المعنى إني آمنت بربكم الذي قامت الحجة على ربوبيته لكم وهو الله سبحانه . و فيه أنه قيد من غير مقيد .

قوله تعالى : « قيل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين » الخطاب للرجل وهو - كما يفيد السياق - يلوّح إلى أن القوم قتلوه فنودي من ساحة العزة أن ادخل الجنة كما يؤيد قوله بعد : « وما أنزلنا على قومه من بعده » الخ فوضع قوله : « قيل ادخل الجنة » موضع الإخبار عن قتلهم إيّاه إشارة إلى أنه لم يكن بين قتله بأيديهم وبين أمره بدخول الجنة أي فصل وانفكاك كأن قتله بأيديهم هو أمره بدخول الجنة .

و المراد بالجنة على هذا جنة البرزخ دون جنة الآخرة ، وقول بعضهم : إن المراد بها جنة الآخرة والمعنى سيقال له : ادخل الجنة . يوم القيامة والتعبير بالماضي لتحقيق الوقوع تحكّم من غير دليل كما قيل : إن الله رفعه إلى السماء ف قيل له ادخل الجنة فهو حيّ يتنعم فيها إلى قيام الساعة ، وهو تحكّم كسابقه .

وقيل : إن القائل : « ادخل الجنة » هو القوم قالوا له ذاك حين قتله استهزاء وفيه أنه لا يلائم ما أخبر الله سبحانه عنه بقوله بعد : « قال يا ليت قومي يعلمون » الخ فإنّ ظاهره أنه تمنى علم قومه بما هو فيه بعد استماع نداء « ادخل الجنة » و لم يسبق من الكلام ما يصح أن يبتني عليه قوله ذاك .

وقوله : « قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من المكرمين » استئناف كسابقه كالجواب عن سؤال مقدّر كأنه قيل : فما ذا كان بعد تأييده للرسل ؟ فقيل : « قيل ادخل الجنة » ثم قيل : فماذا كان بعد ؟ فقيل : « قال يا ليت قومي يعلمون » الخ وهو نصح منه لقومه ميتاً كما كان ينصحهم حيّاً .

و « ما » في قوله : « بما غفر لي » الخ مصدرية ، و قوله : « و جعلني » عطف على « غفر » و المعنى بمغفرة ربِّي لي و جعله إيَّاي من المكرمين .
و موهبة الإكرام و إن كانت واسعة ينالها كثيرون كالإكرام بالنعمة كما في قوله :
« فأما الإنسان إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه و نعمه فيقول ربِّي أكرمن « الفجر : ١٥ ،
و قوله : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » الحجرات : ١٣ فإن كرامة العبد عند الله إكرام منه له لكنّه لم يعد من المكرمين بوصف الإطلاق إلا طائفتين من خلقه : الملائكة الكرام كما في قوله : « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول و هم بأمره يعملون » الأنبياء : ٢٧ ، و الكاملين في إيمانهم من المؤمنين سواء كانوا من المخلصين بكسر اللام كما في قوله : « أولئك في جنات مكرمون » المعارج : ٣٥ ، أو من المخلصين بفتح اللام كما في قوله : « إلا عباد الله المخلصين - إلى أن قال - و هم مكرمون » الصافات : ٤٢ .
و الآية من أدلة وجود البرزخ .

قوله تعالى : « و ما أنزلنا على قوم من بعده من جند من السماء و ما كنّا منزلين » الضميران للرجل ، و « من بعده » أي من بعد قتله ، و « من » الأولى والثالثة لابتداء الغاية ، و الثانية مزيدة لتأكيد النفي .

و الآية نوطئة للآية التالية ، وهي مسوقة لبيان هوان أمر القوم و الانتقام منهم بإهلاكهم على الله سبحانه و أنّه لا يحتاج في إهلاكهم إلى عدّة و عدّة حتّى ينزل من السماء جندا من الملائكة يقاتلونهم فيهلكونهم فلم يفعل ذلك فيهم و لا فعل ذلك في إهلاك من أهلك من الأمم الماضين و إنّما أهلكهم بصيحة واحدة تقضي عليهم .

قوله تعالى : « إن كانت إلا صيحة واحدة فإزاهم خامدون » أي ما كان الأمر الذي كان سبب إهلاكهم بمشيئتنا إلا صيحة واحدة ، و تأنيث الفعل لتأنيث الخبر ، و تنكير « صيحة » و توصيفها بالوحدة للاستحقاق ، و الخمود السكون ، و استئناف الجملة لكونها كالجواب لسؤال مقدّر كأنّه قيل : فماذا كان سبب إهلاكهم ؟ فقيل : إن كانت إلا صيحة واحدة .

و المعنى كان سبب هلاكهم أيسر أمر وهي صيحة واحدة ففاجأهم السكون فصاروا

ساكنين لا يسمع لهم حسّ وهم عن آخرهم موتى لا يتحرّكون .

قوله تعالى : « يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزؤن » أي يا ندامة العباد و نداء الحسرة عليهم أبلغ من إثباتها لهم ، وسبب الحسرة ما يتضمنه قوله : « ما يأتيهم من رسول » الخ .

و من هذا السياق يستفاد أن المراد بالعباد عامّة الناس و تتأكّد الحسرة بكونهم عبادا فإن ردّ العبد دعوة مولاه و تمرّد عنه أشنع من ردّ غيره نصيحة الناصح . و بذلك يظهر سخافة قول من قال : إن المراد بالعباد الرسل أو الملائكة أوهما جميعا . و كذا قول من قال : إن المراد بالعباد الناس لكن المتحسّر هو الرجل . و ظهر أيضاً أن قوله : « يا حسرة على العباد » الخ من قول الله تعالى لا من تمام قول الرجل .

قوله تعالى : « ألم يروا كم أهلكنا قبلهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون » توبيخ لأولئك الذين نودي عليهم بالحسرة ، و « من القرون » بيان لكم ، و القرون جمع قرن و هو أهل عصر واحد .

و قوله : « أنهم إليهم لا يرجعون » بيان لقوله : « كم أهلكنا قبلهم من القرون » ضمير الجمع الأوّل للقرون و الثاني و الثالث للعباد . و المعنى ألم يعتبروا بكثرة المهلكين بأمر الله من القرون الماضية و أنهم مأخوذون بأخذ إلهي لا يتمكّنون من الرجوع إلى ما كانوا يترفون فيه ؟

و للقوم في مراجع الضمائر وفي معنى الآية أقوال أخر بعيدة عن الفهم تركنا إيرادها . **قوله تعالى :** « و إن كلّ ملّا جميع لدينا محضرون » لفظة « إن » حرف نفى و « كلّ » مبتدأ تنوينه عوض عن المضاف إليه ، و « ملّا » بمعنى إلّا ، و جميع بمعنى مجموع ، و لدينا ظرف متعلّق به ، و محضرون خبر بعد خبر و هو جميع ، و احتمل بعضهم أن يكون صفة لجميع .

و المعنى و ما كلّهم إلّا مجموعون لدينا محضرون للحساب و الجزاء يوم القيامة فالآية في معنى قوله : « ذلك يوم مجموع له الناس و ذلك يوم مشهود » هود : ١٠٣ .

﴿ بحث روائى ﴾

في المجمع قالوا : بعث عيسى رسولين من الحواريين إلى مدينة أنطاكية فلما قربا من المدينة رأيا شيخا يرعى غنيمات له و هو حبيب صاحب يس فسلما عليه فقال الشيخ لهما : من أنتما ؟ قالوا : رسولا عيسى ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن فقال : أمعكما آية ؟ قالوا نعم نحن نشفي المريض و نبريء الأكمه و الأبرص بإذن الله تعالى فقال الشيخ : إن لي ابنا مريضاً صاحب فراش منذسين قالوا : فانطلق بنا إلى منزلك نتطلع حاله فذهب بهما فمسحا ابنه فقام في الوقت بإذن الله تعالى صحيحا ففشى الخبر في المدينة و شفى الله على أيديهما كثيرا من المرضى .

وكان لهم ملك يعبد الأصنام فأُنبئ الخبر إليه فدعاهما فقال لهما : من أنتما ؟ قالوا : رسولا عيسى جئنا ندعوك من عبادة ما لا يسمع و لا يبصر إلى عبادة من يسمع و يبصر . قال الملك : و لنا إله سوى آلهتنا ؟ قالوا : نعم من أوجدك و آلهتك . قال : قوما حتّى أنظر في أمركما فأخذهما الناس في السوق و ضربوهما .

قال وهب بن منبه : بعث عيسى هذين الرسولين إلى أنطاكية فأتياها و لم يصلا إلى ملكها و طالت مدة مقامهما فخرج الملك ذات يوم فكبراً و ذكرا الله فغضب الملك و أمر بحبسهما و جلد كل واحد منهما مائة جلدة .

فلما كذب الرسولان و ضربا بعث عيسى شمعون الصفا رأس الحواريين على أمرهما لينصرهما فدخل شمعون البلد متنكراً فجعل يعاشر حاشية الملك حتّى أنسوا به فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه و رضي عشرته و أنس به و أكرمه . ثم قال له ذات يوم : أيها الملك بلغني أنك حبست رجلين في السجن و ضربتهما حين دعواك إلى غير دينك فهل سمعت قولهما ؟ قال الملك : حال الغضب بيني و بين ذلك . قال : فإن رأى الملك دعاهما حتّى نتطلع ما عندهما .

فدعاهما الملك فقال لهما شمعون : من أرسلكما إلى ههنا ؟ قالوا : الله الذي خلق كل شيء لا شريك له . قال : و ما آتاكمما ؟ قالوا : ما تمنّاه ، فأمر الملك حتّى جاؤا

بغلام مطموس العينين و موضع عينيه كالجبهة فما زالا يدعوان الله حتى انشق موضع البصر فأخذ ابندقتين من الطين فوضعا في حدقيه فصارتا مقلتين يبصر بهما فتعجب الملك ثم قال شمعون للملك : أرايت لو سألت إلهك حتى يصنع صنيعا مثل هذا ؟ فيكون لك ولا إلهك شرفا . فقال الملك : ليس لي عنك سر إن إلهنا الذي نعبد لا يضر ولا ينفع .

ثم قال الملك للرسولين : إن قدر إلهكما على إحياء ميت آمنا به و بكما . قالوا : إلهنا قادر على كل شيء ؛ فقال الملك : إن ههنا ميتا مات منذ سبعة أيام لم ندفنه حتى يرجع أبوه و كان غائبا فجاءوا بالميت و قد تغير و أروح فجعلوا يدعوان ربهما علانية و جعل شمعون يدعو ربّه سرا فقام الميت و قال لهم : إنني قدمت منذ سبعة أيام و أدخلت في سبعة أودية من النار و أنا اُحذر كم ما أنتم فيه فأمنوا بالله فتعجب الملك ، فلما علم شمعون أن قوله أثر في الملك دعاه إلى الله فأمن و آمن من أهل مملكته قوم و كفر آخرون .

قال : و قد روى مثل ذلك العياشي بإسناده عن الثمالی و غيره عن أبي جعفر و أبي عبد الله عليهما السلام إلا أن في بعض الروايات : بعث الله الرسولين إلى أهل أنطاكية ثم بعث الثالث ، و في بعضها أن عيسى أوحى الله إليه أن يبعثهما ثم بعث وصيه شمعون ليخلصهما ، و أن الميت الذي أحياه الله بدعائهما كان ابن الملك و أنه قد خرج من قبره ينفض التراب عن رأسه فقال له : يا بني ما حالك ؟ قال : كنت ميتا فرأيت رجلين ساجدين يسألان الله تعالى أن يحييني . قال : يا بني فتعرفهما إذا رأيتهما ؟ قال : نعم فأخرج الناس إلى الصحراء فكان يمر عليه رجل بعد رجل فمر أحدهما بعد جمع كثير فقال : هذا أحدهما . ثم مر الآخر فعرفهما و أشار بيده إليهما فأمن الملك و أهل مملكته .

و قال ابن إسحاق : بل كفر الملك و أجمع هو و قومه على قتل الرسل فبلغ ذلك حبيبا وهو على باب المدينة الأقصى فجاء يسعى إليهم يذكرهم ويدعوهم إلى طاعة الرسل .
اقول : سياق آيات القصة لا يلائم بعض هذه الروايات .

وفي الدر المنثور أخرج أبوداود و أبو نعيم و ابن عساكر والديلمي عن أبي ليلى قال : قال رسول الله ﷺ : الصدّيقون ثلاثة : حبيب النجار مؤمن آليسين الذي قال : يا قوم اتبعوا المرسلين ، وحزقيل مؤمن آل فرعون الذي قال : أقتلون رجلاً أن يقول ربّي الله ، وعليّ بن أبي طالب وهو أفضلهم .

اقول : و رواه أيضاً عن البخاري في تاريخه عن ابن عباس عنه ﷺ ولفظه : الصدّيقون ثلاثة : حزقيل مؤمن آل فرعون و حبيب النجار صاحب آل ياسين و عليّ ابن أبي طالب .

و في المجمع عن تفسير الثعلبي بالاسناد عن عبد الرحمان بن أبي ليلى عن النبي ﷺ قال : سبق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين عليّ بن أبي طالب و صاحب يس و مؤمن آل فرعون فهم الصدّيقون و عليّ أفضلهم .

اقول : و روى هذا المعنى في الدر المنثور عن الطبراني وابن مردويه وضعفه عن ابن عباس عنه ﷺ ولفظه : السبق ثلاثة فالسابق إلى موسى يوشع بن نون و السابق إلى عيسى صاحب يس و السابق إلى محمد ﷺ عليّ بن أبي طالب .





وَ آيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَمِيتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ
يَأْكُلُونَ (٤٣) وَ جَعَلْنَا فِيهَا جَنَاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَ أَعْنَابٍ وَ فَجَّرْنَا فِيهَا
مِنَ الْعُيُونِ (٤٤) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَ مَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (٤٥)
سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تَنْبِتُ الْأَرْضُ وَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ مِمَّا
لَا يَعْلَمُونَ (٤٦) وَ آيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٤٧)
وَ الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٤٨) وَ الْقَمَرَ
قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٤٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا
أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ وَ لَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٥٠)
وَ آيَةٌ لَهُمُ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٥١) وَ خَلَقْنَا لَهُمْ
مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٥٢) وَ إِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلَا صَرِيخَ لَهُمْ وَ لَا هُمْ
يُنْقَذُونَ (٥٣) إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَ مَتَاعًا إِلَىٰ حِينٍ (٥٤) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّقُوا
مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَ مَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٥) وَ مَا نَأْتِيهِمْ مِنْ
آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٥٦) وَ إِذَا قِيلَ لَهُمْ
انْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْطَعِمُ مَنْ
لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٧) .

﴿ بيان ﴾

بعد ما قصّ عليهم قصّة أصحاب القرية وما آل إليه أمرهم في الشرك و تكذيب الرسل و وبخّهم على الاستهانة بأمر الرسالة ، و أنذرهم بنزول العذاب عليهم كما نزل على المكذّبين من القرون الأولى ، و بأنّهم جميعاً محضرون للحساب والجزاء .

أورد آيات من الخلق والتدبير تدلّ على ربوبيّته وألوهيّته تعالى وحده لا شريك له ثمّ وبخّهم على ترك النظر في آيات الوحديّة والمعاد و الإعراض عنها والاستهزاء بالحقّ و الإمساك عن الإنفاق للفقراء والمساكين .

قوله تعالى : « و آية لهم الأرض الميتة أحييناها و أخرجنا منها حبّاً فمنه يأكلون » يذكر سبحانه في الآية و اللّتين بعدها آية من آيات الربوبيّة وهي تدبير أمر أرزاق الناس و تغذيتهم من أثمار النبات من الحبوب والتمر والعنب وغيرها .

فقوله : « و آية لهم الأرض الميتة أحييناها » و إن كان ظاهره أن الآية هي الأرض إلّا أن الجملتين توطئتان لقوله : « و أخرجنا منها حبّاً » النخ و مسوقتان للإشارة إلى أن هذه الأغذية النباتيّة من آثار نفخ الحياة في الأرض الميتة و تبديلها حبّاً و تمراً يأكلون من ذلك فالآية بنظر هي الأرض الميتة من حيث ظهور هذه الخواصّ فيها و تمام تدبير أرزاق الناس بها .

وقوله : « و أخرجنا منها حبّاً » أي و أخرجنا من الأرض بايّ نبات النبات حبّاً كالحنطة و الشعير و الأرز و سائر البقولات .

وقوله : « فمنه يأكلون » تفريع على إخراج الحبّ و بالأكل يتمّ التدبير، و ضمير « فمنه » للحبّ .

قوله تعالى : « و جعلنا فيها جنّات من نخيل و أعناب و فجّرنا فيها من العيون » قال الراغب : الجنّة كلّ بستان ذي شجر يستر بأشجاره الأرض انتهى و النخيل جمع نخل و هو معروف و الأعناب جمع عنب يطلق على الشجرة و هي الكرم و على الثمرة .

وقال الراغب : العين الجارحة - إلى أن قال - ويستعار العين لمعان هي موجودة في الجارحة بنظرات مختلفة - إلى أن قال - ويقال لمنبع الماء عين تشبيهاً لما فيها من الماء انتهى ، والتفجير في الأرض شقها لإخراج المياه ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون » اللام لتعليل ما ذكر في الآية السابقة أي جعلنا فيها جنات وفجرنا فيها العيون بشقها ليأكل الناس من ثمره .

وقوله : « من ثمره » قيل : الضمير للمفعول من الجنات ولذا أفرد و ذكر ولم يقل : من ثمرها أي من ثمر الجنات ، أو من ثمرهما أي من ثمر النخيل والأعناب .
و قيل : الضمير للمذكور وقد يجري الضمير مجرى اسم الإشارة كما في قول رؤبة :

فيها خطوط من سواد و بلق كأنه في الجلد توليع البهق
فقد روي أن أبا عبيدة سأله عن قوله « كأنه » فقال : كأن ذاك .

وفي مرجع ضمير « من ثمره » أقوال أخر رديئة كقول بعضهم : إن الضمير للنخيل فقط ، وقول آخر : إنه للماء لدلالة العيون عليه أو بحذف مضاف والتقدير ماء العيون ، وقول آخر : إن الضمير للتفجير المفهوم من « فجّرنا » والمراد بالثمر على هذين الوجهين الفائدة ، وقول آخر : إن الضمير له تعالى وإضافته إليه لأنه خلقه وملكه .

وقوله : « وما عملته أيديهم » العمل هو الفعل والفرق بينهما - على ما ذكره الراغب - أن أكثر ما يستعمل العمل في الفعل المقارن للقصد والإرادة ، ولذلك يشد استعماله في الحيوان والجماد ، ولذلك أيضاً يتّصف العمل بالصالح وخلافه فيقال . عمل صالح وعمل طالح ولا يتّصف بهما مطلق الفعل .

و « ما » في « وما عملته » نافية والمعنى ولم يعمل الثمر أيديهم حتى يشاركونا في تدبير الأرزاق بل هو مما اقتصنا بخلقه و تميم التدبير به من دون أن نستعين بهم

فما بالهم لا يشكرون ؟

و يؤيد هذا المعنى قوله تعالى في أواخر السورة و هو يمتن عليهم بخلق الأنعام لتدبير أمر رزقهم و حياتهم : « أولم يروا أننا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما - إلى أن قال - ومنها يأكلون ولهم فيها منافع و مشارب أفلا يشكرون . »

و احتمال بعضهم كون « ما » في « و ما عملته » موصولة معطوفة على « ثمرة » والمعنى ليأكلوا من ثمرة و من الذي عملته أيديهم من ثمرة كالخل و الدبس المأخوذ من الثمر و العنب وغير ذلك .

و هذا الوجه و إن عدّه بعضهم أوجه من سابقه ليس بذاك فإن المقام مقام بيان آيات دالة على ربوبيته تعالى بذكر أمور من التدبير يخصّه تعالى ولا يناسبه ذكر شيء من تدبير الغير معه و تتميم الحجّة بذلك ، و لو كان المراد ذكر عملهم بما أنه منته إلى خلقه تعالى و جزء من التدبير العام كان الأنسب أن يقال : وما هديناهم إلى عمله أو ما يؤدّى معناه لينتفي به توهم الشركة في التدبير .

و احتمال بعضهم كون « ما » نكرة موصوفة معطوفة على « ثمرة » و المعنى ليأكلوا من ثمرة و من شيء عملته أيديهم . هذا و يرد عليه ما يرد على سابقه .

و قوله : « أفلا يشكرون » توبيخ و استقباح لعدم شكره ، و شكره تعالى منهم على هذا التدبير إظهارهم جميل نعمه بذكره قولا و فعلا أي إظهارهم أنهم عباد له مدبرون بتدبيره وهو العبادة فشكره تعالى هو الاعتراف بربوبيته و إتخاذه إلها معبودا .

قوله تعالى : « سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض و من أنفسهم و مما لا يعلمون » إنشاء لتزيهه تعالى ، لما ذكر عدم شكرهم له على ما خلق لهم من أنواع النبات و رزقهم من الحبوب و الأثمار ، و إنما عمل ذلك بتزويج بعض النبات بعضها كما قال : « و أنبتنا فيها من كل زوج بهيج » ق : ٧ أشار إلى ما هو أعظم و أوسع من خلق أزواج النبات وهو خلق الأزواج كلها وتنظيم العالم المشهود باستيلاء كل شيء من فاعل و منفعل قبله هما أبواه كالذكر والأنثى من الإنسان والحيوان والنبات ، و كل فاعل و منفعل يتلاقيان فينتجان بتلاقيهما أمراً ثالثاً ، أشار

تعالى إلى ذلك فنزّه نفسه بقوله : « سبحان الذي خلق الأزواج كلها » الخ فقوله :
 « سبحان الذي خلق الأزواج كلها » إنشاء تسبيح على ما يعطيه السياق لا إخبار .
 وقوله : « مما تنبت الأرض » هو و ما بعده بيان للأزواج والذي تنبت الأرض
 هو النبات ولا يبعد شموله الحيوان وقد قال تعالى في الإنسان وهو من أنواع الحيوان
 « والله أنبتكم من الأرض نباتا » نوح : ١٧ ويؤيد ذلك أن ظاهر سياق البيان استيعابه
 للمبني مع عدم ذكر الحيوان في عداد الأزواج .

وقوله : « ومن أنفسهم » أي الناس ، وقوله : « ومما لا يعلمون » وهو الذي
 يجله الإنسان من الخليفة أو يجهل كيفية ظهوره أو ظهور الكثرة فيه .
 وربما قيل في الآية : إن المراد بالأزواج الأنواع والأصناف ، ولا يساعد
 عليه الآيات التي تذكر خلق الأزواج كقوله تعالى : « ومن كل شيء خلقنا زوجين
 لعلكم تذكرون » الذاريات : ٤٩ والمقارنة و نوع من التألف والتركب من لوازم مفهوم
 الزوجية .

قال الراغب : يقال لكل واحد من القرينين من الذكر والأنثى في الحيوانات
 المتزاوجة : زوج ، و لكل قرينين فيها وفي غيرها : زوج كالخف والنعل ، و لكل
 ما يقترن بآخر مماثل له أو مضاد : زوج ، قال : وقوله : « خلقنا زوجين » فيين أن
 كل ما في العالم زوج من حيث إن له ضدّا ما أو مثلاً ما أو تركيباً ما بل لا ينفك بوجه
 من تركيب . انتهى .

فزوجية الزوج هي كونه مفتقرا في تحققه إلى تألف و تركيب و لذلك يقال
 لكل واحد من القرينين من حيث هما قرينان : زوج لافتقاره إلى قرينه ، و كذا يقال
 لمجموع القرينين : زوج لافتقاره في تحققه زوجا إلى التألف و التركيب فكون الأشياء
 أزواجا مقارنة بعضها بعضا لا تتاج ثلث أو كونه مولدا من تألف اثنين .

قوله تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون » آية أخرى
 من آيات الربوبية الدالة على وقوع التدبير العام السماوي للعالم الإنساني المذكورة
 في أربع آيات .

و لا شك أن الآية تشير إلى مفاجأة الليل عقيب ذهاب النهار ، و السلخ في الآية بمعنى الإخراج و لذلك عدّي بمن ولو كان بمعنى النزع كما في قولنا : سلخت الإهاب عن الشاة تعيّن تعدّيه بعن دون من .

و يؤيد ذلك أنه تعالى عبّر في مواضع من كلامه عن ورود كل من الليل و النهار عقيب الآخر بإيلاجه فيه فقال في مواضع من كلامه : « يولج الليل في النهار و يولج النهار في الليل » الحج : ٦١ فإذا كان ورود النهار بعد الليل إيلاجا للنهار في الليل اعتبارا كان مفاجأة الليل بعد النهار إخراجا للنهار من الليل اعتبارا .

كأن الليل أطبق عليهم و أحاطت بهم ظلمته ثم ولج فيه النهار فوسعهم نوره و ضياؤه ثم خرج منه ففاجأهم الليل ثانيا بانطباق الظلام و إحاطته بما أضاءه النهار ففي الكلام نوع من الاستعارة بالكناية .

و لعلّ فيما ذكرناه من الوجه كفاية عمّا أطنبوا فيه من البحث في معنى سلخ النهار من الليل ثم مفاجأة الليل .

قوله تعالى : « و الشمس تجري لمستقرّ لها ذلك تقدير العزيز العليم » جريها حركتها ، و قوله : « لمستقرّ لها » اللام بمعنى إلى أو للغاية ، و المستقرّ مصدر ميميّ أو اسم زمان أو مكان و المعنى أنّها تتحرّك نحو مستقرّها أو حتّى تنتهي إلى مستقرّها أي استقرارها و سكونها بانقضاء أجلها أو زمن استقرارها أو محلّه .

و أمّا جريها وهو حركتها فظاهر النظر الحسّيّ يثبت لها حركة دوريّة حول الأرض لكنّ الأبحاث العلميّة تقضي بالعكس و تكشف أنّ لها مع سيّاراتها حركة انتقاليّة نحوالنسر الواقع .

و كيف كان فمحصّل المعنى أنّ الشمس لا تزال تجري مادام النظام الدينيّ على حاله حتّى تستقرّ وتسكن بانقضاء أجلها فتخرب الدنيا و يبطل هذا النظام ، وهذا المعنى يرجع بالمال إلى معنى القراءة المنسوبة إلى أهل البيت وغيرهم : « والشمس تجري لمستقرّ لها » كما قيل .

و أمّا حمل جريها على حركتها الوضعيّة حول مركزها فهو خلاف ظاهر الجري

الدالّ على الانتقال من مكان إلى مكان .

وقوله : « ذلك تقدير العزيز العليم » أي الجري المذكور تقدير و تدبير ممن لا يغلبه غالب في إرادته ولا يجهل جهات الصلاح في أفعاله .

قوله تعالى : « و القمر قد رنّاد منازل حتّى عاد كالعرجون القديم » المنازل جمع منزل اسم مكان من النزول و الظاهر أنّ المراد به المنازل الثمانية والعشرون التي تقطعها القمر في كلّ ثمانية و عشرين يوما وليلة تقريبا .

و العرجون عود عذق النخلة من بين الشمراخ الى منبته وهو عود أصفر مقوّس يشبه الهلال ، و القديم العتيق .

وقد اختلفت الأنظار في معنى الآية للاختلاف في تركيبها ، و أقرب التقديرات من الفهم قول من قال : إنّ التقدير والقمر قد رنّاه ذا منازل أو قد رنّاه له منازل حتّى عاد هلالا يشبه العرجون العتيق المصفرّ لونه .

تشير الآية إلى اختلاف مناظر القمر بالنسبة إلى أهل الأرض فإنّ نوره مكتسب من الشمس يستنير بها نصف كرتة تقريبا و ما يقرب من النصف الآخر غير المسامت للشمس مظلم ثمّ يتغير موضع الاستنارة ولا يزال كذلك حتّى يعود إلى الوضع الأوّل و يعرض ذلك أن يظهر لأهل الأرض في صورة هلال ثمّ لا يزال ينبسط عليه النور حتّى يتبدّر ثمّ لا يزال ينقص حتّى يعود إلى ما كان عليه أوّلا .

ولاختلاف صورته آثار بارزة في البرّ والبحر و حياة الناس على ما بيّن في الأبحاث المطروحة .

فالآية الكريمة تذكر من آية القمر أحواله الطارئة له بالنسبة إلى الأرض و أهلها دون حاله في نفسه ودون حاله بالنسبة إلى الشمس فقط .

و من هنا لا يبعد أن يقال في قوله تعالى : « و الشمس تجري لمستقرّ لها » أنّ المراد بقوله : « تجري » الإشارة إلى ما يعطيه ظاهر الحسّ من حركتها اليومية و الفصلية و السنوية وهي حالها بالنسبة إلينا ، و بقوله : « لمستقرّ لها » حالها في نفسها وهي سكونها بالنسبة إلى سيّاراتها المتحرّكة حولها كأنّه قيل : وآية لهم أنّ الشمس

على استقرارها تجري عليهم و قد دبّر العزيز العليم بذلك كينونة العالم الأرضي و حياة أهله و الله أعلم .

قوله تعالى : « لا الشمس ينبغي لها أن تدرّك القمر ولا الليل سابق النهار وكلّ في فلك يسبحون » لفظة ينبغي تدلّ على الترجّح ونفي ترجّح الإدراك من الشمس نفي وقوعه منها ، والمراد به أن التدبير ليس ممّا يجري يوما ويقف آخر بل هو تدبير دائم غير مختلّ و لا منقوض حتّى ينقضي الأجل المضروب منه تعالى لذلك .

فالمنعنى أن الشمس و القمر ملازمان لما خطّ لهما من المسير فلا تدرّك الشمس القمر حتّى يختلّ بذلك التدبير المعمول بهما و لا الليل سابق النهار و هما متعاقبان في التدبير فيتقدّم الليل النهار فيجتمع ليلتان ثمّ نهاران بل يتعاقبان .

و لم يتعرّض لنفي إدراك القمر للشمس و لا لنفي سبق النهار لليل لأنّ المقام مقام بيان انحفاظ النظم الإلهي عن الاختلال والفساد فنفي إدراك ما هو أعظم وأقوى و هو الشمس لما هو أصغر و أضعف و هو القمر ، و يعلم منه حال العكس و نفي سبق الليل الذي هو افتقاد للنهار الذي هو ليله و الليل مضاف إليه متأخّر طبعاً منه و يعلم به حال العكس .

و قوله : « و كلّ في فلك يسبحون » أي كلّ من الشمس و القمر و غيرهما من النجوم و الكواكب يجرون في مجرى خاصّ به كما يسبح السمكة في الماء فالفلك هو المدار الفضائي الذي يتحرّك فيه الجرم العلوي ، و لا يبعد حينئذ أن يكون المراد بالكلّ كلّ من الشمس و القمر و الليل و النهار و إن كان لا يوجد في كلامه تعالى ما يشهد على ذلك .

و الإتيان بضمير الجمع الخاصّ بالعقلاء في قوله : « يسبحون » لعلّه للإشارة إلى كونها مطاوعة لمشيئته مطيعة لأمره تعالى كالعقلاء كما في قوله : « ثمّ استوى إلى السماء و هي دخان فقال لها و للأرض اثبتا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين » حمّ السجدة : ١١ .

و للمفسّرين في جمل الآية آراء آخر مضطربة أضربنا عنها من أراد الوقوف

عليها فليراجع المفصلات .

قوله تعالى : « و آية لهم أننا حملنا ذريّتهم في الفلك المشحون » قال الراغب: الذريّة أصلها الصغار من الأولاد ، وتقع في التعارف على الصغار والكبار معا ، و يستعمل للواحد والجمع وأصله للجمع . انتهى ، والفلك السفينة ، والمشحون المملوء . آية أخرى من آيات ربوبيّته تعالى وهو جريان تديره في البحر حيث يحمل ذريّتهم في الفلك المشحون بهم وبأمتعتهم يجوزون به من جانب إلى جانب للتجارة وغيرها ، ولا حامل لهم فيه ولا حافظ لهم عن الغرق إلا هو تعالى والخواص التي يستفيدون منها في ركوب البحر أمور مسخرة له تعالى منتهية إلى خلقه على أن هذه الأسباب لولم تنته إليه تعالى لم تغن طائلا .

وإنما نسب الحمل إلى الذريّة دونهم أنفسهم فلم يقل : إنّنا حملنا هم لا إثارة الشفقة والرحمة .

قوله تعالى : « و خلقنا لهم من مثله ما يركبون » المراد به - على ما فسّروه - الأنعام قال تعالى : « وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون » الزخرف : ١٢ و قال : « وعليها وعلى الفلك تحملون » المؤمن : ٨٠ .

وفسّر بعضهم الفلك المذكور في الآية السابقة بسفينة نوح عليه السلام وما في هذه الآية بالسفن والزوارق المعمولة بعدها وهو تفسير رديء ومثله تفسير ما في هذه الآية بالأبل خاصة .

وربما فسّر ما في هذه الآية بالطيارات والسفن الجويّة المعمولة في هذه الأعصار والتعميم أولى .

قوله تعالى : « وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولا هم ينقذون » الصريخ هو الذي يجيب الصراخ ويغيث الاستغاثة ، والإنقاذ هو الإنجاء من الغرق . والآية متصلة بقوله السابق : « أننا حملنا ذريّتهم في الفلك المشحون » أي إن الأمر إلى مشيئتنا فإن نشأ نغرقهم فلا يغيثهم مغيث ولا ينقذهم منقذ .

قوله تعالى : « إلاّ رحمة منا ومتاعاً إلى حين » استثناء مفرغ والتقدير

لا ينجون بسبب من الأسباب و أمر من الأمور إلا لرحمة منا تنالهم و لتمتع إلى حين الأجل المسمى قدّرناه لهم .

قوله تعالى : « و إذا قيل لهم اتّقوا ما بين أيديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون »
 لما ذكر الآيات الدالة على الربوبية ذمهم على عدم رعايتهم حقها و عدم إقبالهم عليها و عدم ترتيبهم عليها آثارها فإذا قيل لهم هذه الآيات البينات ناطقة أن ربكم الله فاتّقوا معصيته في حالكم الحاضرة و ما قدّمتم من المعاصي ، أو عذاب الشرك و المعاصي التي أنتم مبتلون بها و ما خلّقتكم وراءكم ، أو اتّقوا ما بين أيديكم من الشرك و المعاصي في الحياة الدنيا و ما خلفكم من العذاب في الآخرة ، أعرضوا عنه ولم يستجيبوا له على ما هو دأبهم في جميع الآيات التي ذكروا بها .

و من هنا يظهر أو لا أن المراد بما بين أيديهم و ما خلفهم الشرك و المعاصي التي هم مبتلون بها في حالهم الحاضرة و ما كانوا مبتلين به قبل ، أو العذاب الذي استوجبوه بذلك ، و المال واحد ، أو الشرك و المعاصي في الدنيا و العذاب في الآخرة وهو أوجه الوجوه .

و ثانياً أن حذف جواب إذا للدلالة على أن حالهم بلغت من الجرأة على الله والاستهانة بالحق مبلغاً لا استطاع معها ذكر ما يجيبون به داعي الحق إذا دعاهم إلى التقوى فيجب أن يترك أسفاً ولا يذكر ، وقد دلّ عليه بقوله : « و ما تأنيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين » .

قوله تعالى : « و ما تأنيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين »
 المراد ببيان الآيات موافاتها لهم بالمشاهدة أو بالتلاوة والذكر ، و أيضاً هي أعم من أن تكون آية آفاقية أو أنفسيّة ، أو تكون آية معجزة كالقرآن ، فهم معرضون عنها جميعاً .

قوله تعالى : « و إذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله » إلى آخر الآية كان قوله :
 « و إذا قيل لهم اتّقوا ما بين أيديكم و ما خلفكم » متعرّضاً لجوابهم إذا دعوا إلى عبادة الله و هي أحد ركني الدين الحق ، و هذه الآية تعرّضت لجوابهم إذا دعوا إلى

الشفقة على خلق الله و هو الركن الآخر و معلوم أن جوابهم الردّ دون القبول .
 فقوله : « و إذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله » يتضمّن دعوتهم إلى الإنفاق
 على الفقراء و المساكين من أموالهم و في التعبير عن الأموال بما رزقهم الله إشعار بأنّ
 المالك لها حقيقة هو الله الذي رزقهم بها و سلّطهم عليها ، و هو الذي خلق الفقراء و
 المساكين و أقام حاجتهم إلى ما عند هؤلاء من فضل المؤمن الذي لا يقترون إليه فلينفقوا
 عليهم و ليحسنوا و ليجميلوا و الله يحبّ الإحسان و جميل الفعل .

و قوله : « قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » جوابهم
 للدعوة إلى الإنفاق ، و إنّما أظهر القائل - الذين كفروا - و مقتضى المقام الإضمار
 للإشارة إلى أن كفركم بالحقّ و إعراضهم عنه باتّباع الشهوات هو الذي دعاكم إلى
 الاعتذار بمثل هذا العذر المبنيّ على الإعراض عمّا تدعو إليه الفطرة من الشفقة على
 خلق الله و إصلاح ما فسد في المجتمع كما أنّ الأظهار في قوله : « للذين آمنوا »
 للإشارة إلى أن قائل « أنفقوا مما رزقكم الله » هم الذين آمنوا .

وفي قولهم : « أنطعم من لو يشاء الله أطعمه » إشعار بأنّ المؤمنين إنّما قالوا لهم :
 « أنفقوا مما رزقكم الله » بعنوان أنّه ممّا يشاؤه الله و يريدّه حكما دينيا فردّوه بأنّ
 إرادة الله لا تتخلّف عن مراده فلو شاء أن يطعمهم أطعمهم أي وسّع في رزقهم و جعلهم
 أغنياء .

و هذه مغالطة منهم خلطوا فيه بين الإرادة التشريعيّة المبنيّة على الابتلاء و
 الامتحان و هداية العباد إلى ما فيه صلاح حالهم في دنياهم و آخرتهم و من الجائز أن
 تتخلّف عن المراد بالعصيان ، و بين الإرادة التكوينيّة التي لا تتخلّف عن المراد و من
 المعلوم أنّ مشيئة الله و إرادته المتعلّقة بإطعام الفقراء و الإنفاق عليهم من المشيئة
 التشريعيّة دون التكوينيّة فتخلّفها في مورد الفقراء إنّما يدلّ على عصيان الذين كفروا
 و تمردّهم عمّا أمروا به لا على عدم تعلّق الإرادة به و كذب مدّعيه .

وهذه مغالطة بنوا عليها جلّ ما افتعلوه من سنن الوثنيّة وقد حكى الله سبحانه
 ذلك عنهم في قوله : « و قال الذين أشركوا لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن

و لا آباؤنا و لا حرّمنا من دونه من شيء » النحل : ٣٥ ، و قوله : « سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا و لا آباؤنا و لا حرّمنا من شيء » الأنعام : ١٣٨ ، و قوله : « و قالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم » الزخرف : ٢٠ .

و قوله : « إن أنتم إلا في ضلال مبين » من تمام قول الذين كفروا يخاطبون به المؤمنين أي إنكم في ضلال مبين في دعواكم أن الله أمرنا بالإنفاق و شاء منّا ذلك .

﴿ بحث روائى ﴾

في المجمع و روي عن عليّ بن الحسين زين العابدين و أبي جعفر الباقر و جعفر الصادق عليهم السلام « لا مستقرّ لها » بنصب الراء .

و في الدرّ المنثور أخرج سعيد بن منصور و أحمد و البخاريّ و مسلم و أبو داود و الترمذيّ و النسائيّ و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ و ابن مردويه و البيهقي عن أبي ذرّ قال : سألت رسول الله ﷺ عن قوله : « و الشمس تجري لمستقرّ لها » قال : مستقرّها تحت العرش .

أقول : و قد روي هذا المعنى عن أبي ذرّ عنه عنه من طرق الخاصّة و العامّة مختصرة و مطوّلة ، و في بعضها أنّها بعد الغروب تصعد سماء سماء حتّى تصل إلى مادون العرش فتسجد و تستأذن في الطلوع و تبقى على ذلك حتّى تكسى نورا و يؤذن لها في الطلوع .

و الرواية إن صحّت فهي مؤوّلّة .

و في روضة الكافي بإسناده عن سلام بن المستنير عن أبي جعفر عليه السلام قال : إن الله عزّ و جلّ خلق الشمس قبل القمر و خلق النور قبل الظلمة .

و في المجمع روى العياشيّ في تفسيره بالإسناد عن الأشعث بن حاتم قال : كنت بخراسان حيث اجتمع الرضا و الفضل بن سهل و المأمون في الأيوان بمرور فوضعت المائدة فقال الرضا عليه السلام : إن رجلا من بني إسرائيل سألتني بالمدينة فقال : النهار خلق قبل أم الليل ؟ فما عندكم ؟ قال : و أداروا الكلام فلم يكن عندهم في ذلك شيء .

فقال الفضل للرضا : أخبرنا بها أصلحك الله. قال: نعم من القرآن أم من الحساب؟ قال له الفضل من جهة الحساب فقال : قد علمت يا فضل أن طالع الدنيا السرطان و الكواكب في مواضع شرفها فزحل في الميزان والمشتري في السرطان والمريخ في الجدي والشمس في الحمل والزهرة في الحوت و عطارد في السنبلة والقمر في الثور فتكون الشمس في العاشر وسط السماء فالنهار قبل الليل ، ومن القرآن قوله تعالى : « ولا الليل سابق النهار » أي الليل قد سبقه النهار .

اقول : نقل الآ لوسي في روح المعاني هذا الحديث ثم قال : وفي الاستدلال بالآية بحث ظاهر ، وأما بالحساب فله وجه في الجملة و رأى المنجمون أن ابتداء الدورة دائرة نصف النهار وله موافقة لما ذكر والذي يغلب على الظن عدم صحة الخبر من مبتدئه فالرضا أجل من أن يستدل بالآية على ماسمعت من دعواه انتهى . وقد اختلط عليه الأمر في تحصيل حقيقة معنى الليل والنهار:

توضيحه أن الليل والنهار متقابلان تقابل العدم والملكة كالعمى والبصر فكما أن العمى ليس مطلق عدم البصر حتى يكون الجدار مثلاً أعمى لعدم البصر فيه بل هو عدم البصر مما من شأنه أن يتصف بالبصر كالأنسان كذلك الليل ليس هو مطلق عدم النور بل هو زمان عدم استضاءة ناحية من نواحي الأرض بنور الشمس ومن المعلوم أن عدم الملكة يتوقف في تحققه على تحقق الملكة المقابلة له قبله حتى يتعين بالإضافة إليه فلولا البصر لم يتحقق عمى ولولا النهار لم يتحقق الليل .

فمطلق الليل بمعناه الذي هو به ليل مسبوق الوجود بالنهار وقوله : « ولا الليل سابق النهار » وإن كان ناظراً إلى الترتيب المفروض بين النهار والليالي وأن هناك نهاراً وليلاً ونهاراً وليلاً وأن واحداً من هذه الليالي لا يسبق النهار الذي بجانبه . لكنه تعالى أخذ في قوله : « ولا الليل سابق النهار » مطلق الليل ونفى تقدّمه على مطلق النهار ولم يقل : إن واحداً من الليالي الواقعة في هذا الترتيب لا يسبق النهار الواقع في الترتيب قبله .

فالحكم في الآية مبني على ما يقتضيه طبيعة الليل والنهار بحسب التقابل الذي

أودعه الله بينهما وقد استفيد منه الحكم بالحفاظ الترتيب في تعاقب الليل والنهار فإنَّ كلَّ ليل هو افتقاد النهار الذي هو يتلوهُ فلا يتقدَّم عليه و إلى هذا يشير عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد ذكر الآية بقوله : «أي الليل قد سبقه النهار» يعني أنَّ سبق النهار الليل هو خلقه قبله وليس كما يتوهم أنَّ هناك نهرا وليالي موجودة ثمَّ يتعيَّن لكلِّ منها محلُّه .

و قول المعترض : « و أمَّا بالحساب فله وجه في الجملة » لا يدري وجه قوله : في الجملة وهو وجه تامَّ مبنيٌّ على تسليم أصول التنجيم صحيح بالجملة على ذلك التقدير لا في الجملة .

وكذا قوله : « ورآى المنجمون أنَّ ابتداء الدورة دائرة نصف النهار وله موافقة لما ذكر » لا محصل له لأنَّ دائرة نصف النهار وهي الدائرة المارَّة على القطبين ونقطة ثالثة بينهما غير متناهية في العدد لا تتعيَّن لها نقطة معيَّنة في السماء دون نقطة أخرى فيكون كون الشمس في إحداهما نهرا للأرض دون الأخرى .

و في المجمع في قوله تعالى : « و إذا قيل لهم اتَّقُوا ما بين أيديكم و ما خلفكم » روى الحلبيُّ عن أبي عبد الله عَلَيْهِ السَّلَامُ قال : معناه اتَّقُوا ما بين أيديكم من الذنوب و ما خلفكم من العقوبة .





و يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٨) مَا يَنْظُرُونَ
 إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ (٤٩) فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً
 وَلَا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ (٥٠) وَ نَفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَاهُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ
 إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ (٥١) قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ
 الرَّحْمَنُ وَ صدَّقَ الْمُرْسَلُونَ (٥٢) إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَاهُمْ
 جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ (٥٣) فَالْيَوْمَ لَا تَنْظُمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَلَا تَحْزَنُ إِلَّا
 مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٥٤) إِنْ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَاكِهُونَ (٥٥) هُمْ وَ
 أَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَكِئُونَ (٥٦) لَهُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَ لَهُمْ مَا
 يَدَّعُونَ (٥٧) سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَحِيمٍ (٥٨) وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ (٥٩)
 أَلَمْ أَعْهِدَ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٦٠) وَ
 أَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٦١) وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ
 تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٦٢) هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (٦٣) اصْلَوْهَا الْيَوْمَ
 بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٦٤) الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَ تَكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَ تَشْهَدُ
 أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٦٥) .

﴿ بيان ﴾

لما فرغ من تفصيل آيات التوحيد المشار إليه إجمالاً في أوّل الكلام شرع في تفصيل خبر المعداد و ذكر كيفية قيام الساعة و إحضارهم للحساب و الجزاء و ما يجزى به أصحاب الجنة و ما يجازى به المجرمون كل ذلك تبيناً لما تقدّم من إجمال خبر المعداد .

قوله تعالى : « و يقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين » كلام منهم وارد مورد الاستهزاء مبنيّ على الإنكار ، و لعلّه لذلك جيء باسم الإشارة الموضوعة للقريبة و لأنّ النبيّ ﷺ و المؤمنين كثيراً ما كانوا يسمعونهم حديث يوم القيامة و ينذرونهم به ، و الوعد يستعمل في الخير و الشرّ إذا ذكر وحده و إذا قابل الوعيد تعيّن الوعد للخير و الوعيد للشرّ .

قوله تعالى : « ما ينظرون إلاّ الصيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون » النظر بمعنى الانتظار ، والمراد بالصيحة نفخة الصور الأولى باعانة السياق ، و توصيف الصيحة بالوحدة للإشارة إلى هوان أمرهم على الله جلّت عظمته فلا حاجة إلى مؤنة زائدة ، و « يخصمون » أصله يختصمون من الاختصاص بمعنى المجادلة والمخاصمة .

والآية جواب لقولهم : « متى هذا الوعد » مسوقة سوق الاستهزاء بهم والاستهانة بأمرهم كما كان قولهم كذلك ، والمعنى ما ينتظر هؤلاء القائلون : متى هذا الوعد في سؤالهم عن وقت الوعد المنبئ عن الانتظار إلاّ صيحة واحدة - سيرة علينا بلا مؤنة ولا تكلف - تأخذهم فلا يسعهم أن يفرّوا وينجوا منها والحال أنّهم غافلون عنها يختصمون فيما بينهم .

قوله تعالى : « فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون » أي يتفرّغ عاى هذه الصيحة بما أنّها تفاجئهم ولا تمهلهم أن يموتوا من فورهم فلا يستطيعوا توصية - على أنّ الموت يعمّهم جميعاً دفعة فلا يترك منهم أحداً يوصي إليه - ولا أن يرجعوا إلى أهلهم إذا كانوا في الخارج من بيوتهم مثلاً .

قوله تعالى : « و نفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون »
هذه هي نفخة الصور الثانية التي بها الأحياء والبعث ، والأجداث جمع جدث وهو القبر
والنسل الإسراع في المشي وفي التعبير عنه بقوله : « إلى ربهم » تفرغ لهم لأنهم كانوا
ينكرون ربوبيته والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن و صدق
المرسلون » البعث الإقامة ، والمرقد محل الرقاد والمراد به القبر ، و تعبيرهم عنه
تعالى بالرحمان نوع استرحام وقد كانوا يقولون في الدنيا : « وما الرحمن » الفرقان :
٤٠ ، و قوله : « وصدق المرسلون » عطف على قوله : « هذا ما وعد الرحمن » والجملة
الفعلية قد تعطف على الاسمية .

و قولهم : يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا مبني على إنكارهم البعث وهم في الدنيا و
رسوخ أثر الإنكار والغفلة عن يوم الجزاء في نفوسهم وهم لا يزالون مستغرقين في الأهواء
فإذا قاموا من قبورهم مسرعين إلى المحشر فاجأهم الورود في عالم لا يستقبلهم فيه إلا
توقع الشر فأخذهم الفرع الأكبر والدهشة التي لا تقوم لها الجبال و لذا يتبادرون
أو لا إلى دعوة الويل والهلاك كما كان ذلك دأبهم في الدنيا عند الوقوع في المخاطر ثم
سألوا عمن بعثهم من مرقدهم لأن الذي أحاط بهم من الدهشة أذهلهم من كل شيء .
ثم ذكروا ما كانت الرسل عليه السلام يدعرونهم به من الوعد الحق بالبعث والجزاء
فشهدوا بحقيقة الوعد واستعصموا بالرحمة فقالوا : « هذا ما وعد الرحمن » على ما هو
دأبهم في الدنيا حيث يكيدون عدوهم إذا ظهر عليهم بالتملق وإظهار الذلة والاعتراف
بالظلم والتقصير ثم صدقوا الرسل بقولهم : « وصدق المرسلون » .

و بما تقدم ظهر أو لا وجه دعوتهم بالويل إذا بعثوا .
و ثانيا وجه سؤالهم عمن بعثهم من مرقدهم الظاهر في أنهم جاهلون به أو لا ثم
إقرارهم بأنه الذي وعده الرحمن و تصديقهم المرسلين فيما بلغوا عنه تعالى .
و يظهر أيضاً أن قوله : « من بعثنا من مرقدنا » الخ و قوله : « هذا ما وعد
الرحمان » الخ من قولهم .

و قيل : قوله : « و صدق المرسلون » عطف على مدخول « ما » و « ما » موصولة أو مصدرية و « هذا ما وعد الرحمان » الخ جواب من الله أو من الملائكة أو من المؤمنين لقولهم : « من بعثنا من مرقدنا » ؟

و غير خفي أنه خلاف الظاهر و خاصة على تقدير كون « ما » مصدرية ولو كان قوله : « هذا ما وعد الرحمان » الخ جوابا من الله أو الملائكة لقولهم : « من بعثنا من مرقدنا » لا يجيب بالفاعل دون الفعل لأنهم سألوا عن فاعل البعث ! و ما قيل : إن العدول إليه لتذكير كفرهم و تقريرهم عليه مع تضمنه الإشارة إلى الفاعل هذا . لا يغني طائلا .

و ظهر أيضا أن قوله : « هذا ما وعد الرحمان » مبتدء و خبر ، و قيل : « هذا » صفة لمرقدنا بتأويل اسم الإشارة إلى المشتق و « ما » مبتدء خبره محذوف تقديره ما وعد الرحمان حق و هو بعيد عن الفهم .

قوله تعالى : « إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم جميع لدينا محضرون » اسم كان محذوف و التقدير إن كانت الفعلة أو النفخة إلا نفخة واحدة تفاجئهم أنهم مجموع محضرون لدينا من غير تأخير و مهلة .

و التعبير بقوله : « لدينا » لأن اليوم يوم الحضور لفصل القضاء عند الله سبحانه .
قوله تعالى : « فاليوم لا تظلم نفس شيئا ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون » أي في هذا اليوم يقضى بينهم قضاء عدلا و يحكم حكما حقا فلا تظلم نفس شيئا .

و قوله : « ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون » عطف تفسير لقوله : « فاليوم لا تظلم نفس شيئا » و هو في الحقيقة بيان برهاني لا تنفائ الظلم يومئذ لدلالته على أن جزاء أعمال العاملين يومئذ نفس أعمالهم ، ولا يتصور مع ذلك ظلم لأن الظلم وضع الشيء في غير موضعه و تحميل العامل عمله وضع الشيء في موضعه ضرورة .

و خطاب الآية من باب تمثيل يوم القيامة و إحضاره و إحضار من فيه بحسب العناية الكلامية ، و ليس - كما توهم - حكاية عما سيقال لهم أو يخاطبون به من جانب الله سبحانه أو الملائكة أو المؤمنين يوم القيامة فلا موجب له من جهة السياق .

والمخاطب بقوله : « ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون » السعداء والأشقياء جميعاً .

وما قيل عليه أن الحصر يأبى التعميم فإنه تعالى يوفّي المؤمنين أجورهم ويزيدهم من فضله أضعافاً مضاعفة مدفوع بأن الحصر في الآية ناظر إلى جزاء العمل وأجره وما يدل من الآيات على المزيد كقوله : « لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد » ق : ٣٥ أمرواء الجزاء والأجر خارج عن طور العمل .

وربما أُجيب عنه بأن معنى الآية أن الصالح لا ينقص ثوابه والطالح لا يزداد عقابه فإن الحكمة تنافيه أما زيادة الثواب ونقص العقاب فلا مانع منه أو أن المراد بقوله : « لا تجزون إلا ما كنتم تعملون » أنكم لا تجزون إلا من جنس عملكم إن خيراً فخير وإن شراً فشر .

وفيه أن مدلول الآية لو كان ما ذكر اندفع الاشكال لكن الشأن في دلالتها على ذلك .

قوله تعالى : « إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون » الشغل الشأن الذي يشغل الإنسان ويصرفه عما عداه ، والفاكهة من الفاكهة وهي التحدث بما يسر أو التمتع والتلذذ ولا فعل له من الثلاثي المجرد على ما قيل .

وقيل : « فاكهون » معناه ذوو فاكهة نحو لابن ونامر وبعده أن الفاكهة المذكورة في السياق والاموجب لتكرارها .

والمعنى أن أصحاب الجنة في هذا اليوم في شأن يشغلهم عن كل شيء دونه وهو التمتع في الجنة متمتعون فيها .

قوله تعالى : « هم وأزواجهم في ظلال على الأرائك متكئون » الظلال جمع ظل وقيل جمع ظلّة بالضم وهي السترة من الشمس من سقف أو شجر أو غير ذلك ، والأريكة كل ما يتكى عليه من وسادة أو غيرها .

والمعنى هم أي أصحاب الجنة وأزواجهم من حلائلهم المؤمنات في الدنيا أو من الحور العين في ظلال أو أستار من الشمس وغيرها متكئون على الأرائك انكساء الأعزّة .

قوله تعالى : «لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون» الفاكهة ما يتفكه بدمن الثمرات كالتفاح والأترج ونحوهما ، وقوله : «يدعون» من الادعاء بمعنى التمني أي لهم في الجنة فاكهة ولهم فيها ما يتمنونه ويطلبونه .

قوله تعالى : «سلام قولا من رب رحيم» سلام مبتدء محذوف الخبر والتنكير للتفخيم والتقدير سلام عليهم أو لهم سلام ، و «قولا» مفعول مطلق لفعل محذوف و التقدير أقوله قولا من رب رحيم .

والظاهر أن السلام منه تعالى وهو غير سلام الملائكة المذكور في قوله : «والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار» الرعد : ٢٤ .

قوله تعالى : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » أي و نقول اليوم للمجرمين امتازوا من أصحاب الجنة وهو تمييزهم منهم يوم القيامة و إنجاز لما في قوله في موضع آخر : « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » ص : ٢٨ ، وقوله : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم » الباقية : ٢١ .

قوله تعالى : « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين » العهد الوصية ، والمراد بعبادة الشيطان طاعته فيما يوسوس و يأمر به إذ لا طاعة إلا لله أو من أمر بطاعته ، وقد علل النهي عن طاعته بكونه عدوا مبيناً لأن العدو لا يريد بعدو خيراً .

وقيل : المراد بعبادته عبادة الآلهة من دون الله وإنما نسبت إلى الشيطان لكونها بتسويله وتزيينه ، و هو تكلف من غير موجب .

و إنما وجه الخطاب إلى المجرمين بعنوان أنهم بنو آدم لأن عداوة الشيطان إنما نشبت أول ما نشبت بآدم حيث أمر أن يسجد له فأبى واستكبر فرجم ثم عادى ذريته بعداوته وأوعدهم كما حكا الله تعالى إذ قال : « قال أرايتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلا » أسرى : ٦٢ .

و أما عهده تعالى و وصيته إلى بني آدم أن لا يطيعوه فهو الذي وصاهم به بلسان

رسله وأنبيائه وحذّرهم عن اتّباعه كقوله تعالى : « يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة » الأعراف : ٢٧ : وقوله : « ولا يصدّكم الشيطان إنّّه لكم عدوّ مبين » الزخرف : ٦٢ .

وقيل : المراد بالعهد عهده تعالى إليهم في عالم الذّرحيث قال : أَلست برّبكم قالوا بلى . وقد عرفت ممّا قدّمناه في تفسير آية الذّر أنّ العهد الذي هناك هو بوجه عين العهد الذي وجّه إليهم في الدنيا .

قوله تعالى : « وأنّ اعبدونى هذا صراط مستقيم » عطف تفسير لما سبقه ، وقد تقدّم كلام في معنى الصراط المستقيم في تفسير قوله : « اهدنا الصراط المستقيم » من سورة الفاتحة .

قوله تعالى : « ولقد أضلّ منكم جبلاً كثيراً أفلم تكونوا تعقلون » الجبل الجماعة وقيل : الجماعة الكثيرة والكلام مبنيّ على التوبيخ والعتاب .

قوله تعالى : « هذه جهنّم الّتي كنتم توعدون » أي كان يستمرّ عليكم الایعاد بها مرّة بعد مرّة بلسان الأنبياء والرسل عليهم السلام وأوّل ما أوعد الله سبحانه بها حين قال لا بليس : « إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلّا من اتّبعك من الغاوين وإنّ جهنّم لموعدهم أجمعين » الحجر : ٤٣ وفي لفظ الآية إشارة إلى إحضار جهنّم يومئذ .

قوله تعالى : « اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون » الصلا اللزوم والاتباع ، وقيل : مقاساة الحرارة ، ويظهر بقوله : « بما كنتم تكفرون » أنّ الخطاب للكفّار وهم المراد بالمجرمين .

قوله تعالى : « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » أي يشهد كلّ منها بما كانوا يكسبونه بواسطته فلا أيدي بالمعاصي الّتي كسبوها والأرجل بالمعاصي الخاصّة بها على ما يعطيه السياق .

ومن هنا يظهر أنّ كلّ عضو ينطق بما يخصّه من العمل وأنّ ذكر الأيدي والأرجل من باب الأمّونج ولذا ذكر في موضع آخر السمع والبصر والفؤاد كما في سورة أسرى الآية ٣٦ . وفي موضع آخر الجلود كما في سورة حم السجدة الآية ٢٠ ، و

سيأتي بعض ما يتعلق به من الكلام في تفسير سورة حم السجدة إن شاء الله .

﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « ما ينظرون إلا صيحة واحدة » الآية قال : ذلك في آخر الزمان يصاح فيهم صيحة وهم في أسواقهم يتخاصمون فيموتون كلهم في مكانهم لا يرجع أحد منهم إلى منزله ولا يوصي بوصية ، وذلك قوله عز وجل : « فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون » .

و في المجمع في الحديث تقوم الساعة والرجلان قد نشرا ثوبهما يتبايعان فما يطويانه حتى تقوم الساعة ، والرجل يرفع أكلته إلى فيه حتى تقوم الساعة ، والرجل يلبط^(١) حوضه ليسقي ماشيته فما يسقيها حتى تقوم .

اقول : و روى هذا المعنى في الدر المنثور عن أبي هريرة عن النبي ﷺ و كذا عن قتادة عنه ﷺ مرسل .

و في تفسير القمي و قوله عز وجل : « و نفخ في الصور فإذاهم من الأحداث إلى ربهم ينسلون » قال : من القبور . و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا » فإن القوم كانوا في القبور فلمّا قاموا حسبوا أنّهم كانوا نياما وقالوا : يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا . قالت الملائكة : هذا ما وعد الرحمن و صدق المرسلون .

و في الكافي بإسناده إلى أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال : كان أبو ذر رحمه الله يقول في خطبته : و ما بين الموت و البعث إلا كنومة نمتها ثم استيقظت منها .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « إن أصحاب الجنة اليوم في شغل فاكهون » قال : يفاكهون النساء و يلاعبونهن .

و فيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عز وجل : « في ظلال على الأرائك متكئون » الأرائك السرر عليها الحجال .

وفيه في قوله عز وجل : « سلام قولا من رب رحيم » قال : السلام منه هو الأمان . وقوله : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » قال : إذا جمع الله الخلق يوم القيامة بقوا قياما على أقدامهم حتى يلجمهم العرق فينادون : يا رب حاسبنا ولو إلى النار قال : فيبعث الله رياحا فتضرب بينهم وينادي مناد : « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » فيميز بينهم فصار المجرمون في النار ، ومن كان في قلبه الإيمان صار إلى الجنة .

أقول : و قدورد في بعض الروايات أن الله سبحانه يتجلى لهم فيشتغلون به عن كل من سواه مادام التجلي والمراد به ارتفاع كل حجاب بينهم وبين ربهم دون الرؤية البصرية التي لا تتحقق إلا بمقارنة الجهات والأبعاد فإنها مستحيلة في حقه تعالى .

وفي اعتقادات الصدوق قال عليه السلام : من أصغى إلى ناطق فقد عبده فإن كان الناطق عن الله فقد عبد الله ، وإن كان الناطق عن إبليس فقد عبد إبليس .
وفي الكافي بإسناده عن محمد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام في حديث قال : وليست تشهد الجوارح على مؤمن إنما تشهد على من حقت عليه كلمة العذاب فأما المؤمن فيعطى كتابه يمينه قال الله عز وجل : « فأما من أوتي كتابه يمينه فأولئك يقرؤن كتابهم ولا يظلمون فتيلا » أسرى : ٧١ .

و في تفسير العياشي عن مسعدة بن صدقة عن جعفر بن محمد عن جده قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام في خطبة يصف هول يوم القيامة : ختم الله على الأفواه فلا تكلم وتكلمت الأيدي وشهدت الأرجل ونطقت الجلود بما عملوا فلا يكتمون الله حديثا .
أقول : وفي هذا المعنى روايات أخر يأتي بعضها في ذيل تفسير قوله تعالى : « شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم » الآية حم السجدة : ٢٠ ، و تقدّم بعضها في الكلام على قوله تعالى : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا » أسرى : ٣٦ ،



وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنَّى يُبْصِرُونَ (٦٦)
 وَ لَوْ نَشَاءُ لَمَمَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ (٦٧)
 وَمَنْ نَعْمَرُهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ (٦٨) وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ
 وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ (٦٩) لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ
 حَيًّا وَ يَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧٠) أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا
 عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَ ذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا
 رَكُوبُهُمْ وَ مِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) وَ لَهُمْ فِيهَا مِنْفَعٌ وَ مَشَارِبٌ أَفَلَا
 يَشْكُرُونَ (٧٣) وَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ (٧٤) لَا
 يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ (٧٥) فَلَا يَحْزَنكَ قَوْلُهُمْ
 إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَ مَا يَعْلَنُونَ (٧٦) أَوْ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ
 مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٧٧) وَ ضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ
 قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ
 وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا
 فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ (٨٠) أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَ الْأَرْضَ بِقَادِرٍ
 عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ (٨١) إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا

أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٨٣) فَسَبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٨٣) .

﴿بيان﴾

بيان تلخيصي* للمعاني السابقة في سياق آخر ففيه تهديد لهم بالعذاب ، والإشارة إلى أنه ﷺ رسول وأن كتابه ذكر قرآن و ليس بشاعر ولا كتابه بشعر ، والإشارة إلى خلق الأنعام آية للتوحيد ، والاحتجاج على المعاد .

قوله تعالى : « و لو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فأنى يبصرون » قال في مجمع البيان : الطمس محو الشيء حتى يذهب أثره فالطمس على العين كالطمس على الكتاب ومثله الطمس على المال و هو إزهابه حتى لا يقع عليه إدراك ، و أعمى مطموس و طمس و هو أن يذهب الشق الذي بين الجفنين ، انتهى .
فقوله : « و لو نشاء لطمسنا على أعينهم » أي لو أردنا لأذهبنا أعينهم فصارت ممسوحة لا أثر منها فذهبت به أبصارهم و بطل إبصارهم .

و قوله : « فاستبقوا الصراط » أي أرادوا السبق إلى الطريق الواضح الذي لا يخطيء قاصده ولا يضل سالكه فلم يبصروه و لن يبصروه فالاستبعاد المفهوم من قوله : « فأنى يبصرون » كناية عن الامتناع .

و قول بعضهم : إن المراد باستباق الصراط مبادرتهم إلى سلوك طريق الحق و عدم اهتدائهم إليها ، لا يخلو من بعد .

قوله تعالى : « و لو نشاء لمسخناهم على مكائهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون » قال في المجمع : و المسخ قلب الصورة إلى خلقه مشوهة كما مسخ قوم قردة و خنازير وقال : و المكانة و المكان واحد . انتهى والمراد بمسخهم على مكائهم تشويه خلقهم و هم قعود في مكائهم الذي هم فيه من غير أن يغيّرهم عن حالهم بعلاج و تكلف بل بمجرد المشيئة فهو كناية عن كونه هيناً سهلاً عليه تعالى من غير أي صعوبة .

و قوله : « فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون » أي مضياً في العذاب ولا يرجعون إلى حالهم قبل العذاب والمسخ فالمضي والرجوع كنايةتان عن الرجوع إلى حال السلامة والبقاء على حال العذاب والمسخ .

و قيل : المراد مضيتهم نحو مقاصدهم و رجوعهم إلى منازلهم وأهليهم ولا يخلو من بعد .

قوله تعالى : « و من نعمّره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون » التعمير التطويل في العمر ، والتنكيس قلب الشيء بحيث يعود أعلاه أسفله ويتبدّل قوّته ضعفاً وزيادته نقصاً والآنسان في عهد الهرم منكس الخلق يتبدّل قوّته ضعفاً و علمه جهلاً وذكره نسياناً .

والآية في مقام الاستشهاد بتنكيس الخلق على إمكان مضمون الآيتين السابقتين والمراد أن الذي ينكس خلق الإنسان إذا عمره قادر على أن يطمس على أعينهم وعلى أن يمسحهم على مكاتهم .

و في قوله : « أفلا يعقلون » توبيخهم على عدم التعقل وحشهم على التدبر في هذه الأمور والاعتبار بها .

قوله تعالى : « و ما علّمناه الشعر و ما ينبغي له إن هو إلا ذكر و قرآن مبين » عطف و رجوع إلى ما تقدّم في صدر السورة من تصديق رسالة النبي ﷺ و كون كتابه تنزيلاً من عنده تعالى .

فقوله : « و ما علّمناه الشعر » نفى أن يكون علمه الشعر ولازمه أن يكون بحيث لا يحسن قول الشعر لا أن يحسنه و يمتنع من قوله لنهي من الله متوجّه إليه ، ولا أن النازل من القرآن ليس بشعر و إن أمكنه ﷺ أن يقوله .

و به يظهر أن قوله : « و ما ينبغي له » في مقام الامتنان عليه بأنّه ترّاه عن أن يقول شعراً فالجملة في مقام دفع الدخل والمحصل أن عدم تعليمنا إياه الشعر ليس يوجب نقصاً فيه ولا أنّه تعجيز له بل لرفع درجته و تنزيه ساحته عمّا يتعاوره العارف بصناعة الشعر فيقع في معرض تزوين المعاني بالتخيّلات الشرعيّة الكاذبة

التي كلما أمعن فيها كان الكلام أوقع في النفس ، و تنظيم الكلام بأوزان موسيقية ليكون أوقع في السمع ، فلا ينبغي له ﷺ أن يقول الشعر وهو رسول من الله و آية رسالته و متن دعوته القرآن المعجز في بيانه الذي هو ذكر و قرآن مبين .

و قوله : « إن هو إلا ذكر و قرآن مبين » تفسير و توضيح لقوله : « و ما علمناه الشعر و ما ينبغي له » بما أن لازم معناه أن القرآن ليس بشعر فالحصر المستفاد من قوله : « إن هو إلا ذكر » الخ من قصر القلب و المعنى ليس هو بشعر ما هو إلا ذكر و قرآن مبين .

و معنى كونه ذكرا و قرآنا أنه ذكر مقروء من الله ظاهر في ذلك .

قوله تعالى : « لينذر من كان حيا و يحق القول على الكافرين » تعليل متعلق بقوله : « و ما علمناه الشعر » و المعنى و لم نعلمه الشعر لينذر بالقرآن المنزه من أن يكون شعرا من كان حيا الخ أو متعلق بقوله : « إن هو إلا ذكر » الخ و المعنى ليس ما يتلوه على الناس إلا ذكرا و قرآنا مبينا نزله إليه لينذر من كان حيا الخ و مآل الوجهين واحد .

و الآية - كما ترى - تعد غاية إرسال الرسول و إنزال القرآن إنذار من كان حيا - و هو كناية عن كوند يعقل الحق و يسمعه - و حقيقة القول و وجوبه على الكافرين فمحاذاة الآية لما في صدر السورة من الآيات في هذا المعنى ظاهر .

قوله تعالى : « أو لم يروا أننا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون » ذكر آية من آيات التوحيد تدل على ربوبيته تعالى و تدبيره للعالم الإنساني و هي نظيرة ما تقدم في ضمن آيات التوحيد السابقة من إحياء الأرض الميتة بإخراج الحب و الثمرات و تفجير العيون .

و المراد بكون الأنعام مما عملته أيديه تعالى عدم إشراكهم في خلقها و اختصاصه به تعالى فعمل الأيدي كناية عن الاختصاص .

و قوله : « فهم لها مالكون » تفريع على قوله : « خلقنا لهم » فإن المعنى خلقنا لأجلهم فهي مخلوقة لأجل الإنسان و لازمه اختصاصها به و ينتهي الاختصاص إلى

المملك فإنَّ المملك الاعتباريَّ الَّذي في المجتمع من شعب الاختصاص .

و بذلك يظهر ما في قول بعضهم : إنَّ في تفرُّع قوله : « فهم لها مالكون » على قوله : « خلقنا لهم » خفاء ، و الظاهر تفرُّعها على مقدِّر و التقدير خلقناها لهم فهم لها مالكون ، و أنت خبير بعدم خفاء تفرُّعها على « خلقنا لهم » و عدم الحاجة إلى تقدير .

و قيل : المملك بمعنى القدرة و القهر ، و فيه أنَّه مفهوم من قوله بعد : « و ذلَّلناها لهم » و التأسيس خير من التأكيد .

قوله تعالى : « و ذلَّلناها لهم فمنها ركوبهم و منها يأكلون » تذليل الأنعام جعلها منقادة لهم غير عاصية و هو تسخيرها لهم ، و الركوب بفتح الراء الحمولة كالإبل و البقر ، و قوله : « و منها يأكلون » أي من لحمها يأكلون .

قوله تعالى : « و لهم فيها منافع و مشارب أفلا يشكرون » المراد بالمنافع ما ينتفعون به من شعرها و وبرها و جلودها و غير ذلك ، و المشارب جمع مشرب - مصدر ميميٌّ بمعنى المفعول - و المراد بها الألبان ، و الكلام في معنى الشكر كالكلام فيما تقدَّم في قوله : « و ما عملته أيديهم أفلا يشكرون » .

و معنى الآيات الثلاث : أو لم تعلموا أننا خلقنا لأجلهم و لتدبير أمر حياتهم الدنيا أنعاما من الإبل و البقر و الغنم فتفرُّع على ذلك أنَّهم مالكون لها ملكا يصحَّح لهم أنواع تصرفاتهم فيها من غير معارض ، و ذلَّلناها لهم بجعلها مسخرة لهم منقادة غير عاصية فمنها ركوبهم الَّذي يركبونه ، و منها أي من لحومها يأكلون ، و لهم فيها منافع ينتفعون بأشعارها و أوبارها و جلودها و مشروبات من ألبانها يشربونها أفلا يشكرون الله على هذا التدبير الكامل الَّذي يكشف عن ربوبيته لهم؟ أو لا يعبدونه شكراً لا نعمد؟

قوله تعالى : « و اتَّخذوا من دون الله آلهة لعلَّهم ينصرون » ضمائر الجمع للمشركين ، و المراد بالآلهة الأصنام أو الشياطين و فراعنة البشر دون الملائكة المقرَّبين و الأولياء من الإنسان لعدم ملازمة ذيل الكلام : « وهم لهم جند محضون » لذلك .

و إِنَّمَا اتَّخَذُوهُمْ آلِهَةً رَجَاءُ أَنْ يَنْصُرُوا مِنْ نَاحِيَتِهِمْ لِأَنْ عَامَّتِهِمْ تَتَّخِذُ إِلَهًا زَعْمًا مِنْهُمْ أَنْ تَدِيرَ أَمْرَهُ مَفْوضٌ إِلَى مَنْ اتَّخَذَهُ إِلَهًا مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ فَيُعْبَدُ الْعَابِدُ مِنْهُمْ لِيَرْضِيَهُ بِعِبَادَتِهِ فَلَا يَسْخَطُ فَيَقْطَعُ النِّعْمَةَ أَوْ يَرْسِلَ النِّقْمَةَ .

قوله تعالى : « لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ » أي لَا يَسْتَطِيعُ هَؤُلَاءِ الْآلِهَةُ الَّذِينَ اتَّخَذُوهُمْ آلِهَةً نَصْرَ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ لِأَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ .

و قوله : « وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ » الظاهر أنَّهُ أَوَّلُ الضَّمِيرَيْنِ لِلْمُشْرِكِينَ وَثَانِيهِمَا لِلْآلِهَةِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالمُرَادُ أَنَّ الْمُشْرِكِينَ جُنْدٌ لِلْآلِهَةِ وَذَلِكَ أَنَّ مَنْ لَوَازِمُ مَعْنَى الْجُنْدِيَّةِ التَّبَعِيَّةُ وَالمُلَازِمَةُ وَالمُشْرِكُونَ هُمُ الْمُعْدُودُونَ أَتْبَاعاً لِآلِهَتِهِمْ مَطِيعِينَ لَهُمْ دُونَ الْعَكْسِ .

و المُرَادُ بِالْإِحْضَارِ فِي قَوْلِهِ : « مُحَضَّرُونَ » الْإِحْضَارُ لِلْجَزَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ قَالَ تَعَالَى : « وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ مُحَضَّرُونَ » الصَّافَاتُ : ١٥٨ وَقَالَ : « وَلَوْ لَا نِعْمَةٌ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِّينَ » الصَّافَاتُ : ٥٧ . وَمَحْصَلُ الْمَعْنَى لَا يَسْتَطِيعُ الْآلِهَةُ الْمُتَّخِذُونَ نَصْرَ الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَيُّ الْمُشْرِكُونَ لَهُمْ أَيُّ لَهْتِهِمْ أَتْبَاعُ مَطِيعُونَ مُحَضَّرُونَ مَعَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .

وَأَمَّا قَوْلُ الْقَائِلِ : إِنَّ الْمَعْنَى أَنَّ الْمُشْرِكِينَ جُنْدٌ لِآلِهَتِهِمْ مُعْدُونَ لِلذَّبِّ عَنْهُمْ فِي الدُّنْيَا ، أَوْ أَنَّ الْمَعْنَى وَهُمْ أَيُّ الْآلِهَةِ لَهُمْ أَيُّ لِلْمُشْرِكِينَ جُنْدٌ مُحَضَّرُونَ لِعَذَابِ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَنَّهُمْ وَقُودُ النَّارِ الَّتِي يَعَذِّبُ بِهَا الْمُشْرِكُونَ ، أَوْ مُحَضَّرُونَ لِعَذَابِهِمْ إِنْظَاراً لِعِزْزِهِمْ عَنِ النَّصْرِ أَوْ لَا قِنَاطَ الْمُشْرِكِينَ عَنْ شَفَاعَتِهِمْ فِيهِ مَعَانٍ رَدِيئَةٍ .

قوله تعالى : « فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يَسْرُونَ وَ مَا يَعلنُونَ » الفَاءُ لِنُفْرَيعِ النَّهْيِ عَنِ الْحُزَنِ عَلَى حَقِيقَةِ اتَّخَاذِهِمُ الْآلِهَةَ مِنْ دُونِ اللَّهِ رَجَاءَ لِلنَّصْرِ أَيُّ إِذَا كَانَ هَذَا حَقِيقَةً حَالِهِمْ أَنَّ الَّذِينَ اسْتَنْصَرُوهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ أَبَداً وَ أَنَّهُمْ سَيَحْضُرُونَ مَعَهُمْ لِلْعَذَابِ فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ مَا قَالُوا بِهِ مِنَ الشَّرْكِ فَإِنَّا لَسْنَا بِغَافِلِينَ عَنْهُمْ حَتَّى يَعْجِزُونَا أَوْ يَفْسُدُوا عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَمْرِ بَلْ نَعْلَمُ مَا يَسْرُونَ مِنْ أَقْوَالِهِمْ وَ مَا يَعلنُونَ ، وَ فِي تَرْكِيبِ

الآية بعض أقوال رديئة أضربنا عنه .

قوله تعالى : « أو لم ير الإنسان أننا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين » رجوع إلى ما تقدم من حديث البعث والاحتجاج عليه إثر إنكارهم ، ولا يبعد أن يكون بياناً تفصيلياً لقولهم المشار إليه في قوله : « فلا يحزنك قولهم » البخ والمراد بالرؤية العلم القطعي أي أو لم يعلم الإنسان علماً قاطعاً أننا خلقناه من نطفة ، وتنكير نطفة للتحقير ، والخصيم المصّر على خصومته وجداله .

والاستفهام للتعجب والمعنى من العجيب أن الإنسان يعلم أننا خلقناه من نطفة مهينة فيفاجؤه أنه خصيم مجادل مبين .

قوله تعالى : « و ضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم » الرميم البالي من العظام ، و « و نسي خلقه » حال من فاعل ضرب ، و قوله : « قال من يحيي العظام وهي رميم » بيان للمثل الذي ضربه الإنسان ، و لذلك جيء به مفصلاً من غير عطف لأن الكلام في معنى أن يقال : فماذا ضرب مثلاً؟ ف قيل : قال من يحيي العظام وهي رميم .

و المعنى و ضرب الإنسان لنا مثلاً و قد نسي خلقه من نطفة لأوّل مرّة ، ولو كان ذاكره لم يضرب المثل الذي ضربه و هو قوله : « من يحيي العظام وهي بالية ؟ » لأنّه كان يردّ على نفسه و يجيب عن المثل الذي ضربه بخلقه الأوّل كما لقّنه الله تعالى لنبيه ﷺ جواباً عنه .

قوله تعالى : « قل يحييها الذي أنشأها أوّل مرّة و هو بكلّ خلق عليم » تلقين الجواب للنبي ﷺ .

الإنشاء هو الإيجاد الابتدائي و تقييده بقوله : « أوّل مرّة » للتأكيد ، وقوله : « وهو بكلّ خلق عليم » إشارة إلى أنّه تعالى لا ينسى و لا يجهل شيئاً من خلقه فإذا كان هو خالق هذه العظام لأوّل مرّة و هو لا يجهل شيئاً ممّا كانت عليه قبل الموت و بعده فإذا حيّؤه ثانياً بمكان من الإمكان لثبوت القدرة و انتفاء الجهل و النسيان .

قوله تعالى : « الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون »

بيان لقوله : « الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » و الا يقاد إشعال النار .

و الآية مسوقة لرفع استبعاد جعل الشيء الموات شيئاً ذا حياة و الحياة و الموت متنافيان ، و الجواب أنه لا استبعاد فيه فإنه هو الَّذِي جعل لكم من الشجر الأخضر الَّذِي يقطر ماء ناراً فإن أتم منه توقدون و تشعلون النار ، و المراد به على المشهور بين المفسرين شجر^(١) المرخ و العفار كانوا يأخذون منهما على خضرتهما فيجعل العفار زندا أسفل و يجعل المرخ زنداً أعلى فيسحق الأعلى على الأسفل فتندح النار بأذن الله فحصول الحي من الميت ليس بأعجب من اندحاح النار من الشجرة الخضراء و هما متضادان .

قوله تعالى : « أَو لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ » الاستفهام للإينكار و الآية بيان للحجة السابقة المذكورة في قوله : « قُلْ يَحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » الخ بيان أقرب إلى الذهن و ذلك بتبديل إنشائهم أول مرة من خلق السماوات و الأرض الَّذِي هو أكبر من خلق الإنسان كما قال تعالى : « لَخَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ » المؤمن : ٥٧ .

فالأية في معنى قولنا : و كيف يمكن أن يقال : إن الله الَّذِي خلق عوالم السماوات و الأرض بما فيها من سعة الخلقة البديعة و عجيب النظام العام المتضمن لما لا يحصى من الأنظمة الجزئية المدهشة للعقول المحيرة للألباب و العالم الإنساني جزء يسير منها ، لا يقدر أن يخلق مثل هؤلاء الناس ؟ بلى و إنه خلاق عليم . و المراد بمثلهم قيل : هم و أمثالهم و فيه أنه مغاير لمعنى مثل على ما يعرف من اللغة و العرف .

و قيل : المراد بمثلهم هم أنفسهم بنحو الكناية على حد قولهم : مثلك غني عن كذا أي أنت غني عنه ، و فيه أنه لو كان كناية لصح التصريح به لكن لا وجه لقولنا :

(١) المرخ بالفتح فالسكون و الخاء المعجمة ، و العفار بعين مفتوحة ثم الفاء ثم الراء المهملة شجرتان تشتعلان بسحق أحدهما على الآخر .

أو ليس الذي خلق السماوات و الأرض بقادر على أن يخلقهم فإنّ الكلام في بعثهم لا في خلقهم و المشركون معترفون بأنّ خالقهم هو الله سبحانه .

وقيل : ضمير « مثلهم » للسماوات والأرض فإنّهما تشملان ما فيهما من العقلاء فأعيد إليهما ضمير العقلاء تغليبا فالمراد أنّ الله الخالق للعالم قادر على خلق مثله .
و فيه أنّ المقام مقام إثبات بعث الإنسان لا بعث السماوات و الأرض . على أنّ الكلام في الإعادة و خلق مثل الشيء ليس إعادة لعينه بالضرورة .

فالحق أن يقال : إنّ المراد بخلق مثلهم إعادتهم للجزاء بعد الموت كما يستفاد من كلام الطبرسي رحمه الله في مجمع البيان .

بيانه أنّ الإنسان مركّب من نفس و بدن ، و البدن في هذه النشأة في معرض التحلّل و التبدّل دائما فهو لا يزال يتغيّر أجزاؤه و المركّب ينتفي بانتهاء أحد أجزائه فهو في كلّ آن غيره في الآن السابق بشخصه و شخصيّة الإنسان محفوظة بنفسه - روحه - المجردة المنزّهة عن المادّة و التغيّرات الطارئة من قبلها المأمونة من الموت و الفساد .

و المتحصّل من كلامه تعالى أنّ النفس لا تموت بموت البدن و أنّها محفوظة حتّى ترجع إلى الله سبحانه كما تقدّم استفادته من قوله تعالى : « و قالوا إذا ضلّلنا في الأرض إنّنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربّهم كافرون قل يتوفّاكم ملك الموت الذي و كّل بكم ثمّ إلى ربّكم ترجعون » الم السجدة : ١١ .

فالبدن اللاحق من الإنسان إذا اعتبر بالقياس إلى البدن السابق منه كان مثله لا عينه لكنّ الإنسان ذا البدن اللاحق إذا قيس إلى الإنسان ذي البدن السابق كان عينه لا مثله لأنّ الشخصيّة بالنفس وهي واحدة بعينها .

و ممّا كان استبعاد المشركين في قولهم : « من يحيي العظام و هي رميم » راجعا إلى خلق البدن الجديد دون النفس أجاب سبحانه بإثبات إمكان خلق مثلهم و أمّا عودهم بأعيانهم فهو إنّما يتمّ بتعلّق النفوس و الأرواح المحفوظة عند الله بالأبدان المخلوقة جديداً ، فتكون الأشخاص الموجودين في الدنيا من الناس بأعيانهم كما قال

تعالى : « أو لم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض و لم يعي بخلقهن » بقادر على أن يحيي الموتى « الأحقاف : ٣٣ فعلق الإحياء على الموتى بأعيانهم فقال : على أن يحيي الموتى ولم يقل : على أن يحيي أمثال الموتى .

قوله تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » الآية من غرر الآيات القرآنية تصف كلمة الإيجاد و تبين أنه تعالى لا يحتاج في إيجاد شيء مما أراد إلى ما وراء ذاته المتعالية من سبب يوجد له ما أراده أو يعينه في إيجاد أو يدفع عنه مانعاً يمنع .

وقد اختلف تعبيره تعالى عن هذه الحقيقة في كلامه فقال : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » النحل : ٤٠ ، و قال : « و إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » البقرة : ١١٧ .

فقوله : « إنما أمره » الظاهر أن المراد بالأمر الشأن ، وقوله في آية النحل المنقولة آنفا : « إنما قولنا لشيء إذا أردناه » و إن كان يؤيد كون الأمر بمعنى القول وهو الأمر اللفظي بلفظة كن إلا أن التدبر في الآيات يعطي أن الغرض فيها وصف الشأن الإلهي عند إرادة خلق شيء من الأشياء لا بيان أن قوله تعالى عند خلق شيء من الأشياء هذا القول دون غيره ، فالوجه حمل القول على الأمر بمعنى الشأن بمعنى أنه جيء به لكونه مصداقاً للشأن لا حمل الأمر على القول بمعنى ما يقابل النهي .

و قوله : « إذا أراد شيئاً » أي إذا أراد إيجاد شيء كما يعطيه سياق الآية و قد ورد في عدة من الآيات القضاء مكان الإرادة كقوله : « إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون ^(١) » ولاضير فالقضاء هو الحكم و القضاء و الحكم و الإرادة من الله شيء واحد وهو كون ^(٢) الشيء الموجود بحيث ليس له من الله سبحانه إلا أن يوجد فمعنى إذا أردناه إذا أوقفناه موقف تعلق الإرادة .

و قوله : « أن يقول له كن » خبر إنَّما أمره أي يخاطبه بكلمة كن و من المعلوم

(١) البقرة : ١١٧ ، آل عمران : ٤٧ ، مريم : ٢٥ ، المؤمن : ٤٨ .

(٢) فان هذه الإرادة صفة فعلية خارجة عن الذات منتزعة عن مقام الفعل .

أن ليس هناك لفظ يتلفظ به وإلا احتاج في وجوده إلى لفظ آخر وهلم جرا فيتسلسل ولا أن هناك مخاطبا ذاسمع يسمع الخطاب فيوجد به لادائه إلى الخلف فالكلام تمثيل لإفاضته تعالى وجود الشيء من غير حاجة إلى شيء آخر وراء ذاته المتعالية و من غير تخلف ولا مهل .

و به يظهر فساد ما ذكره بعضهم حيث قال : الظاهر أن هناك قولاً لفظياً هو لفظ كن وإليه ذهب معظم السلف وشؤون الله تعالى وراء ما اتصل إليه الأفهام فدع عنك الكلام والخصام . انتهى .

و ذلك أن ما ذكره من كون شؤنه تعالى وراء طور الأفهام لو أبطل الحجّة العقلية القطعية بطلت بذلك المعارف الدينية من أصلها فصحة الكتاب مثلاً بما يفيد من المعارف الحقيقية إنما تثبت بالحجة العقلية فلو بطلت الحجّة العقلية بكتاب أو سنة أو شيء آخر مما يثبت هوبها لكان ذاك الدليل المبطل مبطلا لنفسه أو لا فلا تزل قدم بعد ثبوتها .

و من المعلوم أن ليس هناك إلا الله عز اسمه والشيء الذي يوجد لثالث بينهما وإسناد العلّة والسببية إلى إرادته دونه تعالى - والإرادة صفة فعلية منتزعة من مقام الفعل كما تقدّم - يستلزم انقطاع حاجة الأشياء إليه تعالى من رأس لاستيجابه استغناء الأشياء بصفة منتزعة منها عنه تعالى و تقدّس .

و من المعلوم أن ليس هناك أمر ينفصل عنه تعالى يسمى إيجاداً أو وجوداً ثم يتصل بالشيء فيصير به موجوداً وهو ظاهر فليس بعده تعالى إلا وجود الشيء فحسب . و من هنا يظهر أن كلمة الإيجاد وهي كلمة كن هي وجود الشيء الذي أوجده لكن بما أنه منتسب إليه قائم به وأما من حيث انتسابه إلى نفسه فهو موجود لا إيجاد ومخلوق لا خلق .

و يظهر أيضاً أن الذي يفيض منه تعالى لا يقبل مهلة ولا نظرة ولا يتحمل تبدلاً ولا تغييراً ، ولا يتلبس بتدريج وما يترا آى في الخلق من هذه الأمور إنما يتأتى في الأشياء في ناحية نفسها لا من الجهة التي تلي ربها سبحانه وهذا باب ينفتح

منه أُلّف باب .

و في الآيات للتلويح إلى هذه الحقائق إشارات لطيفة كقوله تعالى : « كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » آل عمران : ٥٩ ، وقوله تعالى : « وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر » القمر : ٥٠ ، وقوله تعالى : « و كان أمر الله قدرا مقدورا » الأحزاب : ٣٨ إلى غير ذلك .

وقوله في آخر الآية : « فيكون » بيان لطاعة الشيء المراد له تعالى و أمثاله لأمر « كن » ولبسه الوجود .

قوله تعالى : « فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون » الملكوت مبالغة في معنى الملك كالرحمت و الرحبوت في معنى الرحمة والرهبة .

و انضمام الآية إلى ما قبلها يعطي أن المراد بالملكوت الجهة التالية له تعالى من وجهي وجود الأشياء ، و بالملك الجهة التالية للخلق أو الأعم الشامل للوجهين . وعليه يحمل قوله تعالى : « وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض ولبكون من الموقنين » الأنعام : ٧٥ . وقوله : « أولم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض » الأعراف : ١٨٥ : وقوله : « قل من بيده ملكوت كل شيء » المؤمنون : ٨٨ .

و جعل الملكوت بيده تعالى للدلالة على أنه متسلط عليها لانصيب فيها لغيره . و مآل المعنى في قوله : « فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء » تنزيهه تعالى عما استبعدوا منكرين للمعاد لغفلتهم عن أن ملكوت كل شيء بيده و في قبضته .

و قوله : « و إليه ترجعون » خطاب لعامة الناس من مؤمن ومشرک، وبيان لنتيجة البيان السابق بعد التنزيه .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « و ما علمناه الشعر وما ينبغي له » الآية قال : كانت قریش تقول : إن هذا الذي يقوله محمد شعر فرد الله عليهم فقال : « و ما علمناه الشعر و ما ينبغي له إن هو إلا ذكر و قرآن مبین » ولم يقل رسول الله ﷺ شعرا قط .

و في المجمع روي عن الحسن أن رسول الله ﷺ كان يتمثل بهذا البيت :
 كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيا فقال له أبوبكر : يا رسول الله إنما قال : كفى الشيب
 والإسلام للمرء ناهيا و أشهد أنك رسول الله وما علمك الله الشعر وما ينبغي لك .
 و فيه من عائشة أنها قالت : كان رسول الله ﷺ يتمثل ببيت أخي بني قيس :
 سبدي لك الأيام ما كنت جاهلا و يأتيك بالأخبار من لم تزود
 فجعل يقول : و يأتيك من لم تزود بالأخبار فيقول أبوبكر : ليس هكذا يا
 رسول الله فيقول : إنني لست بشاعر ولا ينبغي لي .

اقول : و روى في الدر المنثور الخبرين عن الحسن و عائشة كما رواه و روى في
 الدر المنثور غير ذلك مما تمثّل به ﷺ .
 و قال في المجمع : فأما قوله :
 أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

فقد قال قوم : إن هذا ليس بشعر ، و قال آخرون : إنما هو اتفاق منه و ليس
 يقصد إلى شعر انتهى . والبيت منقول عنه ﷺ وقد أكثروا من البحث فيه و طرح الرواية
 أهون من نفي كونه شعرا أو شعرا مقصوداً إليه .
 و فيه في قوله تعالى : « لينذر من كان حيا » الآية و يجوز أن يكون المراد بمن
 كان حيا عاقلا و روى ذلك عن علي عليه السلام .

و في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى :
 « واتخذوا من دون الله - إلى قوله - محضرون » يقول : لا تستطيع الآلهة لهم نصرا
 وهم للآلهة جند محضرون .

و عن تفسير العياشي عن الحلبي عن أبي عبد الله عليه السلام قال : جاء أبي بن خلف
 فأخذ عظما باليا من حائط ففتته ثم قال : إذا كنّا عظاما ورفاتا إنا لمبعوثون خلقا ؟
 فأنزل الله : قال من يحيي العظام وهي رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل
 خلق عليم .

اقول : و روى مثله في الدر المنثور بطرق كثيرة عن ابن عباس و عروة بن الزبير

و عن قتادة والسدي وعكرمة و روى أيضاً عن ابن عباس أن القائل هو العاص بن وائل و بطريق آخر عنه أن القائل هو عبدالله بن أبي .

و في الاحتجاج : : في احتجاج أبي عبدالله الصادق عليه السلام قال السائل : أفتلاشى الروح بعد خروجه عن قلبه أم هو باق ؟ قال عليه السلام : بل هو باق إلى وقت ينفخ في الصور فعند ذلك تبطل الأشياء و تفتى فلا حس و لا محسوس ثم أعيدت الأشياء كما بدأها مدبرها و ذلك أربعمئة سنة يسبت فيها الخلق و ذلك بين النفختين . قال : و أننى له بالبعث و البدن قد بلى و الأعضاء قد تفرقت فعضو ببلدة تأكله سباعها و عضو بأخرى تمزقه هوامها و عضو قد صارت رابا يبنى به مع الطين في حائط . قال عليه السلام : إن الذي أنشأه من غير شيء وصوره على غير مثال كان سبق إليه قادر أن يعيده كما بدأه .

قال : أوضح لي ذلك . قال عليه السلام : إن الروح مقيمة في مكانها روح المحسن في ضياء و فسحة و روح المسيء في ضيق و ظلمة و البدن يصير ترابا كما منه خلق و ما تقذف به السباع و الهوام من أجوافها فما أكلته و مزقته كل ذلك في التراب محفوظ عند من لا يعزب عنه مثقال ذرة في ظلمات الأرض و يعلم عدد الأشياد و وزنها و إن تراب الروحانيين بمنزلة الذهب في التراب .

فإذا كان حين البعث مطرت الأرض مطر النشور فتربو الأرض ثم تمخض مخض السقاء فيصير تراب البشر كمصير الذهب من التراب إذا غسل بالماء و الزبد من اللبن إذا مخض فيجتمع تراب كل قالب إلى قلبه فينتقل بأذن الله القادر إلى حيث الروح فتعود الصور بأذن المصور كهيئتها و يلج الروح فيها فإذا قد استوى لا ينكر من نفسه شيأ .

و في نهج البلاغة : يقول لما أراد كونه : كن فيكون ، لا بصوت يقرع و لانداء يسمع و إنما كلامه سبحانه فعل منه أنشاء و مثله لم يكن من قبل ذلك كائنا ولو كان قديما لكان إلها ثانيا .

و فيه : يقول و لا يلفظ و يريد و لا يضم .

وفي الكافي بإسناده عن صفوان بن يحيى قال: قلت لأبي الحسن عليه السلام: أخبرني عن الإرادة من الله و من الخلق قال : فقال : الإرادة من الخلق الضمير و ما يبدو لهم بعد ذلك من الفعل ، و أمّا من الله فإرادته إحداثه لا غير ذلك لأنّه لا يروّي و لا يهّم و لا يتفكّر ، و هذه الصفات منفيّة عنه و هي صفات الخلق .

فإرادة الله الفعل لا غير ذلك يقول له : كن فيكون بلا لفظ و لا نطق بلسان و لا همّة و لا تفكّر و لا كيف لذلك كما أنّد لا كيف له .

اقول : و الروايات عنهم عليهم السلام في كون إرادته من صفات الفعل مستفيضة .



سورة الصافات مكية وهي مائة و اثنان و ثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا (١) فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا (٢)
فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا (٣) إِنَّ إِلَهُكُمُ لَوَاحِدٌ (٤) رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا
بَيْنَهُمَا وَ رَبُّ الْمَشَارِقِ (٥) إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بَرِيقًا الْكَوَكِبِ (٦)
وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ (٧) لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَىٰ وَيَقْدِفُونَ
مِنْ كُلِّ جَانِبٍ (٨) دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ (٩) الْأَمْ مِنْ خِطْفِ الْخَطْفَةِ
فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ (١٠) فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مِنْ خَلْقِنَا إِنَّا
خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ (١١) .

﴿ بيان ﴾

في السورة احتجاج على التوحيد ، وإنذار للمشركين و تبشير للمخلصين من
المؤمنين ، و بيان ما يؤل إليه حال كل من الفريقين ثم ذكر عدّة من عباده المؤمنين
ثمّن من الله عليهم وقضى أن ينصرهم على عدوهم ، و في خاتمة السورة ما هو بمنزلة
محصل الغرض منها وهو تنزيهه و السلام على عباده المرسلين و تحميده تعالى فيما فعل
و السورة مكية بشهادة سياقها .

قوله تعالى : « وَالصَّافَّاتِ صَفًّا فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا » الصافات

- على ما قيل - جمع صافّة و هي جمع صاف ، و المراد بها على أي حال الجماعة التي
تنصّف أفرادها والزاجرات من الزجر وهو الصرف عن الشيء بالتحذير بدم أو عقاب
والتاليات من التلاوة بمعنى القراءة .

و قد أقسم الله تعالى بهذه الطوائف الثلاث : الصافات والزاجرات و التاليات
و قد اختلفت كلماتهم في المراد بها :

فأما الصافات فقيل : إن المراد بها الملائكة تصف أنفسهم في السماء صفوفًا
كصفوف المؤمنين في الصلاة ، و قيل : إنها الملائكة تصف أجنتها في الهواء إذا أرادت
النزول إلى الأرض واقفة في انتظار أمر الله تعالى ، و قيل : إنها الجماعة من المؤمنين
يقومون في الصلاة أو في الجهاد مصطفين .

و أما الزاجرات فقيل : إنها الملائكة تزجر العباد عن المعاصي فيوصله الله إلى
قلوب الناس في صورة الخطرات كما يوصل وساوس الشياطين ، و قيل : إنها الملائكة
الموكلّة بالسحاب تزجرها وتسوقها إلى حيث أراد الله سبحانه ، و قيل : هي زواجر
القرآن وهي آياته الناهية عن القبائح ، و قيل : هم المؤمنون يرفعون أصواتهم بالقرآن
عند قراءته فيزجرون الناس عن المنهيات .

وأما التاليات فقيل : هم الملائكة يتلون الوحي على النبي الموحى إليه ، و قيل :
هي الملائكة تتلو الكتاب الذي كتبه الله وفيها ذكر الحوادث ، و قيل : جماعة قرّاء
القرآن يتلونونه في الصلاة .

و يحتمل - والله العالم - أن يكون المراد بالطوائف الثلاث المذكورة في الآيات
طوائف الملائكة النازلين بالوحي المأمورين بتأمين الطريق و دفع الشياطين عن المداخلة
فيه وإيصاله إلى النبي مطلقاً أو خصوص محمد ﷺ كما يستفاد من قوله تعالى :
« عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين
يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم » الجن : ٢٨ .
و عليه فالمعنى أقسم بالملائكة الذين يصفون في طريق الوحي صفًا فبالذين
يزجرون الشياطين و يمنعونهم عن المداخلة في الوحي فبالذين يتلون على النبي الذكر
و هو مطلق الوحي أو خصوص القرآن كما يؤيدّه التعبير عنه بتلاوة الذكر .

و يؤيد ما ذكرنا وقوع حديث رمي الشياطين بالشهب بعد هذه الآيات ، و كذا
قوله بعد : « فاستقمتهم أهم أشد خلقاً أم من خلقنا » الآية كما سنشير إليه .

ولا ينافي ذلك إسناد النزول بالقرآن إلى جبريل وحده في قوله : « من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك » البقرة : ٩٧ وقوله : « نزل به الروح الأمين على قلبك » الشعراء : ١٩٣ لأن الملائكة المذكورين أعوان جبريل فنزلهم به نزوله به وقد قال تعالى : « في صحف مكرمة مرفوعة مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة » عبس : ١٥ ، وقال حكاية عنهم : « وما نتنزل إلا بأمر ربك » مريم : ٦٤ ، وقال : « وإنا لنحن الصافون وإنا لنحن المسبوحون » الصافات : ١٦٦ وهذا كنسبة التوفى إلى الرسل من الملائكة في قوله : « حتى إذا جاء أحدهم الموت توفته رسلنا » الأنعام : ٦١ وإلى ملك الموت وهو رئيسهم في قوله : « قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم » السجدة : ١١ .

ولا ضير في التعبير عن الملائكة بلفظ الإناث : الصافات والزاجرات والتاليات لأن موصوفها الجماعة ، والثاني لفظي .

وهذه أول سورة في القرآن صدرت بالقسم وقد أقسم الله سبحانه في كلامه بكثير من خلقه كالسماوات والأرض والشمس والقمر والنجم والليل والنهار والملائكة والناس والبلاد والأثمار ، وليس ذلك إلا لما فيها من الشرف باستناد خلقها إليه تعالى وهو قيومها المنبع لكل شرف وبهاء .

قوله تعالى : « إن إلهكم لواحد » الخطاب لعامة الناس وهو مقسم بد ، وهو كلام مسوق بدليل كما سيأتي .

قوله تعالى : « رب السماوات والأرض وما بينهما ورب المشارق » خبر بعد خبر لأن ، أو خبر لمبتدأ محذوف والتقدير هو رب السماوات الخ أو بدل من واحد . وفي سوق الأوصاف إشعار بعلّة كون الإله واحداً كما أن خصوصيّة القسم مشعر بعلّة كونه رب السماوات والأرض وما بينهما .

كأنه قيل إن إلهكم لواحد لأن الملاك في ألوهيّة الإله وهي كونه معبوداً بالحق أن يكون رباً يدبر الأمر على ما تعترفون وهو سبحانه رب السماوات والأرض وما بينهما الذي يدبر أمرها ويتصرف في جميعها .

و كيف لا ؟ و هو تعالى يوحى إلى نبيه فيتصرف في السماء و سكانها بإرسال ملائكة يصطفون بينها و بين الأرض و هناك مجال الشياطين فيزجرونهم و هو تصرف منه فيما بين السماء و الأرض و في الشياطين ثم يتلون الذكر على نبيه و فيه تكميل للناس و تربية لهم سواء صدقوا أم كذبوا ففي الوحي تصرف منه في السماوات والأرض و ما بينهما فهو على وحدانيته رب الجميع المدبّر لأمرها و الإله الواحد .

و قوله : « ورب المشارق » أي مشارف الشمس باختلاف الفصول أو المراد مشارق مطلق النجوم أو مطلق المشارق ، و في تخصيص المشارق بالذكر مناسبة لطلوع الوحي بملائكته من السماء وقد قال تعالى : « ولقد رآه بالأفق المبين » التكوير : ٢٣ ، وقال : « وهو بالأفق الأعلى » النجم : ٧ .

قوله تعالى : « إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بَزِينَةِ الْكَوَاكِبِ » المراد بالزينة ما يزين به ، و الكواكب بيان أو بدل من الزينة وقد تكرر حديث تزيين السماء الدنيا بزينة الكواكب في كلامه كقوله : « وزينّا السماء الدنيا بمصابيح » حمّ السجدة: ١٢ وقوله : « ولقد زينّا السماء الدنيا بمصابيح » الملك : ٥ ، وقوله : « أولم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها » ق : ٦ .

و لا يخلو من ظهور في كون السماء الدنيا من السماوات السبع التي يذكرها القرآن هو عالم الكواكب فوق الأرض وإن وجهه بعضهم بما يوافق مقتضى الهيئة القديمة أو الجديدة .

قوله تعالى : « و حفظا من كلّ شيطان مارد » حفظا مفعول مطلق لفعل محذوف و التقدير و حفظناها حفظا من كلّ شيطان مارد ، و المراد بالشيطان الشرير من الجن . و المارد الخبيث العاري من الخير .

قوله تعالى : « لا يسمعون إلى الملاّ الأعلى ويقذفون من كلّ جانب » أصل « لا يسمعون » لا يسمعون والسمع الإصغاء ، و هو كناية عن كونهم ممنوعين مدحورين و بهذه العناية صار وصفا لكلّ شيطان ولو كان بمعنى الإصغاء صريحا أفاد لغوا من الفعل إذ لو كانوا لا يصغون لم يكن وجه لقذفهم .

و الملاء من الناس الأشراف منهم الذين يملئون العيون ، و الملاء الأعلى هم الذين يريد الشياطين التسمع إليهم و هم الملائكة الكرام الذين هم سكنة السماوات العلى - على ما يدل عليه كلامه تعالى كقوله : « لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا أسرى : ٩٥ - .

و قصدهم من التسمع إلى الملاء الأعلى الاطلاع على أخبار الغيب المستورة عن هذا العالم الأرضي كالحوادث المستقبلية و الأسرار المكنونة كما يشير إليه قوله تعالى : « و ما ننزلت به الشياطين و ما ينبغي لهم و ما يستطيعون إنهم عن السمع لمعزولون » الشعراء : ٢١٢ ، و قوله حكاية عن الجن : « و أننا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا و شهابا و أننا كنا نقعد مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا » الجن : ٩ .

و قوله : « و يقذفون من كل جانب » القذف الرمي و الجانب الجهة .

قوله تعالى : « دحوراً و لهم عذاب و اصب » الدحور الطرد و الدفع ، و هو مصدر بمعنى المفعول منصوب حالا أي مدحورين أو مفعول له أو مفعول مطلق ، و الواصب الواجب اللازم .

قوله تعالى : « إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » الخطفة الاختلاس و الاستلاب ، و الشهاب ما يرى في الجو كالكوكب المنقض ، و الثقوب الركوز و سمي الشهاب ثاقبا لأنه لا يخطيء هدفه و غرضه .

و المراد بالخطفة اختلاس السمع و قد عبر عنه في موضع آخر باستراق السمع قال تعالى : « إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين » الحجر : ١٨ ، و الاستثناء من ضمير الفاعل في قوله : « لا يسمعون » و جوز بعضهم كون الاستثناء منقطعا .

و معنى الآيات الخمس : إننا زيننا السماء التي هي أقرب السماوات منكم - أو السماء السفلى - بزينة و هي الكواكب ، و حفظناها حفظا من كل شيطان خبيث عار من الخير ممنوعين من الإصغاء إلى الملاء الأعلى - للاطلاع إلى ما يلقون بين أنفسهم

من أخبار الغيب - ويرمون من كل جهة حال كونهم مطرودين و لهم عذاب لازم لا يفارقهم إلا من اختلس من أخبارهم الاختلاصة فأتبعه شهاب ثاقب لا يخطيء غرضه .

﴿كلام فى معنى الشهب﴾

أورد المفسرون أنواعا من التوجيه لتصوير استراق السمع من الشياطين و رميهم بالشهب و هي مبنية على ما يسبق إلى الذهن من ظاهر الآيات و الأخبار أن هناك أفلاكا محيطة بالأرض تسكنها جماعات الملائكة ولها أبواب لا يلج فيها شيء إلا منها و أن في السماء الأولى جمعا من الملائكة بأيديهم الشهب يرصدون المسترقين للسمع من الشياطين فيقذفونهم بالشهب .

و قد اتضح اليوم اتضاح عيان بطلان هذه الآراء و يتفرع على ذلك بطلان الوجوه التي أوردوها في تفسير الشهب و هي وجوه كثيرة أودعوها في المطبوعات كالتفسير الكبير للرازي و روح المعاني للآلوسي و غيرهما .

و يحتمل - والله العالم - أن هذه البيانات في كلامه تعالى من قبيل الأمثال المضروبة تصوّر بها الحقائق الخارجة عن الحس في صورة المحسوس لتقريبها من الحس و هو القائل عز و جل : « و تلك الأمثال نضربها للناس و ما يعقلها إلا العالمون » العنكبوت : ٣٣ . و هو كثير في كلامه تعالى و منه العرش و الكرسي و اللوح و الكتاب و قد تقدمت الإشارة إليها و سيجيء بعض منها .

و على هذا يكون المراد من السماء التي تسكنها الملائكة عالما ملكوتيا ذا أفق أعلى نسبته إلى هذا العالم المشهود نسبة السماء المحسوسة بأجرامها إلى الأرض، والمراد باقتراب الشياطين من السماء واستراقهم السمع و قذفهم بالشهب اقترابهم من عالم الملائكة للاطلاع على أسرار الخلقة و الحوادث المستقبلية و رميهم بما لا يطيقونه من نور الملكوت، أو كرتهم على الحق لتبليسه و رمي الملائكة إياهم بالحق الذي يبطل أباطيلهم .

وإيراده تعالى قصة استراق الشياطين للسمع و رميهم بالشهب عقيب الإقسام
بملائكة الوحي وحفظهم إتياء عن مداخله الشياطين لا يخلو من تأييد لما ذكرناه و
الله أعلم .

قوله تعالى : « فاستفتحهم أهم أشدّ خلقاً أم من خلقنا إنّنا خلقناهم من طين لازب »
اللاّزب الملتزق بعضه ببعض بحيث يلزمه ما جاوره ، وقال في مجمع البيان : اللاّزب
واللاّزم بمعنى . انتهى .

و المراد بقوله : « من خلقنا » إمّا الملائكة المشار إليهم في الآيات السابقة وهم
حفظة الوحي و رماة الشهب ، وإمّا غير الناس من الخلق العظيم كالسماوات والأرض
و الملائكة ، و التعبير بلفظ أولي العقل للتغليب .

و المعنى فإذا كان الله هوربّ السماوات والأرض و ما بينهما و الملائكة
فأسألهم أن يفتوا أهم أشدّ خلقاً أم غيرهم . نحن خلقناهم أضعف خلقاً لأنّنا خلقناهم من
طين ملتزق فليسوا بمعجزين لنا .

﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير القميّ في قوله تعالى : « و الصافات صفّا » قال : الملائكة و الأنبياء .
و فيه عن أبيه و يعقوب بن يزيد عن ابن أبي عمير عن بعض أصحابنا عن أبي
عبدالله عليه السلام قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام : إنّ هذه النجوم التي في السماء مدائن مثل
المدائن التي في الأرض . الحديث .

و فيه في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : « عذاب واصل » أي دائم
موجع قد وصل إلى قلوبهم .

و فيه عن النبي صلى الله عليه و آله في حديث المعراج : قال : فصعد جبرئيل و صعدت معه
إلى سماء الدنيا و عليها ملك يقال له : إسماعيل وهو صاحب الخطفة التي قال الله
عزّ وجلّ : « إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » و تحته سبعون ألف ملك تحت

كلّ ملك سبعون ألف ملك . الحديث .

اقول : و الروايات في هذا الباب كثيرة أوردنا بعضها منها في تفسير قوله تعالى :
«إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين» الحجر : ١٨ و سيأتي بعضها في تفسير سورتي
الملك و الجن إن شاء الله تعالى .

و في نهج البلاغة : ثمّ جمع سبحانه من حزن الأرض و سهلها و عذبها و سبّخها
تربة سنّها بالماء حتّى خلصت ، ولاطها بالبلّة حتّى لزبت .





بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ (١٢) وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ (١٣) وَإِذَا
 رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ (١٤) وَقَالُوا إِن هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (١٥) ءَأِذَا
 مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا ءَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوْ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧)
 قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ (١٨) فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ (١٩)
 وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ (٢٠) هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ
 تَكْذِبُونَ (٢١) أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ (٢٢)
 مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ (٢٣) وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ (٢٤)
 مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ (٢٥) بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ (٢٦) وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى
 بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٧) قَالُوا إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَنَا عَنِ الْيَمِينِ (٢٨) قَالُوا بَلْ
 لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (٢٩) وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنْتُمْ قَوْمًا
 طَاغِينَ (٣٠) فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَالِقُونَ (٣١) فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا
 غَاوِينَ (٣٢) فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ (٣٣) إِنَّا كَذَلِكَ نَفْعَلُ
 بِالْمُجْرِمِينَ (٣٤) إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥)
 وَقَالُوا إِنَّا لَتَنَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ (٣٦) بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ
 الْمُرْسَلِينَ (٣٧) إِنَّكُمْ لَذَالِقُوا الْعَذَابِ الْأَلِيمِ (٣٨) وَمَا تَجْزُونَ إِلَّا

مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلَصِينَ (٤٠) أُولَئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ
 مَعْلُومٌ (٤١) قَوَائِمُهُ وَهُمْ مَكْرَمُونَ (٤٢) فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٤٣) عَلَى سُرُرٍ
 مُتَقَابِلِينَ (٤٤) يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِكَاسٍ مِنْ مَعِينٍ (٤٥) بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ (٤٦)
 لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنْزَفُونَ (٤٧) وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (٤٨)
 كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ (٤٩) فَاقْبَلْ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٥٠) قَالَ
 قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ (٥١) يَقُولُ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ (٥٢)
 إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنْتَ لَمَدِينُونَ (٥٣) قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُطْلِعُونَ (٥٤)
 فَاطْلَعُ فَرَأَاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ (٥٥) قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ (٥٦) وَلَوْلَا
 نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتَ مِنَ الْمُخْضَرِينَ (٥٧) أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ (٥٨) إِلَّا مَوْتَتَنَا
 الْأُولَى وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٥٩) إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْمٌ الْعَظِيمِ (٦٠) لِمِثْلِ
 هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٦١) أَذَلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ (٦٢) إِنَّا
 جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ (٦٣) إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ (٦٤)
 طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رِئُوسُ الشَّيَاطِينِ (٦٥) فَانْتَهُم لَا كَلُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْنَ مِنْهَا
 الْبَطُونِ (٦٦) ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ (٦٧) ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ
 لَإِلَى الْجَحِيمِ (٦٨) إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (٦٩) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ
 يُهْرَعُونَ (٧٠) .

﴿ بيان ﴾

حكاية استهزائهم بآيات الله و بعض أفاويلهم المبنيّة على الكفر و إنكار المعاد و الردّ عليهم بتقرير أمر البعث و ما يجري عليهم فيه من الشدّة و ألوان العذاب و ما يكرم الله به عباده المخلصين من النعمة و الكرامة .

وفيهما ذكر تخاصم أهل النار يوم القيامة ، و ذكر محادثة بين أهل الجنة و أخرى بين بعضهم و بعض أهل النار .

قوله تعالى : « بل عجبك و يسخرون و إذا ذكروا لا يذكرون » أي بل عجبت يا محمد من تكذيبهم إياك مع دعوتك إياهم إلى كلمة الحق و هم يسخرون و يهزؤون من تعجبك منهم أو من دعائك إياهم إلى الحق ، و إذا ذكروا بآيات الله الدالة على التوحيد و دين الحق لا يذكرون و لا يتنبهون .

قوله تعالى : « و إذا رأوا آية يستسخرون » في مجمع البيان : سخر و استسخر بمعنى واحد . انتهى .

و المعنى و إذا رأوا هؤلاء المشركون آية معجزة من آيات الله المعجزة كالقرآن و شق القمر يستهزؤون بها .

قوله تعالى : « و قالوا إن هذا إلا سحرمين » في إشارتهم إلى الآية بلفظة هذا إشعار منهم أنهم لا يفقهون منها إلا أنها شيء مامن غير زيادة وهو من أقوى الإهانة و الاستسخار .

قوله تعالى : « و إذا متنا و كنّا ترابا و عظاما ءإنّا لمبعوثون أو آباؤنا الأ و لون » إنكار منهم للبعث مبني على الاستبعاد فمن المستبعد عند الوهم أن يموت الإنسان في تلاشى بدنه و يعود ترابا و عظاما ثم يعود إلى صورته الأولى .

ومن الدليل على أن الكلام مسوق لإفادة الاستبعاد تكرارهم الاستفهام الإنكاري بالنسبة إلى آباءهم الأولين فإن استبعاد الوهم لبعثهم و قد انمحت رسومهم و لم يبق منهم إلا أحاديث أشد و أقوى من استبعاده بعثهم أنفسهم .

ولو كان إنكارهم البعث مبنيًا على أنَّهم ينعدمون بالموت فتستحيل إعادتهم كان الحكم فيهم وفي آبائهم على نهج واحد و لم يحتج إلى تجديد استفهام بالنسبة إلى آبائهم .

قوله تعالى : « قل نعم وأنتم داخرون فإنما هي زجرة واحدة فإنها ينظرون » أمر تعالى نبيه ﷺ أن يجيبهم بأنهم مبعوثون .

وقوله : « وأنتم داخرون » أي صاغرون مهانون أذلاء ، وهذا في الحقيقة احتجاج بعموم القدرة و نفوذ الإرادة من غير مهلة ، فإنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون و لذا عقبه بقوله : « فإنما هي زجرة واحدة فإنها ينظرون » وقد قال تعالى : « ولله غيب السماوات والأرض و ما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب إن الله على كل شيء قدير » النحل : ٧٧ .

وقوله : « فإنما هي زجرة واحدة » الخ الفاء لإفادة التعليل و الجملة تعليل لقوله : « وأنتم داخرون » و في التعبير بزجرة إشعار باستدلالهم .

قوله تعالى : « وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون » معطوف على قوله : « ينظرون » المشعر بأنهم مبهوتون مدهوشون متفكرون ثم يتنبهون بكونه يوم البعث فيه الدين والجزاء وهم يحذرون منه بما كفروا وكذبوا و لذا قالوا : يوم الدين ، ولم يقولوا : يوم البعث ، والتعبير بالماضي لتحقيق الوقوع .

وقوله : « هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون » قيل : هو كلام بعضهم لبعض و قيل : كلام الملائكة أو كلامه تعالى لهم ، و يؤيده الآية التالية ، و الفصل هو التمييز بين الشئيين و سمي يوم الفصل لكونه يوم التمييز بين الحق والباطل بقضائه و حكمه تعالى أو التمييز بين المجرمين و المتقين قال تعالى : « و امتازوا اليوم أيها المجرمون » يس : ٥٩ .

قوله تعالى : « احشروا الذين ظلموا و أزواجهم و ما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم » من كلامه تعالى للملائكة و المعنى و قلنا للملائكة : احشروهم ، و قيل : هو من كلام الملائكة بعضهم لبعض .

و الحشر - على ما ذكره الراغب - إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب ونحوها .

و المراد بالذين ظلموا على ما يؤيده آخر الآية المشركون ولاكل المشركين بل المعاندون للحق الصادون عنه منهم قال تعالى : « فأذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله و يبغيونها عوجا وهم بالآخرة كافرون » الأعراف : ٤٥ ، و التعبير بالماضي في المقام يفيد فائدة الوصف فليس المراد بالذين ظلموا من تحقق منه ظلم ما ولو مرة واحدة بل تعريف لهم بحاصل ما اكتسبوا في حياتهم الدنيا كما لو قيل : ماذا فعل فلان في حياته فيقال ظلم ، فالفعل يفيد فائدة الوصف ، و في كلامه تعالى من ذلك شيء كثير كقوله تعالى : « وسيق الذين اتقوا إلى الجنة زمرا » الزمر : ٧٣ وقوله : « وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرا » الزمر : ٧١ وقوله : « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » يونس : ٢٦ .

و قوله : « و أزواجهم » الظاهر أن المراد به قرناؤهم من الشياطين قال تعالى : « و من يعيش عن ذكر الرحمن نفیض له شیطانا فهو له قرين - إلى أن قال - حتى إذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين » الزخرف : ٣٨ . و قيل : المراد بالأزواج الأشباه و النظائر فأصحاب الزنا يحشرون مع أصحاب الزنا و أصحاب الخمر مع أصحاب الخمر و هكذا . و فيه أن لازمه أن يراد بالذين ظلموا طائفة خاصة من أصحاب كل معصية و اللفظ لا يساعد عليه على أن ذيل الآية لا يناسبه .

و قيل : المراد بالأزواج نساؤهم الكافرات و هو ضعيف كسابقه . و قوله : « و ما كانوا يعبدون من دون الله » الظاهر أن المراد به الأصنام التي يعبدونها نظرا إلى ظاهر لفظة « ما » فالآية نظيرة قوله : « إنكم و ما تعبدون من دون الله حصب جهنم » الأنبياء : ٩٨ .

ويمكن أن يكون المراد بلفظة « ما » ما يعم أُولي العقل من المعبودين كالفراعة و النماردة ، و أمّا الملائكة المعبودون و المسيح عليه السلام فيخرجهم من العموم قوله تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنْ الْحَسَنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » الأَنْبياء : ١٠١ .

و قوله : « فاهدوهم إلى صراط الجحيم » الجحيم من أسماء جهنم في القرآن و هو من الجحمة بمعنى شدة تأجج النار على ما ذكره الراغب .

و المراد بهدایتهم إلى صراطها إيصالهم إليه وإيقاعهم فيه بالسوق ، و قيل : تسمية ذلك بالهداية من الاستهزاء ، و قال في مجمع البيان : إنما عبر عن ذلك بالهداية من حيث كان بدلا من الهداية إلى الجنة كقوله : « فبشرهم بعباب اليم » من حيث إن هذه البشارة وقعت لهم بدلا من البشارة بالنعيم . انتهى .

قوله تعالى : « وقفوهم إنهم مسئولون ما لكم لا تناصرون بل هم مستسلمون » قال في المجمع يقال : وقفت أنا ووقفت غيري - أي يعدي ولا يعدي - و بعض بني تميم يقول : أوقفت الدابة و الدار . انتهى .

فقوله : « وقفوهم إنهم مسئولون » أي احبسوهم لأنهم مسئولون أي حتى يسأل عنهم . و السياق يعطي أن هذا الأمر بالوقوف والسؤال إنما يقع في صراط الجحيم . و اختلفت كلماتهم فيما هو السؤال عنه فقول لا إله إلا الله ، و قيل : عن شرب الماء البارد استهزاء بهم ، و قيل : عن ولاية علي عليه السلام .

و هذه الوجوه لو صححت فإثما تشير إلى بعض مصاديق ما يسأل عنه و السياق يشهد أن السؤال هو ما يشتمل عليه قوله : « ما لكم لا تناصرون » أي لا ينصر بعضكم بعضا كما كنتم تفعلونه في الدنيا فتستعينون به على حوائجكم و مقاصدكم ، و ما يتلوه من قوله : « بل هم اليوم مستسلمون » أي مسلمون لا يستكبرون يدل على أن المراد بقوله : « ما لكم لا تناصرون » السؤال عن استكبارهم عن طاعة الحق كما كانوا يستكبرون في الدنيا .

فالسؤال عن عدم تناصرهم سؤال عن سبب الاستكبار الذي كانوا عليه في الدنيا فقد تبين به أن المسئول عنه هو كل حق أعرضوا عنه في الدنيا من اعتقاد حق أو عمل صالح استكبارا على الحق تظاهراً بالتناصر .

قوله تعالى : « وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون - إلى قوله - إنا كنا غاوين »

تخاصم واقع بين الأتباع و المتبوعين يوم القيامة ، و التعبير عنه بالتساؤل لأنه في معنى سؤال بعضهم عن بعض تلاوماً و تعاتباً يقول التابعون لمتبوعيهـم : لم أضللتـمونا ؟ فيقول المتبوعون : لم قبلتـم عنا ولاسلطان لناعليكم ؟

فقوله : « و أقبل بعضهم على بعض يتساءلون » البعض الأول هم المعترضون و البعض الثاني المعترض عليهم كما يعطيه سياق التساؤل و تساؤلهم تخاصمهم .

و قوله : « قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين » أي من جهة الخير و السعادة فاستعمال اليمين فيها شائع كثير لقوله : « وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين » الواقعة : ٢٧ و المعنى أنكم كنتم تأتوننا من جهة الخير و السعادة فتقطعون الطريق و تحولون بيننا وبين الخير و السعادة و تضلوننا .

و قيل : المراد باليمين الدين و هو قريب من الوجه السابق ، و قيل : المراد باليمين القهر و القوة كما في قوله تعالى : « فراغ عليهم ضربا باليمين » الصافات : ٩٣ ولايخلو من وجه نظراً إلى جواب المتبوعين .

و قوله : « قالوا بل لم تكونوا مؤمنين و ما كان لنا عليكم من سلطان - إلى قوله - غاوين » جواب المتبوعين بتبرئة أنفسهم من إشقاء التابعين و أن جرمهم مستند إلى سوء اختيار أنفسهم .

فقالوا : بل لم تكونوا مؤمنين أي لم تكن نحن السبب الموجب لإجرامكم و هلاككم بخلوكم عن الإيمان بل لم تكونوا مؤمنين لأننا جرّ دناكم من الإيمان . ثم قالوا : « وما كان لنا عليكم من سلطان » و هو في معنى الجواب على فرض التسليم كأنه قيل : ولو فرض أنه كان لكم إيمان فما كان لنا عليكم من سلطان حتى نسلبه منكم و نجرّدكم منه . على أن سلطان المتبوعين إنما هو بالتابعين فهم الذين يعطونهم السلطة و القوة فيتسلطون عليهم أنفسهم .

ثم قالوا : « بل كنتم قوما طاغين » و الطغيان هو التجاوز عن الحد و هو إضراب عن قوله : « لم تكونوا مؤمنين » كأنه قيل : و لم يكن سبب هلاككم مجرّد الخلو من الإيمان بل كنتم قوما طاغين كما كنّا مستكبرين طاغين فتعاذنا جميعاً على ترك سبيل

الرشد واتخاذ سبيل الغي فحق علينا كلمة العذاب التي قضى بها الله سبحانه قال تعالى : « إن جهنم كانت مرصاداً للطاغين مآباً » النبأ : ٢٢ و قال : « فأمّا من طغى و آثر الحياة الدنيا فإنّ الجحيم هي المأوى » النازعات : ٣٧ .

و لهذا المعنى عقب قوله : « بل كنتم قوما طاغين » بقوله : « فحق علينا قول ربنا إنّنا لذائقون » أي لذائقون العذاب .

ثم قالوا : « فأغويناكم إنّنا كنا غاوين » وهو متفرّع على ثبوت كلمة العذاب و آخر الأسباب لهلاكهم فإنّ الطغيان يستتبع الغواية ثمّ نارجهنم قال تعالى لا يلبس « إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلّا من اتبعك من الغاوين و إنّ جهنم لموعدهم أجمعين » الحجر : ٤٣ .

فكأنّه قيل : فلمّا تلبستم بالطغيان حلّ بكم الغواية بأيدينا من غير سلطان لنا عليكم إلّا اتباعكم لنا و اتصالكم بنا فسرى إليكم ما فينا من الصفة و هي الغواية فالغاوي لا يتأتى منه إلّا الغواية و الإيذاء لا يترشّح منه إلّا ما فسد ، و بالجملة إنّكم لم تجبروا و لم تسلبوا الاختيار منذ بدأتم في سلوك سبيل الهلاك إلى أن وقعتم في ورطته و هي الغواية فحق عليكم القول .

قوله تعالى : « فأينهم يومئذ في العذاب مشتركون - إلى قوله - يستكبرون » ضمير « فأينهم » للتابعين و المتبوعين فهم مشتركون في العذاب لاشتراكهم في الظلم و تعاونهم على الجرم من غير مزية لبعضهم على بعض .

و استظهر بعضهم أنّ المغوين أشدّ عذاباً و ذلك في مقابلة أوزارهم و أوزار أمثال أوزارهم فالشركة لا تقتضي المساواة و الحق أنّ الآيات مسوقة لبيان اشتراكهم في الظلم و الجرم و العذاب اللاحق بهم من قبله ، و يمكن مع ذلك أن يلحق بكلّ من المتبوعين و التابعين ألوان من العذاب ناشئة عن خصوص شأنهم قال تعالى : « وليحملن أثقالهم و أثقالاً مع أثقالهم » العنكبوت : ١٣ ، و قال : « وقالوا ربّنا هؤلاء أضلّونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكلّ ضعف ولكن لا تعلمون » الأعراف : ٣٨ .

وقوله : « إنّنا كذلك نفعل بالمجرمين » تأكيد لتحقيق العذاب ، و المراد بالمجرمين

المشركون بدليل قوله بعد : « إنهم إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون » أي إذا عرض عليهم التوحيد أن يؤمنوا به أو كلمة الإخلاص أن يقولوها استمروا على استكبارهم ولم يقبلوا .

قوله تعالى : « ويقولون إنما لثاركوآ آلهتنا لشاعر مجنون بل جاء بالحق وصدق المرسلين » قولهم هذا إنكار منهم للرسالة بعد استكبارهم عن التوحيد وإنكارهم له . وقوله : « بل جاء بالحق وصدق المرسلين » رد لقولهم : « لشاعر مجنون » حث رموه صلى الله عليه وآله بالشعر و الجنون وفيه رمي لكتاب الله بكونه شعراً و من هفوات الجنون فرد عليهم بأن ما جاء به حق وفيه تصديق الرسل السابقين فليس بباطل من القول كالشعر وهفوة الجنون و ليس ببدع غير مسبوق في معناه .

قوله تعالى : « إنكم لذائقوا العذاب الأليم » تهديد لهم بالعذاب لاستكبارهم و رميهم الحق بالباطل .

قوله تعالى : « وما تجزون إلا ما كنتم تعملون » أي لا ظلم فيه لأنه نفس عملكم يرد إليكم .

قوله تعالى : « إلا عباد الله المخلصين - إلى قوله - بيض مكنون » استثناء منقطع من ضمير « لذائقوا » أو من ضمير « ما تجزون » و لكل وجه و المعنى على الأول لكن عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم و ليسوا بذائقى العذاب الأليم و المعنى على الثاني لكن عباد الله المخلصين أولئك لهم رزق معلوم وراء جزاء عملهم و سيجيء الإشارة إلى معناه .

و احتمال كون الاستثناء متصلاً ضعيف لا يخلو من تكلف .

و قد سماهم الله سبحانه عباد الله المخلصين فأثبت لهم عبودية نفسه و العبد هو الذي لا يملك لنفسه شيئاً من إرادة و لأعمل فهو لاء لا يريدون إلا ما أَرَادَهُ الله و لا يعملون إلا له .

ثم أثبت لهم أنهم مخلصون بفتح اللام أي إن الله تعالى أخلصهم لنفسه فلا يشاركه فيهم أحد فلا تعلق لهم بشيء غيره تعالى من زينة الحياة الدنيا و لا من نعم العقبي و ليس

في قلوبهم إلا الله سبحانه .

و من المعلوم أن من كانت هذه صفته كان التذانه و تنعمه غير ما يلتذ و يتنعم غيره و ارتزاقه بغير ما يرتزق به سواء و إن شاركهم في ضروريات المأكل و المشرب و من هنا يتأيد أن المراد بقوله : « أولئك لهم رزق معلوم » الإشارة إلى أن رزقهم في الجنة - و هم عباد مخلصون - رزق خاص لا يشبه رزق غيرهم و لا يختل بما يتمتع به من دونهم و إن اشتركا في الاسم .

فقوله : « أولئك لهم رزق معلوم » أي رزق خاص متعين ممتاز من رزق غيرهم فكونه معلوما كناية عن امتيازهم كما في قوله : « و ما منّا إلا له مقام معلوم » الصفات : ٩٣ و الإشارة بلفظ البعيد للدلالة على علو مقامهم .

و أما ما فسره بعضهم أن المراد بكون رزقهم معلوما كونه معلوم الخصائص مثل كونه غير مقطوع و لا ممنوع حسن المنظر لذيق الطعم طيب الرائحة ، و كذا ما ذكره آخرون أن المراد أنه معلوم الوقت لقوله : « و لهم رزقهم فيها بكرة و عشياً » مريم : ٦٢ و كذا قول القائل : إن المراد به الجنة فهي وجوه غير سديدة .

و من هنا يظهر أن أخذ قوله : « إلا عباد الله المخلصين » استثناء من ضمير « و ما تجزون » لا يخلو من وجه كما تقدمت الإشارة إليه .

و قوله : « فواكه و هم مكرمون في جنّات النعيم » الفواكه جمع فاكهة و هي ما يتفكه به من الأثمار بيان لرزقهم المعلوم غير أنه تعالى شفعه بقوله : « و هم مكرمون » للدلالة على امتياز هذا الرزق أعني الفاكهة مما عند غيرهم بأنها مقارنة لإكرام خاص يخصهم قبل اختصاصهم بالله سبحانه و كونه لهم لا يشاركهم فيه شيء .

و في إضافة الجنّات إلى النعيم إشارة إلى ذلك فقد تقدم في قوله : « فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم » الآية النساء : ٦٩ ، و قوله : « و أتممت عليكم نعمتي » المائدة : ٣ و غيرهما أن حقيقة النعمة هي الولاية و هي كونه تعالى هو القائم بأمر عبده . و قوله : « على سرر متقابلين » السرر جمع سرير و هو معروف و كونهم متقابلين معناه استئناس بعضهم ببعض و استمتاعهم بنظر بعضهم في وجه بعض من غير أن يرى

بعضهم قفا بعض .

و قوله : « يطاف عليهم بكأس من معين » الكأس إناء الشراب و نقل عن كثير من اللغويين أن إناء الشراب لا يسمى كأساً إلا و فيه الشراب فإن خلا منه فهو قدح والمعين من الشراب الظاهر منه من عان الماء إذا ظهر و جرى على وجه الأرض، والمراد بكون الكأس من معين صفاء الشراب فيها و لذا عقبه بقوله : « بيضاء » .

و قوله : « بيضاء لذّة للشاربين » أي صافية في بياضها لذينه للشاربين فاللذّة مصدر أريد به الوصف مبالغة أوهي مؤنث لذّ بمعنى لذيق كما قيل .

و قوله : « لا فيها غول و لاهم عنها ينزفون » الغول الإضرار و الإفساد قال الراغب : الغول إهلاك الشيء من حيث لا يحسّ به انتهى فنفي الغول عن الخمر نفي مضارّها و الإنزاف فسّر بالسكر المذهب للعقل و أصله إذهاب الشيء تدريجاً .
ومحصل المعنى أنه ليس فيها مضارّ الخمر التي في الدنيا و لا إسكارها بإذهاب العقل .

و قوله : « و عندهم قاصرات الطرف عين » وصف للحوار التي يرزقونها و قصور طرفهنّ كناية عن نظرهنّ نظرة الغنج و الدلال و يؤيده ذكر العين بعده و هو جمع عيناء مؤنث أعين وهي الواسعة العين في جمال .

و قيل : المراد بقاصرات الطرف أنهنّ قصرن طرفهنّ على أزواجهنّ لا يردن غيرهنّ لحبهنّ لهم ، و بالعين أن أعينهنّ شديدة في سوادها شديدة في بياضها .

و قوله : « كأنهنّ بيض مكنون » البيض معروف وهو اسم جنس واحدته بيضة و المكنون هو المستور بالأدّ خار قيل : المراد تشبيههنّ بالبيض الذي كنّته الريش في العشّ أو غيره في غيره فلم تمسّه الأيدي و لم يصبه الغبار ، و قيل : المراد تشبيههنّ ببطن البيض قبل أن يقشّر وقبل أن تمسّه الأيدي .

قوله تعالى : « فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون - إلى قوله - فليعمل العاملون » حكاية محادثة تقع بين أهل الجنة فيسأل بعضهم عن أحوال بعض ويحدث بعضهم بما جرى عليه في الدنيا و تنتهي المحادثة إلى تكليمهم بعض أهل النار و هو في سواء الجحيم .

فقوله : « فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون » ضمير الجمع لأهل الجنة من عباد الله المخلصين و تساؤلهم - كما تقدم - سؤال بعضهم عن حال بعض و ما جرى عليه . و قوله : « قال قائل منهم إنني كان لي قرين » أي قال قائل من أهل الجنة المتسائلين إنني كان لي في الدنيا صاحب يختص بي من الناس . كذا يعطي السياق . و قيل : المراد بالقرين القرين من الشياطين وفيه أن القرآن إنما يثبت قرناء الشياطين في المعرضين عن ذكر الله و المخلصون في عصمة إلهية من قرين الشياطين وكذا من تأثير الشيطان فيهم كما حكى عن إبليس استثناءهم من الإغواء : « فبعضتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين » ص : ٨٣ نعم ربما أمكن أن يتعرض لهم الشيطان من غير تأثير فيهم لكنه غير أثر القرين .

وقوله : « يقول إنك لمن المصدقين إذا متنا وكننا ترابا و عظاما إننا لمدنيون » ضمير « يقول » للقرين ، و مفعول « المصدقين » البعث للجزاء و قد قام مقامه قوله : « إذا متنا » الخ و المدينون المجزيون .

و المعنى كان يقول لي قريني مستبعداً منكراً إنك لمن المصدقين للبعث للجزاء إذا متنا و كننا ترابا و عظاما فتلاشت أبداننا و تغيرت صورها إننا لمجزيون بالإحياء و الإعادة ؟ فهذا مما لا ينبغي أن يصدق .

و قوله : « قال هل أنتم مطّلعون » ضمير « قال » للقائل المذكور قبلا ، و الإطلاع الإشراف و المعنى ثم قال القائل المذكور مخاطباً لمحدثيه من أهل الجنة : هل أنتم مشرفون على النار حتى تروا قريني و الحال التي هو فيها ؟

و قوله : « فاطّلع فرآه في سواء الجحيم » السواء الوسط و منه سواء الطريق أي وسطه و المعنى فأشرف القائل المذكور على النار فرآه أي قرينه في وسط الجحيم .

و قوله : « قال تالله إن كدت لتردين » « إن » مخففة من الثقيلة ، و الإرداء السقوط من مكان عال كالشاهق و يكنى به عن الهلاك و المعنى أقسم بالله إنك قربت أن تهلكني وتسقطني فيما سقطت فيه من الجحيم .

و قوله : « ولو لا نعمة ربّي لكنت من المحضرين » المراد بالنعمة التوفيق و

الهداية الإلهية ، و الإحضار الأشخاص للعذاب قال في مجمع البيان : ولا يستعمل « أحضر » مطلقاً إلا في الشر .

و المعنى ، ولولا توفيق ربّي و هدايته لكنت من المحضرين للعذاب مثلك .
و قوله : « أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى و ما نحن بمعدّين » الاستفهام للتقرير و التعجب ، و المراد بالموتة الأولى هي الموتة عن الحياة الدنيا و أما الموتة عن البرزخ المدلول عليها بقوله : « ربّنا أمّتنا اثنتين و أحييتنا اثنتين » المؤمن : ١١ فلم يعبأ بها لأنّ الموت الذي يزعم الزاعم فيه الفناء و البطلان هو الموت الدنيوي .
و المعنى - على ما في الكلام من الحذف و الإيجاز - ثم يرجع القائل المذكور إلى نفسه و أصحابه فيقول متعجباً نحن خالدون منعمون فما نحن بميتين إلا الموتة الأولى و ما نحن بمعدّين ؟

قال في مجمع البيان : و يريدون به التحقيق لا الشكّ و إنّما قالوا هذا القول لأنّ لهم في ذلك سروراً مجدداً و فرحاً مضاعفاً و إن كانوا قد عرفوا أنّهم سيخلّدون في الجنة و هذا كما أنّ الرجل يعطى المال الكثير فيقول مستعجلاً : كلّ هذا المال لي ؟ و هو يعلم أنّ ذلك له و هذا كقوله :

أبطحاء مكّة هذا الذي أراه عياناً و هذا أنا ؟

قال : و لهذا عقبه بقوله : « إنّ هذا لهو الفوز العظيم » انتهى .

و قوله : « إنّ هذا لهو الفوز العظيم » هو من تمام قول القائل المذكور و فيه إعظام لموهبة الخلود و ارتفاع العذاب و شكر للنعمة .

و قوله : « مثل هذا فيعمل العاملون » ظاهر السياق أنّه من قول القائل المذكور و الإشارة بهذا إلى الفوز أو الثواب أي مثل هذا الفوز أو الثواب فيعمل العاملون في دار التكليف ، و قيل : هو من قول الله سبحانه و قيل : من قول أهل الجنة .

و اعلم أنّ لهم أقوالاً مختلفة في نسبة أكثر الجمل السابقة إلى قول الله تعالى أو قول الملائكة أو قول أهل الجنة غير القائل المذكور و الذي أوردناه هو الذي يساعد عليه السياق .

قوله تعالى : « أذلك خير نزلًا أم شجرة الزقوم - إلى قوله - يهرعون » مقايسة بين ماهيئاه الله نزلًا لأهل الجنة مما وصفه من الرزق الكريم و بين ما أعدّه نزلًا لأهل النار من شجرة الزقوم التي طلعها كأنه رؤس الشياطين وشراب من حميم .

فقوله : « أذلك خير نزلًا أم شجرة الزقوم » الاشارة بذلك إلى الرزق الكريم المذكور سابقا المعدّ لورود أهل الجنة و النزل بضمّتين ما يهيئ لورود الضيف فيقدّم إليه إذا ورد من الفواكه و نحوها .

و الزقوم - على ما قيل - اسم شجرة صغيرة الورق مرّة كريهة الرائحة ذات لبن إذا أصاب جسد إنسان تورّم تكون في تهامة و البلاد المجذبة المجاورة للصحراء سمّيت به الشجرة الموصوفة بما في الآية من الأوصاف ، و قيل : إن قريشا ماكانت تعرفه و سيأتى ذلك في البحث الروائي .

و لفظة خير في الآية بمعنى الوصف دون التفضيل إذ لا خيريّة في الزقوم أصلاً فهو كقوله : « ما عند الله خير من اللهو » الجمعة : ١١ و الآية على ما يعطيه السياق من كلامه تعالى .

و قوله : « إنّنا جعلناها فتنة للظالمين » الضمير لشجرة الزقوم ، و الفتنة المحنة و العذاب .

و قوله : « إنّها شجرة تخرج في أصل الجحيم » وصف لشجرة الزقوم ، و أصل الجحيم قعرها ، و لا عجب في نبات شجرة في النار و بقائها فيها فحياة الإنسان و بقاؤها خالداً فيها أعجب و الله يفعل ما يشاء .

و قوله : « طلعها كأنه رؤس الشياطين » الطلع حمل النخلة أو مطلق الشجرة أو لمّا يبدو ، و تشبيه ثمرة الزقوم برؤس الشياطين بعناية أنّ الأوهام العاميّة تصوّر الشيطان في أفصح صورة كما تصوّر الملك في أحسن صورة و أجملها قال تعالى : « ما هذا بشراً إنّ هذا إلّا ملك كريم » يوسف : ٣١ ، و بذلك يندفع ما قيل : إنّ الشيء إنّما يشبّه بما يعرف ولا معرفة لأحد برؤس الشياطين .

و قوله : « فَأَنَّهُمْ لَا يَكُلُونَ مِنْهَا فَمَا لَوْنَ مِنْهَا الْبَطُونِ » الفاء للتعليل يبين به كونها نزلا للظالمين يأكلون منها ، و في قوله : « فَمَا لَوْنَ مِنْهَا الْبَطُونِ » إشارة إلى تسلط جوع شديد عليهم يحرصون به على الأكل كيفما كان .

و قوله : « ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِنْ حَمِيمٍ » الشوب المزيج و الخليط ، و الحميم الماء الحارّ البالغ في حرارته ، و المعنى ثمّ إنّ لأولئك الظالمين - زيادة عليها - لخليطاً مزيجاً من ماء حارّ بالغ الحرارة يشربونه فيختلط به ماملؤا منه البطون من الزقوم .

و قوله : « ثُمَّ إِنَّهُمْ مَرْجَعُهُمْ لِإِلَى الْجَحِيمِ » أي إنّهم بعد شرب الحميم يرجعون إلى الجحيم فيستقروّن فيها و يعدّون ، و في الآية تلويح إلى أنّ الحميم خارج الجحيم .

و قوله : « إِنَّهُمْ أَفْوَا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يَهْرَعُونَ » ألفت كذا أي وجدته و صادفته ، و الإهراع الإسراع و المعنى أنّ سبب أكلهم و شربهم ثمّ رجوعهم إلى الجحيم أنّهم صادفوا آباءهم ضالّين - وهم مقلدون و أتباع لهم وهم أصلهم و مرجعهم - فهم يسرعون على آثارهم فجوزوا بنزل كذلك و الرجوع إلى الجحيم جزاء وفاقا .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن المنذر عن ابن جريح في قوله تعالى : « بل عجبك » قال النبي ﷺ : عجبك بالقرآن حين أنزل و يسخر منه ضلال بني آدم .

و في تفسير القميّ في قوله تعالى : « أوحشوا الذين ظلموا » قال : الذين ظلموا آل محمد ﷺ حقهم « و أزواجهم » قال : أشباههم .

اقول : صدر الرواية من الجري .

و في المجمع في قوله تعالى : « وقفوهم إنهم مسئولون » قيل : عن ولاية عليّ عليه السلام عن أبي سعيد الخدري .

اقول و رواه الشيخ في الأُمالي بإِسْناده إلى أنس بن مالك عن النبي ﷺ ،
وفي العيون عن عليٍّ وعن الرضا ﷺ عنه ﷺ ، وفي تفسير القمي عن الإمام
عليه السلام .

وفي الخصال عن أمير المؤمنين ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : لا تزول قدم عبد
يوم القيامة حتى يسأل عن أربع : عن عمره فيما أفناه ، وشبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من
أين كسبه وفيما أنفقه ، وعن حبنا أهل البيت .

اقول : و روى في العلل عنه ﷺ مثله .

وفي نهج البلاغة : اتقوا الله في عباده وبلاده فأنكم مسؤولون حتى عن البقاع
والبهائم .

وفي الدر المنثور أخرج البخاري في تاريخه و الترمذي و الدارمي وابن جرير
و ابن المنذر وابن أبي حاتم و الحاكم و ابن مردويه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ :
ما من داع دعا إلى شيء إلا كان موقوفاً يوم القيامة لازماً به لا يفارقه وإن دعا رجلاً
ثم قرء « وقفوهم إنهم مسؤولون » .

وفي روضة الكافي بإِسْناده عن محمد بن إسحاق المديني عن أبي جعفر ﷺ عن النبي ﷺ
في حديث : و أمّا قوله : « أو أهلك لهم رزق معلوم » قال : يعلمه ^(١) الخدام فيأتون به
إلى أولياء الله قبل أن يسألوهم إيّاه . أمّا قوله : « فواكه و هم مكرمون » قال : فإنهم
لا يشتهون شيئاً في الجنة إلا أكرموا به .

وفي تفسير القمي و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر ﷺ « فاطلع فرآه في
سواء الجحيم » يقول : في وسط الجحيم .

وفيه في قوله تعالى : « أفما نحن بميسّرين » الخ بإِسْناده عن أبيه عن عليٍّ بن
مهزيار و الحسن بن محبوب عن النضر بن سويد عن درست عن أبي بصير عن أبي جعفر
عليه السلام قال : إذا دخل أهل الجنة الجنة و أهل النار النار جيء بالموت و يذبح
كالكلب بين الجنة و النار ثم يقال : خلود فلا موت أبداً فيقول أهل الجنة : « أفما

نحن بميتين إلا موتتنا الأولى و ما نحن بمعذبين إن هذا لهو الفوز العظيم لمثل هذا
فليعمل العاملون » .

أقول : وحديث ذبح الموت في صورة كبش يوم القيامة من المشهورات رواه الشيعة
و أهل السنة ، و هو تمثّل الخلود يومئذ .

و في المجمع في قوله تعالى : «شجرة الزقوم» روي أن قريشا لما سمعت هذه الآية
قالت : ما نعرف هذه الشجرة قال ابن الزبيري : الزقوم بكلام البربر التمر و الزبد
في رواية بلغة اليمن فقال أبوجهل لجاريته : يا جارية زقمينا فأتته الجارية بتمر و زبد
فقال لأصحابه : تزقموا بهذا الذي يخوفكم به محمد فيزعّم أن النار تنبت الشجر و النار
تحرّق الشجر فأنزل الله سبحانه « إننا جعلناها فتنة للظالمين » .

أقول : و هذا المعنى مروي بطرق عديدة .





وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ (٧١) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنْذِرِينَ (٧٢)
فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣) الْأَعْبَادَ لِلَّهِ الْمُخْلِصِينَ (٧٤) وَلَقَدْ
نَادَيْنَا نُوحًا فَلَمِعَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَآهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦)
وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٨) سَلَامٌ
عَلَى نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ (٧٩) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٠) إِنَّهُ مِنْ
عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٨١) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (٨٢) وَإِنْ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ (٨٣)
إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (٨٤) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ (٨٥) أَأَمْكَا
آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٨٦) فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٨٧) فَانظُرْ نَظْرَةً
فِي النُّجُومِ (٨٨) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٩) فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ (٩٠) فَرَاغَ إِلَى
آلِهِتِهِمْ فَقَالَ إَلَّا تَأْكُلُونَ (٩١) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (٩٢) فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْبًا
بِالْيَمِينِ (٩٣) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ (٩٤) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ (٩٥) وَاللَّهُ
خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ (٩٦) قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٧)
فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩٨) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي
سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ (١٠١)
فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعَىٰ قَالَ يَا بَنِيَّ إِنِّي آرِي فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ

فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا آتِبِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ (١٠٣) فَلَمَّا أَسْلَمَا وَ تَلَّهُ لِلْجَبِينِ (١٠٣) وَ نَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمَ (١٠٤) قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١٠٥) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ (١٠٦) وَ قَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ (١٠٧) وَ تَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (١٠٨) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٠٩) كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (١١٠) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١١١) وَ بَشَرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٢) وَ بَارَكْنَا عَلَيْهِ وَ عَلَىٰ إِسْحَاقَ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ (١١٣) .

﴿ بَيَان ﴾

تعقيب لغرض السياق السابق المتعرض لشركهم وتكذيبهم بآيات الله و تهديدهم بأليم العذاب يقول: إن أكثر الأولين ضلّوا كضلالهم وكذبوا الرسل المندرين كتكذيبهم ويستشهد بقصص نوح وإبراهيم وموسى وهارون وإلياس ولوط ويونس عليهم السلام وما في الآيات المنقولة إشارة إلى قصة نوح وخلاصة قصص إبراهيم عليه السلام .

قوله تعالى : « و لقد ضلّ قبلهم أكثر الأولين - إلى قوله - المخلصين » كلام مسوق لا نذار مشركي هذه الأمة بتنظيرهم للأمم الهالكين من قبلهم فقد ضلّ أكثرهم كما ضلّ هؤلاء و أرسل إليهم رسل منذرون كما أرسل منذر إلى هؤلاء فكذبوا فكان عاقبة أمرهم الهلاك إلا المخلصين منهم .

واللّام في « لقد ضلّ » للقسم وكذا في « لقد أرسلنا » والمندرين الأول بكسر الهمزة والميم المعجمة وهم الرسل، والثاني بفتح الدال المعجمة وهم الأمم الأولون، و « إلا »

عباد الله» إن كان المراد بهم من في الأمم من المخلصين كان استثناء متصلًا وإن عمّ الأَنْبياء كان منقطعاً إلا بتغليب غير الأنبياء عليهم والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون » اللّامان للقسم وهو يدلّ على كمال العناية بنداء نوح وإجابته تعالى ، وقد مدح تعالى نفسه في إجابته فإنّ التقدير فلنعم المجيبون نحن ، و جمع المجيب لإفادة التعظيم وقد كان نداء نوح - على ما يفيد السياق - دعاءه على قومه واستغاثة برّبّه المنقولين في قوله تعالى : « وقال نوح ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً » نوح : ٢٦ ، وفي قوله تعالى : « فدعا ربّد أنّي مغلوب فانتصر » القمر : ١٠ .

قوله تعالى : « و نجّيناه وأهله من الكرب العظيم » الكرب - على ما ذكره الراغب - الغمّ الشديد والمراد به الطوفان أو أذى قومه ، والمراد بأهله أهل بيته و المؤمنون به من قومه وقد قال تعالى في سورة هود : « قلنا احمِلْ فيها من كلّ زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن » هود : ٤٠ و الأهل كما يطلق على زوج الرجل و بنيه يطلق على كلّ من هو من خاصّته .

قوله تعالى : « وجعلنا ذرّيته هم الباقين » أي الباقين من الناس بعد قرنهم وقد بحثنا في هذا المعنى في قصّة نوح من سورة هود .

قوله تعالى : « وتركنا عليه في الآخرين » المراد بالترك الإبقاء و بالآخرين الأمم الغابرة غير الأوّلين ، وقد ذكرت هذه الجملة بعد ذكر إبراهيم عليه السلام أيضاً في هذه السورة وقد بدّلت في القصّة بعينها من سورة الشعراء من قوله : « واجعل لي لسان صدق في الآخرين » الشعراء : ٨٤ و استفدنا منه هناك أنّ المراد بلسان صدق كذلك أن يبعث الله بعده من يقوم بدعوته و يدعو إلى ملّته وهي دين التوحيد .

فيتأيد بذلك أنّ المراد بالإبقاء في الآخرين هو إحياءه تعالى دعوة نوح عليه السلام إلى التوحيد ومجاهدته في سبيل الله عَصراً بعد عصر و جيلاً بعد جيل إلى يوم القيامة .

قوله تعالى : « سلام على نوح في العالمين » المراد بالعالمين جميعها لكونه جمعاً محليّاً بالأمم مفيداً للعموم ، و الظاهر أنّ المراد به عالموا البشر و أممهم و جماعاتهم إلى

يوم القيامة فإنه تحية من عند الله مباركة طيبة تهدي إليه من قبل الأمم الإنسانية ما جرى فيها شيء من الخيرات اعتقاداً أو عملاً فإنه ﷺ أوّل من انتفض لدعوه التوحيد ودحض الشرك وما يتبعه من العمل وقاسى في ذلك أشدّ المحنة فيما يقرب من ألف سنة لا يشاركه في ذلك أحد فله نصيب من كلّ خير واقع بينهم إلى يوم القيامة ، و لا يوجد في كلامه تعالى سلام على هذه السعة على أحد ممّن دونه .

وقيل : المراد بالعالمين عوالم الملائكة و الثقلين من الجنّ و الإنس .

قوله تعالى : « إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ » تعليل لما امتنّ عليه من الكرامة كاجابة ندائه وتنجيته وأهله من الكرب العظيم وإبقاء ذريته وتركه عليه في الآخرين و السلام عليه من العالمين ، و تشبيه جزائه بجزاء عموم المحسنين من حيث أصل الجزاء الحسن لا في خصوصياته فلا يوجب ذلك اشتراك الجميع فيما اختصّ به عليه السلام و هو ظاهر .

قوله تعالى : « إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ » تعليل لإحسانه المدلول عليه بالجملة السابقة و ذلك لأنّه ﷺ لكونه عبداً لله بحقيقة معنى الكلمة كان لا يريد ولا يفعل إلّا ما يريد الله ، و لكونه من المؤمنين حقاً كان لا يرى من الاعتقاد إلّا الحقّ و سرى ذلك إلى جميع أركان وجوده و من كان كذلك لا يصدر منه إلّا الحسن الجميل فكان من المحسنين .

قوله تعالى : « ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ » ثمّ للتراخي الكلاميّ دون الزمانيّ و المراد بالآخرين قومه المشركون .

قوله تعالى : « و إِنّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ » الشيعة هم القوم المشايعون لغيرهم الذاهبون على أثرهم و بالجملة كلّ من وافق غيره في طريقته فهو من شيعته تقدّم أو تأخّر قال تعالى : « و حيل بينهم و بين ما يشتهون كما فعل بأشياءهم من قبل » سبأ : ٥٤ .

و ظاهر السياق أنّ ضمير « شيعته » لنوح أي إنّ إبراهيم كان ممّن يوافقه في دينه وهو دين التوحيد ، و قيل : الضمير لمحمد ﷺ ولا دليل عليه من جهة اللفظ .

قيل: و من حسن الإرداف في نظم الآيات تعقيب قصة نوح عليه السلام وهو آدم الثاني أبو البشر بقصة إبراهيم عليه السلام وهو أبو الأنبياء إليه تنتهي أنساب جل الأنبياء بعده وعلى دينه تعتمد أديان التوحيد الحيّة اليوم كدين موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام ، وأيضاً نوح عليه السلام نجّاه الله من الغرق وإبراهيم عليه السلام نجّاه الله من الحرق .

قوله تعالى : « إن جاء ربّه بقلب سليم » مجيئه ربّه كناية عن تصديقه له و إيمانه به ، و يؤيد ذلك أن المراد بسلامة القلب عروّه عن كل ما يضرّ التصديق و الإيمان بالله سبحانه من الشرك الجليّ و الخفيّ و مساوي الأخلق و آثار المعاصي و أيّ تعلّق بغيره ينجذب إليه الإنسان و يختلّ به صفاء توجهه إليه سبحانه .
و بذلك يظهر أن المراد بالقلب السليم ما لا تعلّق له بغيره تعالى كما في الحديث و سيجيء إن شاء الله في البحث الروائي الآتي .

و قيل : المراد به السالم من الشرك ، و يمكن أن يوجّه بما يرجع إلى الأول و قيل : المراد به القلب الحزين ، و هو كما ترى .
و الظرف في الآية متعلّق بقوله سابقاً « من شيعته » و الظروف يغتفر فيها ما لا يغتفر في غيرها ، و قيل متعلّق بأذكر المقدّر .

قوله تعالى : « إن قال لأبيه و قومه ما ذا تعبدون » أي أي شيء تعبدون؟ وإنّما سألهم عن معبودهم و هو يرى أنّهم يعبدون الأصنام تعجباً و استغراباً .
قوله تعالى : « إفكاً آلِهة دون الله تريدون » أي تقصدون آلِهة دون الله إفكاً و افتراء ، و إنّما قدّم الإفك و الآلهة لتعلّق عنايته بذلك .

قوله تعالى : « فنظر نظرة في النجوم فقال إنّي سقيم » لاشك أن ظاهر الآيتين أن إخباره عليه السلام بأنّه سقيم مرتبط بنظرته في النجوم و مبنيّ عليه و نظرته في النجوم إمّا لتشخيص الساعة و خصوص الوقت كمن به حمى ذات نوبة يعيّن وقتها بطلوع كوكب أو غروبها أو وضع خاص من النجوم و إمّا للوقوف على الحوادث المستقبلية التي كان المنجمون يرون أن الأوضاع الفلكيّة تدلّ عليها ، و قد كان الصابثون مبالغين فيها و كان في عهده عليه السلام منهم جم غفير .

فعلى الوجه الأول لما أراد أهل المدينة أن يخرجوا كافة إلى عيد لهم نظر إلى النجوم و أخبرهم أنه سقيم ستعثر به العلة فلا يقدر على الخروج معهم .
و على الوجه الثاني نظر ﷺ حيثذاك إلى النجوم نظرة المنجمين فأخبرهم أنها تدل على أنه سيسقم فليس في وسعه الخروج معهم .

و أول الوجهين أنسب لحاله ﷺ وهو في إخلاص التوحيد بحيث لا يرى لغيره تعالى تأثيرا ، و لا دليل لتأثيرا يدل على أنه ﷺ لم يكن به في تلك الأيام سقم أصلا ، وقد أخبر القرآن بأخباره بأنه سقيم وذكر سبحانه قبيل ذلك أنه جاعربه بقلب سليم فلا يجوز عليه كذب و لا لغوم القول .

ولهم في الآيتين وجود آخر أوجهها أن نظرتهم في النجوم وإخباره بالسقم من المعارض في الكلام و المعارض أن يقول الرجل شيئا يقصد به غيره ويفهم منه غير ما يقصده فلعله نظر ﷺ في النجوم نظرا لموحّد في صنعه تعالى يستدل به عليه تعالى وعلى وحدانيته وهم يحسبون أنه ينظر إليها نظر المنجم فيها ليستدل بها على الحوادث ثم قال : إني سقيم يريد أنه سيعثر به سقم فإن الإنسان لا يخلو في حياته من سقم ما ومرض ما كما قال : « و إذا مرضت فهو يشفين » الشعراء : ٨٠ وهم يحسبون أنه يخبر عن سقمه يوم يخرجون فيه لعيد لهم ، والمرجح عنده لجميع ذلك ما كان يهتم به من الرواغ إلى أصنامهم وكسرها .

لكن هذا الوجه مبني على أنه كان صحيحا غير سقيم يومئذ ، وقد سمعت أن لادليل يدل عليه .

على أن المعارض غير جائزة على الأنبياء لارتفاع الوثوق بذاك عن قولهم .

قوله تعالى : « فتولوا عنه مدبرين » ضمير الجمع للقوم و ضمير الأفراد لإبراهيم ﷺ أي خرجوا من المدينة وخلفوه .

قوله تعالى : « فراغ إلى آلهتهم فقال ألا تأكلون ما لكم لا تنطقون » الروغ و الرواغ و الروغان الحياء و الميل ، و قيل أصله الميل في جانب ليخضع من يريده .

و في قوله : « ألا تأكلون » ؟ تأييد لما ذكروا أن المشركين كانوا يضعون أيّام

أعيادهم طعاماً عند آلهتهم .

و قوله : « ألا تأكلون ؟ مالكم لا تنطقون » ؟ تكليم منه لا آلهتهم وهي جحد وهو يعلم أنّها جحد لا تأكل ولا تنطق لكنّ الوجد و شدة الغيظ حمله على أن يمثل موقفها موقف العقلاء ثم يؤاخذها مؤاخذة العقلاء كما يفعل بالمجرمين .

فنظر إليها وهي ذوات أبدان كهيئة من يتغذى ويأكل و عندها شيء من الطعام فامتلاء غيظا و جاش وجدا فقال : ألا تأكلون ؟ فلم يسمع منها جوابا فقال : « مالكم لا تنطقون » ؟ و أنتم آلهة يزعم عبادكم أنكم عقلاء قادرون مدبرون لأموارهم فلمالم يسمع لها حسا راغ عليها ضربا باليمين .

قوله تعالى : « فراغ عليهم ضربا باليمين » أي تفرّغ على ذاك الخطاب أن مال على آلهتهم يضربهم ضربا باليد اليمنى أو بقوة بناء على كون المراد باليمين القوة . و قول بعضهم : إنّ المراد باليمين القسم و المعنى مال عليهم ضربا بسبب القسم الذي سبق منه وهو قوله : « تالله لأكيدن » أصنامكم » الأنبياء : ٥٧ بعيد .

قوله تعالى : « فأقبلوا إليه يرفون » الزف و الزفيف الإسراع في المشي أي فجاؤا إلى إبراهيم و الحال أنّهم يسرعون اهتماما بالحادثة التي يظنون أنّه الذي أحدثها .

و في الكلام إيجاز وحذف من خبر رجوعهم إلى المدينة و وقوفهم على ما فعل بالأصنام و تحقيقهم الأمر و ظنّهم به عَلَيْهِ السَّلَام مذكور في سورة الأنبياء .

قوله تعالى : « قال أتعبدون ما ننحتون والله خلقكم و ما تعبدون » فيه إيجاز و حذف من حديث القبض عليه و الإتيان به على أعين الناس و مسألته وغيرها .

و الاستفهام للتوبيخ و فيه مع ذلك احتجاج على بطلان طريقتهم فهو يقول : لا يصلح ما ننحته إلا إنسان بيده أن يكون ربّا إلا إنسان معبوداً له والله سبحانه خلق الإنسان و ما يعمل و الخلق لا ينفك عن التدبير فهو ربّ الإنسان و من السفه أن يترك هذا و يعبد ذاك .

و قد بان بذلك أنّ الأظهر كون ما في قوله : « ما ننحتون » موصولة و التقدير

ما نتحتونه ، و كذا في قوله : « و ما تعملون » و جوّز بعضهم كون «ما» فيهما مصدرية وهو في أولهما بعيد جداً .

ولأصير في نسبة الخلق إلى ما عمله الإنسان أو إلى عمله لأنّ ما يريد الإنسان أن يعمل من طريق اختياره مراد الله سبحانه من طريق إرادة الإنسان واختياره ولا يوجب هذا النوع من تعلق الإرادة بالفعل بطلان تأثير إرادة الإنسان و خروج الفعل عن الاختيار و صيرورته مجبراً عليه ، و هو ظاهر .

ولو كان المراد نسبة خلق أعمالهم إلى الله سبحانه بلا واسطة لامن طريق إرادتهم بل بتعلق إرادته بنفس عملهم و أفاد الجبر لكن القول أقرب إلى أن يكون عذراً لهم من أن يكون توبيخاً و تقييحاً ، وكانت الحجة لهم لا عليهم .

قوله تعالى : « قالوا ابنوا له بنياناً فآلّقوه في الجحيم » البنيان مصدر بنى يبني و المراد به المبني ، و الجحيم النار في شدة تأججها .

قوله تعالى : « فأرادوا به كيداً فجعلناهم الأسفلين » الكيد الحيلة و المراد احتيالهم إلى إهلاكه و إحراقه بالنار .

و قوله : « فجعلناهم الأسفلين » كناية عن جعل إبراهيم فوقهم لا يؤثر فيه كيدهم شيئاً إذ قال سبحانه : « يا نار كوني برداً و سلاماً على إبراهيم » الأنبياء : ٦٩ .
و قد اختتم بهذا فصل من قصص إبراهيم عليه السلام و هو انتهاضه أوّلاً على عبادة الأوثان و اختصامه لعبادها و انتهاء أمره إلى إلقائه النار و إبطاله تعالى كيدهم .

قوله تعالى : « و قال إنني ذاهب إلى ربّي سيّدين » فصل آخر من قصصه عليه السلام يذكر عزمه على الهجرة من بين قومه واستيهابه من الله و لداً صالحاً و إجابته إلى ذلك و قصة ذبحه و نزول الفداء .

فقوله : « و قال إنني ذاهب إلى ربّي » الخ كلاًّ نجاح لما وعدهم به مخاطباً لآزر : « و أعترلكم و ما تدعون من دون الله و أدعو ربّي عسى أن لا أكون بدعاء ربّي شقيّاً » مريم : ٤٨ و منه يعلم أن مراده بالذهاب إلى ربّه الذهاب إلى مكان يتجرّد فيه لعبادته تعالى و دعائه و هو الأرض المقدّسة .

و قول بعضهم : إنَّ المراد أذهب إلى حيث أمرني ربِّي لا شاهد عليه .

و كذا قول بعضهم : إنَّ المراد إنَّني ذاهب إلى لقاء ربِّي حيث يلقونني في النار فأموت و ألقى ربِّي سيهدينني إلى الجنَّة .

و فيه - كما قيل - أنَّ ذيل الآية لا يناسب و هو قوله : « ربِّ هب لي من الصالحين » و كذا قوله بعده : « فبشِّرناه بغلام حلیم » .

قوله تعالى : « ربِّ هب لي من الصالحين » حكاية دعاء إبراهيم عليه السلام و مسألته الولد أي قال : ربِّ هب لي الخ و قد قيَّده بكونه من الصالحين .

قوله تعالى : « فبشِّرناه بغلام حلیم » أي فبشِّرناه أنَّا سنرزق غلاما حلیمًا و فيه إشارة إلى أنَّه يكون ذكراً و يبلغ حدَّ الغلمان ، و أخذ الغلومة في وصفه مع أنَّه بلغ مبلغ الرجال للإشارة إلى حاله التي يظهر فيها صفة كماله و صفاء ذاته و هو حلمه الذي مكَّنه من الصبر في ذات الله إذ قال : « يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين » .

و لم يوصف في القرآن من الأنبياء بالحلم إلَّا هذا النبي الكريم في هذه الآية و أبوه في قوله تعالى : « إنَّ إبراهيم لحليم أوَّاه منيب » هود : ٧٥ .

قوله تعالى : « فلمَّا بلغ معه السعي قال يا بني إنَّني أرى في المنام أنِّي أذبحك فانظر ماذا ترى » الخ الفاء في أوَّل الآية فصيحة تدلُّ على محذوف و التقدير فلمَّا ولد له و نشأ و بلغ معه السعي ، و المراد ببلوغ السعي بلوغه من العمر مبلغا يسعى فيه لحوائج الحياة عادة وهو سنُّ الرهاق ، و المعنى فلمَّا راهق الغلام قال له يا بني الخ . و قوله : « قال يا بني إنَّني أرى في المنام أنِّي أذبحك » هي رؤيا إبراهيم ذبح ابنه ، و قوله : « إنَّني أرى » يدلُّ على تكرُّر هذه الرؤيا له كما في قوله : « وقال الملك إنَّني أرى » الخ يوسف : ٤٣ .

و قوله : « فانظر ماذا ترى » هو من الرأي بمعنى الاعتقاد أي فتفكَّر فيما قلت و عيَّن ما هو رأيك فيه ، و هذه الجملة دليل على أنَّ إبراهيم عليه السلام فهم من منامه أنَّه

أمر له بالذبح مثل له في مثال نتيجة الأمر و لذا طلب من ابنه الرأي فيه و هو يختبره بما ذا يجيبه ؟

و قوله : « قال يا أبت أفت أفعَل ما تؤمر ستجدي إن شاء الله من الصابرين » جواب ابنه ، و قوله : « يا أبت أفت أفعَل ما تؤمر » إظهار رضى بالذبح في صورة الأمر و قد قال : أفعَل ما تؤمر و لم يقل : اذبحني إشارة إلى أن أباه مأمور بأمر ليس له إلا ائتماره و طاعته .

و قوله : « ستجدي إن شاء الله من الصابرين » تطيب منه لنفس أبيه أنه لا يجزع منه و لا يأتي بما يهيج وجد الوالد عن ولده المزمل بدمائه ، و قد زاد في كلامه صفاء على صفاء إذ قيد وعده بالصبر بقوله : « إن شاء الله » فأشار إلى أن اتصافه بهذه الصفة الكريمة أعني الصبر ليس له من نفسه و لا أن زمامه بيده بل هو من مواهب الله و مننه إن يشاء تبسّر به و له أن لا يشاء فينزع منه .

قوله تعالى : « فلما أسلما و تله للجبين » الإِسلام الرضا و الاستسلام ، و التلّ الصرع ، و الجبين أحد جانبي الجبهة و اللّام في « للجبين » لبيان ما وقع عليه الصرع كقوله : « يخرّون للأذقان سجّداً » أسرى : ١٠٧ ، و المعنى فلما استسلما إبراهيم و ابنه لأمر الله و رضيا به و صرعه إبراهيم على جبينه .

و جواب لما محذوف إيماء إلى شدة المصيبة و مرارة الواقعة .

قوله تعالى : « و نادينا أن يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا » معطوف على جواب لما المحذوف ، و قوله : « قد صدّقت الرؤيا » أي أوردتها مورد الصدق و جعلتها صادقة و امتثالت الأمر الذي أمرناك فيها أي إن الأمر فيها كان امتحانياً يكفي في امتثاله تهيوّ الأمور للفعل و إشرافه عليه فحسب .

قوله تعالى : « إنّنا كذلك نجزي المحسنين إنّ هذا لهو البلاء المبين » الإشارة كذلك إلى قصة الذبح بما أنّها محنة شاقّة و ابتلاء شديد و الإشارة بهذا إليها أيضاً و هو تعليل لشدة الأمر .

و المعنى إنّنا على هذه الوتيرة نجزي المحسنين فزمتهم امتحانات شاقّة صورة هيبة

معنى فإذا أتمموا الابتلاء جزيناهم أحسن الجزاء في الدنيا والآخرة ، وذلك لأنّ
الذي ابتلينا به إبراهيم لهو البلاء المبين .

قوله تعالى : « وفديناه بذبح عظيم » أي وفدينا ابنه بذبح عظيم و كان كبشا
أُتاه جبريل من عند الله سبحانه فداء على ما في الأخبار ، والمراد بعظمة الذبح عظمة
شأنه بكونه من عند الله سبحانه وهو الذي فدى به الذبيح .

قوله تعالى : « و تركنا عليه في الآخرين » تقدّم الكلام فيه .

قوله تعالى : « سلام على إبراهيم » تحية منه تعالى عليه وفي تنكير سلام
تفخيم له .

قوله تعالى : « إنّنا كذلك نجزي المحسنين إنّّه من عبادنا المؤمنين » تقدّم
تفسير الآيتين .

قوله تعالى : « و بشرناه بإسحاق نبياً من الصالحين » الضمير لإبراهيم عليه السلام .
واعلم أنّ هذه الآية المتضمنة المبشّر بإسحاق بوقوعها بعد البشرى السابقة
بقوله : « فبشرناه بغلام حليم » المتعقبة بقوله : « فلما بلغ معه السعي » إلى آخر
القصة ظاهرة كالصريحة أو هي صريحة في أنّ الذبيح غير إسحاق وهو إسماعيل عليه السلام
وقد فصلنا القول في ذلك في قصص إبراهيم عليه السلام من سورة الأنعام .

قوله تعالى : « و باركنا عليه و على إسحاق ومن ذرّيتهما محسن و ظالم لنفسه
مبين » المباركة على شيء جعل الخير والنماء والثبات فيه أي وجعلنا فيما أعطينا إبراهيم
وإسحاق الخير الثابت والنماء .

و يمكن أن يكون قوله : « و من ذرّيتهما » الخ قرينة على أنّ المراد بقوله :
« باركنا » إعطاء البركة والكثرة في أولاده و أولاد إسحاق ، والباقي ظاهر .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القميّ في قوله تعالى : « بقلب سليم » قال : القلب السليم الذي يلقى الله
عزّ وجلّ وليس فيه أحد سواه .

وفيه قال : القلب السليم من الشك .

وفي روضة الكافي بإسناده عن حجر عن أبي عبد الله عليه السلام قال : قال أبو جعفر عليه السلام :
عاب آلهتهم فنظر نظرة في النجوم فقال إنني سقيم . قال أبو جعفر عليه السلام : والله ما كان
سقيما وما كذب .

أقول : وفي معناه روايات أخر وفي بعضها : ما كان إبراهيم سقيما وما كذب إنما
عنى سقيما في دينه مرتادا .

وقد تقدم الروايات في قصة حجاج إبراهيم عليه السلام قومه وكسره الأصنام وإلقائه
في النار في تفسير سور الأنعام ومريم والأنبياء والشعراء .

وفي التوحيد عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث وقد سأله رجل عما اشتبه عليه
من الآيات قال : وقد أعلمتك أن رب شيء من كتاب الله عز وجل تأويله غير تنزيله
ولا يشبه كلام البشر وسأنبئك بطرف منه فتكتفي إن شاء الله .

من ذلك قول إبراهيم عليه السلام : « إنني ذاهب إلى ربِّي سيهدين » فذهابه إلى ربّه
توجهه إليه عبادة واجتهادا وقربة إلى الله عز وجل ألا ترى أن تأويله غير تنزيله؟
وفيه بإسناده عن الفتح بن يزيد الجرجاني عن أبي الحسن عليه السلام قال : يفتح
إن لله إرادتين ومشيئتين : إرادة حتم ، وإرادة عزم ينهى وهو يشاء ذلك ويأمر وهو
لا يشاء أو ما رأيت أنه نهى آدم وزوجته عن أن يأكلا من الشجرة وهو يشاء ذلك؟ ولو
لم يشأ لم يأكلا ، ولو أكلا لغلبت شهوتهما مشيئة الله تعالى ، وأمر إبراهيم بذبح ابنه
إسماعيل عليه السلام وشاء أن لا يذبحه ولو لم يشأ أن لا يذبحه لغلبت مشيئة إبراهيم مشيئة الله
عز وجل . قلت : فرتجت عني فرتج الله عنك .

وعن أمالي الشيخ بإسناده إلى سليمان بن يزيد قال : حدثنا علي بن موسى
قال : حدثني أبي عن أبيه عن أبي جعفر عن أبيه عن آبائه عليهم السلام قال : الذبيح إسماعيل
عليه السلام .

أقول : وروى مثله في المجمع عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام ، وبهذا المضمون
روايات كثيرة أخرى عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ، وقد وقع في بعض رواياتهم أنه إسحاق

وهو مطروح بمخالفة الكتاب .

و عن الفقيه سئل الصادق عليه السلام عن الذبيح من كان ؟ فقال : إسماعيل لأن الله تعالى ذكر قصته في كتابه ثم قال : « وبشّرناه بإسحاق نبياً من الصالحين » .

اقول : هذا ما تقدم في بيان الآية أن الآية بسياقها ظاهرة بل صريحة في ذلك .
و في المجمع عن ابن إسحاق أن إبراهيم كان إذا زار إسماعيل و هاجر حمل على البراق فيغدو من الشام فيقيل بمكة و يروح من مكة فيبيت عند أهله بالشام حتى إذا بلغ معه السعي رأى في المنام أن ^(١) يذبحه فقال له : يا بني خذ الجبل و المدينة ^(٢) ثم انطلق بنا إلى هذا الشعب لنحتطب .

فلما خلا إبراهيم بابنه في شعب ثبير أخبره بما قد ذكره الله عنه فقال : يا أبت أشد رباطي حتى لا أضرب و اكفف عني ثيابك حتى لا ينتضح من دمي شيئاً فإراهني و اشحذ شفرتك و أسرع مر السكين على حلقي ليكون أهون علي فإني الموت شديد فقال له إبراهيم : نعم العون أنت يا بني على أمر الله .

ثم ساق القصة و فيها ثم انحنى إليه بالمدينة و قلب جبرائيل المدينة على قفاها واجتر الكباش من قبل ثبير واجتر الغلام من تحته و وضع الكباش مكان الغلام ، و نودي من ميسرة مسجد الخيف : يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا .

اقول : و الروايات في القصة كثيرة و لا تخلو من اختلاف .

وفيه : روى العياشي بإسناده عن يزيد بن معاوية العجلي قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : كم كان بين بشارة إبراهيم بإسماعيل و بين بشارته بإسحاق عليه السلام ؟ قال : كان بين البشارتين خمس سنين قال الله سبحانه فبشّرناه بغلام حلیم يعني إسماعيل وهي أول بشارة بشّر الله به إبراهيم عليه السلام في الولد .

(١) أنه ظ

(٢) المدينة السكين .



وَلَقَدْ مَنَّا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١١٤) وَنَجَّيْنَاهُمَا وَقَوْمَهُمَا مِنَ الْكَرْبِ
 الْعَظِيمِ (١١٥) وَنَصَرْنَاهُمْ فَكَانُوا هُمْ الْغَالِبِينَ (١١٦) وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ
 الْمُسْتَقِيمَ (١١٧) وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (١١٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا
 فِي الْآخِرِينَ (١١٩) سَلَامٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ (١٢٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي
 الْمُحْسِنِينَ (١٢١) إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٢٢) وَإِنَّ الْيَأْسَ لَمِنْ
 الْمُرْسَلِينَ (١٢٣) إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ آلَا تَتَّقُونَ (١٢٤) اتَّعَدُّونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ
 أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٢٥) اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (١٢٦) فَكَذَّبُوهُ
 فَأَنَّهُمْ مُّخْضَرُونَ (١٢٧) إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمَخْلُصِينَ (١٢٨) وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ
 فِي الْآخِرِينَ (١٢٩) سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (١٣٠) إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي
 الْمُحْسِنِينَ (١٣١) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (١٣٢) .

﴿بيان﴾

ملخص قصة موسى و هارون و إشارة إلى قصة إيلias عليه السلام . و بيان ما أنعم الله
 عليهم و عذب مكدبيهم و جانب الرحمة يربو فيها على جانب العذاب و التبشير يزيد
 على الإنذار .

قوله تعالى : « ولقد مَنَّنا على موسى و هارون » امنٌ الإ نعام و من المحتمل
 أن يكون المراد بد ماسيعة ممة أنعم عليهما و على قومهما من التنجية و النصر و إيتاء

الكتاب والهداية وغيرها فيكون قوله : « ونجّيناها » الخ من عطف التفسير .

قوله تعالى : « ونجّيناها وقومها من الكرب العظيم » وهو الغم الشديد من

استضعاف فرعون لهم يسومهم سوء العذاب ويذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم .

قوله تعالى : « ونصرناهم فكانوا هم الغالبين » وهو الذي أدّى إلى خروجهم من

مصر وجوازهم البحر وهلاك فرعون وجنوده .

و بذلك يندفع ما توهم أن مقتضى الظاهر أن يذكر النصر قبل التنجية لتوقفها

عليه ، وذلك أن النصر إنما يكون فيما إذا كان للمنصور قوة ما لكنّها لا تكفي لدفع

الشر فتتمّ بالنصر وكان لبني إسرائيل عند الخروج من مصر بعض القوة فناسب إطلاق

النصر على إعاتهم على ذلك بخلاف أصل تخلصهم من يد فرعون فإنهم كانوا أسراء

مستعبدين لأقوة لهم فلا يناسب هذا الاعتبار إلا ذكر التنجية دون النصر .

قوله تعالى : « وآتيناهما الكتاب المستبين » أي يستبين المجهولات الخفية

فيسينها وهي التي يحتاج إليها الناس في دنياهم وآخرتهم .

قوله تعالى : « وهديناها الصراط المستقيم » المراد بها الهداية بتمام معنى

الكلمة ، ولذا خصّها بهما ولم يشرك فيهما معهما قومهما ، وقد تقدّم كلام في معنى الهداية

إلى الصراط المستقيم في سورة الفاتحة .

قوله تعالى : « وتركنا عليهما في الآخرين - إلى قوله - المؤمنين » تقدّم

تفسيرها .

قوله تعالى : « وإنّ إلياس لمن المرسلين » قيل : إنّّه عليه السلام من آل هارون

كان مبعوثاً إلى بعلبك^(١) ولم يذكر في كلامه ما يستشهد به عليه .

قوله تعالى : « إذ قال لقومه ألا تتقون أتدعون بعلا و تذرون أحسن الخالقين

- إلى قوله - الأولين » شطر من دعوته ﷺ يدعو قومه فيها إلى التوحيد و يوبّخهم

على عبادة بعل - صنم كان لهم - وترك عبادة الله سبحانه .

و كلامه ﷺ على ما فيه من التوبيخ واللوم يتضمّن حجة تامّة على توحيد

(١) ولعلمهم أخذوه من بعل فقد قيل : ان بعلبك سمى به لان بعل كان منصوباً في معبد فيه .

تعالى فإن قوله: «وتذرون أحسن الخالقين الله ربكم ورب آبائكم الأولين» يوجبهم أولاً على ترك عبادة أحسن الخالقين ، و الخلق و الإيجاد كما يتعلق بذوات الأشياء بتعلق بالنظام الجاري فيها الذي يسمى تدبيراً فكما أن الخلق إليه تعالى فالتدبير أيضاً إليه فهو المدبر كما أنه الخالق ؛ و أشار إلى ذلك بقوله : «الله ربكم» بعد وصفه تعالى بأحسن الخالقين .

ثم أشار إلى أن ربوبيته تعالى لا تختص بقوم دون قوم كالأصنام التي يتخذ كل قوم بعضها منها دون بعض فيكون صنم رب القوم دون آخرين بل هو تعالى رب لهم ولا آبائهم الأولين لا يختص ببعض دون بعض لعموم خلقه وتدبيره ، و إليه أشار بقوله : «الله ربكم ورب آبائكم الأولين» .

قوله تعالى : « فكذبوه فإنهم لمحضرون » أي مبعوثون ليحضروا العذاب، وقد تقدم أن الإحضار إذا أطلق أفاد معنى الشر .

قوله تعالى : « إلا عباد الله المخلصين » دليل على أنه كان في قومه جمع منهم .

قوله تعالى : « وتركنا عليه في الآخرين - إلى قوله - المؤمنين » تقدم الكلام في نظائرها .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « أتدعون بعلا » قال : كان لهم صنم يسمونه بعلا .

و في المعاني بإسناده إلى قاذح عن الصادق جعفر بن محمد عن أبيه عن آبائه عن

علي عليه السلام في قول الله عز وجل : « سلام على آل يس » قال : يس محمد عليه السلام ونحن آل يس .

اقول : و عن العيون عن الرضا عليه السلام مثله ، وهو مبني على قراءة آل يس كما

قرأه نافع وابن عامر ويعقوب وزيد .

﴿ كلام في قصة الياس عليه السلام ﴾

١ - قصته في القرآن : لم يذكر اسمه عليه السلام في القرآن الكريم إلا في هذا الموضع وفي سورة الأنعام عند ذكر هداية الأنبياء حيث قال : « وذكرياً ويحيى وعيسى وإلياس وكل من الصالحين » الأنعام : ٨٥ .

ولم يذكر تعالى من قصته في هذه السورة إلا أنه كان يدعو إلى عبادة الله سبحانه قوما كانوا يعبدون بعلاً فأمن به وأخلص الإيمان قوم منهم وكدّ به آخرون وهم جل القوم وإنهم ملحضرون .

وقد أثنى الله سبحانه عليه في سورة الأنعام بما أثنى به على الأنبياء عامة وأثنى عليه في هذه السورة بأنه من عباده المؤمنين المحسنين وحيّاه بالسلام بناء على القراءة المشهورة «سلام على إيل ياسين» .

٢ - الأحاديث فيه : ورد فيه عليه السلام أخبار مختلفة متهاققة كغالب الأخبار الواردة في قصص الأنبياء الحاكية للعجائب كالذي روي عن ابن مسعود أن إلياس هو إدريس وما عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم : أن الخضر هو إلياس ، وما عن وهب و كعب الأخبار وغيرهما أن إلياس حي لا يموت إلى النفخة الأولى ، وما عن وهب أن إلياس سأل الله أن يريجه من قومه فأرسل الله إليه دابة كهيئة الفرس في لون النار فوثب إليه فانطلق به فكساه الله الريش والنور وقطع عنه لذّة المأكل والمشرّب فصار في الملائكة وما عن كعب الأخبار أن إلياس صاحب الجبال والبرّ وأنه الذي سمّاه الله بذي النون وما عن الحسن أن إلياس موكل بالفيافي والخضر موكل بالجبال ، وما عن أنس أن إلياس لاقى النبي صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره فقعدا يتحدثان ثم نزل عليهما مائدة من السماء فأكلوا وأطعماني ثم ودّعه وودّعني ثم رأيته مرّ على السحاب نحو السماء إلى غير ذلك (١) .

وفي بعض أخبار الشيعة أنه عليه السلام حيّ مخلّد ^(١) لكنّها ضعاف وظاهر آيات القصة لا يساعد عليه .

و في البحار في قصة إيلias عليه السلام عن قصص الأنبياء بالإسناد عن الصدوق بإسناد إلى وهب بن منبه ، ورواه الثعلبي في العرائس عن ابن إسحاق وعلماء الأخبار أبسط منه - والحديث طويل جداً وملخصه - أنه بعد انشعاب ملك بني إسرائيل و تقسّمه بينهم سار سبط منهم إلى بعلبك وكان لهم ملك منهم يعبد صنما اسمه بعل ويحمل الناس على عبادته .

وكانت له امرأة فاجرة قد تزوّجت قبله بسبعة من الملوك وولدت تسعين ولدًا سوى أبناء الأبناء ، وكان الملك يستخلفها إذا غاب فتقضي بين الناس ، و كان له كاتب مؤمن حكيم قد خلّص من يدها ثلاث مائة مؤمن تريد قتله ، و كان في جوار قصر الملك رجل مؤمن له بستان وكان الملك يحترم جواره ويكرمه .

ففي بعض ما غاب الملك قتلت المرأة الجار المؤمن و غصبت بستانه فلما رجع و علم به عاتبه فاعتذرت إليه وأرضته فألى الله تعالى على نفسه أن ينتقم منهما إن لم يتوبا فأرسل إليهم إيلias عليه السلام يدعوهم إلى عبادة الله وأخبرهما بما آلى الله فاشتد غضبهم عليه وهمّوا بتعذيبه و قتله فهرب منهم إلى أصعب جبل هناك فلبث فيه سبع سنين يعيش نبات الأرض و ثمار الشجر .

فأمرض الله ابنًا للملك يحبّه حبًا شديدًا فاستشفع ببعل فلم ينفعه فقبل له :إنّه غضبان عليك إذ لم تقتل إيلias فأرسل إليه فئة من قومه ليخدعوه و يقبضوا عليه فأرسل الله إليهم نارا فأحرقتهم ثم أرسل إليه فئة أخرى من ذوي البأس مع كاتبه المؤمن فذهب معه إيلias صونا له من غضب الملك لكن الله سبحانه ألمات ابنه فشغله حزنه عن إيلias فرجع سالما .

ثم لما طال الأمر نزل إيلias من الجبل و استخفى عند أمّ يونس بن متى في بيتها و يونس طفل رضيع ثم خرج بعد ستة أشهر إلى الجبل ثانيا واتفق أن مات بعده

يونس ثم أحياء الله بدعاء إيلias بعد ما خرجت أمه في طلبه فوجدته فتضرعت إليه .
ثم إنه سأل الله أن ينتقم له من بني إسرائيل و يمسك عنهم الأمطار فأجيب
و سلط الله عليهم القحط فأجهدوا سنين فندموا فجاءه فتابوا و أسلموا فدعا ابنه فأرسل
عليهم المطر فسقاهم و أحيأ بلادهم .

فشكوا إليه هدم الجدران و عدم البذر من الحبوب فأوحى إليه أن يأمرهم أن
يبذروا الملح فأثبت لهم الحمص و أن يبذروا الرمل فأثبت لهم منه الدخن .
ثم لما كشف الله عنهم الضر نقضوا العهد و عادوا إلى أخبث ما كانوا عليه فأمل
ذلك إيلias فدعا الله أن يريجه منهم فأرسل الله إليه فرسا من نار فوثب عليه إيلias فرفعه
الله إلى السماء و كساه الريش و النور فكان مع الملائكة .
ثم سلط الله على الملك و امرأته عدوا فقصدهما و ظهر عليهما فقتلهما و ألقى
جيفتهما في بستان ذلك الرجل المؤمن الذي قتلاه و غصبوا بستانه .
و أنت بالتأمل فيما قصه الرواية لا ترتاب في ضعفها .





وَإِنْ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٣) إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (١٣٤) إِلَّا
 عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ (١٣٥) ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ (١٣٦) وَإِن كُمْ لَمَّزُونَ عَلَيْهِمُ
 مُّصِيبِينَ (١٣٧) وَبِاللَّيْلِ أَفْلًا تَعْقِلُونَ (١٣٨) وَإِنْ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (١٣٩)
 إِذِ ابْتِىَ إِلَى الْفَلَكِ الْمَشْجُونِ (١٤٠) فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ (١٤١)
 فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ (١٤٢) فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣)
 لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤٤) فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ (١٤٥)
 وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ (١٤٦) وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ آلَافٍ أَوْ يُزِيدُونَ (١٤٧)
 فَآمَنُوا فَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ (١٤٨) .

﴿ بَيَان ﴾

خلاصة قصة لوط عليه السلام ثم قصة يونس عليه السلام وابتلاء الله تعالى له بالحوث
 مأخوذا بما أعرض عن قومه عند ارتفاع العذاب عنهم بعد نزوله وإشرافه عليهم .
قوله تعالى : « وَإِنَّ لُوطًا لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ » و إنما نجاه
 و أهله من العذاب النازل على قومه و هو الخسف و إمطار حجارة من سجيل على ما
 ذكره الله تعالى في سائر كلامه .
قوله تعالى : « إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ » أي في الباقين في العذاب المهلكين به
 و هي امرأة لوط .

قوله تعالى : «ثم دمرنا الآخرين» التدمير الإهلاك، و الآخرين قومه الذين أرسل إليهم .

قوله تعالى : «و إنكم لتمرّون عليهم مصبحين و بالليل أفلا تعقلون» فإنيهم على طريق الحجاز إلى الشام ، و المراد بالمرور عليهم المرور على ديارهم الخربة و هي اليوم مستورة بالماء على ما قيل .

قوله تعالى : «وإن يونس لمن المرسلين إذ أبق إلى الفلك المشحون» أي السفينة المملوءة من الناس و الإباق هرب العبد من مولاه .

و المراد بإبقه إلى الفلك خروجه من قومه معرضاً عنهم و هو **عَلَيْهِ السَّلَامُ** و إن لم يعص في خروجه ذلك ربّه و لا كان هناك نهي من ربّه عن الخروج لكن خروجه إذ ذاك كان ممثلاً لإباق العبد من خدمة مولاه فأخذ الله بذلك ، و قد تقدّم بعض الكلام في ذلك في تفسير قوله تعالى : «وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر عليه» الأ نبياء: ٨٧.

قوله تعالى : «فساهم فكان من المدحضين» المساهمة المقارعة و الإدحاض الغلبة أي فقارع من في السفينة فكان من المغلوبين، و قد كان عرض لسفينتهم الحوت فاضطروا إلى أن يلقوا واحداً منهم في البحر ليتلعه ويخلى السفينة فقارعوا فأصاب يونس **عَلَيْهِ السَّلَامُ** .
قوله تعالى : « فانتقمه الحوت و هو مليم » الانتقام الابتلاع ، و مليم من ألام أي دخل في اللوم كأحرم إذا دخل في الحرم أو بمعنى صار ذا ملامة .

قوله تعالى : «فلولا أنه كان من المسبحين للبث في بطنه إلى يوم يبعثون» عدّه من المسبحين وهم الذين تكرر منهم التسبيح و تمكّن منهم حتّى صار وصفاً لهم يدلّ على دوام تلبّسه زماناً بالتسبيح . قيل: أي من المسبحين قبل التقام الحوت إيّاه، وقيل: بل في بطن الحوت ، و قيل: أي كان من المسبحين قبل التقام الحوت و في بطنه .

و الذي حكى من تسبيحه في كلامه تعالى قوله في سورة الأ نبياء : « فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين » الأ نبياء: ٨٧ و لازم ذلك أن يكون من المسبحين في بطن الحوت خاصّة أو فيه و فيما قبله فاحتمال كون المراد تسبيحه قبل التقام الحوت مرجوح لا ينبغي أن يصار إليه .

على أن تسبيحه مع اعترافه بالظلم في قوله : « سبحانك إنّي كنت من الظالمين » - على ما سيحيى - تسبيح له تعالى عما كان يشعر به ^(١) فعله من ترك قومه وذهابه على وجهه، وقوله : « فلو لا أنه كان من المسبّحين » الخ يدل على أن تسبيحه كان هو السبب المستدعي لنجاته ، ولازم ذلك أن يكون إنما ابتلي بما ابتلي به لينزّهه تعالى فينجو بذلك من الغم الذي ساقه إليه فعله إلى ساحة العافية .

و بذلك يظهر أن العناية في الكلام إنما هي بتسبيحه في بطن الحوت خاصة فخير الأقوال الثلاثة أوسطها .

فالظاهر أن المراد بتسبيحه نداؤه في الظلمات بقوله : « لا إله إلا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين » وقد قدّم التهليل ليكون كالعلّة المبيّنة لتسبيحه كأنه يقول : لا معبود بالحق يتوجّه إليه غيرك فأتت منزّه مما كان يشعر به فعلى أني أبق منك معرض عن عبوديتك متوجّه إلى سواك إنّي كنت ظالماً لنفسى في فعلي فها أنا متوجّه إليك متبرئ مما كان يشعر به فعلي من التوجّه عنك إلى غيرك .

فهذا معنى تسبيحه ولو لا ذلك منه لم ينج أبداً إن كان سبب نجاته منحصراً في التسبيح والتنزيه بالمعنى الذي ذكر .

وبذلك يظهر أن المراد بقوله : « للبت في بطنه إلى يوم يبعثون » تأييد مكثه في بطنه إلى أن يبعث فيخرج منه كالقبر الذي يقبر فيه الإنسان و يلبث فيه حتى يبعث فيخرج منه قال تعالى : « منها خلقناكم و فيها نعيدكم و منها نخرجكم تارة أخرى » طه : ٥٥ .

و لدلالة في الآية على كونه عَلَيْهِ السَّلَامُ على تقدير اللبث حياً في بطن الحوت إلى يوم يبعثون أو ميّتاً و بطنه قبره مع بقاء بدنه و بقاء جسد الحوت على حالهما أو ينحو آخر فلا مساغ لاختلافهم في كونه عَلَيْهِ السَّلَامُ حياً على هذا التقدير أو ميّتاً و بطنه قبره، وأن المراد بيوم يبعثون النفخة الأولى التي فيها يموت الخلائق أو النفخة الثانية أو التّأجيل بيوم القيامة كناية عن طول اللبث .

(١) و هو أن الله لا يقدر عليه كما قال تعالى : « و ظن أن لن نقدر عليه ، .

قوله تعالى : « فنبذناه بالعراء وهو سقيم » النبذ طرح الشيء و الرمي به ، و العراء المكان الذي لا ستره فيه يستظل بها من سقف أو خباء أو شجر .

و المعنى على ما يعطيه السياق أنه صار من المسبّحين فأخرجناه من بطن الحوت و طرحناه خارج الماء في أرض لا ظل فيها يستظل به و هو سقيم .

قوله تعالى : « و أنبتنا عليه شجرة من يقطين » اليقطين من نوع القرع ويكون ورقه عريضا مستديرا و قد أنبتنا الله عليه ليستظل بورقها .

قوله تعالى : « و أرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون » أو في مورد الترقى وتفيد معنى بل ، و المراد بهذه الجماعة أهل نينوى .

قوله تعالى : « فآمنوا فمتّعناهم إلى حين » أي آمنوا بد فلم نعدّ بهم و لم نهلكهم بما أشرف عليهم من العذاب فمتّعناهم بالحياة و البقاء إلى أجلهم المقدّر لهم .

و الآية في إشعارها برفع العذاب عنهم و تمتيعهم تشبّر إلى قوله تعالى : « فلو لا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا و متّعناهم إلى حين » يونس : ٩٨ .

و لا يخلو السياق من إشعار - بل دلالة - على أن المراد من إرساله في قوله : « فأرسلناه » أمره بالذهاب ثانيا إلى القوم ، و بإيمانهم في قوله : « فآمنوا » الخ إيمانهم بتصديقه و اتباعه بعد ما آمنوا و تابوا حين رأوا العذاب .

و من هنا يظهر ضعف ما استدلل بعضهم بالآيتين أن إرساله إلى القوم كان بعد خروجه من بطن الحوت وأنه أمر أو لا بالذهاب إلى أهل نينوى ودعوتهم إلى الله و كانوا يعبدون الأصنام فاستعظم الأمر و خرج من بيته يسير في الأرض لعل الله يصرف عنه هذا التكليف و ركب البحر فابتلاه الله بالحوت ثم لما نبذ بالعراء كلف ثانياً فأجاب و أطاع و دعاهم فاستجابوا فدفع الله عذابا كان يهدّدهم إن لم يؤمنوا .

و ذلك أن السياق كما سمعت يدل على كون إرساله بأمر ثان و أن إيمانهم كان إيمانا ثانيا بعد الإيمان و التوبة و أن تمتيعهم إلى حين كان مترتبا على إيمانهم به لا على كشف العذاب عنهم فلم يكن الله سبحانه ليتركهم لو لم يؤمنوا برسوله ثانيا كما

آمنوا به و تابوا إليه أو لا في غيبته فافهم ذلك .

على أن قوله تعالى : « وذا النون إذ ذهب مغاضبا » الأ نبياء : ٨٧ و قوله : « ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم » ن : ٤٨ لا يلائم ما ذكره ، وكذا قوله : « إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا » يونس : ٩٨ إذ لا يطلق الكشف إلا في عذاب واقع حال أو مشرف .

﴿ كلام في قصة يونس عليه السلام في فصول ﴾

١ - لم يتعرض القرآن الكريم إلا لطرف من قصته وقصة قومه فقد تعرض في سورة الصافات لإرساله ثم إبقاه وركوبه الفلك والتقام الحوت له ثم نجاته وإرساله إلى القوم وإيمانهم قال تعالى : « وإن يونس لمن المرسلين . إذ أبق إلى الفلك المشحون فساهم فكان من المدحضين . فالتقمه الحوت وهو مليم . فلولا أنه كان من المسبحين . للبث في بطنه إلى يوم يبعثون . فنبذناه بالعراء وهو سقيم . و أنبتنا عليه شجرة من يقطين . و أرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون . فآمنوا فمتعنهم إلى حين » .

و في سورة الأنبياء لتسبيحه في بطن الحوت و تنجيته قال تعالى : « وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إنني كنت من الظالمين فاستجبنا له و نجيناه من الغم وكذلك ننجي المؤمنين » الأ نبياء : ٨٧ - ٨٨ .

و في سورة ن لندائه مكظوما و خروجه من بطنه و اجتباؤه قال تعالى : « فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم . فلولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتباه ربه فجعله من الصالحين » ن : ٥٠

و في سورة يونس لإيمان قومه و كشف العذاب عنهم قال تعالى : « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا و متعنهم إلى حين » يونس : ٩٨ .

و خلاصة ما يستفاد من الآيات بضم بعضها إلى بعض و اعتبار القرائن الحاقّة بها أن يونس عليه السلام كان من الرسل أرسله الله تعالى إلى قومه و هم جمع كثير يزيدون على مائة ألف فدعاهم فلم يجيبوه إلا بالكذيب و الردّ حتّى جاءهم عذاب أوعدهم به يونس ثم خرج من بينهم .

فلما أشرف عليهم العذاب و شاهدوه مشاهدة عيان أجمعوا على الإيمان و التوبة إلى الله سبحانه فكشف الله عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا .

ثم إن يونس عليه السلام استخبر عن حالهم فوجد العذاب انكشف عنهم - و كأنه لم يعلم بإيمانهم و توبتهم - فلم يعد إليهم وذهب لوجهه على ما به من الغضب و السخط عليهم فكان ظاهر حاله حال من يأبى من ربه مغاضبا عليه ظاناً أنّه لا يقدر عليه وركب البحر في فلك مشحون .

فعرض لهم حوت عظيم لم يجدوا بداً من أن يلقوا إليه واحدا منهم يتلعه وينجو الفلك بذلك فساهموا و قارعوا فيما بينهم فأصاب يونس عليه السلام فألقيه في البحر فابتلعه الحوت و نجت السفينة .

ثم إن الله سبحانه حفظه حيّاً سوياً في بطنه أياً ما و ليالي و يونس عليه السلام يعلم أنّها بليّة ابتلاه الله بهامؤاخذه بما فعل وهو يناهى في بطنه أن « لا إله إلا أنت سبحانه إنّي كنت من الظالمين » .

فاستجاب الله له فأمر الحوت أن يلفظه فنبذه بالعراء وهو سقيم فأثبت الله سبحانه عليه شجرة من يقطين يستظل بأوراقها ثم لما استقامت حاله أرسله إلى قومه فلبّوا دعوته و آمنوا به فمتعهم الله إلى حين .

و الأخبار الواردة من طرق أئمة أهل البيت عليه السلام على كثرتها و بعض الأخبار من طرق أهل السنة مشتركة الملتون في قصّة يونس عليه السلام على النحو الذي يستفاد من الآيات و إن اختلفت في بعض الخصوصيات الخارجة عن ذلك ^(١) .

(١) و لذلك لم نوردّها لأنها في نفسها آحاد لا حجية لها في مثل المقام ولا يمكن

تصحيح خصوصياتها بالإيات و هو ظاهر لمن راجعها .

٢ - قصته عند أهل الكتاب : هو عليه السلام المذكور باسم يونا بن إمتاي في مواضع من العهد القديم و كذا في مواضع من العهد الجديد أُشير في بعضها إلى قصة لبثه في بطن الحوت لكن لم تذكر قصته الكاملة في شيء منهما .

و نقل الآلوسي في روح المعاني في قصته عند أهل الكتاب و يؤيده ما في بعض كتبهم من إجمال ^(١) القصة :

أن الله أمره بالذهاب إلى دعوة أهل نينوى ^(٢) و كانت إذ ذاك عظمة جداً لا يقطع إلا في نحو ثلاثة أيام و كانوا قد عظم شرهم و كثر فسادهم ، فاستعظم الأمر و هرب إلى ترسيس ^(٣) فجاء يافا ^(٤) فوجد سفينة يريد أهلها الذهاب بها إلى ترسيس فاستأجر وأعطى الأجرة وركب السفينة فهاجت ريح عظيمة و كثرت الأمواج و أشرفت السفينة على الفرق .

ففزع الملاحون ورموا في البحر بعض الأمتعة لتخف السفينة و عند ذلك نزل يونس إلى بطن السفينة ونام حتى علانفسه فتقدم إليه الرئيس فقال له : ما بالك نائماً؟ قم وادع إلهك لعله يخلصنا مما نحن فيه ولا يهلكنا .

و قال بعضهم لبعض : تعالوا : نتقارع لنعرف من أصابنا هذا الشر بسبب فتقارعوا ف وقعت القرعة على يونس فقالوا له : أخبرنا ماذا عملت ؟ و من أين جئت ؟ و إلى أين تمضي ؟ و من أي كورة أنت ؟ و من أي شعب أنت ؟ فقال لهم : أنا عبد الرب إله السماء خالق البر و البحر و أخبرهم خبره فخافوا خوفا عظيما و قالوا له : لم صنعت ما صنعت ؟ يلومونه على ذلك .

ثم قالوا له : ما نضع الآن بك ؟ ليسكن البحر عنا ؟ فقال : ألقوني في البحر يسكن فإنه من أجلي صار هذا الموج العظيم فجهد الرجال أن يردوه إلى البر

(١) قاموس الكتاب المقدس .

(٢) كانت مدينة عظيمة من مدائن آشور على ساحل دجلة .

(٣) اسم مدينة .

(٤) مدينة في الأرض المقدسة .

فلم يستطيعوا فأخذوا يونس وألقوه في البحر لنجاة جميع من في السفينة فسكن البحر وأمر الله حوتا عظيما فابتلعه فبقي في بطنه ثلاثة أيام و ثلاث ليال و صلى في بطنه إلى ربه واستغاث به فأمر سبحانه الحوت فألقاه إلى اليبس ثم قال له : قم و امض إلى نينوى و ناد في أهلها كما أمرتك من قبل .

فمضى عَلَيْهِ السَّلَامُ و نادى و قال : يخسف نينوى بعد ثلاثة أيام فأمنت رجال نينوى بالله و نادوا بالصيام ولبسوا المسوح جميعا و وصل الخبر إلى الملك فقام عن كرسيه و نزع حكلته ولبس مسحاً و جلس على الرماد و نودي أن لا يذق أحد من الناس و البهائم طعاما ولا شربا و جأروا إلى الله تعالى و رجعوا عن الشر و الظلم فرحمهم الله و لم ينزل بهم العذاب .

فحزن يونس و قال : إلهي من هذا هربت ، فأني علمت أنك الرحيم الرؤف الصبور التواب . يارب خذ نفسي فالموت خير لي من الحياة فقال : يا يونس حزنت من هذا جدا ؟ فقال : نعم يارب .

و خرج يونس و جلس مقابل المدينة و صنع له هناك مظلة و جلس تحتها إلى أن يرى ما يكون في المدينة ؟ فأمر الله يقطينا فصعد على رأسه ليكون ظلا له من كربه ففرح باليقطين فرحا عظيما و أمر الله تعالى دودة فضرت اليقطين فجفت ثم هبت ريح سموم و أشرقت الشمس على رأس يونس فعظم الأمر عليه واستطاب الموت .

فقال الرب : يا يونس أحزنت جدا على اليقطين ؟ فقال : نعم يارب حزنت جدا فقال تعالى : حزنت عليه و أنت لم تتعب فيه ولم تربه بل صار من ليلته و هلك من ليلته فأنا لا أشفق على نينوى المدينة العظيمة التي فيها أكثر من اثنا عشر ربة من الناس ؟ قوم لا يعلمون يمينهم ولا شمالهم و بهائمهم كثيرة انتهى . و جهات اختلاف القصة مع ما يستفاد من القرآن الكريم ظاهرة كالفرار من الرسالة و عدم رضاء برفع العذاب عنهم مع علمه بإيمانهم و توبتهم .

فإن قلت : نظير ذلك و ارد في القرآن الكريم كنسبة الإباق إليه في سورة الصافات و كذا معاضبته و ظنه أن الله لن يقدر عليه على ما في سورة الأنبياء .

قلت : بين النسبتين فرق فكتبهم المقدسة أعني العهدين لا تأبى عن نسبة المعاصي حتى الكبائر الموبقة إلى الأنبياء ﷺ فلا موجب لتوجيه ما نسب من المعاصي إليه بما يخرج به عن كونه معصية بخلاف القرآن الكريم فإنه ينزّد ساحتهم عن لوث المعاصي حتى الصغائر فما ورد فيه مما يوهّم ذلك يحمل على أحسن الوجوه بهذه القرينة الموجبة ولذا حملنا قوله : « إذ أبق » وقوله : « مغاضبا فظن أن لن نقدر » على حكاية الحال وإيهام فعله .

٣ - ثناءه تعالى عليه : أثنى الله سبحانه عليه بأنه من المؤمنين (سورة الأنبياء ٨٨) وأنه اجتباه وقد عرفت أن اجتباؤه إخلاصه العبد لنفسه خاصة ، وأنه جعله من الصالحين (سورة ن : ٥٠) وعده في سورة الأنعام فيمن عدّ من الأنبياء وذكر أنه فضّلهم على العالمين وأنّه هداهم إلى صراط مستقيم (سورة الأنعام : ٨٧) .

﴿ بحث روائى ﴾

في الفقيه وقال الصادق عليه السلام : ما تقارع قوم ففوّضوا أمرهم إلى الله عز وجل إلا خرج سهم الحق ، وقال : أي قضية أعدل من القرعة إذا فوّض الأمر إلى الله . أليس الله عز وجل يقول : « فساهم فكان من المدحضين ؟

وفي البحار عن البصائر بإسناده عن حبة العرنى قال : قال أمير المؤمنين عليه السلام إن الله عرض ولايتي على أهل السماوات وعلى أهل الأرض أقر بها من أقر وأنكرها من أنكر أنكرها يونس فحبسه الله في بطن الحوت حتى أقر بها .

أقول : وفي معناه روايات أخر ، والمراد الولاية الكلية الإلهية التي هو عليه السلام أوّل من فتح بابها من هذه الأمة وهي قيامه تعالى مقام عبده في تدبير أمره فلا يتوجه العبد إلا إليه ولا يريد إلا ما أراده وذلك بسلوك طريق العبوديّة التي تنتهى بالعبد إلى أن يخلصه الله لنفسه فلا يشاركه فيه غيره .

و كان ظاهر ما أتى به يونس عليه السلام مما لا يرتضيه الله تعالى فلم يكن قابلا للانتساب

إلى إرادته فابتلاه الله بما ابتلاه ليعترف بظلمه على نفسه وأنه تعالى منزّه عن إرادة مثله فالبلايا والمحن التي يبتلي بها الأولياء من التربية الالهية التي يربيه بها و يكملهم و يرفع درجاتهم بسببها وإن كان بعضهما من جهة أخرى مؤاخذه ذات عتاب ، وقد قيل : البلاء للولاء .

و يؤيد ذلك ما عن العلل باسناده عن أبي بصير قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : لأيّ علة صرف الله العذاب عن قوم يونس وقد أظلمهم ولم يفعل ذلك بغيرهم من الأمم؟ فقال : لأنّه كان في علم الله أنّه سيصرفه عنهم لتوبتهم وإنّما ترك إخبار يونس بذلك لأنّه أراد أن يفرغه لعبادته في بطن الحوت فيستوجب بذلك ثوابه و كرامته .





فَاسْتَفْتِهِمُ الرِّبَّكَ الْبَنَاتُ وَ لَهُمُ الْبَنُونَ (١٤٩) أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ
 إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ (١٥٠) أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ أَفْكِهْمُ لَيَقُولُونَ (١٥١) وَلَدَ اللَّهُ
 وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٥٢) أَصْطَفَى الْبَنَاتِ عَلَى الْبَنِينَ (١٥٣) مَا لَكُمْ كَيْفَ
 تَحْكُمُونَ (١٥٤) أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (١٥٥) أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُبِينٌ فَاتُوا
 بِكِتَابِكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٥٦) وَ جَعَلُوا بَيْنَهُ وَ بَيْنَ الْجَنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ
 عَلِمْتَ الْجَنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ (١٥٨) سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (١٥٩)
 إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٠) فَإِنَّكُمْ وَ مَا تَعْبُدُونَ (١٦١) مَا أَنْتُمْ
 عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ (١٦٢) إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ (١٦٣) وَ مَا مِنْآ إِلَّا لَهُ
 مَقَامٌ مَعْلُومٌ (١٦٤) وَ إِنَّا لَنَحْنُ الصَّافُونَ (١٦٥) وَ إِنَّا لَنَحْنُ
 الْمُسَبِّحُونَ (١٦٦) وَ إِنْ كَانُوا لَيَقُولُونَ (١٦٧) لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنْ
 الْأَوَّلِينَ (١٦٨) لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ (١٦٩) فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ
 يَعْلَمُونَ (١٧٠) وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ
 الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَ إِنْ جُنْدُنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ (١٧٣) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى
 حِينٍ (١٧٤) وَ أَبْصَرَهُمْ فَسَوْفَ يَبْصُرُونَ (١٧٥) أَفَعِبَادِنَا يَسْتَعْجِلُونَ (١٧٦)
 فَإِذَا نَزَلَ بِسَاعَتِهِمْ فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ (١٧٧) وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّى

حِينَ (١٧٨) وَابْصُرْ فَتَوَعَّلَ يُبْصِرُونَ (١٧٩) سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ
عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ (١٨٢).

﴿بيان﴾

قدّم سبحانه ما يبين به أنّ ربّ معبود : عبده عباد مخلصون كالأنبياء المكرمين
وكفر به آخرون فنجّى عباده وأخذ الكافرين بأليم العذاب . ثمّ تعرّض في هذه
الآيات لما يعتقدونه في آلهتهم وهم الملائكة والجنّ وأنّ الملائكة بنات الله وبينه وبين
الجنة سببا .

والوثنيّة البرهميّة والبوذيّة والصابئة ما كانوا يقولون بأنّ نوثة جميع الملائكة
وإنّ قالوا بها في بعضهم لكنّ المنقول عن بعض قبائل العرب الوثنيّين كجهينة و سليم
وخزاعة و بني مليح القول بأنّ نوثة الملائكة جميعا وأمّا الجنّ فالقول بانتهاء نسبهم إليهم في
الجملة منقول عن الجميع .

و بالجملة يشير تعالى في الآيات إلى فساد قولهم ثمّ يبشّر النبي ﷺ بالنصر
ويهدّدهم بالعذاب ، ويختم السورة بتنزيهه تعالى والتسليم على المرسلين والحمد لله ربّ
العالمين .

قوله تعالى : « فاستفتهم الربّك البنات و لهم البنون » حلّل سبحانه قولهم :
إنّ الملائكة بنات الله إلى ما يستلزمه من اللوازم وهي أنّ الملائكة أولاده ، وأنّهم
بنات ، وأنّ تعالى خصّ نفسه بالبنات وهم مخصّوصون بالبنين ثمّ ردّ هذه اللوازم
واحدا بعد واحد فردّ قولهم : إنّ له البنات ولهم البنين بقوله : « فاستفتهم الربّك البنات
ولهم البنون » وهو استفهام إنكاري لقولهم بما يلزمه من تفضيلهم على الله لما أنّهم يفضلون
البنين على البنات ويتنزّهون منهنّ ويثدّونهنّ .

قوله تعالى : « أم خلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون » أم منقطعة أي بل أخلقنا الملائكة إناثا وهم شاهدون يشهدون خلقهم ولم يكونوا شاهدين خلقهم ولا لهم أن يدعوا ذلك ، و الذكورة و الأنوثة مما لا يثبت إلا بنوع من الحس ، وهذا رد لقولهم بأنوثة الملائكة .

قوله تعالى : « ألا إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله وإنهم لكاذبون » رد لقولهم بالولادة بأنه من الإفك أي صرف القول عن وجهه إلى غير وجهه أي من الحق إلى الباطل فيوجهون خلقهم بما يعدونه ولادة و يعبرون عنه بها فهم آفكون كاذبون .

قوله تعالى : « أصطفى البنات على البنين مالكم كيف تحكمون أفلاتنذكرون » كرر الإنكار على اصطفاء البنات من بين لوازم قولهم لشدة شناعته .

ثم وبخهم بقوله : « مالكم كيف تحكمون » لكون قولهم حكما من غير دليل ثم عقبه بقوله : « أفلاتنذكرون » توبيخا وإشارة إلى أن قولهم ذلك - فضلا عن كونه مما لا دليل عليه - الدليل على خلافه و لو تذكروا لانكشف لهم فقد تنزهت ساحتهم تعالى عن أن يتجزئ فيلد أو يحتاج فيتخذ ولدا ، وقد احتج عليهم بذلك في مواضع من كلامه .

و الالتفات من الغيبة إلى الخطاب للدلالة على اشتداد السخط الموجب لتوبيخهم شفاها .

قوله تعالى : « أم لكم سلطان مبين فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين » أم منقطعة والمراد بالسلطان وهو البرهان كتاب نازل من عند الله سبحانه يخبر فيه أن الملائكة بناته على ما يعطيه السياق إذ لما لم يثبت بعقل أو حس بقي أن يثبت بكتاب من عند الله نازل بالوحي فلو كانت دعواهم حقة وهم صادقون فيها كان لهم أن يأتوا بالكتاب .

و إضافة الكتاب إليهم بعناية فرضه دالا على دعواهم .

قوله تعالى : « وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون » جعل النسب بينه وبين الجنة قولهم : إن الجنة أولاده وقد تقدم تفصيل قولهم في تفسير سورة هود في الكلام على عبادة الأصنام .

و قوله : « و لقد علمت الجنة إنهم لمحضرون » أي للحساب أول النار على ما يفيد
إطلاق « لمحضرون » وكيف كان فهم يعلمون أنهم مربوبون لله سبحانه وبهم ويجازيهم بما
عملوا فينبينهم وبين الله سبحانه نسبة الربوبية والعبودية لا نسب الولادة و من كان كذلك
لا يستحق العباد .

و من الغريب قول بعضهم : إن المراد بالجنة طائفة من الملائكة يسمون بها و
لازمه إرجاع ضمير « إنهم » إلى الكفار دون الجنة . و هو مما لا شاهد له من كلامه
تعالى مضافا إلى بعده من السياق .

قوله تعالى : « سبحان الله عما يصفون إلا عباد الله المخلصين » ضمير « يصفون »
- نظرا إلى اتصال الآية بما قبلها - راجع إلى الكفار المذكورين قبل ، و الاستثناء منه
منقطعا و المعنى هو منزّه عن وصفهم - أو عما يصفه الكفار به من الأوصاف كالولادة
و النسب و الشراكة و نحوها - لكن عباد الله المخلصين يصفونه تعالى وصفاً يليق به
- أو بما يليق به من الأوصاف - .

وقيل : إنه استثناء منقطع من ضمير « لمحضرون » ، و قيل : من فاعل « جعلوا »
و ما بينهما من الجمل المتخللة اعتراض ، و هما وجهان بعيدان .
و للآيتين باستقلالهما معنى أوسع من ذلك وأدقّ و هو رجوع ضمير « يصفون »
إلى الناس ، و الوصف مطلق يشمل كل ما يصفه به واصف ، و الاستثناء متصل و المعنى
هو منزّه عن كل ما يصفه الواصفون إلا عباد الله المخلصين .

وذلك أنهم إنما يصفونه بمفاهيم محدودة عندهم وهو سبحانه غير محدود لا يحيط
به حدّ و لا يدركه نعت فكلّما وصف به فهو أجلّ منه و كلّ ما توهّم أنه هو فهو
غيره لكن له سبحانه عباد أخلصهم لنفسه وخصّهم بنفسه لا يشاركه فيهم أحد غيره فعرفهم
نفسه و أنساهم غيره يعرفونه و يعرفون غيره به فإذا وصفوه في نفوسهم وصفوه بما يليق
بساحة كبريائه و إذا وصفوه بألستهم - و الألفاظ قاصرة و المعاني محدودة - اعترفوا
بقصور البيان و أقرّوا بكلال اللسان كما قال النبي ﷺ و هو سيّد المخلصين :

« لا أحصي ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » ^(١) فافهم ذلك .

قوله تعالى : « فإني لكم و ما تعبدون ما أنتم عليه بفاتنين إلا من هو صال الجحيم »
تفريع على حكم المتشنى والمستثنى منه أو المستثنى خاصة والمعنى لما كان ما وصفتموه ضلالا - وعباد الله المخلصون لا يضلون في وصفهم - فلستم بمضلين به إلا سالكي سبيل النار .
والظاهر من السياق أن « ما » في « ما تعبدون » موصولة والمراد بها الأصنام فحسب أو الأصنام و آلهة الضلال كشياطين الجن ، و « ما » في « ما أنتم » نافية ، و ضمير « عليه » لله سبحانه و الظرف متعلق بفاتنين ، وفاتنين اسم فاعل من الفتنة بمعنى الإضلال و « صالي » من الصلو بمعنى الاتباع فصالي الجحيم هو المتبّع للجحيم السالك سبيل النار ، و الاستثناء مفرغ تقديره ما أنتم بفاتنين أحداً إلا من هو صال الجحيم .
و المعنى فإني لكم و آلهة الضلال التي تعبدونها استم جميعا بمضايين أحدا على الله إلا من هو متبّع الجحيم .

و قيل : إن « ما » الأولى مصدرية أو موصولة وجملة « فإني لكم و ما تعبدون » كلام تام مستقل من قبيل قولهم : أنت و شأنك و المعنى فإني لكم و ما تعبدون متقارنان ثم استوف و قيل : « ما أنتم عليه بفاتنين » و « فاتنين » مضمّن معنى الحمل و ضمير « عليه » راجع إلى « ما تعبدون » إن كانت ما مصدرية و إلى « ما » بتقدير مضاف إن كانت موصولة و المعنى ما أنتم بحاملين على عبادتكم أو على عبادة ما تعبدون إلا من هو صال الجحيم .
قيل : و يمكن أن يكون « على » بمعنى الباء و الضمير لما تعبدون أو لما إن كانت موصولة و « فاتنين » على ظاهر معناه من غير تضمين و المعنى ما أنتم بمضلين أحدا بعبادتكم أو بعبادة ما تعبدون إلا الخ .

و هذه كلها تكلفات من غير موجب . والكلام فيما في الآية من الالتفات كالكلام فيما سبق منه .

قوله تعالى : « و ما منّا إلا له مقام معلوم و إنّنا لنحن الصاقّون و إنّنا لنحن المسبّحون » الآيات الثلاث - على ما يعطيه السياق - اعتراض من كلام جبريل أو هو ^(١) فقد اثنى على الله و تم نقصه بأنه يريد ما يريد الله من الثناء على نفسه .

وأعوانه من ملائكة الوحي نظير قوله تعالى في سورة مريم : « وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك » الخ مريم : ٦٤ .

وقيل : هي من كلام الرسول ﷺ يصف نفسه والمؤمنين به للكافرين تبكيتاً لهم و تقرّيعاً وهو منّصل بقوله : « فاستفتهم » والتقدير فاستفتهم و قل : ما منّا معشر المسلمين إلاّ له مقام معلوم على قدر أعماله يوم القيامة وإنّا لنحن الصافّون في الصلاة وإنّا لنحن المسبّحون . وهو تكلف لا يلائمه السياق .

والآيات الثلاث مسوقة لردّ قولهم بألوهيّة الملائكة بإيراد نفس اعترافهم بما ينتفي به قول الكفّار وهم لا ينفون العبوديّة عن الملائكة بل يرون أنّهم مربوبون لله سبحانه أرباب وآلهة لمن دونهم يستقلّون بالتصرّف فيما فوّض إليهم من أمر العالم من غير أن يرتبط شيء من هذا التدبير إلى الله سبحانه وهذا هو الذي ينفيه الملائكة عن أنفسهم لا كونهم أسباباً متوسّطة بينه تعالى وبين خلقه كما قال تعالى « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » الأنبياء : ٢٧ .

فقوله : « وما منّا إلاّ له مقام معلوم » أي معيّن مشخص أقيم فيه ليس له أن يتعدّاه بأن يفوّض إليه أمر فيستقلّ فيه بل مجبول على طاعة الله فيما يأمر به وعبادته . وقوله : « وإنّا لنحن الصافّون » أي نصف عند الله في انتظار أوامره في تدبير العالم لتجريها على ما يريد . كما قال تعالى : « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » هذا ما يفيد السياق ، وربما قيل : إنّ المراد إنّنا نصف للصلاة عند الله وهو بعيد من الفهم لا شاهد عليه .

وقوله : « وإنّا لنحن المسبّحون » أي المنزّهون له تعالى عما لا يليق بساحة كبريائه كما قال تعالى : « يسبّحون الليل والنهار لا يفترون » الأنبياء : ٢٠ .

فالآيات الثلاث تصف موقف الملائكة في الخلقة و عملهم المناسب لخلقهم وهو الاصطفاف لتلقّي أمره تعالى والتنزيه لساحة كبريائه عن الشريك وكلّ ما لا يليق بكمال ذاته المتعالية .

قوله تعالى : « وإن كانوا ليقولون لو أنّ عندنا ذكرا من الأولين لكنّا عباد

الله المخلصين» رجوع إلى السياق السابق .

و الضمير في قوله : « و إن كانوا ليقولون » لقريش و من يتلوهم ، و « إن » مخففة من الثقيلة ، والمراد بذكر من الأولين كتاب سماوي من جنس الكتب النازلة على الأولين .

و المعنى لو أن عندنا كتابا سماويا من جنس الكتب النازلة أنبلنا على الأولين لا هتدينا و كنا عباد الله المخلصين يريدون أنهم معذرون لو كفروا لعدم قيام الحجة عليهم من قبل الله سبحانه .

وهذا في الحقيقة هفوة منهم فإن مذهب الوثنية يحيل النبوة و الرسالة ونزول الكتاب السماوي .

قوله تعالى : « فكفروا به فسوف يعلمون » الفاء فصيحة والمعنى فأنزلنا عليهم الذكر وهو القرآن الكريم فكفروا به و لم يفوا بما قالوا فسوف يعلمون وبال كفرهم وهذا تهديد منه تعالى لهم .

قوله تعالى : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون » كلمته تعالى لهم قوله الذي قاله فيهم وهو حكمه وقضائه في حقهم وسبق الكلمة تقدّمها عهداً أو تقدّمها بالنفوذ والغلبة واللام تفيد معنى النفع أي إننا قضينا قضاء محتوما فيهم أنهم لهم المنصورون وقد أكد الكلام بوجوه من التأكيد .

وقد أطلق النصر من غير تقييده بدنيا أو آخرة أو بنحو آخر بل القرينة على خلافه قال تعالى : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد » المؤمن : ٥١ .

فالرسل عليهم السلام منصورون في الحجّة لأنهم على الحق والحق غير مغلوب . وهم منصورون على أعدائهم إمّا باظهارهم عليهم وإمّا بالانتقام منهم قال تعالى : « ما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحي إليهم من أهل القرى - إلى أن قال - حتّى إذا استيأس الرسل و ظنّوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين » يوسف : ١١٠ .

وهم منصورون في الآخرة كما قال تعالى : «يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه» التحريم : ٨ ، وقد تقدم آتفا آية سورة المؤمن في هذا المعنى .

قوله تعالى : « وإن جندنا لهم الغالبون » الجند هو المجتمع الغليظ ولذا يقال للعسكر جند فهو قريب المعنى من الحزب ^(١) وقد قال تعالى في موضع آخر من كلامه : «ومن يقول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون» المائدة: ٥٦. والمراد بقوله : « جندنا » هو المجتمع المؤمن بأمره المجاهد في سبيله وهم المؤمنون خاصة أو الأنبياء ومن تبعهم من المؤمنين وفي الكلام على التقدير الثاني تعميم بعد التخصيص ، وكيف كان فالمؤمنون منصورون كمتبوعيههم من الأنبياء قال تعالى : «ولاتهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين» آل عمران : ١٣٩ وقد مر بعض الآيات الدالة عليه آتفا .

و الحكم أعني النصر والغلبة حكم اجتماعي منوط على العنوان لا غير أي إن الرسل وهم عباد أرسلهم الله والمؤمنون وهم جند الله يعملون بأمره ويجاهدون في سبيله ماداموا على هذا النعت منصورون غالبون ، وأما إذا لم يبق من الإيمان إلا اسمه ومن الانتساب إلا حديثه فلا ينبغي أن يرجح نصر ولا غلبة .

قوله تعالى : « فتول عنهم حتى حين » تفريع على حديث النصر والغلبة ففيه وعد للنبي ﷺ بالنصر والغلبة وإيعاد للمشركين ولقریش خاصة .
والأمر بالأعراض عنهم ثم جعله مغياً بقوله : « حتى حين » يلوّح إلى أن الأمد غير بعيد و كان كذلك فهاجر النبي بعد قليل وأباد الله صناديد قریش في غزوة بدر وغيرها .

قوله تعالى : « وأبصرهم فسوف يبصرون » الأمر بالأبصار والإخبار بأبصارهم عاجلاً وعطف الكلام على الأمر بالتولي معجلاً يفيد بحسب السياق أن المعنى أنظرهم وأبصر ما هم عليه من الجحود والعناد قبل إنذارك وتخويفك فسوف يبصرون وبالبحرودهم واستكبارهم .

(١) قال تعالى : « إذ جاء تكلم جنود ، الأحزاب : ٩ وقال فيهم بعينهم : « ولما رأى المؤمنون الأحزاب ، الأحزاب : ٢٢ .

قوله تعالى : « أفبعذابنا يستعجلون فإذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين »
 توبيخ لهم لاستعجالهم و قولهم : متى هذا الوعد ؟ متى هذا القتح ؟ وإذنان بأن هذا العذاب مما لا ينبغي أن يستعجل لأنه يعقّب يوماً بئساً و صباحاً مشؤماً .
 و نزول العذاب بساحتهم كناية عن نزوله بهم على نحو الشمول و الإحاطة ، و قوله : « فساء صباح المنذرين » أي بئس صباحهم صباحاً ، و المنذرون هم المشركون من قريش .

قوله تعالى : « وتول عنهم حتى حين وأبصر فسوف يبصرون » تأكيد لما مرّ بتكرار الآيتين على ما قيل ، و احتمال بعضهم أن يكون المراد بما تقدّم التهديد بعذاب الدنيا و بهذا ، التهديد بعذاب الآخرة . و لا يخلو من وجه فإنّ الواقع في الآية « و أبصر » من غير مفعول كما في الآية السابقة من قوله : « و أبصرهم » و الحذف يشعر بالعموم و أنّ المراد إبصار ما عليه عامّة الناس من الكفر و الفسوق و يناسبه التهديد بعذاب يوم القيامة .

قوله تعالى : « سبحان ربّك ربّ العزّة عما يصفون » تنزيه له تعالى عما يصفه به الكفّار المخالفون لدعوة النبي ﷺ مما تقدّم ذكره في السورة .
 و الدليل عليه إضافة التنزيه إلى قوله : « ربّك » أي الربّ الذي تعبده و تدعو إليه ، و إضافة الربّ ثانياً إلى العزّة المفيد لاختصاصه تعالى بالعزّة فهو منيع الجانب على الإطلاق فلا يذله مذلّ و لا يغلبه غالب و لا يفوته هارب فالمشركون أعداء الحقّ المهبطون بالعذاب ليسواله بمعجزين .

قوله تعالى : « و سلام على المرسلين » تسليم على عامّة المرسلين و صون لهم من أن يصيبهم من قبله تعالى ما يسوؤهم و يكرهونه .
قوله تعالى : « والحمد لله ربّ العالمين » تقدّم الكلام فيه في تفسير سورة الفاتحة .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج محمد بن نصر وابن عساكر عن العلاء بن سعيد أن رسول الله ﷺ قال يوما لجلسائه: أطت السماء وحق لها أن تئط، ليس منها موضع قدم إلا عليه ملك راکع أو ساجد. ثم قرء «وإننا لنحن الصافقون وإننا لنحن المسبّحون».

اقول : وروي هذا المعنى عنه عليه السلام بغير هذا الطريق .

وفيه أخرج ابن مردويه عن أنس أن النبي ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة قال: استووا تقدّم يا فلان تأخّر يا فلان أقيموا صفوفكم يريد الله بكم هدي الملائكة ثم يتلو : «وإننا لنحن الصافقون وإننا لنحن المسبّحون» .

وفي نهج البلاغة قال عليه السلام في وصف الملائكة : وفاقون لا يتزايلون ومسبحون لا يسأمون .



سورة ص مكية وهي ثمان وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ص وَ الْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ (١) بَلِ الَّذِينَ
كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَ شِقَاقٍ (٢) كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَوا وَلَاتَ
حِينَ مَنَاصٍ (٣) وَ عَجَبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ وَ قَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا
سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٤) أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ (٥)
وَ انْطَلِقِ الْمَلَائِكَةُ مِنْهُمْ أَنْ أَمْشُوا وَ اصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ
يُرَادُ (٦) مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ (٧) أَنْزَلَ
عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدُوقُوا عَذَابِ (٨)
أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَحْمَةِ رَبِّكَ الْعَزِيزِ الْوَهَّابِ (٩) أَمْ لَهُمْ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ
وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرْتَقُوا فِي الْأَسْبَابِ (١٠) جُنْدًا مَا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ
مِنَ الْأَحْزَابِ (١١) كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ عَادُ وَ فِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ (١٢)
وَ ثَمُودُ وَ قَوْمُ لُوطٍ وَ أَصْحَابُ نَعِيمٍ أُولَئِكَ الْأَحْزَابُ (١٣) إِنْ كُلُّ إِلَّا
كَذَّبَ الرَّسْلَ فَحَقَّ عِقَابِ (١٤) وَ مَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَأْتِيهَا
مِنْ فَوْاقٍ (١٥) وَ قَالُوا رَبَّنَا عَجَّلْ لَنَا قِطْنًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ (١٦) .

﴿بيانات﴾

يدور الكلام في السورة حول كون النبي ﷺ منذرا بالذكر النازل عليه من عند الله سبحانه الداعي إلى التوحيد وإخلاص العبودية له تعالى .
فتبدء بذكر اعتزاز الكفار وشقاقهم وبالجملة استكبارهم عن اتباعه والإيمان به وصد الناس عنه و تفوهم بباطل القول في ذلك وردة في فصل .

ثم تأمر النبي ﷺ بالصبر وذكر قصص عباده الأوابين في فصل ثم يذكر مآل حال المتقين والطاغين في فصل . ثم تأمر النبي ﷺ بإبلاغ نذارته ودعوته إلى توحيد الله وأن مآل اتباع الشيطان إلى النار على ما قضى به الله يوم أمر الملائكة بالسجدة لآدم فأبى إبليس فرجه وقضى عليه وعلى من تبعه النار . في فصل .
و السورة مكية بشهادة سياق آياتها .

قوله تعالى : « ص والقرآن ذي الذكر بل الذين كفروا في عزة وشقاق » المراد بالذكر ذكر الله تعالى بتوحيده وما يتفرع عليه من المعارف الحقّة من المعاد والنبوة وغيرهما ، و العزة الامتناع ، و الشقاق المخالفة قال في مجمع البيان : وأصله أن يصير كل من الفريقين في شق أي في جانب ومنه يقال : شق فلان العصا إذا خالف انتهى .

و المستفاد من سياق الآيات أن قوله : « والقرآن ذي الذكر » قسم نظير ما في قوله : « يس والقرآن الحكيم » « ق والقرآن المجيد » « ن والقلم » لا عطف على ما تقدّمه ، وأما المقسم عليه فالذي يدل عليه الإضراب في قوله : « بل الذين كفروا في عزة وشقاق » أنه أمر يمتنع عن قبوله القوم ويكفرون به عزة وشقاقا وقد هلك فيه قرون كثيرة ثم ذكر إنذار النبي ﷺ وما قاله الكفار عليه وما أمرهم به ملؤهم حول إنذاره ﷺ أنه أعني المقسم عليه نحو من قولنا : إنك لمن المُنذرين ، و يشهد على ذلك أيضا التعرّض في السورة بإذاره ﷺ بالذكر مرة بعد أخرى .

وقد قيل في قوله : « ص والقرآن ذي الذكر » من حيث الإعراب والمعنى وجوه

كثيرة لامحصّل لأكثرها تركنا إيرادها لعدم الجدوى .

و المعنى - والله أعلم - أقسم بالقرآن المتضمّن للذكر - إنك لمن المُنذرين - بل الذين كفروا في امتناع عن قبوله واتّباعه ومخالفة له .

قوله تعالى : « كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص » القرن أهل عصر واحد ، و المناص بالنون مصدر ناص ينوص أي تأخّر كما أنّه بالباء الموحّدة بمعنى التقدّم على ما في المجمع وقيل : هو بمعنى الفرار .

و المعنى كثيرا ما أهلكنا من قبل هؤلاء الكفّار من قرن و أُمَّة بتكذيبهم الرسل المُنذرين فنادوا عند نزول العذاب بالويل كقولهم : ياويلنا إنّا كنّا ظالمين أو بالاستغاثة بالله سبحانه و ليس الحين حين تأخّر الأخذ و العذاب أو ليس الحين حين فرار .

قوله تعالى : « و عجبوا أن جاءهم منذر منهم و قال الكافرون هذا ساحر كذاب » أي تعجبوا من مجيء منذر من نوعهم بأن كان بشرا فإنّ الوثنيّة تنكر رسالة البشر .

و قوله : « و قال الكافرون هذا ساحر كذاب » يشيرون بهذا إلى النبي ﷺ يرمونه بالسحر لكونهم عاجزين عن الإتيان بمثل ما أتى به وهو القرآن ، و بالكذب لزعمهم أنّه يفترى على الله بنسبة القرآن و ما فيه من المعارف الحقّة إليه تعالى .

قوله تعالى : « أجعل الآلّهة إلها واحدا إنّ هذا شيء عجاب » العجاب بتخفيف الجيم اسم مبالغة من العجب و هو بتشديد الجيم أبلغ .

وهو من تنمّة قول الكافرين و الاستفهام للتعجيب و الجعل بمعنى التصيير و هو كما قيل تصيير بحسب القول و الاعتقاد و الدعوى لبحسب الواقع كما في قوله تعالى : « و جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن إناثا » الزخرف : ١٩ فمعنى جعله ﷺ إله الآلّهة إلها واحدا هو إبطاله أُلوهيّة الآلّهة من دون الله و حكمه بأنّ الإله هو الله لا إله إلّا هو .

قوله تعالى : « و انطلق الملائة منهم أن امشوا و اصبروا على آلهتكم إنّ هذا شيء يراد » نسبة الانطلاق إلى ملائمتهم وأشرفهم وقولهم ما قالوا يلوح إلى أن أشرف

قريش اجتمعوا على النبي ﷺ ليحلّوا مشكلة دعوته إلى التوحيد ورفض الآلهة بنوع من الاستمالة وكلموه في ذلك فما وافقهم في شيء منه ثم انطلقوا وقال بعضهم لبعض أو قالوا لأتباعهم أن امشوا واصبروا الخ وهذا يؤيد ماورد في أسباب النزول مما سيجيء في البحث الروائي الآتي إن شاء الله .

وقوله : « أن امشوا واصبروا على آلهتكم » بتقدير القول أي قائلين أن امشوا واصبروا على آلهتكم ولا تتركوا عبادتها وإن عابها وقبح فيها ، و ظاهر السياق أن القول قول بعضهم لبعض ، و يمكن أن يكون قولهم لتبعتمهم .

وقوله : « إن هذا لشيء يراد » ظاهره أنه إشارة إلى ما يدعو إليه النبي و يطلبه وأن مطلوبه شيء يراد بالطبع وهو السيادة والرئاسة وإنما جعل الدعوة ذريعة إليه فهو نظير قول الملأ من قوم نوح لعامتهم : « ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم » المؤمنون : ٢٤ .

وقيل : المعنى إن هذا الذي شاهدناه من إصراره ﷺ على ما يطلبه وتصلبه في دينه لشيء عظيم يراد من قبله .

وقيل : المعنى إن هذا الأمر لشيء من نوائب الدهر يراد بنا فلاحيلة إلا أن تمشوا وتصبروا .

وقيل : المعنى إن الصبر خلق محمود يراد منا في مثل هذه الموارد ، وقيل غير ذلك وهي وجوه ضعيفة لا يلائمها السياق .

قوله تعالى : « ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق » أرادوا بالملة الآخرة المذهب الذي تداوله الآخرون من الأمم المعاصرين لهم أو المقارنين لعصرهم قبل الملأ الأولى التي تداولتها الأوّلون كأنهم يقولون : ليس هذا من الملة الآخرة التي يرتضيها أهل الدنيا اليوم بل من أساطير الأوّلين .

وقيل : المراد بالملة الآخرة النصرانية لأنها آخر الملأ وهم لا يقولون بالتوحيد بل بالتثليث . وضعفه ظاهر إذ لم يكن للنصرانية وقع عندهم كالأسلام .

وقوله : « إن هذا إلا اختلاق » أي كذب وافعال .

قوله تعالى : « ءَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا » استفهام إنكاري " بداعي التكذيب أي لا مرجح عند محمد صلى الله عليه وآله يترجح به علينا فينزل عليه الذكر دوننا فهو في إنكار الاختصاص بنزول الذكر نظير قولهم : ما أنت إلا بشر مثلنا في نفي الاختصاص بالرسالة .

قوله تعالى : « بل هم في شك » من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب « إضراب عن جميع ما قالوه أي إنهم لم يقولوا ما قالوا عن إيمان واعتقاد به بل هم في شك من ذكرى وهو القرآن .

و ليس شكهم فيه من جهة خفاء دلالة آية النبوة و قصورها عن إفادة اليقين بل تعلق قلوبهم بما عندهم من الباطل و لزومهم التقليد يصرفهم عن النظر في دلالة الآية الإلهية المعجزة فشكوا في الذكر و الحال أنه آية معجزة .

و قوله : « بل لما يذوقوا عذاب » إضراب عن الإضراب أي ليس إنكارهم و عدم إيمانهم به عن شك منهم فيه بل لأنهم لعنواهم و استكبارهم لا يعترفون بحقيقته ولو لم يكن شك ، حتى يذوقوا عذابي فيضطروا إلى الاعتراف كما فعل غيرهم .

و في قوله : « لما يذوقوا عذاب » أي لم يذوقوا بعد عذابي ، تهديد بعذاب واقع .

قوله تعالى : « أم عندهم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب » الكلام في موقع الإضراب و « أم » منقطعة و الكلام ناظر إلى قولهم : « ءَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ مِنْ بَيْنِنَا » أي بل أعندهم خزائن رحمة ربك التي ينفق منها على من يشاء حتى يمنعوك منها بل هي له تعالى وهو أعلم حيث يجعل رسالته و يخص برحمته من يشاء .

و تذييل الكلام بقوله : « العزيز الوهاب » لتأييد محصل الجملة أي ليس عندهم شيء من خزائن رحمته لأنه عزيز منيع جانبه لا يداخل في أمره أحد ، و لا لهم أن يصفروا رحمته عن أحد لأنهم وهاب كثير الهبات .

قوله تعالى : « أم لهم ملك السماوات و الأرض وما بينهما فليرشقوا في الأسباب »

« أم » منقطعة ، و الأمر في قوله : « ليرتقوا » للتعجيز و الارتقاء الصعود ، و الأسباب المعارج و المناهج التي يتوسل بها إلى الصعود إلى السماوات ، و يمكن أن يراد بارتقاء الأسباب التسبب بالعلل و الحيل الذي يحصل به لهم المنع و الصرف .

و المعنى بل ألهم ملك السماوات والأرض فيكون لهم أن يتصرفوا فيها فيمنعوا نزول الوحي السماوي إلى بشر أرضي فإن كان كذلك فليصعدوا معارج السماوات أو فليتسببوا الأسباب و ليمنعوا من نزول الوحي عليك .

قوله تعالى : « جندماً هنالك مهزوم من الأحزاب » الهزيمة الخذلان و « من الأحزاب » بيان لقوله : « جندماً » و « ما » للتقليل والتحقيق ، و الكلام مسوق لتحقير أمرهم رغماً لما يشعر به ظاهر كلامهم من التعزُّز و الإعجاب بأنفسهم .

يدل على ذلك تنكير « جند » و تميمه بلفظة « ما » و الإشارة إلى مكائهم بهنالك الدال على البعيد وعدّهم من الأحزاب المتحزّبين على الرسل الذين قطع الله دابر الماضين منهم كما سيذكر و لذلك عدّ هذا الجند مهزوماً قبل انهزامهم .

و المعنى هم جندماً أقلاء أذلاء منهزمون هنالك من أولئك الأحزاب المتحزّبين على الرسل الذين كذبوهم فحق عليهم عقابي .

قوله تعالى : « كذب قبلهم قوم نوح وعاد وفرعون ذوالأوتاد - إلى قوله - فحق عقاب » ذوالأوتاد وصف فرعون و الأوتاد جمع وتد وهو معروف . قيل : سمّي بذي الأوتاد لأنّه كانت له ملاعب من أوتاد يلعب له عليها ، و قيل : لأنّه كان يعذب من غضب عليه من المجرمين بالأوتاد يوتد يديه ورجليه و رأسه على الأرض فيعذب به و قيل : معناه ذو الجنود أوتاد الملك ، و قيل غير ذلك من الوجوه ، و لا دليل على شيء منها يعول عليه .

و أصحاب الأيكة قوم شعيب و قد تقدّم في سورة الحجر و الشعراء ، و قوله : « فحق عقاب » أي ثبت في حقهم و استقرّ فيهم عقابي فأهلكتهم .

قوله تعالى : « و ما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق » النظر

الانتظار والفوق الرجوع والمهلة اليسيرة ، والمعنى وما ينتظر هؤلاء المكذّبون من أمّتك إلا صبحه واحدة تقضي عليهم و تهلكهم مالهيا من رجوع أو مهلة وهي عذاب الاستئصال .

قالوا : والمراد من الصيحة صيحة يوم القيامة لأنّ أمّة محمد ﷺ مؤخّرون عنهم العذاب إلى قيام الساعة ، وقد عرفت في تفسير سورة يونس أنّ ظاهر آيات الكتاب يعطي خلاف ذلك فراجع .

قوله تعالى : « وقالوا ربّنا عجل لنا قطّنا قبل يوم الحساب » القطّ النصيب والحظّ ، وهذه الكلمة استعجال منهم للعذاب قبل يوم القيامة استهزاء بحديث يوم الحساب والوعيد بالعذاب فيه .

﴿ بحث روائى ﴾

في الكافي بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال : أقبل أبو جهل بن هشام ومعه قوم من قريش فدخلوا على أبي طالب فقالوا . إنّ ابن أخيك قد آذانا وآذى آلهم فادعه و مره فليكف عن آلهمتنا ونكف عن إلهه .

قال : فبعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فدعاه فلمّا دخل النبي ﷺ لم يرفي البيت إلا مشركا فقال: السلام على من اتبع الهدى ثمّ جلس فخبره أبو طالب بما جاؤا به فقال : أوهل لهم في كلمة خير لهم من هذا يسودون بها العرب و يطأون أعناقهم ؟ فقال أبو جهل : نعم و ما هذه الكلمة ؟ قال : تقولون : لا إله إلا الله .

قال: فوضعوا أصابعهم في آذانهم و خرجوا و هم يقولون : ما سمعنا بهذا في الملّة الآخرة إنّ هذا إلا اختلاق فأنزّل الله في قولهم ص و القرآن ذي الذكر - إلى قوله - إلا اختلاق .

و في تفسير القميّ في قوله تعالى : « و عجبوا أن جاءهم منذر منهم » قال : لمّا أظهر رسول الله صلى الله عليه وآله الدعوة اجتمعت قريش إلى أبي طالب فقالوا : يا

أبا طالب إن ابن أخيك قد سفته أحلامنا و سب آلهتنا و أفسد شبابنا و فرق جماعتنا فإن كان الذي يحمله على ذلك العدم جمعنا له مالاً حتى يكون أغنى رجل في قريش و نملكه علينا .

فأخبر أبو طالب رسول الله ﷺ بذلك فقال: لو وضعوا الشمس في يميني و القمر في يساري ما أردتد و لكن يعطوني كلمة يملكون بها العرب و يدين لهم بها العجم و يكونون ملوكا في الجنة فقال لهم أبو طالب ذلك فقالوا : نعم و عشر كلمات فقال لهم رسول الله ﷺ : تشهدون أن لا إله إلا الله و أنني رسول الله فقالوا : ندع ثلاث مائة و ستين إلها و نعبد إلهاً واحدا ؟

فأنزل الله سبحانه : « بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم و قال الكافرون هذا ساحر كذاب - إلى قوله - إلا اختلاق » أي تخطيط « أنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكرى - إلى قوله - من الأخراب » يعني الذين تحزبوا عليه يوم الأحزاب .

أقول : و القصة مروية من طرق أهل السنة أيضا و في بعض رواياتهم أنه ﷺ لما عرض عليهم كلمة التوحيد قالوا له : سلنا غير هذه قال : لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها فغضبوا و قاموا و الكلمة كناية عن تمليكهم إيّاه زمام نظام العالم الأرضي فإن الشمس و القمر من أعظم المؤثرات فيه ، و قد أخذنا على ما يظهران للحس من القدر ليصح ما أريد من التمثيل .

و في العلل بائنه إلى إسحاق بن عمار قال : سألت أبا الحسن موسى بن جعفر عليه السلام كيف صارت الصلاة ركعة و سجدتين ؟ وكيف إذا صارت سجدتين لم تكن ركعتين ؟ فقال : إذا سألت عن شيء ففرغ قلبك لتفهم . إن أول صلاة صلاها رسول الله ﷺ إنما صلاها في السماء بين يدي الله تبارك و تعالى قد أم عرشه .

و ذلك أنه لما أسري به و صار عند عرشه قال : يا محمد أدن من صاد فاغسل مساجدك و طهرها وصل لربك فدنا رسول الله ﷺ إلى حيث أمره الله تبارك و تعالى فتوضأ و أسبغ وضوءه .

قلت : جعلت فداك و ما صاد الذي أمر أن يغتسل منه ؟ فقال : عين تنفجر من ركن من أركان العرش يقال له : ماء الحيوان و هو ما قال الله عز وجل : «صَّو الْقِرَآنَ ذِي الذِّكْرِ» الحديث .

اقرول : و روى هذا المعنى أعنى أن صَّ نهر يخرج من ساق العرش في المعاني عن سفيان الثوري عن الصادق عليه السلام ، و روى في مجمع البيان عن ابن عباس أنه اسم من أسماء الله تعالى قال : و روي ذلك عن الصادق عليه السلام .

و في المعاني بإسناده إلى الأصبغ عن علي عليه السلام في قول الله عز وجل : «وقالوا ربنا عجل لنا قطننا قبل يوم الحساب» قال : نصيبهم من العذاب .





اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (١٧)
 إِنَّا سَخَرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ (١٨) وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً
 كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ (١٩) وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخِطَابِ (٢٠)
 وَهَلْ أَتَيْكَ نَبُؤُا الْخَصَمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُدَ
 فَفَزَعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكَمْ بَيْنَنَا
 بِالْحَقِّ وَلَا تُظْطَ وَاهِدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ
 وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةً وَاحِدَةً فَقَالَ اكْفُلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣)
 قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لِيَبْغَىٰ
 بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ
 وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَاهُ فَاستَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) فَغَفَرْنَا لَهُ
 ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَازِقًا وَحَسَنَ مَّآبٍ (٢٥) يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً
 فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ
 اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ
 الْحِسَابِ (٢٦) وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ
 الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨)
كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ (٢٩).

﴿ بيان ﴾

لما حكى سبحانه عن المشركين رميهم النبي ﷺ ودعوته الحقّة بالاختلاق و أنّها ذريعة إلى التقدّم و الرئاسة و أنّه لا مرجّح له عليهم حتّى يختصّ بالرسالة و الإنذار. ثمّ استهزاءهم بيوم الحساب و عذابه الذي يندرون به ؛ أمر النبي ﷺ بالصبر و أن لا يزل له هفواتهم و لا يوهن عزمه و أن يذكر عدّة من عباده الأوّلين له الراجعين إليه فيمادهمهم من الحوادث .

وهؤلاء تسعة من الأنبياء الكرام ذكرهم الله سبحانه : داود و سليمان و أيّوب و إبراهيم و إسحاق و يعقوب و إسماعيل و اليسع و نوا الكفل ﷺ ، و بدء بـ داود عليه السلام و ذكر بعض قصصه .

قوله تعالى : « اصبر على ما يقولون و اذكر عبدنا داود ذا الأيد إنّّه أوّاب »
الأيد القوة و كان عليه السلام ذا قوّة في تسبيحه تعالى يسبح و يسبح معه الجبال و الطير و ذا قوّة في ملكه و ذا قوّة في علمه و ذا قوّة و بطش في الحروب و قد قتل جالوت الملك كما قصّه الله في سورة البقرة .

و الأوّاب اسم مبالغة من الأوب بمعنى الرجوع و المراد به كثرة رجوعه إلى ربّه .
قوله تعالى : « إنّنا سخّرنا الجبال معه يسبحن بالعشيّ و الاّشراق » الظاهر أنّ « معه » متعلّق بقوله : « يسبحن » و جملة « معه يسبحن » بيان لمعنى التسخير و قد تمّ الظرف لتعلّق العناية بتبعيتها لداود و اقتدائها به في التسبيح لكن قوله تعالى في موضع آخر : « و سخّرنا مع داود الجبال يسبحن و الطير » الأنبياء : ٧٩ يؤيّد تعلّق الظرف بسخّرنا ، و قد وقع في موضع آخر من كلامه تعالى : « يا جبال أوّبي معه و الطير سباً : ١٠ . والعشيّ و الاّشراق الرواح و الصباح .

و قوله : « إِنَّا سَخَرْنَا » الخ « إِنَّ » فيه للتعليل و الآية و ما عطف عليها من الآيات بيان لكونه عَلَيْهِ السَّلَامُ ذا أيدٍ في تسيّحه و ملكه و علمه و كونه أوّاباً إلى ربّه .

قوله تعالى : « و الطير محشورة كلّ له أوّاب » المحشورة من الحشر بمعنى الجمع بازعاج أي و سخرنا معه الطير مجموعة له تسبّح معه .

و قوله : « كلّ له أوّاب » استئناف يقرّر ما تقدّمه من تسبّح الجبال و الطير أي كلّ من الجبال و الطير أوّاب أي كثير الرجوع إلينا بالتسبيح فإنّ التسبيح من مصاديق الرجوع إليه تعالى . و يحتمل رجوع ضمير « له » إلى داود على بعد .

و لم يكن تأييد داود عَلَيْهِ السَّلَامُ في أصل جعله تعالى للجبال و الطير تسبيحاً فإنّ كلّ شيء مسبّح لله سبحانه قال تعالى : « و إنّ من شيء إلّا يسبّح بحمده و لكن لا تفقهون تسبيحهم » أسرى : ٢٤ بل في موافقة تسبيحها لتسبيحه و قرع تسبيحها أسماع الناس و قد تقدّم كلام في معنى تسبيح الأشياء لله سبحانه في تفسير قوله تعالى : « و إنّ من شيء إلّا يسبّح بحمده » الآية و أنّه بلسان القال دون لسان الحال .

قوله تعالى : « و شدّدنا ملكه و آتيناه الحكمة و فصل الخطاب » قال الراغب : الشدّ العقد القويّ يقال : شدّد الشيء قويّت عقده . انتهى فشدّ الملك من الاستعارة بالكناية و المراد به تقوية الملك و تحكيم أساسه بالهيبة و الجنود و الخزائن و حسن التدبير و سائر ما يتقوى به الملك .

و الحكمة في الأصل بناء نوع من الحكم و المراد بها المعارف الحقّة المتقنة التي تنفع الإنسان و تكمّله ، و قيل : المراد النبوءة ، و قيل : الزبور و علم الشرائع و قيل غير ذلك و هي وجوه رديّة .

و فصل الخطاب تفكيك الكلام الحاصل من مخاطبة واحد لغيره و تمييز حقّه من باطله و ينطبق على القضاء بين المتخاصمين في خصامهم .

و قيل : المراد به الكلام القصد ليس بايجازه مخلّ ولا باطنابه مملّاً ، و قيل : فصل الخطاب قول أمّا بعد فهو عَلَيْهِ السَّلَامُ أوّل من قال : أمّا بعد ، و الآية التالية « و هل أتاك نبؤ الخصم » الخ تؤيّد ما قدّمناه .

قوله تعالى : « و هل أتاك نبؤ الخصم إذ تسوّروا المحراب » الخصم مصدر كالخصومة أريد به القوم الذين استقرّ فيهم الخصومة ، و التسوّر الارتقاء إلى أعلى السور و هو الحائط الرفيع كالتسنّم بمعنى الارتقاء إلى سنام البعير والتذريّ بمعنى الارتقاء إلى ذروة الجبل ، و قد فسّر المحراب بالعرفة و العليّة ، و الاستفهام للتعجيب و التشويق إلى استماع الخبر .

و المعنى هل أتاك يا محمّد خبر القوم المتخاصمين إذ علوا سور المحراب محراب داود عليه السلام .

قوله تعالى : « إذ دخلوا على داود ففرع منهم » إلى آخر الآية لفظة «إذ» هذه ظرف لقوله : « تسوّروا » كما أن « إذ » الأولى ظرف لقوله : « نبؤ الخصم » ومحصّل المعنى أنهم دخلوا على داود وهوفي محرابه لامن الطريق العاديّ بل بتسوّره بالارتقاء إلى سوره و الورود عليه منه و لذا فرع منهم لما رأهم دخلوا عليه من غير الطريق العاديّ و بغير إذن .

و قوله : « ففرع منهم » قال الراغب : الفرع انقباض و نفاري عتري الإنسان من الشيء المخيف وهو من جنس الجزع و لا يقال : فرعت من الله كما يقال : خفت منه . انتهى .

وقد تقدّم أن الخشية تأثير القلب بحيث يستتبع الاضطراب والقلق وهي رذيلة مذمومة إلا الخشية من الله سبحانه و لذا كان الأنبياء عليهم السلام لا يخشون غيره قال تعالى : « ولا يخشون أحداً إلا الله » الأحزاب : ٣٩ .

و أن الخوف هو التأثير عن المكروه في مقام العمل بتهيئة ما يتحرّز به عن الشرّ و يدفع به المكروه لافي مقام الإدراك فليس برذيلة مذمومة لذاته بل هو حسن فيما يحسن الانتقاء قال تعالى خطاباً لرسوله : « وإمّا تخافن من قوم خيانة » الانفال : ٥٨ . و إذا كان الفرع هو الانقباض و النفار الحاصل من الشيء المخوف كان أمراً راجعاً إلى مقام العمل دون الإدراك فلم يكن رذيلة بذاته بل كان فضيلة عند تحقّق مكروه ينبغي التحرّز منه فلاضير في نسبته إلى داود عليه السلام في قوله : « ففرع منهم » وهو

من الأنبياء الذين لا يخشون إلا الله .

وقوله : « قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض » لما رأوا ما عليه داود عليه السلام من الفرع أرادوا تطيب نفسد وإسكان روعه فقالوا : « لا تخف » و هو نهى عن الفرع بالنهي عن سببه الذي هو الخوف « خصمان بغى » الخ أي نحن خصمان أي فريقان متخاصمان تجاوز بعضنا ظلما على بعض .

وقوله : « فاحكم بيننا بالحق » ولا تشطط « الخ الشطط الجور أي فاحكم بيننا حكما مصاحبا للحق ولا تجر في حكمك و دلنا على الوسط العدل من الطريق .

قوله تعالى : « إن هذا أخي » إلى آخر الآية بيان لخصومتهم وقوله : « إن هذا أخي » كلام لواحد من أحد الفريقين يشير إلى آخر من الفريق الآخر بأن هذا أخي له « الخ .

و بهذا يظهر فساد ما استدل بعضهم بالآية على أن أقل الجمع اثنان لظهور قوله : « إن تسورا » « إن دخلوا » في كونهم جمعا ودلالة قوله : « خصمان » « هذا أخي » على الانثنية .

و ذلك لجواز أن يكون في كل واحد من جانبي التثنية أكثر من فرد واحد قال تعالى : « هذان خصمان اختصموا في ربهم فالذين كفروا » الخ الحج : ١٩ وجواز أن يكون أصل الخصومة بين فردين ثم يلحق بكل منهما غيره لإعانتة في دعواه .

وقوله : « له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة » فقال أكفليها وعزني في الخطاب « النعجة الأنثى من الضأن ، و « أكفليها » أي اجعلها في كفالتي وتحت سلطتي و « عزني في الخطاب » أي غلبني فيه والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه » إلى قوله - وقليل ما هم » جواب داود عليه السلام ، و لعلّه قضاء تقديره قبل استماع كلام المتخاصم الآخر فإن من الجائر أن يكون عنده من القول ما يكشف عن كونه محقاً فيما يطلبه ويقترحه على صاحبه لكن صاحب النعجة الواحدة ألقى كلامه بوجد هيّج الرحمة والعطوفة منه

عليه السلام فبادر إلى هذا التصديق التقديري فقال : « لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه » .

فاللأم للقسمة ، و السؤال - على ما قيل - مضمن معنى الإضافة و لذاعدي إلى المفعول الثاني بائلي ، والمعنى أقسم لقد ظلمك بسؤال إضافة نعجتك إلى نعاجه .
وقوله : « وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات و قليل ما هم » من تمام كلام داود عليه السلام يقرر به كلامه الأول و الخلطاء الشركاء المخالطون .

قوله تعالى : « وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربّه وخرّ راکعاً وأتاب » أي علم داود أنما فتناه بهذه الواقعة أي أنها إنما كانت فتنة فتناه بها و الفتنة الامتحان وقيل : ظن بمعناه المعروف الذي هو خلاف اليقين وذكر استغفاره وتوبته مطلقين يؤيد ما قدّمناه ولو كان الظن بمعناه المعروف كان الاستغفار والتوبة على تقدير كونها فتنة واقعاً وإطلاق اللفظ يدفعه ، والخرّ على ما ذكره الراغب سقوط يسمع منه خروجه والخير يقال لصوت الماء و الريح وغير ذلك مما يسقط من علو ، والركوع - على ما ذكره - مطلق الانحناء .

و الإجابة إلى الله - على ما ذكره الراغب - الرجوع إليه بالتوبة وإخلاص العمل وهي من النوب بمعنى رجوع الشيء مرّة بعد أخرى .
و المعنى و علم داود أن هذه الواقعة إنما كانت امتحانا امتحنه و أنه أخطأ فاستغفر ربّه - مما وقع منه - و خرّ منحنياً و تاب إليه .
و أكثر المفسرين تبعاً للروايات على أن هؤلاء الخصم الداخلين على داود عليه السلام كانوا ملائكة أرسلهم الله سبحانه إليه ليمتحنه و ستعرف حال الروايات .

لكن خصوصيات القصة كتسوّرهم المحراب و دخولهم عليه دخولا غير عادي بحيث أفرعوه ، وكذا تنبّهه بأنّه إنما كان فتنة من الله له لا واقعة عادية ، وقوله تعالى بعد : « فاحكم بين الناس بالحق » و لا تتبع الهوى « الظاهر في أن الله ابتلاه بما ابتلى لينبّهه و يسدّه في خلافته و حكمه بين الناس ، كل ذلك يؤيد كونهم من الملائكة

وقد تمثّلوا له في صورة رجال من الإنس .

و على هذا فالواقعة تمثّل تمثّل فيه الملائكة في صورة متخاصمين لأحدهما نعمة واحدة يسألها آخر له تسع و تسعون نعمة و سألوه القضاء فقال لصاحب النعمة الواحدة : « لقد ظلمك » الخ و كان قوله عَلَيْهِ السَّلَامُ - لو كان قضاء منجزاً - حكماً منه في ظرف التمثّل كما لو كان رأيهم فيما يرى النائم فقال لهم ما قال و حكم فيهم بما حكم و من المعلوم أن لا تكليف في ظرف التمثّل كما لا تكليف في عالم الرؤيا و إنّما التكليف في عالمنا المشهود وهو عالم المادة و لم تقع الواقعة فيه ولا كان هناك متخاصمان ولا نعمة ولا نجاج إلا في ظرف التمثّل فكانت خطيئة داود عَلَيْهِ السَّلَامُ في هذا الظرف من التمثّل و لا تكليف هناك كخطيئة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في الجنة من أكل الشجرة قبل الهبوط إلى الأرض و تشريع الشرائع و جعل التكليف ، واستغفاره و توبته ممّا صدر منه كاستغفار آدم و توبته ممّا صدر منه و قد صرّح الله بخلافته في كلامه كما صرّح بخلافة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ في كلامه و قد مرّ توضيح ذلك في قصة آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من سورة البقرة في الجزء الأوّل من الكتاب . و أمّا على قول بعض المفسّرين من أن المتخاصمين الداخلين عليه كانوا بشرا و القصّة على ظاهرها فينبغي أن يؤخذ قوله : « لقد ظلمك » الخ قضاء تقديرية أي إنك مظلوم لو لم يأت خصيمك بحجّة بيّنة ، و إنّما ذلك للحفظ على ما قامت عليه الحجّة من طريقي العقل و النقل أن الأنبياء معصومون بعصمة من الله لا يجوز عليهم كبيرة و لا صغيرة .

على أن الله سبحانه صرّح قبلاً بأنّه آتاه الحكمة و فصل الخطاب و لا يلائم ذلك خطؤه في القضاء .

قوله تعالى : « و إنّ له عندنا لزلفى و حسن مآب » الزلفة و الزلفى المنزلة و الحظوة ، و المآب المرجع ، و تنكير « زلفى » و « مآب » للتخيم ، و الباقي ظاهر .
قوله تعالى : « يا داود إنّنا جعلناك خليفة في الأرض » إلى آخر الآية الظاهر أن الكلام بتقدير القول و التقدير فغفرنا له ذلك و قلنا يا داود الخ .

و ظاهر الخلافة أنّها خلافة الله فتطبق على ما في قوله تعالى : « و إنّ قال ربّك

للملائكة إنني جاعل في الأرض خليفة « البقرة : ٣٠ و من شأن الخلافة أن يحاكي الخليفة من استخلفه في صفاته وأعماله فعلى خليفة الله في الأرض أن يتخلق بأخلاق الله ويريد ويفعل ما يريد الله ويحكم ويقضي بما يقضي به الله - والله يقضي بالحق - ويسلك سبيل الله ولا يتعداها .

ولذلك فرع على جعل خلافته قوله : « فاحكم بين الناس بالحق » وهذا يؤيد أن المراد بجعل خلافته إخراجها من القوة إلى الفعل في حقه لامجرد الخلافة الشأنيّة لأن الله أكمله في صفاته وآتاه الملك يحكم بين الناس .

وقول بعضهم: إن المراد بخلافته المفعولة خلافته ممن قبله من الأنبياء، وتفرع قوله : « فاحكم بين الناس بالحق » لأن الخلافة نعمة عظيمة شكرها العدل أو أن المترتب هو مطلق الحكم بين الناس الذي هو من آثار الخلافة و تقييده بالحق لأن سداً به ، تصرف في اللفظ من غير شاهد .

وقوله : « ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله » العطف والمقابلة بينه وبين ما قبله يعطيان أن المعنى ولا تتبع في قضاك الهوى هوى النفس فيضلك عن الحق الذي هو سبيل الله فتفيد الآية أن سبيل الله هو الحق .

قال بعضهم : إن في أمره ﷺ بالحكم بالحق ونهيه عن اتباع الهوى تنبيها لغيره ممن يلي أمور الناس أن يحكم بينهم بالحق ولا يتبع الباطل وإلا فهو ﷺ من حيث إنه معصوم لا يحكم إلا بالحق ولا يتبع الباطل .

وفيه أن أمر تنبيهه غيره بما وجه إليه من التكليف في محله لكن عصمة المعصوم وعدم حكمه إلا بالحق لا يمنع توجه التكليف بالأمر والنهي إليه فإن العصمة لا توجب سلب اختياره ومادام اختياره باقيا جاز بل وجب توجه التكليف إليه كما يتوجه إلى غيره من الناس ، ولولا توجه التكليف إلى المعصوم لم يتحقق بالنسبة إليه واجب ومحرم ولم تتميز طاعة من معصية فلغى معنى العصمة التي هي المصونية عن المعصية .

وقوله: «إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب»

تعليل للنهي عن اتباع الهوى بأنه يلزم نسيان يوم الحساب و في نسيانه عذاب شديد والمراد بنسيانه عدم الاعتناء بأمره .

و في الآية دلالة على أن كل ضلال عن سبيل الله سبحانه بمعية من المعاصي لا ينفك عن نسيان يوم الحساب .

قوله تعالى : « و ما خلقنا السماء والأرض و ما بينهما باطلا » إلى آخر الآية لما انتهى الكلام إلى ذكر يوم الحساب عطف عنان البيان عليه فاحتج عليه بحجتين إحداهما ما ساقه في هذه الآية بقوله : « و ما خلقنا السماء » الخ وهو احتجاج من طريق الغايات إذ لو لم يكن خلق السماء والأرض و ما بينهما - وهي أمور مخلوقة مؤجلة توجد و تفنى - مؤديا إلى غاية ثابتة باقية غير مؤجلة كان باطلا والباطل بمعنى مالا غاية له ممتنع التحقق في الأعيان . على أنه مستحيل من الحكيم و لا ريب في حكمته تعالى .

وربما أطلق الباطل و أريد به اللعب ولو كان المراد ذلك كانت الآية في معنى قوله : « و ما خلقنا السماوات والأرض و ما بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق » الدخان : ٣٩ .

وقيل : الآية عطف على ما قبلها بحسب المعنى كأنه قيل : و لا تتبع الهوى لأنه يكون سببا لضلالك و لأنه تعالى لم يخلق العالم لأجل اتباع الهوى وهو الباطل بل خلقه للتوحيد و متابعة الشرع .

و فيه أن الآية التالية : « أم نجعل الذين آمنوا و عملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض » الخ لا تلائم هذا المعنى .

و قوله : « ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار » أي خلق العالم باطلا لا غاية له و انتفاء يوم الحساب الذي يظهر فيه ما ينتجه حساب الأمور ظن الذين كفروا بالمعاد فويل لهم من عذاب النار .

قوله تعالى : « أم نجعل الذين آمنوا و عملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار » هذه هي الحجّة الثانية على المعاد و تقريرها أن للإنسان

كسائر الأنواع كمالات بالضرورة وكمال الإنسان هو خروجه في جانبي العلم والعمل من القوة إلى الفعل بأن يعتقد الاعتقادات الحقّة ويعمل الأعمال الصالحة اللّتين يهديه إليهما فطرته الصحيحة وهما الإيمان بالحقّ والعمل الصالح اللّذين بهما يصلح المجتمع الإنسانيّ الذي في الأرض .

فالذين آمنوا وعملوا الصالحات وهم المتّقون هم الكاملون من الإنسان والمفسدون في الأرض بفساد اعتقادهم وعملهم وهم الفجّار هم الناقصون الخاسرون في إنسانيتهم حقيقة ، ومقتضى هذا الكمال والنقص أن يكون بإزاء الكمال حياة سعيدة وعيش طيّب وبإزاء خلاف ذلك .

ومن المعلوم أن هذه الحياة الدنياء التي يشتركان فيها هي تحت سيطرة الأسباب والعوامل الماديّة ونسبتها إلى الكمال والناقص والمؤمن والكافر على السواء فمن أجاد العمل ووافقته الأسباب الماديّة فازبطيب العيش ومن كان على خلاف ذلك لزمه الشقاء وضنك المعيشة .

فلو كانت الحياة مقصورة على هذه الحياة الدنيويّة التي نسبتها إلى الفريقين على السواء ولم تكن هناك حياة تخصّ بكلّ منهما وتناسب حاله كان ذلك منافياً للعناية الإلهيّة بإيصال كلّ ذي حقّ حقه وإعطاء المطقتضيات ما تقتضيه .
وإن شئت فقل : تسوية^(١) بين الفريقين وإلغاء ما يقتضيه صلاح هذا وفساد ذلك خلاف عدله تعالى .

و الآية - كما ترى - لا تنفي استواء حال المؤمن والكافر وإنّما قرّرت المقابلة بين من آمن وعمل صالحاً وبين من لم يكن كذلك سواء كان غير مؤمن أو مؤمناً غير صالح ولذا أتت بالمقابلة ثانياً بين المتّقين والفجّار .

قوله تعالى : « كتاب أترلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته و ليتذكّروا أولوا الألباب » أي هذا كتاب من وصفه كذا وكذا ، وتوصيفه بالألّ نزال المشعر بالدفعه دون

التنزيل الدالّ على التدرّج لأنّ ما ذكر من التدبّر والتذكّر يناسب اعتباره مجموعاً لانجوماً مفارقة .

والمقابلة بين « ليدبّروا » و « ليتذكّر أوّلوا الأبواب » تفيد أنّ المراد بضمير الجمع الناس عامّة .

و المعنى هذا كتاب أترلناه إليك كثير الخيرات والبركات للعامة والخاصة ليتدبّره الناس فيهدّوا به أو تمّ لهم الحجّة وليتدبّر به أوّلوا الأبواب فيهدّوا إلى الحقّ باستحضار حجّته و تلقّيها من بيانه .

﴿ بحث روائي ﴾

روى في الدر المنثور بطريق عن أنس و عن مجاهد والسديّ و بعدة طرق عن ابن عبّاس قصة دخول الخصم على داود عَلَيْهِ السَّلَامُ على اختلاف ما في الروايات وروى مثلها القميّ في تفسيره و رواها في العرائس، وغيره وقد لخصّها في مجمع البيان كما يأتي:

إنّ داود كان كثير الصلاة فقال : يا ربّ فضّلت عليّ إبراهيم فاتخذته خليلاً و فضّلت عليّ موسى فكلمته تكليماً فقال : يا داود إنّنا ابتليناهم بما لم نبئك بمثله فإن شئت ابتليتك فقال : نعم يا ربّ فابتلني .

فبينما هو في محرابه ذات يوم إذ وقعت حمامة فأراد أن يأخذها فطارت إلى كوة المحراب فذهب ليأخذها فاطّلع من الكوة فإذا امرأة أوريا بن حيّان تغتسل فهوأها و همّ بتزويجها فبعث بأوريا إلى بعض سراياه وأمر بتقديمه أمام التابوت الذي فيه السكينة ففعل ذلك وقتل .

فلما انقضت عدّها تزوّجها و بنى بها فولد له منها سليمان فبينما هو ذات يوم في محرابه إذ دخل عليه رجلان ففزع منهما فقالا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض - إلى قوله - و قليل ما هم ، فنظر أحد الرجلين إلى صاحبه ثمّ ضحك فتنبّه داود على أنّهما ملكان بعثهما الله إليه في صورة خصمين ليبيكتاه على خطيئته فتاب و بكى حتّى نبت الزرع من كثرة دموعه .

ثم قال في المجمع - و نعم ما قال - : إنه مما لاشبهة في فسادِه فإنَّ ذلك ممَّا يقدح في العدالة فكيف يجوز أن يكون أنبياء الله الذين هم أُمناؤه على وجه وسفراؤه بينه وبين خلقه بصفة من لا تقبل شهادته و على حالة تنفر عن الاستماع إليه والقبول منه .
اقول : و القصة مأخوذة من التوراة غير أن التي فيها أشنع و أفضع فعدلت بعض التعديل على ما سيلوح لك .

ففي التوراة ما ملخصه : و كان في وقت المساء أن داود قام عن سريره و تمشى على سطح بيت الملك فرآى من على السطح امرأة تستحم و كانت المرأة جميلة المنظر جداً .

فأرسل داود و سأل عن المرأة فقيل : إنها بتشبع امرأة أوريا الحثي فأرسل داود رسلاً و أخذها فدخلت عليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمئها ثم رجعت إلى بيتها و حبلى المرأة فأرسلت وأخبرت داود أنها حبلى .

و كان أوريا في جيش لداود يحاربون بني عَمون فكتب داود إلى يوبأ أمير جيشه يأمره بإرسال أوريا إليه و لما أتاه وأقام عنده أيا ما كتب مكتوباً إلى يوبأ و أرسله بيد أوريا ، و كتب في المكتوب يقول: اجعلوا أوريا في وجه الحرب الشديدة و ارجعوا من ورائه فيضرب و يموت ففعل به ذلك فقتل و أخبر داود بذلك .

فلما سمعت امرأة أوريا أنه قد مات ندمت بعلها ، و لما مضت المناحة أرسل داود و ضمها إلى بيته و صارت له امرأة و ولدت له ابناً و أمّا الأمر الذي فعله داود فقبح في عيني الرب .

فأرسل الرب ناثان النبي إلى داود فجاء إليه و قال له : كان رجلان في مدينة واحدة واحد منهما غني و الآخر فقير ، و كان للغني غنم و بقر كثيرة جداً و أمّا الفقير فلم يكن له شيء إلا نعجة واحدة صغيرة قد اقتناها و ربها فجاء ضيف إلى الرجل الغني فعفا أن يأخذ من غنمه و من بقره ليهيئ للضيف الذي جاء إليه فأخذ نعجة

الرجل الفقير و هيأ لضيفه ، فحمي غضب داود على الرجل جدا و قال لثانان : حي هو الرب إنه يقتل الرجل الفاعل ذلك وترد النعجة أربعة أضعاف لأنه فعل هذا الأمر ولا أنه لم يشفق .

فقال ثانان لداود : أنت هو الرجل يعاتبك الرب و يقول : سأقيم عليك الشر من بيتك و آخذ نساءك أمام عينيك و أعطيهن لقريبك فيضطجع معهن قدام جميع إسرائيل و قدام الشمس جزاء لما فعلت بأوريا و امرأته .

فقال داود لثانان : قد أخطأت إلى الرب فقال ثانان لداود : الرب أيضا قد نقل عنك خطيئتك . لا تموت غير أنه من أجل أنك قد جعلت بهذا الأمر أعداء الرب يشمتون فالابن المولود لك من المرأة يموت ، فأمرض الله الصبي سبعة أيام ثم قبضه ثم ولدت امرأة أوريا بعده لداود ابنه سليمان .

و في العيون في باب مجلس الرضا عند المأمون مع أصحاب الملل و المقالات قال الرضا عليه السلام لا بن جهنم : و أمّا داود فما يقول من قبلكم فيه ؟ قال : يقولون : إن داود كان يصلي في محرابه إذ تصوّر له إبليس على صورة طير أحسن ما يكون من الطيور فقطع داود صلاته و قام يأخذ الطير إلى الدار فخرج في إثره فطار الطير إلى السطح فصعد في طلبه فسقط الطير في دار أوريا بن حيان .

فاطلع داود في إثر الطير فإذا بامرأة أوريا تغتسل فلمّا نظر إليها هواها و كان قد أخرج أوريا في بعض غزواته فكتب إلى صاحبه أن قدّم أوريا أمام التابوت فقدّم فظفر أوريا بالمشرّكين فصعب ذلك على داود فكتب إليه ثانية أن قدّمه أمام التابوت فقدّم فقتل أوريا و تزوّج داود بامرأته .

قال : ف ضرب الرضا عليه السلام يده على جبهته و قال : إنّ الله و إنّنا إليه راجعون لقد نسبتم نبيا من أنبياء الله إلى التهاون بصلاته حتّى خرج في إثر الطير ثمّ بالفاحشة ثمّ بالقتل .

فقال : يا ابن رسول الله ما كانت خطيئته ؟ فقال : ويحك إنّ داود عليه السلام إنّما ظنّ أنّه ما خلق الله خلقا هو أعلم منه فبعث الله عزّ وجلّ إليه الملكين فسوّرا المحراب

فقال : خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط إن هذا أخى له تسع و تسعون نعمة ولي نعمة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب فعبّل داود على المدعى عليه فقال : لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ولم يسأل المدعى البيئنة على ذلك ، ولم يقبل على المدعى عليه فيقول له : ما تقول ؟ فكان هذا خطيئة رسم الحكم لا ما ذهبتُم إليه ألا تسمع الله عز وجل يقول : « يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق » إلى آخر الآية .

فقال : يا ابن رسول الله فما قصته مع أوربا ؟ قال الرضا عليه السلام : إن المرأة في أيام داود كانت إذا مات بعلمها أو قتل لا تزوج بعده أبدا فأول من أباح الله عز وجل له أن يتزوج بامرأة قتل بعلمها داود عليه السلام فتزوج بامرأة أوربا لما قتل وانقضت عدتها فذلك الذي شق على الناس من قتل أوربا .

وفي أمالي الصدوق بإسناده إلى أبي عبد الله عليه السلام أنه قال لعقمة : إن رضا الناس لا يملك وألسنتهم لا تضبط ألم ينسبوا داود عليه السلام إلى أنه تبع الطير حتى نظر إلى امرأة أوربا فهوهاها ، وأنه قدم زوجها أمام التابوت حتى قتل ثم تزوج بها الحديث .

﴿ كلام في قصص داود في فصول ﴾

١ - قصته في القرآن لم يقع من قصته في القرآن إلا إشارات فقد ذكر سبحانه أنه كان في جيش طالوت الملك حين حارب جالوت فقتل داود فآتاه الله الملك بعد طالوت والحكمة وعلمه مما يشاء (البقرة : ٢٥١) وجعله خليفة له يحكم بين الناس وآتاه فصل الخطاب (ص : ٢٠ و ٢٦) وقد أيد الله ملكه وسخر معه الجبال والطير يسبحن معه (الأنبياء : ٧٩ ص : ١٩) وألأن له الحديد يعمل وينسج منه الدروع (الأنبياء : ٨٠ سبأ : ١١) .

٢ - جميل الثناء عليه في القرآن . عده سبحانه من الأنبياء وأثنى عليه بما أثنى عليهم وخصه بقوله : « وآتينا داود زبورا » (النساء : ١٦٣ الأنعام : ٨٤ - ٨٧)

و آتاه فضلاً و علماً (سبأ : ١٠ النمل : ١٥) و آتاه الحكمة و فصل الخطاب و جعله خليفة في الأرض (ص : ٢٠ و ٢٦) و وصفه بأنه أوّاب و أنّ له عنده لزلفى و حسن مآب (ص : ١٩ و ٢٥) .

٣ - التدبر في آيات الكتاب المتعرّضة لقصة دخول المتخاصمين على داود عليه السلام لا يعطي أزيد من كونه امتحاناً منه تعالى له عليه السلام في ظرف التمثّل ليربيه تربية إلهية و يعلمه رسم القضاء العدل فلا يجور في الحكم و لا يعدل عن العدل .
و أمّا ما تضمّنته غالب الروايات من قصة أوربا و امرأته فهو ممّا يجلّ عنه الأنبياء عليهم السلام و يقتزّه عنه ساحتهم و قد تقدّم في بيان الآيات و البحث الروائي محصل الكلام في ذلك .





وَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٣٠) اِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ
بِالْعَشِيِّ الصُّافِنَاتُ الْجِيَادُ (٣١) فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ
رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ (٣٢) رُدُّوهَا عَلَيَّ فَفُطِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ
وَالْأَعْنَاقِ (٣٣) وَ لَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَ أَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَدًا
ثُمَّ أَنَابَ (٣٤) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ
بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً
حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَ الشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَ غَوَّاصٍ (٣٧) وَ آخَرِينَ
مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٣٨) هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْكِرْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٩)
وَ إِنْ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَى وَ حَسُنَ مَا يَبِ (٤٠) .

﴿ بيان ﴾

القصة الثانية من قصص العباد الأوابين التي أمر النبي ﷺ أن يصبر و
يذكرها .

قوله تعالى : « ووهبنا لداود سليمان نعم العبد إنه أواب » أي وهبناه له ولدا
والباقي ظاهر مما تقدم .

قوله تعالى : « إذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد » العشي مقابل الغداة
وهو آخر النهار بعد الزوال ، والصافنات على ما في المجمع جمع الصافنة من الخيل و

هي التي تقوم على ثلاث قوائم و ترفع إحدى يديها حتى تكون على طرف الحافر .
قال : والحياد جمع جواد والياء ههنا منقلبة عن واو والأصل جواد وهي السراع من
الخيال كأنها تجود بالركض . انتهى .

قوله تعالى : « فقال إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي حتى توارت
بالحجاب » الضمير لسليمان ، والمراد بالخير الخيل - على ما قيل - فإن العرب تسمي
الخيال خيرا و عن النبي ﷺ الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة .
وقيل المراد بالخير المال الكثير وقد استعمل بهذا المعنى في مواضع من كلامه
تعالى كقوله : « إن ترك خيرا » البقرة : ١٨٠ .

وقوله : « إني أحببت حب الخير عن ذكر ربي » قالوا : إن « أحببت »
مضمن معنى الايثار و « عن » بمعنى على ، والمراد إني آثرت حب الخيل على ذكر
ربي وهو الصلاة محباً إياه أو أحببت الخيل حباً مؤثراً إياه على ذكر ربي - فاشتغلت
بما عرض علي من الخيل عن الصلاة حتى غربت الشمس .

وقوله : « حتى توارت بالحجاب » الضمير على ما قالوا للشمس والمراد بتواربها
بالحجاب غروبها واستتارها تحت حجاب الأفق ، ويؤيد هذا المعنى ذكر العشي
في الآية السابقة إذ لولا ذلك لم يكن غرض ظاهر يترتب على ذكر العشي .
فمحصّل معنى الآية أنني شغلني حب الخيل - حين عرض الخيل علي - عن
الصلاة حتى فات وقتها بغروب الشمس ، وإنما كان يحب الخيل في الله ليتهيأ به
للجهاد في سبيل الله فكان الحضور للعرض عبادة منه فشغلته عبادة عن عبادة غير أنه يعد
الصلاة أهم .

وقيل : ضمير « توارت » للخيل وذلك أنه أمر بأجراء الخيل فشغله النظر
في جريها حتى غابت عن نظره و توارت بحجاب البعد ، وقد تقدم أن ذكر العشي
يؤيد المعنى السابق ولا دليل على ما ذكره من حديث الأمر بالجري من لفظ الآية .
قوله تعالى : « ردّها علي فطفق مسحاً بالسوق والأعناق » قيل : الضمير في
« ردّها » للشمس وهو أمر منه للملائكة برد الشمس ليصلي صلاته في وقتها ، وقوله

« فطفق مسحاً بالسوق والأعناق » أي شرع يمسح ساقيد و عنقه و يأمر أصحابه أن يمسحوا سوقهم و أعناقهم و كان ذلك وضوءهم ثم صلى وصلوا ، وقد ورد ذلك في بعض الروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام .

و قيل : الضمير للخيل والمعنى قال : ردوا الخيل فلما ردت . شرع يمسح مسحاً بسوقها و أعناقها و يجعلها مسبلة في سبيل الله جزاء ما اشتغل بها عن الصلاة .

و قيل : الضمير للخيل والمراد بمسح أعناق الخيل و سوقها ضربها بالسيف و قطعها والمسح القطع فهو عليه السلام غضب عليها في الله لما شغلته عن ذكر الله فأمر بردها ثم ضرب بالسيف أعناقها و سوقها فقتلها جميعا .

وفيه أن مثل هذا الفعل مما تتنزه ساحة الأنبياء عليهم السلام عن مثله فما ذنب الخيل لو شغله النظر إليها عن الصلاة حتى تؤاخذ بأشد المؤاخذة فتقتل تلك القتلة الفظيعة عن آخرها مع ما فيه من إتلاف المال المحترم .

و أما استدلال بعضهم عليه برواية أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله في قوله تعالى : فطفق مسحاً بالسوق والأعناق قطع سوقها و أعناقها بالسيف ثم أضاف إليها وقد جعلها بذلك قربانا لله و كان تقريب الخيل مشروعا في دينه فليس من التقريب ذكر في الحديث ولا في غيره .

على أنه عليه السلام لم يشتغل عن العبادة بالهوى بل شغلته عبادة عن عبادة كما تقدمت الإشارة إليه .

فالمعول عليه هو أول الوجوه إن ساعده لفظ الآية و إلا فالوجه الثاني .

قوله تعالى : « ولقد فتننا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب » الجسد هو الجسم الذي لا روح فيه .

قيل : المراد بالجسد الملقى على كرسيه هو سليمان نفسه لمرض امتحنه الله به و تقدير الكلام ألقيناه على كرسيه جسداً أي كجسد لاروح فيه من شدة المرض .

وفيه أن حذف الضمير من « ألقيناه » وإخراج الكلام على صورته التي في الآية الظاهرة في أن الملقى هو الجسد مخل بالمعنى المقصود لا يجوز حمل أفصح الكلام عليه .

ولسائر المفسرين أقوال مختلفة في المراد من الآية تبعاً للروايات المختلفة الواردة فيها والذي يمكن أن يؤخذ من بينها إجمالاً أنه كان جسد صبي له أماته الله وألقى جسده على كرسيه ، و لقوله : « ثم أناب قال رب اغفر لي » إشعار أو دلالة على أنه كان له عليه السلام فيه رجاء أو أمنية في الله فأماته الله سبحانه وألقاه على كرسيه فنبهه أن يفوض الأمر إلى الله ويسلم له .

قوله تعالى : « قال رب اغفر لي وهب ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي إنك أنت الوهاب » ظاهر السياق أن الاستغفار مرتبطة بما في الآية السابقة من إلقاء الجسد على كرسيه ، والفصل لكون الكلام في محل دفع الدخل كأنه لما قيل : « ثم أناب » قيل : فماذا قال ؟ فقيل : قال رب اغفر لي » الخ .

و ربما استشكل في قوله : « وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي » أن فيه ضناً و بخلاً ، فإن فيه اشتراط أن لا يؤتى مثل ما أوتيته من الملك لأحد من العالمين غيره .

و يدفعه أن فيه سؤال ملك يختص به لا سؤال أن يمنع غيره عن مثل ما آتاه و يحرمه ففرق بين أن يسأل ملكاً اختصاصياً و أن يسأل الاختصاص بملك أوتيته .

قوله تعالى : « فسخرنا له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب » متفرع على سؤاله الملك و إخبار عن إجابة دعوته و بيان الملك الذي لا ينبغي لأحد غيره و هو تسخير الريح والجن .

والرخاء بالضم اللينة والظاهر أن المراد بكون الريح تجري بأمره رخاء مطاوعتها لأمره و سهولة جريانها على ما يريد عليه السلام فلا يرد أن توصيف الريح ههنا بالرخاء يناقض توصيفه في قوله : « ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره » الأنياء : ٨١ بكونها عاصفة .

و ربما أوجب عنه بأن من الجائز أن يجعلها الله رخوة تارة و عاصفة أخرى حسب ما أراد سليمان عليه السلام .

وقوله : « حيث أصاب » أي حيث شاء سليمان عليه السلام وقصد و هو متعلق بتجري .

قوله تعالى : « والشياطين كل بناء وغواص » أي **سخرنا** له الشياطين من الجن كل بناء منهم يبني له في البر وكل غواص يعمل له في البحر فيستخرج اللؤلؤ وغيرها .

قوله تعالى : « و آخرين مقرّنين في الأصفاد » الأصفاد جمع صفد و هو الغل من الحديد ، والمعنى وسخرنا له آخرين منهم مجموعين في الأغلال مشدودين بالسلاسل .
قوله تعالى : « هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب » أي هذا الذي ذكر من الملك عطاؤنا لك بغير حساب والظاهر أن المراد بكونه بغير حساب أنه لا ينفد بالعطاء والمن و لذا قيل : « فامنن أو أمسك » أي إنهما يستويان في عدم التأثير فيه .
و قيل المراد بغير حساب أنك لا تحاسب عليه يوم القيامة ، و قيل : المراد أن إعطاءه تفضل لا مجازاة و قيل غير ذلك .

قوله تعالى : « وإن له عندنا لزلفى وحسن مآب » تقدّم معناه .

﴿ بحث روائى ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « فقال إنني أحببت حب الخير عن ذكر ربّي » الآية قيل : إن هذه الخيل كانت شغلته عن صلاة العصر حتّى فات وقتها عن علي عليه السلام و في رواية أصحابنا أنّه فاتّه أوّل الوقت .

و فيه قال ابن عباس : سألت عليّاً عن هذه الآية فقال : ما بلغك فيها يا بن عباس؟ قلت : سمعت كعباً يقول : اشتغل سليمان بعرض الأفراس حتّى فاتته الصلاة فقال : ردّها عليّ يعني الأفراس و كانت أربعة عشر فأمر بضرب سوقها و أعناقها بالسيف فقتلها فسلبه الله ملكه أربعة عشر يوماً لأنّه ظلم الخيل بقتلها .

فقال عليّ : كذب كعب لكن اشتغل سليمان بعرض الأفراس ذات يوم لأنّه أراد جهاد العدو حتّى توارت الشمس بالحجاب فقال بأمر الله للملائكة الموكلين بالشمس : ردّها عليّ فردّت فصلّى العصر في وقتها و إن أنبياء الله لا يظلمون ولا يأمرون بالظلم

لأنهم معصومون مطهرون .

أقول : وقول كعب الأحبار : فسلبه الله ملكه إشارة إلى حديث الخاتم الذي سنشير إليه .

وفي الفقيه روي عن الصادق عليه السلام أنه قال : إن سليمان بن داود عرض عليه ذات يوم بالعشي الخيل فاشتغل بالنظر إليها حتى توارت الشمس بالحجاب فقال للملائكة : ردوا الشمس عليّ حتى أصليّ صلاتي في وقتها فردوها فقام ومسح ساقيه وعنقه بمثل ذلك وكان ذلك وضوءهم للصلاة ثم قام فصلّى فلما فرغ غابت الشمس وطلعت النجوم ، و ذلك قول الله عز وجل : « ووهبنا لداود سليمان - إلى قوله - مسحاً بالسوق والأعناق ».

أقول والرواية لا بأس بها لو ساعد لفظ الآية أعني قوله : « فطفق مسحاً بالسوق والأعناق » على ما فيها من المعنى ، وأما مسألة رد الشمس فلا إشكال فيه بعد ثبوت إعجاز الأنبياء ، وقد ورد ردّها لغيره عليه السلام كيوشع بن نون وعليّ بن أبي طالب عليه السلام في النقل المعتبر ولا يعبؤ بما أورده الرازي في تفسيره الكبير .

وأما عقره عليه السلام الخيل و ضربه أعناقها بالسيف فقد روي في ذلك عدة روايات من طرق أهل السنة وأورده القمي في تفسيره وكأنّها تنتهي إلى كعب كما مرّ في رواية ابن عباس المتقدمّة وكيف كان فلا يعبؤ بها كما تقدّم .

وقد بلغ من إغراقهم في القصّة أن رووا أن الخيل كانت عشرين ألف فرس ذات أجنحة ومثله ماروي في قوله : حتى توارت بالحجاب عن كعب أنّه حجاب من ياقوته خضراء محيط بالخلائق منه اخضرت السماء .

ومثل هذه الروايات أعاجيب من القصص رووها في قوله تعالى : « وألقينا على كرسيه جسدا » الآية كما روي أنّه ولد له ولد فأمر بإرضاعه وحفظه في السحاب إشفافاً عليه من مردة الجن وفي بعضها خوفاً عليه من ملك الموت فوقع يوماً جسده على كرسيه ميتاً .

وما روي أنّه قال يوماً : لأطوفنّ الليلة بمائة امرأة من نسائي تلد لي كل واحدة منهنّ لي فارساً يجاهد في سبيل الله ولم يستثن فلم تحمل منهنّ إلا واحدة بشقّ

من ولد و كان يحبّه فخبأه له بعض الجن من ملك الموت فأخذه من مخبئه و قبضه على كرسي سليمان .

و ما روي في روايات كثيرة تنتهي عدّة منها إلى ابن عباس و هو يصرّح في بعضها أنّه أخذه عن كعب أن ملك سليمان كان في خاتمه فتخطّفه شيطان منه فزال ملكه و تسلّط الشيطان على ملكه أيّاماً ثم أعاد الله الخاتم إليه فعاد إلى ما كان عليه من الملك ، وقد أوردوا في القصة أُموراً ينبغي أن تنزه ساحة الأنبياء عليهم السلام عن ذكرها فضلاً عن نسبتها إليهم . قالوا : وجنّوس الشيطان على كرسي سليمان هو المراد بقوله تعالى : « وألقينا على كرسيه جسداً » الآية .

فهذه ^(١) كلّها ممّا لا يعبّؤها على ما تقدّمت الإشارة إليه وإنّما هي ممّا لعبت بها أيدي الوضع .



(١) ليراجع في الحصول على عامة هذه الروايات الدر المنثور .



وَ اذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ (٣٩)
 ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ (٤٠) وَ هَبْنَا لَهُ أَهْلَهُ وَ
 مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَ ذِكْرُنَا لِأُولَى الْأَلْبَابِ (٤١) وَ خُذْ بِيَدِكَ
 ضِغْتًا فَاضْرِبْ بِهِ وَلَا تَحْنَثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ (٤٢)
 وَ اذْكُرْ عَبْدَنَا إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ (٤٣)
 إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ (٤٤) وَ أَنْهَيْتُمْ عِدْنَا لَمَنَ
 التَّمْصِطَفِينَ الْأَخْيَارِ (٤٥) وَ اذْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَ الْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَ كُلٌّ مِّنَ
 الْأَخْيَارِ (٤٦) .

﴿ بَيَان ﴾

القصة الثالثة مما أمر النبي ﷺ أن يصبر و يذكرها وهي قصة أيوب النبي عليه السلام و ما ابتلي به من المحنة ثم أكرمه الله بالعافية والعطية . ثم الأمر بذكر إبراهيم و خمسة من ذريته من الأنبياء عليهم السلام .

قوله تعالى : « و اذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنني مسني الشيطان بنصب و عذاب » دعاء منه ﷺ وسؤال للعافية وأن يكشف عنه ربه ما أصابه من سوء الحال ، ولم يصرح بما يريد و يسأله تواضعا و تذلا غير أن نداءه تعالى بلفظ ربي يشعر بأنه يناديه لحاجة .

و النصب التعب ، وقوله : « إذ نادى » الخ بدل اشتغال من « عبدنا » أو « أيوب » وقوله : « أنني مسني » الخ حكاية ندائه .

والظاهر من الآيات التالية أن مراده من النصب والعذاب ما أصابه من سوء الحال في بدنه وأهله وهو الذي ذكره عنه ﷺ في سورة الأنبياء من ندائه أني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين بناء على شمول الضر مصيبته في نفسه وأهله ولم يشر في هذه السورة ولا في سورة الأنبياء إلى ذهاب ماله وإن وقع ذكر المال في الروايات .

والظاهر أن المراد من مس الشيطان له بالنصب والعذاب استناد نصبه وعذابه إلى الشيطان بنحو من السببية والتأثير وهو الذي يظهر من الروايات ، ولا ينافي في استناد المرض ونحوه إلى الشيطان استناده أيضاً إلى بعض الأسباب العادية الطبيعية لأن السببين ليسا عرضيين متدافعين بل أحدهما في طول الآخر وقد أوضحنا ذلك في تفسير قوله تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء » الأعراف : ٤٣ في الجزء الثامن من الكتاب .

ولا دليل يدل على امتناع وقوع هذا النوع من التأثير للشيطان في الإنسان وقد قال تعالى : « إنما الخمر والميسر والأصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان » المائدة : ٩٠ فنسبها أنفسها إليه ، وقال حاكيا عن موسى ﷺ : « هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين » القصص : ١٥ يشير إلى الاقتتال .

ولو اغمض عن الروايات أمكن أن يحتمل أن يكون المراد بانتساب ذلك إلى الشيطان إغراؤه الناس بوسوسته أن يتجنبوا من الاقتراب منه وابتعادهم وطعنهم فيه أن لو كان نبياً لم تحط به البليّة من كل جانب ولم يصر إلى ما صار إليه من العاقبة السوأى وشماتتهم واستهزأؤهم به .

وقد أنكر في الكشف ما تقدم من الوجه قائلًا : لا يجوز أن يسلط الله الشيطان على أنبيائه ﷺ ليقضي من تعذيبهم وإتاعبهم وطره ولو قدر على ذلك لم يدع صالحاً إلا وقد نكبه وأهلكه ، وقد تكرر في القرآن أنه لا سلطان له إلا الوسوسة فحسب انتهى .

وفيه أن الذي يخص الأنبياء وأهل العصمة أنهم لمكان عصمتهم في أمن من تأثير الشيطان في نفوسهم بالوسوسة ، وأما تأثيره في أبدانهم وسائر ما ينسب إليهم

بإيذاء أو إتعاب أو نحو ذلك من غير إضلال فلا دليل يدل على امتناعه ، وقد حكى الله سبحانه عن فتى موسى وهويوشع النبي ﷺ : « فَأَنْتَى نَسِيتَ الْحَوْتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكَرَهُ » الكهف : ٦٣ .

ولا يلزم من تسلطه على نبيّ بالإيذاء والإتعاب لمصلحة تقتضيه كظهور صبره في الله سبحانه وأوبته إليه أن يقدر على ما يشاء فيمن يشاء من عباد الله تعالى إلا أن يشاء الله ذلك وهو ظاهر .

قوله تعالى : « اركض برجلك هذا مغتسل بارد و شراب » وقوع الآية عقيب ندائه ومسألته يعطي أنه إيدان باستجابة دعائه وأن قوله تعالى : « اركض برجلك » الخ حكاية لما أوحى إليه عند الكشف عن الاستجابة أو هو بإضمار القول والتقدير فاستجبنا له وقلنا : اركض الخ و سياق الأمر مشعر بل كشف عن أنه كان لا يقدر على القيام والمشي بقدميه و كان مصابا في سائر بدنه فأبرء الله ما في رجله من ضرر و أظهر له عينا هناك وأمره أن يغتسل منها و يشرب حتى يبرء ظاهر بدنه و باطنه و يتأيد بذلك ما سيأتي من الرواية .

و في الكلام إيجاز بالحذف والتقدير فركض برجله و اغتسل و شرب فبرأه الله من مرضه .

قوله تعالى : « ووهبنا له أهله و مثلهم معهم رحمة منا و ذكرى لأولي الألباب » و رد في الرواية أنه ابتلي فيما ابتلي بموت جميع أهله إلا امرأته وأن الله أحياهم له و وهبهم له و مثلهم معهم ، و قيل : إنهم كانوا قد تفرقوا عنه أيام ابتلائه فجمعهم الله إليه بعد برئه و تناسلوا فكانوا مثلي ما كانوا عددا .

و قوله : « رحمة منا و ذكرى لأولي الألباب » مفعول له أي فعلنا به ما فعلنا ليكون رحمة منا و ذكرى لأولي الألباب يتذكرون به .

قوله تعالى : « وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إننا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب » في المجمع : الضغث ملء الكف من الشجرة والحشيش والشماريخ و نحو ذلك انتهى و كان ﷺ قد حلف لئن عوفي أن يعجل امرأته مائة جلدة لأمر

أنكره عليها على ما سيأتي من الرواية فلمّا عافاه الله تعالى أمره أن يأخذ بيده ضغثاً بعدد ما حلف عليه من الجلدات فيضربها به ولا يحنث .

و في سياق الآية تلويح إلى ذلك وإنما طوي ذكر المرعة و سبب الحلف تأدّباً و رعاية لجانبه .

و قوله : « إنّنا وجدناه صابراً » أي فيما ابتليناه به من المرض و ذهاب الأهل و المال ، و الجملة تعليل لقوله : « واذكر » أو لقوله : « عبدنا » أي لتسميته عبداً وإضافته إليه تعالى ، والأوّل أولى .

و قوله : « نعم العبد إنّّه أوّاب » مدح له عَلَيْهِ السَّلَامُ .

قوله تعالى : « واذكر عبدنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب أوّلي الأيدي والأبصار » مدحهم بتوصيفهم بأنّ لهم الأيدي والأبصار و يد الإنسان و بصره إنّما يمدحان إذا كانا يد إنسان و بصر إنسان و استعمالهما فيما خلقا له و خدما الإنسان في إنسانيّته فتكتسب اليد صالح العمل و يجري منها الخير على الخلق و يميز البصر طرق العافية و السلامة من موارد الهلكة و يصيب الحقّ ولا يلتبس عليه الباطل .

فيكون كونهم أوّلي الأيدي والأبصار كناية عن قوّتهم في الطاعة و إيصال الخير و تبصّرتهم في إصابة الحقّ في الاعتقاد والعمل و قد جمع المعنيين في قوله تعالى : « ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة و كلّاً جعلنا صالحين وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا و أوحينا إليهم فعل الخيرات و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة و كانوا لنا عابدين » الأنبياء : ٧٣ فجعلهم أئمة و الأمر و الوحي لأبصارهم و فعل الخيرات و إقام الصلاة و إيتاء الزكاة لأيديهم ^(١) و إليه يؤل ما في الرواية من تفسير ذلك بأوّل القوّة في العبادة و البصر فيها .

قوله تعالى : « إنّنا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار » الخالصة وصف قائم مقام موصوفه ، و الباء للسببية و التقدير بسبب خصلة خالصة ، و ذكرى الدار بيان للخلصة ، و الدار هي الدار الآخرة .

و الآية أعني قوله : « إنّنا أخلصناهم » الخ لتعليل ما في الآية السابقة من قوله :

(١) رواها القمي في تفسيره عن أبي الجارود عن أبي جعفر عَلَيْهِ السَّلَامُ .

«أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ» أولقوله : «عبادنا» أولقوله : «واذكر» و أوجه الوجوه أولها ، و ذلك لأن استعراق الإنسان في ذكرى الدار الآخرة و جوار رب العالمين و ركوز همه فيها يلزم كمال معرفته في جنب الله تعالى و إصابة نظره في حق الاعتقاد والتبصر في سلوك سبيل العبودية و التخلص عن الجمود على ظاهر الحياة الدنيا و زينتها كما هو شأن أبنائها قال تعالى : «فأعرض عمن تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم» النجم : ٣٠ .

و معنى الآية و إنما كانوا أولي الأيدي و الأبصار لأننا أخلصناهم بنخلة خالصة غير مشوبة عظيمة الشأن هي ذكرى الدار الآخرة .

و قيل : المراد بالدار هي الدنيا و المراد بالآية بقاء ذكرهم الجميل في الألسن ما دامت الدنيا كما قال تعالى : «و هبنا له إسحاق و يعقوب - إلى أن قال - و جعلنا لهم لسان ذكر علياً» مريم : ٥٠ و الوجه السابق أوجه .

قوله تعالى : «و إنهم عندنا لمن المصطفين الأخيار» تقدّم أن الاصطفاء يلزم الإسلام التام لله سبحانه ، و في الآية إشارة إلى قوله تعالى : «إن الله اصطفى آدم و نوحا و آل إبراهيم و آل عمران على العالمين» آل عمران : ٣٣ .
والأخيار جمع خير مقابل الشر على ما قيل ، و قيل : جمع خير بالتشديد أو التخفيف كأموات جمع ميت بالتشديد أو بالتخفيف .

قوله تعالى : «واذكر إسماعيل و اليسع و ذا الكفل و كل من الأخيار» معناه ظاهر .

﴿كلام في قصة أيوب عليه السلام في فصول﴾

١ - قصته في القرآن : لم يذكر من قصته في القرآن إلّا ابتلاؤه بالضر في نفسه و أولاده ثم تفريجه تعالى بمعاافته وإيتائه أهله ومثلهم معهم رحمة منه و ذكرى للعابدين (الأنبياء : ٨٣ - ٨٤ . ص : ٤١ - ٤٢) .

٢ - جميل ثنائه . ذكره تعالى في زمرة الأنبياء من ذرية إبراهيم عليه السلام في

سورة الأنعام وأثنى عليهم بكل ثناء جميل (الأنعام : ٨٤ - ٩٠) و ذكره في سورة ص فعدّه صابرا و نعم العبد وأوابا (ص : ٣٤) .

٣ - قصته في الروايات . في تفسير القميّ حدّثني أبي عن ابن فضال عن عبدالله بن بحر عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام قال : سألته عن بليّة أيّوب التي ابتلي بها في الدنيا لأيّ علة كانت ؟ قال : لنعمة أنعم الله عزّ وجلّ عليه بها في الدنيا و أدّى شكرها و كان في ذلك الزمان لا يحجب إبليس دون العرش فلما سعد ورآى شكر نعمة أيّوب حسده إبليس .

فقال : ياربّ إنّ أيّوب لم يؤدّ إليك شكر هذه النعمة إلّا بما أعطيته من الدنيا ولو حرّمته دنياه ما أدّى إليك شكر نعمة أبدا فسألطني على دنياه حتّى تعلم أنّه لم يؤدّ إليك شكر نعمة أبدا ف قيل له : قد سلّطتك على ماله و ولده .

قال : فانهدر إبليس فلم يبق له مالا و لا ولدا إلّا أعطبه فازداد أيّوب لله شكرا و حمدا ، و قال : فسألطني على زرعه ياربّ . قال : قد فعلت فجاء مع شياطينه فنفض فيه فاحترق فازداد أيّوب لله شكرا و حمدا فقال : ياربّ سلّطني على غنمه فأهلكها فازداد أيّوب لله شكرا و حمدا .

فقال : ياربّ سلّطني على بدنه فسألطه على بدنه ما خلا عقله و عينيه فنفض فيه إبليس فصار قرحة واحدة من قرنه إلى قدمه فبقي في ذلك دهرا طويلا يحمد الله ويشكره حتّى وقع في بدنه الدود فكانت تخرج من بدنه فيردّها فيقول لها : ارجعي إلى موضعك الذي خلّقتك الله منه ، و تن حتّى أخرجه أهل القرية من القرية و ألّقه في المزبلة خارج القرية .

و كانت امرأته رحمة بنت أفرايم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام و عليها يتصدق من الناس و تأتبه بما تجده .

قال : فلما طال عليه البلاء ورآى إبليس صبره أتى أصحابا لأيّوب كانوا رهبانا في الجبال و قال لهم : مرّوا بنا إلى هذا العبد المبتلى فسألّه عن بليّته فركبوا بغالا شبا و جاؤوا فلما دنوا منه نفرت بغالهم من نغن ريحه فنظر بعضهم إلى بعض ثمّ مشوا إليه

و كان فيهم شابٌ حدث السنٌ فقعدوا إليه فقالوا : يا أيُّوب لو أخبرتنا بذنبك لعلَّ الله يهلكنا إذا سألناه ، وما نرى ابتلاءك بهذا البلاء الذي لم يتبل به أحدٌ إلَّا من أمر كنت تستره .

فقال أيُّوب : وعزة ربِّي إنَّه ليعلم أنِّي ما أكلت طعاما إلَّا ویتیم أضعیف يأكل معي ، وما عرض لي أمران كلاهما طاعة الله إلَّا أخذت بأشدَّهما على بدني . فقال الشابُّ : سوءة لكم غيرتم نبيَّ الله حتَّى أظهر من عبادة ربِّه ما كان يسترها .

فقال أيُّوب : يا ربِّ لو جلست مجلس الحكم منك لأدليت بحجَّتِي فبعث الله إليه غمامة فقال : يا أيُّوب أدل بحجَّتِكَ فقد أقعدتك مقعد الحكم وها أنا ذا قريب و لم أزل .

فقال : يا ربِّ إنَّكَ لتعلم أنه لم يعرض لي أمران قطَّ كلاهما لك طاعة إلَّا أخذت بأشدَّهما على نفسي . ألم أحمذك ؟ ألم أشكرك ؟ ألم أسبحك ؟

قال : فنودي من الغمامة بعشرة آلاف لسان : يا أيُّوب من صيرك تعبد الله و الناس عنه غافلون ؟ و تحمده و تسبحه و تكبره و الناس عنه غافلون ؟ أتمنَّ على الله بما لله فيه المنَّة عليك ؟ قال : فأخذ التراب و وضعه في فيه ثمَّ قال : لك العتبي يا ربِّ أنت فعلت ذلك بي .

فأنزل الله عليه ملكا فركض برجله فخرج الماء فغسله بذلك الماء فعاد أحسن ما كان و أطرا ، و أنبت الله عليه روضة خضراء ، و ردَّ عليه أهله و ماله و ولده وزرعه و قعدمعه الملك يحدِّثه و يؤنسه .

فأقبلت امرأته معها الكسرة ^(١) فلما انتهت إلى الموضع إذا الموضع متغيَّر و إذا رجلان جالسان فبكت و صاحت و قالت : يا أيُّوب ما دهاك ؟ فناداها أيُّوب فأقبلت فلما رآته و قد ردَّ الله عليه بدنه ونعمه سجدت لله شكرا . فرآى نؤابتهما مقطوعة و ذلك أنهما سألت قوماً أن يعطوها ما تحمله إلى أيُّوب من الطعام و كانت حسنة

النائب فقالوا لها: تبعينا ذؤابتك هذه حتى نعطيك؟ فقطعتها ودفعتها إليهم وأخذت منهم طعاماً لأيتوب، فلما رآها مقطوعة الشعر غضب و حلف عليها أن يضربها مائة فأخبرته أنه كان سببه كيت وكيت. فاغتم أيتوب من ذلك فأوحى الله عز وجل إليه «خذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولا تحنث» فأخذ عذفاً مشتملاً على مائة شمراخ فضربها ضربة واحدة فخرج من يمينه.

اقول: وروي عن ابن عباس ما يقرب منه، وعن وهب أن امرأته كانت بنت ميثابن يوسف، و الرواية - كما ترى - تذكر ابتلاءه بما تنفّر عنه الطباع وهناك من الروايات ما يؤيد ذلك لكن بعض الأخبار المطروقة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ينفي ذلك وينكره أشد الإنكار كما يأتي.

و عن النخال: القطان عن السكّري عن الجوهري عن ابن عمار عن أبيه عن جعفر بن محمد عن أبيه عليه السلام قال: إن أيتوب عليه السلام ابتلي سبع سنين من غير ذنب وإن الأنبياء لا يذنبون لأنهم معصومون مطهرون لا يذنبون ولا يزيغون ولا يرتكبون ذنباً صغيراً ولا كبيراً.

وقال: إن أيتوب من جميع ما ابتلي به لم تنتن له رائحة، ولا قبحت له صورة ولا خرجت منه مدة من دم ولا قيح، ولا استقذره أحد رآه، ولا استوحش منه أحد شاهده، ولا تدود شيء من جسده وهكذا يصنع الله عز وجل بجميع من يبتليه من أنبيائه وأوليائه المكرمين عليه.

وإنما اجتنبه الناس لفقره وضعفه في ظاهر أمره لجهلهم بماله عند ربه تعالى ذكره من التأييد والفرج، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله: أعظم الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل.

وإنما ابتلاه الله بالبلاء العظيم الذي يهون معه على جميع الناس لثلايد عوا له الربوبية إذا شاهدوا ما أراد الله أن يوصله إليه من عظام نعمه متى شاهدوه، وليستدّلوا بذلك على أن الثواب من الله على ضربين: استحقاق واختصاص، ولثلاً يحتقروا ضعيفاً لضعفه ولا فقيراً لفقره ولا مريضاً لمريضه، وليعلموا أنه يسقم من يشاء، ويشفي

من يشاء متى شاء كيف شاء بأيّ سبب شاء ، و يجعل ذلك عبرة لمن شاء ، و شقاوة لمن شاء ، و سعادة لمن شاء ، وهو عزّ و جلّ في جميع ذلك عدل في قضائه و حكمه في أفعاله لا يفعل بعباده إلّا الأصلح لهم ولا قوة لهم إلّا به .

و في تفسير القميّ في قوله تعالى : « و هبنا له أهله و مثلهم معهم » الآية قال : فردّ الله عليه أهله الذين ماتوا قبل البلاء ، وردّ عليه أهله الذين ماتوا بعد ما أصابهم البلاء كلّهم أحياهم الله له فعاشوا معه .

و سئل أيّوب بعد ما عافاه الله : أيّ شيء كان أشدّ عليك ممّا مرّ ؟ فقال : شماتة الأعداء .

و في المجمع في قوله تعالى : « أنّي مسني الشيطان » الآية قيل : إنّّه اشتدّ مرضه حتّى تجنّبه الناس فوسوس الشيطان إلى الناس أن يستقذروه و يخرجوه من بينهم ولا يتركوا امرأته التي تخدمه أن تدخل عليهم فكان أيّوب يتأذى بذلك و يتألّم به و لم يشك إلّا لم الذي كان من أمر الله سبحانه . قال قتادة : دام ذلك سبع سنين و روي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام .

✽ خبر اليسع و ذى الكفل عليه السلام ✽

ذكر سبحانه اسمهما في كلامه و عدّهما من الأنبياء و أنبى عليهما و عدّهما من الأخيار (ص : ٤٨) و عدّ ذا الكفل من الصابرين (الأنبياء : ٨٥) و لهما ذكر في الأخبار .

ففي البحار عن الاحتجاج و التوحيد و العيون في خبر طويل رواه الحسن بن محمد النوفليّ عن الرضا عليه السلام فيما احتجّ به على جاثليق النصارى أن قال عليه السلام : أنّ اليسع قد صنع مثل ما صنع عيسى عليه السلام مشى على الماء و أحيا الموتى و أبرأ الأكمه و الأبرص فلم يتخذهُ أمته ربّاً الخبر .

و عن قصص الأنبياء : الصدوق عن الدقاق عن الأسيديّ عن سهل عن عبد العظيم

الحسني قال : كتبت إلى أبي جعفر الثاني أسأله عن ذي الكفل ما اسمه ؟ وهل كان من المرسلين ؟

فكتب عليه السلام بعث الله جل ذكره مائة ألف نبيٍّ وأربعة وعشرين ألف نبيٍّ .
مرسلون منهم ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً ، وإن ذا الكفل منهم ، وكان بعد سليمان
ابن داود ، وكان يقضي بين الناس كما كان يقضي داود ، ولم يغضب إلا الله عز وجل وكان
اسمه عويديا وهو الذي ذكره الله جلّت عظمته في كتابه حيث قال : « واذكر إسماعيل
واليسع وذا الكفل وكل من الأخيار » .
أقول : وهناك روايات متفرقة أخر في قصصهما عليهما السلام تركنا إيرادها لضعفها وعدم
الاعتماد عليها .





هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لَحُسْنَ مَآبٍ (٤٩) جَنَّاتٍ عَدْنٍ مَّقْتَحَتِ
لَهُمُ الْآبُوابُ (٥٠) مُتَكِنِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ وَ شَرَابٍ (٥١)
وَ عِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ أَتْرَابٌ (٥٢) هَذَا مَا تُوْعَدُونَ لِيَوْمِ
الْحِسَابِ (٥٣) إِنَّ هَذَا لَرْزَقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ (٥٤) هَذَا وَ إِنَّ لِلطَّاغِينَ
لَشَرَّ مَآبٍ (٥٥) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا فَيَقْسِئُهُمُ الْمِهَادُ (٥٦) هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ
حَمِيمٌ وَ غَسَاقٌ (٥٧) وَ آخِرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ (٥٨) هَذَا فَوْجٌ مُقْتَحِمٌ
مَعَكُمْ لَا مَرْحَبًا بِهِمْ إِنَّهُمْ صَالُوا النَّارِ (٥٩) قَالُوا بَلْ أَنْتُمْ لَأَمْرَحِبَابِكُمْ
أَنْتُمْ قَدَمْتُمُوهُ لَنَا فَيَقْسِئُ الْقَرَارُ (٦٠) قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا
فَزِدْهُ عَذَابًا ضِعْفًا فِي النَّارِ (٦١) وَ قَالُوا مَا لَنَا لَنَرِي رِجَالًا كُنَّا نَعُدُّهُمْ
مِنَ الْأَشْرَارِ (٦٢) اتَّخَذْنَاَهُمْ سَخِرِيًّا أَمْ زَاغَتْ عَنْهُمْ الْأَبْصَارُ (٦٣) إِنَّ ذَلِكَ
لَحَقُّ تَخَاصُمٍ أَهْلِ النَّارِ (٦٤) .

﴿بيانات﴾

فصل آخر من الكلام يبين فيه مآل أمر المتقين والطاغين تبشيراً وإنذاراً .
قوله تعالى : « هذا ذكروا إنَّ للمتقين لحسن مآب » الإشارة بهذا إلى ما ذكر
من قصص الأوابين من الأنبياء الكرام عليهم السلام ، والمراد بالذكر الشرف والثناء الجميل
أي هذا الذي ذكر شرف و ذكر جميل وثناء حسن لهم يذكرون به في الدنيا أبداً ولهم

حسن مآب من ثواب الآخرة . كذا قالوا .

و على هذا فالمراد بالمتقين هم المذكورون من الأنبياء بالخصوص أو عموم أهل التقوى وهم داخلون فيهم و يكون ذكر مآب الطاغين بعد من باب الاستطراد .
والظاهر أن الإشارة بهذا إلى القرآن والمراد بالذكر ما يشتمل عليه من الذكر وفي الكلام عود إلى ما بدىء به في السورة من قوله « والقرآن ذي الذكر » فهو فصل من الكلام يذكر فيه الله سبحانه ما في الدار الآخرة من ثواب المتقين و عقاب الطاغين .

و قوله : « وإن للمتقين لحسن مآب » المآب المرجع والتنكير للتفخيم ، و المعنى ظاهر .

قوله تعالى : « جنّات عدن مفتحة لهم الأبواب » أي جنّات استقرار وخلود و كون الأبواب مفتحة لهم كناية عن أنهم غير ممنوعين عن شيء من النعم الموجودة فيها فهي مهية لهم مخلوقة لأجلهم ، و قيل المراد : أن أبوابها مفتحة لهم لا تحتاج إلى الوقوف وراءها ودقها ، و قيل : المراد أنها تفتح بغير مفتاح و تغلق بغير مغلاق .
والآية وما بعدها بيان لحسن مآبهم .

قوله تعالى : « متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب » أي حالكونهم جالسين فيها بنحو الاتكاء والاستناد جلسة الأعرّة والأشراف .
و قوله : « يدعون فيها بفاكهة » الخ أي يتحكّمون فيها بدعوة الفاكهة وهي كثيرة والشراب فاذا دعيت فاكهة أو دعي شراب أجابهم المدعو فأتاهم من غير حاجة إلى من يحمله ويناوله .

قوله تعالى : « و عندهم قاصرات الطرف أتراب » الضمير للمتقين و قاصرات الطرف صفة قائمة مقام الموصوف والتقدير و عندهم أزواج قاصرات الطرف والمراد قصور طرفهن على أزواجهن يرضين بهن ولا يرون غيرهم أو هو كناية عن كونهن ذوات غنج و دلال .

والأتراب الأقران أي إنهن أمثال لا يختلفن سناً أو جمالاً أو إنهن أمثال

لأزواجهنّ فكلّما زادوا نوراً و بهاء زدن حسناً وجمالاً .

قوله تعالى : « هذا ما توعدون ليوم الحساب » الإشارة إلى ما ذكر من الجنة و نعيمها ، و الخطاب للمتقين ففي الكلام التفات من الغيبة إلى الخطاب والنكتة فيه إظهار القرب منهم و الإشراف عليهم ليكمل نعمهم الصوريّة بهذه النعمة المعنويّة .

قوله تعالى : « إنّ هذا لرزقنا ماله من نفاق » النفاق الفناء والانقطاع ، والآية من تمام الخطاب الذي في الآية السابقة على ما يعطيه السياق .

قوله تعالى : « هذا و إنّ للطاغين لشرّ مآب » الإشارة بهذا إلى ما ذكر من مقام المتقين أي هذا ما للمتقين من المآب ، و يمكن أن يكون هذا اسم فعل أي خذ هذا . والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « جهنّم يصلونها فبئس المهاد » الصّلي دخول النار و مقاساة حرارتها أو اتباعها والمهاد - على ما في المجمع - الفراش الموطأ يقال : مهّدته تمهيداً مثل وطأت له توطئة ، والآية و ما بعدها تفسير لمآب الطاغين .

قوله تعالى : « هذا فليذوقوه حميم و غساق » الحميم الحارّ الشديد الحرارة والغساق - على ما في المجمع - قيح شديد النتن ، و فسّر بتفسير آخر ، وقوله : « حميم و غساق » بيان لهذا ، وقوله : « فليذوقوه » دالّ على إكراههم و حملهم على ذوقه و تقديم المخبر عنه و جعله اسم إشارة يؤكّد ذلك ، والمعنى هذا حميم و غساق عليهم أن يذوقوه ليس إلّا .

قوله تعالى : « و آخر من شكاه أزواج » شكل الشيء ما يشابهه و جنسه والأزواج الأنواع والأقسام أي وهذا آخر من جنس الحميم والغساق أنواع مختلفة ليذوقوها .

قوله تعالى : « هذا فوج مقتحم معكم - إلى قوله - في النار » الآيات الثلاث - على ما يعطيه السياق - حكاية ما يجري بين التابعين و المتبوعين من الطاغين في النار من التخاصم و المجاراة .

فقوله : « هذا فوج مقتحم معكم » خطاب يخاطب به المتبوعون يشاربه إلى

التابعين الذين يدخلون النار مع المتبوعين فوجاً ، و الاقتحام الدخول في الشيء بشدة و صعوبة .

وقوله : « لا مرحباً بهم إنهم صالوا النار » جواب المتبوعين لمن يخاطبهم بقوله : « هذا فوج » و مرحباً تحية للوارد معناه عرض رحب الدار و سعتها له فقولهم : « لا مرحباً بهم » معناه نفى الرحب و السعة عنهم . و قولهم : « إنهم صالوا النار » أي داخلوها و مقاسوا حرارتها أو متبعوها لتعليل لتحيتهم بنفي التحية .

و قوله : « قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم أنتم قد متموه لنا فبئس القرار » نقل كلام التابعين و هم القائلون يردون إلى متبوعهم نفى التحية و يذمّون القرار في النار .

قوله تعالى : « قالوا ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار » لم يذكر تعالى جواب المتبوعين لقولهم : « أنتم قد متموه لنا » الخ و قد ذكره في سورة الصافات فيما حكى من تساؤلهم بقوله : « قالوا بل لم تكونوا مؤمنين و ما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين » الخ الآية ٣٠ فقولهم : « ربنا من قدم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار » كلامهم بعد الانقطاع عن المخاصمة .

و جملة « من قدم » الخ شرط و جزاء ، و الضعف المثل و « عذاباً ضعفاً » أي ذا ضعف و مثل أي ضعفين من العذاب .

قوله تعالى : « و قالوا مالنا لا نرى رجالاً كنا نعدهم من الأشرار » القائلون - على ما يعطيه السياق - مطلق أهل النار ، و مرادهم بالرجال الذين كانوا يعدّونهم من الأشرار المؤمنون و هم في الجنة فيطلبهم أهل النار فلا يجدونهم فيها .

قوله تعالى : « أتخذناهم سخرياً أم زاغت عنهم الأبصار » أي أتخذناهم سخرياً في الدنيا فأخطأنا و قد كانوا ناجين أم عدلت أبصارنا فلا نراهم و هم معنا في النار .
قوله تعالى : « إن ذلك لحقّ تخاصم أهل النار » إشارة إلى ما حكى من تخاصمهم و بيان أن تخاصم أهل النار ثابت واقع لا ريب فيه و هو ظهور ما استقرّ في نفوسهم في الدنيا من ملكة التنازع و التشاجر .



قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ
الْسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٦٦) قُلْ هُوَ نَبِؤُا عَظِيمٌ (٦٧)
أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ (٦٨) مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَاءِ الْأَعْلَىٰ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٦٩)
إِنَّ يُوحَىٰ إِلَى الْإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٧٠) إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّي
خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ
سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلَكَةُ كُلُّهُمْ أَسْجَعُونَ (٧٣) إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ
مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي
اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَ
خَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنْ عَلَيْكَ
لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يَبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ
فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٨٠) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ
لَأَغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُتَخَلِّصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَ
الْحَقُّ أَقُولُ (٨٤) لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥)
قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ
لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلِتَعْلَمَنَّ نَبَاهُ بَعْدَ حِينٍ (٨٨) .

﴿ بيان ﴾

الفصل الأخير من فصول السورة المشتمل على أمر النبي ﷺ بإبلاغ نذارته ودعوته إلى التوحيد . وأن الإعراض عن الحق واتباع الشيطان ينتهي بالإِنسان إلى عذاب النار المقضي في حقه وحق أتباعه وعند ذلك تختتم السورة .

قوله تعالى : « قل إنما أنا منذر وما من إله إلا الله الواحد القهار - إلى قوله - العزيز الغفار » في الآيتين أمر النبي ﷺ بإبلاغ أنه منذر وأن الله تعالى واحد في الألوهية فقوله : « إنما أنا منذر » يفيد قصره في كونه منذرا ونفي سائر الأغراض التي ربما تتلبس به الدعوة بين الناس من طلب مال أو جاه كما يشير إليه ما في آخر الآيات من قوله : « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » .

وقوله : « وما من إله إلا الله » إلى آخر الآيتين إبلاغ لتوحيده تعالى بحجة يدل عليها ما أورد من صفاته المدلول عليها بأسمائه .

فقوله : « وما من إله إلا الله » نفى لكل إله - وإلا له هو المعبود بالحق - غيره تعالى وأما ثبوت ألوهيته تعالى فهو مسلم بانتفاء ألوهية غيره إذ لا نزاع بين الإسلام والشرك في أصل ثبوت الإله وإنما النزاع في أن الإله وهو المعبود بالحق هو الله تعالى أو غيره . على أن ما ذكر في الآيتين من الصفات متضمن لإثبات ألوهيته كما أنها حجة على انتفاء ألوهية غيره تعالى .

وقوله : « الواحد القهار » يدل على توحيده تعالى في وجوده وقهره كل شيء وذلك أنه تعالى واحد لا يماثله شيء في وجوده ولا تناهي كماله الذي هو عين وجوده الواجب فهو الغني بذاته وعلى الإطلاق وغيره من شيء فقير يحتاج إليه من كل جهة ليس له من الوجود آثار الوجود إلا ما أنعم وأفاض فهو سبحانه القاهر لكل شيء على ما يريد وكل شيء مطيع له فيما أراد خاضع له فيما شاء .

وهذا الخضوع الذاتي هو حقيقة العبادة فلوجاز أن يُعبد شيء في الوجود عملاً

بأن يؤتى بعمل يمثل به العبودية والخضوع فهي عبادته سبحانه إن كل شيء مفروض دونه فهو مقهور خاضع له لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئاً ولا يستقل من الوجود و آثار الوجود بشيء فهو سبحانه إلا له المعبود بالحق لا غير .

وقوله : « رب السماوات والأرض وما بينهما » يفيد حجة أخرى على توحده تعالى في الألوهية وذلك أن نظام التدبير الجاري في العالم برمته نظام واحد متصل غير متبعض ولا متجزّ و هو آية وحدة المدبّر ، وقد تقدّم كرارا أن الخلق و التدبير لا ينفكان فالتدبير خلق بوجه كما أن الخلق تدبير بوجه ، والخالق الموجد للسماوات والأرض و ما بينهما هو الله سبحانه - حتّى عند الخصم - فهو تعالى ربّها المدبّر لها جميعاً فهو وحده الإله الذي يجب أن يقصد بالعبادة لأنّ العبادة تمثيل عبودية العابد و مملوكيته تجاه مولوية المعبود و مالكيته و تصرّفه في المعبود بإفاضة النعمة و دفع النعمة فهو سبحانه إلا له في السماوات والأرض و ما بينهما لا إله غيره . فافهم ذلك . و يمكن أن يكون قوله : « رب السماوات والأرض و ما بينهما » بيانا لقوله « القهار » أو « الواحد القهار » .

و قوله : « العزيز الغفار » يفيد حجة أخرى على توحده تعالى في الألوهية وذلك أنّه تعالى عزيز لا يغلبه شيء بإكراهه على ما لم يرد أو بمنعه عما أراد فهو العزيز على الإطلاق و غيره من شيء ذليل عنده قانت له و العبادة إظهار للمذلة و لا يستقيم إلاّ قبالة العزّة و لا عزّة لغيره تعالى إلاّ به .

و أيضاً غاية العبادة وهي تمثيل العبودية التقرب إلى المعبود ورفع وصمة البعد عن العبد العابد وهو مغفرة الذنب والله سبحانه هو المستقل بالرحمة التي لا تنفد خزائنها وهو الذي يورد عباده العابدين له في الآخرة داركرامته فهو الغفار الذي يجب أن يعبد طمعاً في مغفرته .

ويمكن أن يكون قوله : « العزيز الغفار » تلويحا إلى وجه الدعوة إلى التوحيد أو وجوب الإيمان به المفهوم بحسب المقام من قوله : « و ما من إله إلاّ الله الواحد القهار » و المعنى أدعوكم إلى توحيدهم فآمنوا به لأنّه العزيز الذي لا يشوبه ذلّة الغفار

للدنوب وهكذا يجب أن يكون الإله .

قوله تعالى : « قل هو نبأ عظيم أنتم عنه معرضون » مرجع الضمير ما ذكره من حديث الوحديّة في قوله : « وما من إله إلا الله » الخ .

و قيل : الضمير للقرآن فهو النبأ العظيم الذي أعرضوا عنه ، وهو أوفق لسياق الآيات السابقة المرتبطة بأمر القرآن ، و أوفق أيضاً لقوله الآتي : « ما كان لي من علم بالملا الأعلى إذ يختصمون » أي حتّى أخبرني به القرآن ، و قيل : المراد به يوم القيامة وهو أبعد الوجوه .

قوله تعالى : « ما كان لي من علم بالملاء الأعلى إذ يختصمون » الملاء الأعلى جماعة الملائكة و كأنّ المراد باختصامهم ما أشار تعالى إليه بقوله : « إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » إلى آخر الآيات .
و كأنّ المعنى إني ما كنت أعلم اختصام الملاء الأعلى حتّى أوحى الله إليّ ذلك في كتابه فإنّما أنا منذر أتبع الوحي .

قوله تعالى : « إن يوحى إليّ إلا أنّما أنا نذير مبين » تأكيد لقوله : « إنّما أنا منذر » و بمنزلة التعليل لقوله : « ما كان لي من علم بالملاء الأعلى » و المعنى لم أكن أعلم ذلك لأنّ علمي ليس من قبل نفسي و إنّما هو بالوحي وليس يوحى إليّ إلا ما يتعلق بالإنذار .

قوله تعالى : « إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من طين » الذي يعطيه السياق أنّ الآية و ما بعدها ليست تتمّة لقول النبي ﷺ : « إنّما أنا منذر » الخ والشاهد عليه قوله : « ربك » فهو من كلامه تعالى يشير إلى زمان اختصام الملاء الأعلى والظرف متعلق بما تعلّق به قوله : « إذ يختصمون » أو متعلق بمحذوف والتقدير « اذكر إذ قال ربك للملائكة » الخ فإنّ قوله تعالى للملائكة : « إني جاعل في الأرض خليفة » و قوله لهم : « إني خالق بشرا من طين » متقارنان وقعا في ظرف واحد .

و على هذا يؤل معنى قوله : « إذ قال ربك » الخ إلى نحو من قولنا : اذكرو وقتئذ قال ربك كذا وكذا فهو وقت اختصامهم .

و جعل بعضهم قوله : « إِنْ قَالَ رَبُّكَ » الخ مفسراً لقوله : « إِنْ يَخْتَصِمُونَ »
ثم أخذ الاختصاص بعد تفسيره بالتقاول مجموع قوله تعالى للملائكة « إِنْ نِيَّ جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ
خَلِيفَةً » ، وقولهم : « أَتَجْعَلُ » الخ ، وقوله لآدم وقول آدم لهم ، وقوله تعالى لهم : « إِنْ نِيَّ
خَالِقٌ بَشَرًا » ، وقول إبليس وقوله تعالى له .

و قال على تقدير كون الاختصاص بمعنى المخاصمة ودلالة قوله : « إِنْ يَخْتَصِمُونَ »
على كون المخاصمة بين الملائكة أنفسهم لا بينهم وبين الله سبحانه إِنْ إِيخْبَارُهُ تَعَالَى
لَهُمْ بِقَوْلِهِ : « إِنْ نِيَّ جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً » « إِنْ نِيَّ خَالِقٌ بَشَرًا » كَانَ بِتَوَسُّطِ مُلْكٍ
مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَكَذَا قَوْلُهُ لآدَمَ وَلَا يَلِيسَ فَيَكُونُ قَوْلُهُمْ لِرَبِّهِمْ : « أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا »
الخ وغيره قولاً منهم للملك المتوسط ويقع الاختصاص فيما بينهم أنفسهم .
و أَنْتَ خَيْرٌ بَأَنَّ شَيْئاً مِمَّا ذَكَرَهُ لَا يَسْتَفَادُ مِنْ سِيَاقِ الْآيَاتِ .

و قوله : « إِنْ نِيَّ خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ » البشر الإنسان قال الراغب : البشرة ظاهر
الجلد والأدمة باطنه . كذا قال عامة الأدباء . قال : وعبر عن الإنسان بالبشر اعتباراً
بظهور جلده من الشعر بخلاف الحيوانات التي عليها الصوف أو الوبر ، و استوى في
لفظ البشر الواحد والجمع و نَسِيَ فَقَالَ تَعَالَى : « أَنْتُمْ لِبَشَرَيْنِ » وَ خَصَّ فِي الْقُرْآنِ
كُلَّ مَوْضِعٍ اعْتَبَرَ مِنَ الْإِنْسَانِ جَسَدَهُ وَ ظَاهِرَهُ بِلَفْظِ الْبَشَرِ . انْتَهَى .

وقد عدّ في الآية مبدء خلق الإنسان الطين ، وفي سورة الروم التراب و في
سورة الحجر صلصال من حماء مسنون ، وفي سورة الرحمن صلصال كالفخار ولا ضبر
فإنّها أحوال مختلفة لمادته الأصلية التي منها خلق وقد أُشير في كلّ موضع إلى
واحدة منها .

قوله تعالى : « فَإِذَا سَوَّيْتَهُ وَ نَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعَا لَهُ سَاجِدِينَ » تسوية
الإنسان تعديل أعضائه بتركيب بعضها على بعض و تميمها صورة إنسان تام ، و نفخ
الروح فيه جعله ذات نفس حيّة إنسانية وإضافة الروح إليه تعالى تشرifiّة وقوله : « فَقَعَا »
أمر من الوقوع و هو متفرّع على التسوية والنفخ .

قوله تعالى : « فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ » ظاهر الدلالة على سجود الملائكة

له من غير استثناء .

قوله تعالى : « إِنْ إِبْلِيسُ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ » أي استكبر إبليس فلم يسجد له و كان قبل ذلك من الكافرين كما حكى سبحانه عنه في سورة الحجر قوله : « لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ » الحجر : ٣٣ .

قوله تعالى : « قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيْدِي » استكبرت أم كنت من العالين » نسبة خلقه إلى اليد للتشريف بالاختصاص كما قال : « وَ نَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحِي » و تثنية اليد كناية عن الاهتمام التام بخلقه و صنعه فإن الإنسان إنما يستعمل اليدين فيما يهتم به من العمل فقوله : « خَلَقْتُ بِإِيْدِي » كقوله : « مِمَّا عَمِلْتُ أَيْدِينَا » يس : ٧١ .

و قيل : المراد باليد القدرة و التثنية لمجرد التأكيد كقوله : « فَارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ » الملك : ٣ و قد وردت به الرواية .

و قيل : المراد باليدين نعم الدنيا و الآخرة ، و يمكن أن يحتمل إرادة مبدئي الجسم و الروح أو الصورة و المعنى أو صفتي الجلال و الجمال من اليدين لكنّها معان لا دليل على شيء منها من اللفظ .

و قوله : « اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ » استفهام توبيخ أي أكان عدم سجودك لأنك استكبرت أم كنت من الذين يعلنون أي يعلو قدرهم أن يؤمروا بالسجود ، و لذا قال بعضهم بالاستفادة من الآية إن العالين قوم من خلقه تعالى مستغرقون في التوجه إلى ربّهم لا يشعرون بغيره تعالى .

و قيل : المراد بالعلو الاستكبار كما في قوله تعالى : « وَإِنْ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ » يونس : ٨٣ و المعنى استكبرت حين أمرت بالسجدة أم كنت من قبل من المستكبرين ؟

و يدفعه أنّه لا يلائم مقتضى المقام فإن مقتضاه تعلق الغرض باستعلام أصل استكباره لا تعيين كون استكباره قديماً أو حديثاً .

و قيل : المراد بالعالين ملائكة السماء فإن المأمورين بالسجودهم ملائكة

الأرض . و يدفعه ما في الآية من العموم .

قوله تعالى : « قال أنا خير منه خلقتني من نار و خلقتك من طين » تعليل عدم سجوده بما يدعيه من شرافة ذاته و أنه لكون خلقه من نار خير من آدم المخلوق من طين ، و فيه تلويح أن الأمر الإلهي إنما يطاع إذا كان حقاً لا لذاته ، و ليس أمره بالسجود له حقاً ، و يؤل إلى إنكار إطلاق ملكه تعالى و حكمته و هو الأصل الذي ينتهي إليه كل معصية فإن المعصية إنما تقع بالخروج عن حكم عبوديته تعالى و مملوكيته و بالإعراض عن كون تركها أولى من فعلها و اقترافها .

قوله تعالى : « قال فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك لعنتي إلى يوم الدين » الرجم الطرد ، و يوم الدين يوم الجزاء .

و قوله : « و إن عليك لعنتي » وفي سورة الحجر : « و إن عليك اللعنة » الآية ٣٥ قيل في وجهه : لو كانت اللعنة للعهد فلا فرق بين التعبيرين ، ولو كانت للجنس فكذلك أيضاً لأن لعن غيره تعالى من الملائكة و الناس عليه إنما يكون طرداً له حقيقة و إبعاداً من الرحمة إذا كان بأمر الله و بإبعاده من رحمته .

قوله تعالى : « قال رب فأنظرني إلى يوم يبعثون - إلى قوله - إلى يوم الوقت المعلوم » ظاهر تغيير الغاية في السؤال و الجواب حيث قال : « إلى يوم يبعثون » فأجيب بقوله : « إلى يوم الوقت المعلوم » أن ما أُجيب إليه غير ما سأل به فهو لا محالة آخر يوم يعصي فيه الناس ربهم و هو قبل يوم البعث ، و الظاهر أن المراد باليوم الظرف فتفيد إضافته إلى الوقت التأكيد .

قوله تعالى : « قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادة منهم المخلصين » الباء في « فبعزتك » للقسم أقسم بعزته ليغوينهم أجمعين و استثنى منهم المخلصين و هم الذين أخلصهم الله لنفسه فلا نصيب فيهم لا إبليس ولا غيره .

قوله تعالى : « قال فالحق و الحق أقول لأملأن جهنم منك و ممن تبعك منهم أجمعين ، جوابه تعالى لا إبليس و هو يتضمن القضاء عليه و على من تبعه بالنار .

فقوله : « فالحق » مبتدأ محذوف الخبر أو خبر محذوف المبتدأ ، و الفاء لترتيب ما

بعده على ما قبله ، و المراد بالحقّ ما يقابل الباطل على ما يؤيّده إعادة الحقّ ثانياً بالآم و المراد به ما يقابل الباطل قطعاً والتقدير فالحقّ أقسم به لأملأنّ جهنّم منك و ممّن تبعك منهم ، أوفقولي الحقّ لأملأنّ الخ .

و قوله : « و الحقّ أقول » جملة معترضة تشير إلى حتميّة القضاء و تردّ على إبليس ما يلوّح إليه قوله : « أنا خير منه » الخ من كون قوله تعالى و هو أمره بالسجود غير حقّ ، و تقديم الحقّ في « و الحقّ أقول » و تحليلته بالآم لإفادة الحصر .

و قوله : « لأملأنّ جهنّم منك و ممّن تبعك منهم أجمعين » متن القضاء الذي قضى به و كأنّ المراد بقوله : « منك » جنس الشياطين حتّى يشمل إبليس و ذرّيّته و قبيله ، و قوله : « و ممّن تبعك منهم » أي من الناس ذرّيّة آدم .

و قد أشبعنا الكلام في نظائر الآيات من سورة الحجر و في القصّة من سور البقرة و الأعراف و الإسراء فعليك بالرجوع إليها .

قوله تعالى : « قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين » رجوع إلى ما تقدّم في أوّل السورة و خلال آياتها أنّ القرآن ذكر و أن ليس النبي ﷺ إلّا منذراً لا غير و ردّ لما رموه بقولهم : « امشوا و اصبروا على آلهتكم إنّ هذا شيء يراد » .
فقوله : « ما أسألكم عليه من أجر » أي أجرا دنيوياً من مال أو جاه ، و قوله : « و ما أنا من المتكلفين » أي من أهل التكلّف و هو التصنّع و التحلّي بما ليس له .

قوله تعالى : « إنّ هو إلّا ذكر للعالمين » أي القرآن ذكر عامّ للعالمين من جماعات الناس و مختلف الشعوب و الأمم و غيرهم لا يختصّ بقوم دون قوم حتّى يؤخذ على تلاوته مال و على تعليمه أجر بل هو للجميع .

قوله تعالى : « و لتعلمنّ نبأ بعد حين » أي لتعلمنّ ما أخبر به القرآن من الوعد و الوعيد و ظهوره على الأديان و غير ذلك بعد حين أي بعد مرور زمان .

قيل : المراد ببعدين يوم القيامة ، و قيل : يوم الموت ، و قيل : يوم بدر ، ولا يبعد أن يقال : إنّ نبأ مختلف لا يختصّ بيوم من هذه الأيام حتّى يكون هو المراد بل المراد به المطلق لكلّ من أقسام نبأه حينه .

﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير القميّ بإسناده عن إسماعيل الجعفيّ عن أبي جعفر عليه السلام في حديث يذكر فيه المعراج ، عن النبيّ عليه السلام : قال تعالى : يا محمد . قلت : لبيك يا رب . قال : فيما اختصم الملاء الأعلى ؟ قال : قلت : سبحانك لا علم لي إلا ما علمتني . قال : فوضع يده أي يد القدرة بين نديي فوجدت بردها بين كتفي . قال : فلم يسألني عما مضى ولا عما بقي إلا علمته . فقال : يا محمد فيم اختصم الملاء الأعلى ؟ قال : قلت : في الكفّارات والدرجات والحسنات الحديث .

و في المجمع روى ابن عباس عن النبيّ عليه السلام قال : قال لي ربّي : أتدري فيم يختصم الملاء الأعلى ؟ فقلت : لا . قال : اختصموا في الكفّارات والدرجات فأما الكفّارات فأسبغ الوضوء في السبرات و نقل الأقدام إلى الجماعات و انتظار الصلاة بعد الصلاة ، وأما الدرجات فأفشاء السلام و إطعام الطعام و الصلاة بالليل و الناس نيام . **أقول** : و رواه في الخصال عن النبيّ عليه السلام فجعل ما فسرّ به الكفّارات تفسيراً للدرجات و بالعكس ، و روى في الدرّ المنثور حديث المجمع بطرق كثيرة عن عدة من الصحابة عن النبيّ عليه السلام على اختلاف ما في الروايات .

و كيفما كان فسياق الآية يأبى الانطباق على مضمون هذه الروايات و لا دليل يدلّ على كون الروايات في مقام تفسير الآية فلعلّ الاختصاص المذكور فيها غير المذكور في الآية .

و في نهج البلاغة الحمد لله الذي لبس العزّ و الكبرياء و اختارهما لنفسه دون خلقه ، و جعلهما حمى و حرماً على غيره ، و اصطفاهما لجلاله ، و جعل اللعنة على من نازعه فيهما من عباده ، ثمّ اختبر بذلك ملائكته المقرّبين ليميّز المتواضعين منهم من المستكبرين فقال سبحانه و هو العالم بمضمرات القلوب و محجوبات الغيوب : إنني خالق بشر من طين فإذا سوّيته و نفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين فسجد

الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس اعترضته الحميّة فاقتخر على آدم بخلقه و تعصّب عليه لأُصله .

فعدوّ الله إمام المتعصّبين و سلف المستكبرين الذي وضع أساس العصبيّة ، ونازع الله رداء الجبريّة ، وادّرع لباس التعزّز ، و خلع قناع التذكّل ألا ترون كيف صغّره الله بتكبّره ، و وضعه بترفعه فجعله في الدنيا مدحورا ، و أعدّ له في الآخرة سعييرا .
الخطبة .

و في العيون بائنه إلى محمد بن عبدة قال : سألت الرضا عليه السلام عن قول الله تعالى لا إبليس : « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي » قال : يعني بقدرتي و قوّتي .

اقول : و روى مثله في التوحيد بائنه عن محمد بن مسلم عن الصادق عليه السلام .
و في القصّة روايات أخر أوردناها في ذيلها من سور البقرة والأعراف والحجر و الإسراء فراجع .

و عن جوامع الجامع عن النبي عليه السلام : للمتكلّف ثلاث علامات : ينازع من فوقه ، و يتعطى ما لا ينال ، و يقول ما لا يعلم .

اقول : و روى مثله في الخصال عن الصادق عليه السلام عن لقمان في وصيّته لابنه ، و روي أيضاً من طرق أهل السنّة ، و في بعض الروايات : ينال من فوقه .



سورة الزمر مكية وهي خمس و سبعون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١)
 إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (٢) أَلَا لِلَّهِ
 الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا
 إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ
 لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ (٣) لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَىٰ
 مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٤) خَلَقَ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُوِّرُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَ يَكُوِّرُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ
 وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ (٥)
 خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ
 ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقَكُمْ فِي بَطْنٍ أُمَّهَاتِكُمْ خَلَقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ
 ثَلَاثِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ قَائِلٌ تَصْرُقُونَ (٦) إِنْ
 تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا
 يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ
 بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٧) وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ
 ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ

مِنْ قَبْلُ وَ جَعَلَ لِلّٰهِ اَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا
 اِنَّكَ مِنْ اَصْحَابِ النَّارِ (٨) اَمَّنْ هُوَ قَانَتْ آَنَاءُ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَّ قَائِمًا
 يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَّ يَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ
 لَا يَعْلَمُونَ اِنَّمَا يَتَذَكَّرُ اُولُو الْاَلْبَابِ (٩) قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا
 رَبَّكُمُ لِلَّذِينَ احْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَّ اَرْضُ اللّٰهِ وَّاسِعَةٌ اِنَّمَا
 يُؤْتِي الصَّابِرُونَ اَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ (١٠).

﴿بيان﴾

يظهر من خلال آيات السورة أن المشركين من قومه ﷺ سألوه أن ينصرف
 عما هو عليه من التوحيد والدعوة إليه والتعرض لآلهتهم و خوفه بآلهتهم فنزلت
 السورة - وهي قرينة سورة ص بوجه - وهي تؤكد الأمر بأن يخلص دينه لله سبحانه
 ولا يعبأ بآلهتهم وأن يعامهم أنه مأمور بالتوحيد وإخلاص الدين الذي تواترت الآيات
 من طريق الوحي والعقل جميعا عليه .

و لذلك نراه سبحانه يعطف الكلام عليه في خلال السورة مرة بعد مرة كقوله
 في مفتتح السورة : « فاعبد الله مخلصا له الدين أَلله الدين الخالص » ثم يرجع إليه
 و يقول : « قل إنني أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ » - إلى قوله - « قل الله أعبد مخلصا
 له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه » .

ثم يقول : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَّ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ » الخ ثم يقول : « أليس الله بكاف عبده
 و يخوفونك بالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ » ثم يقول : « قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إِنِّي
 عاملٌ » ثم يقول : « قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون » إلى غير ذلك من
 الإشارات .

ثم عمم الاحتجاج على توحده تعالى في الربوبية والألوهية من الوحي و من طريق البرهان وقايس بين المؤمنين والمشركين مقاييس لطيفة فوصف المؤمنين بأجمل أوصافهم وبشرهم بما سيصيبهم في الآخرة مرة بعد مرة وذكر المشركين وأندهم بما سيلحقهم من الخسران وعذاب الآخرة مضافا إلى ما يصيبهم في الدنيا من وبال أمرهم كما أصاب الذين كذبوا من الأمم الدارجة من عذاب الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر .

و من ثم وصفت السورة يوم البعث وخاصة في مختتمها بأوضح الوصف وأتمه . والسورة مكيّة لشهادة سياق آياتها بذلك وكأنها نزلت دفعة واحدة لما بين آياتها من الاتصال .

والآيات العشر المنقولة تجمع الدعوة من طريق الوحي والحجة العقلية بإدلة بالنبي ﷺ .

قوله تعالى : « تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم » « تنزيل الكتاب » خبر لمبتدأ محذوف ، وهو مصدر بمعنى المفعول فيكون إضافته إلى الكتاب من إضافة الصفة إلى موصوفها و « من الله » متعلق بتنزيل والمعنى هذا كتاب منزل من الله العزيز الحكيم .

وقيل : « تنزيل الكتاب » مبتدأ و « من الله » خبره ولعل الأول أقرب إلى الذهن .
قوله تعالى : « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق » فاعبد الله مخلصا له الدين « عبر بالإنزال دون التنزيل كما في الآية السابقة لأنّ القصد إلى بيان كونه بالحق وهو يناسب مجموع ما نزل إليه من ربه .

وقوله : « بالحق » الباء فيه للملابسة أي أنزلناه إليك متلبسا بالحق فما فيه من الأمر بعبادة الله وحده حق ، وعلى هذا المعنى فرع عليه قوله : « فاعبد الله مخلصا له الدين » والمعنى فإذا كان بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين لأنّ فيه ذلك .

والمراد بالدين - على ما يعطيه السياق - العبادة ويمكن أن يراد به سنة الحياة وهي الطريقة المسلوكة في الحياة في المجتمع الإنساني ، ويراد بالعبادة تمثيل العبودية

بسلوك الطريق التي شرعها الله سبحانه والمعنى فأظهر العبودية لله في جميع شؤون حياتك بتباع ما شرعه لك فيها والحال أنك مخلص له دينك لا تتبع غير ما شرعه لك .

قوله تعالى : « أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ » إظهار وإعلان لما أضمر وأجمل في قوله : « بالحق » و تعميم لما خصص في قوله : « فاعبد الله مخلصاً له الدين » أي إن الذي أوحيناه إليك من إخلاص الدين لله واجب على كل من سمع هذا النداء ، ولكون الجملة نداء مستقلاً أظهر اسم الجلالة وكان مقتضى الظاهر أن يضم ويقال : له الدين الخالص .

و معنى كون الدين الخالص له أنه لا يقبل العبادة ممن لا يعبد وحده سواء عبده و غيره أو عبد غيره وحده .

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » إلى آخر الآية تقدم أن الوثنية يرون أن الله سبحانه أجل من أن يحيط به الإدراك الإنساني من عقل أو وهم أو حس فيتنزّه تعالى عن أن يقع عليه توجه عبادي منا .

فمن الواجب أن تتقرب إليه بالتقرب إلى مقرّبيه من خلقه وهم الذين فوض إليهم تدبير شؤون العالم فنتخذهم أرباباً من دون الله ثم آلهة نعبدهم ونتقرب إليهم ليشفعوا لنا عند الله ويقرّبونا إليه زلفى وهؤلاء هم الملائكة والجن وقد يسوا البشر وهؤلاء هم الأرباب والآلهة بالحقيقة .

أما الأصنام المصنوعة المنصوبة في الهياكل والمعابد فإنما هي تماثيل للأرباب والآلهة وليست في نفسها أرباباً ولا آلهة غير أن الجبهة من عاينهم ربّما لم يفرّقوا بين الأصنام وأرباب الأصنام فعبدوا الأصنام كما يعبد الأرباب والآلهة وكذلك كانت عرب الجاهلية وكذلك الجبهة من عامّة الصابئين ربّما لم يفرّقوا بين أصنام الكواكب والكواكب التي هي أيضاً أصنام لأرواحها الموكّلة عليها وبين أرواحها التي هي الأرباب والآلهة بالحقيقة عند خاصتهم .

و كيف كان فالأرباب والآلهة هم المعبودون عندهم وهم موجودات ممكنة مخلوقة لله

مقرّبة عنده مفضّلة إليهم تدير أمر العالم لكل بحسب منزلته و أمّا الله سبحانه فليس له إلّا الخلق والإيجاد و هو ربّ الأرباب وإله الآلهة .

إذا تذكّرت ما مرّ ظهر أنّ المراد بقوله : « والذين اتّخذوا من دونه أولياء » اتّخاذهم أربابا يدبّرون الأمر بأن يسندوا الربوبية وأمر التدبير إليهم لا إلى الله فهم المدبّرون للأمر عندهم و يتفرّع عليه أن يخضع لهم ويعبدوا لأنّ العبادة لجلب النفع أو لدفع الضرر أو شكر النعم و كل ذلك إليهم لتصدّيهم أمر التدبير دون الله سبحانه .

فالمراد باتّخاذهم أولياء اتّخاذهم أربابا ^(١) ، ولذا عقب اتّخاذ الأولياء بذكر العبادة « ما نعبدهم إلّا ليقربونا » فقله : « والذين اتّخذوا من دونه أولياء » مبتدأ خبره « إنّ الله يحكم » النخ و المراد بهم المشركون القائلون بربوبية الشركاء و ألوهيتهم دون الله إلّا ما ذهب إليه جهلتهم من كونه تعالى شريكا لهم في المعبودية .

وقوله : « ما نعبدهم إلّا ليقربونا إلى الله زلفى » تفسير طعنى اتّخاذ الأولياء من دون الله و هو حكاية لقولهم أو بتقدير القول أي يقولون : ما نعبدهم هؤلاء إلّا ليقربونا بسبب عبادتنا لهم إلى الله تقرّيبا فهم عادلون منه تعالى إلى غيره ، وإنّما سمّوا مشركين لأنّهم يشركون به تعالى غيره حيث يقولون بكونهم أربابا و آلهة للعالم و كونه تعالى ربّا وإلهالا و لك الأرباب والآلهة ، وأمّا الشراكة في الخلق والإيجاد فلم يقل به لا مشرك ولا موحد .

وقوله : « إنّ الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون » قيل : ضمير الجمع للمشركين و أوليائهم أي إنّ الله يحكم بين المشركين و بين أوليائهم فيما هم فيه مختلفون ، وقيل : الضميران راجعان إلى المشركين و خصمائهم من أهل الإخلاص في الدين المفهوم من السياق ، والمعنى إنّ الله يحكم بينهم و بين المخلصين للدين .

وقوله : « إنّ الله لا يهدي من هو كاذب كفّار » الكفّار كثير الكفران لنعم

(١) فالولاية والربوبية قريبا المعنى فالرب هو المالك المدبر والولى هو مالك

التدبير أو متصدى التدبير .

الله أو كثير الستر للحق ، و في الجملة إشعار بل دلالة على أن الحكم يوم القيامة على المشركين لالهم وأنهم مسيرون إلى العذاب ، والمراد بالهداية الإيصال إلى حسن العاقبة .

قوله تعالى : « لو أراد الله أن يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهار » احتجاج على نفي قولهم : إن الله اتخذ ولدا ، و قول بعضهم : الملائكة بنات الله ، و القول بالولد دائر بين عامة الوثنية على اختلاف مذاهبهم و قد قالت النصارى : المسيح ابن الله ، و قالت اليهود على ما حكاه القرآن عنهم : عزيز ابن الله و كأنها بنوة تشريفية .

و البنوة كيفما كانت تقتضى شركة ما بين الابن و الأب و الولد و الوالد فإن كانت بنوة حقيقة و هي اشتقاق شيء من شيء و انفصاله منه اقتضت الشركة في حقيقة الذات والخواص و الآثار المنبئة من الذات كبنوة إنسان لإنسان المقتضية لشركة الابن لأبيه في الإنسانية ولوازمها ، وإن كانت بنوة اعتبارية كالبنوة الاجتماعية وهو التبني اقتضت الاشتراك في الشؤون الخاصة بالأب كالسؤدد والملك والشرف و التقدم والورثة و بعض أحكام النسب ، و الحجة المسوقة في الآية تدل على استحالة اتخاذ الولد عليه تعالى بكلا المعنيين .

فقوله : « لو أراد الله أن يتخذ ولدا » شرط صدر بلو الدال على الامتناع للامتناع ، و قوله : « لاصطفى مما يخلق ما يشاء » أي لاختار لذلك مما يخلق ما يتعلق به مشيئته على ما يفيد السياق و كونه مما بخلق لكون ما عداه سبحانه خلقاً له .

و قوله : « سبحانه » تنزيه له سبحانه ، و قوله : « هو الله الواحد القهار » بيان لاستحالة الشرط و هو إرادة اتخاذ الولد ليترب عليه استحالة الجزاء و هو اصطفاء ما يشاء مما يخلق و ذلك لأنه سبحانه واحد في ذاته المتعلية لا يشاركه فيها شيء و لا يماثله فيها أحد لأدلة التوحيد ، و واحد في صفاته الذاتية التي هي عين ذاته كالحياة و العلم و القدرة ، و واحد في شأنه التي هي من لوازم ذاته كالخلق و الملك و العزة و الكبرياء لا يشاركه فيها أحد .

وهو سبحانه قهار يقهر كل شيء بذاته و صفاته فلا يستقلّ قبال ذاته و وجوده شيء في ذاته و وجوده ولا يستغني عنه شيء في صفاته و آثار وجوده فالكلّ أدلاء داخرون بالنسبة إليه مملوكون له فقراء إليه .

فمحصل حجة الآية قياس استثنائي ساذج يستثنى فيه نقيض المقدم لينتج نقيض التالي و هو نحو من قولنا : لو أراد الله أن يتخذ ولداً لاصطفى لذلك بعض من يشاء من خلقه لكن إرادته اتّخاذ الولد ممتنعة لكونه واحداً قهاراً فاصطفاؤه لذلك بعض من يشاء من خلقه ممتنع .

و قد أغرب بعضهم في تقريب حجة الآية فقال : حاصل المعنى لو أراد سبحانه اتّخاذ الولد لامتنت تلك الإرادة لتعلقها بالممتنع أعني الاتّخاذ لكن لا يجوز للباري إرادة ممتنعة لأنّها ترجح بعض الممكنات على بعض .

و أصل الكلام لو اتّخذ الولد لامتنع لا ستلزامه ما ينافي الألوهية فعدل إلى لو أراد الاتّخاذ لامتنع أن يريد أن يكون أبلغ و أبلغ ثم حذف هذا الجواب و جيء بدله لاصطفى تنبيهاً على أن الممكن هذا لا أول و أنه لو كان هذا من اتّخاذ الولد في شيء لجاز اتّخاذ الولد عليه سبحانه و تعالى شأنه عن ذلك فقد تحقق التلازم و حقّ نفي اللزوم و إثبات الملزوم دون صعوبة . انتهى .

و كأنّه مأخوذ من قول الزمخشري في الكشف في تفسير الآية حيث قال : يعني لو أراد اتّخاذ الولد لامتنع و لم يصحّ لكونه محالاً و لم يتأتّ إلا أن يصطفى من خلقه بعضه و يختصهم و يقرّ بهم كما يختصّ الرجل ولده و يقرّ به و قد فعل ذلك بالملائكة فافتنتم به و غرّكم اختصاصه إياهم فزعمتم أنّهم أولاده جهلاً منكم به و بحقيقته المخالفة لحقائق الأجسام و الأعراض كأنّه قال : لو أراد اتّخاذ الولد لم يزد على ما فعل من اصطفاء ما يشاء من خلقه و هم الملائكة لكنكم لجهلكم به حسبتم اصطفاءهم اتّخاذهم أولاداً ثم تماديتم في جهلكم و سفهكم فجعلتموهم بنات فكنتم كذا بين كفارين متبالين في الإفراء على الله و ملائكته غالين في الكفر . انتهى .

و أنت خير أن سياق الآية لا يلائم هذا البيان . على أنه لا يدفع قول القائل

بالتبنيّ التشريفيّ كقول اليهود عزيز ابن الله فإنهم لا يريدون بالتبنيّ إلا اصطفاء من يشاء من خلقه .

وهناك بعض تقرّيات آخر منهم لا جدوى فيه تركنا إيراد .

قوله تعالى : « خلق السماوات والأرض بالحق » لا يبعد أن يكون ما فيه من الإشارة إلى الخلق والتدبير بيانا لقهاريته تعالى لكن اتصال الآيتين وارتباطهما مضمونا و انتهاء الثانية إلى قوله : « ذلكم الله ربكم » الح كالصريح في أن ذلك استئناف بيان للاحتجاج على توحيد الربوبية .

فالأية والتي تليها مسوقتان لتوحيد الربوبية وقد جمع فيهما بين الخلق والتدبير لما مرّ مراراً أن إثبات وحدة الخالق لا يستلزم عند الوثنيّ نفى تعدّد الأرباب و الالهة لأنهم لا ينكرون انحصار الخلق والابجاد فيه تعالى لكنّه سبحانه فيما يحتاج على توحيده في الربوبية والألوهية في كلامه يجمع بين الخلق والتدبير إشارة إلى أن التدبير غير خارج من الخلق بل هو خلق بوجه كما أن الخلق تدبير بوجه وعند ذلك يتم الاحتجاج على رجوع التدبير إليه تعالى وانحصاره فيه برجوع الخلق إليه . فقوله : « خلق السماوات والأرض بالحق » إشارة إلى الخلقة ، وفي قوله : « بالحق » - والباء للملابسة - إشارة إلى البعث فإن كون الخلقة حقاً غير باطل يلزم كونها لغاية تقصدها وتنساق إليها وهي البعث قال تعالى : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا » ص : ٢٧ .

وقوله : « يكوّر الليل على النهار و يكوّر النهار على الليل » قال في المجمع التكوير طرح الشيء بعضه على بعض . انتهى فامراد طرح الليل على النهار و طرح النهار على الليل فيكون من الاستعارة بالكناية قريب المعنى من قوله : « يغشي الليل النهار » الأعراف : ٧٤ والمراد استمرار توالي الليل والنهار بظهور هذا على ذاك ثمّ ذاك على هذا وهكذا ، وهو من التدبير .

وقوله : « و سخرّ الشمس والقمر كلّ يجري لأجل مسمى » أي سخرّ الشمس والقمر فأجراهما للنظام الجاري في العالم الأرضي إلى أجل مسمى معيّن لا يتجاوزانه .

و قوله : « ألا هو العزيز الغفار » يمكن أن يكون في ذكر الاسمين إشارة إلى ما يحتاج به على توحده تعالى في الربوبية والاهلية فإن العزيز الذي لا يعتره ذلة إن كان فهو الله وهو المتعين للعبادة لا غيره الذي تغشاها الذلة و تغمره الفاقة و كذا الغفار للذنوب إذا قيس إلى من ليس من شأنه ذلك .

ويمكن أن يكون ذكرهما تحضيضاً على التوحيد و الايمان بالله الواحد والمعنى أنبئهم أنه هو العزيز فآمنوا به و اعتزوا بعزته ، الغفار فآمنوا به يغفر لكم .

قوله تعالى : « خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها » الخ الخطاب لعامة البشر ، والمراد بالنفس الواحدة - على ما تؤيده نظائره من الآيات - آدم أبو البشر ، والمراد بزوجها امرأته التي هي من نوعها و تماثلها في الإنسانية ، و « ثم » للتراخي بحسب رتبة الكلام .

و المراد أنه تعالى خلق هذا النوع و كثر أفراده من نفس واحدة و زوجها . و قوله : « و أنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج » الأنعام هي الإبل و البقر و الضأن و المعز ، و كونها ثمانية أزواج باعتبار انقسامها إلى الذكر و الأنثى . و تسمية خلق الأنعام في الأرض إنزالاً لها باعتبار أنه تعالى يسمي ظهور الأشياء في الكون بعد ما لم يكن إنزالاً لها من خزائنه التي هي عنده و من الغيب إلى الشهادة قال تعالى : « و إن من شيء إلا عندنا خزائنه و ما ننزله إلا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ .

و قوله : « يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث » بيان لكيفية خلق من تقدم ذكره من البشر و الأنعام ، و في الخطاب تغليب أولي العقل على غيرهم ، و الخلق من بعد الخلق التوالي و التوارد كخلق النطفة علقه و خلق العلقه مضغة و هكذا ، و الظلمات الثلاث هي ظلمة البطن و الرحم و المشيمة كما قيل و رواه في المجمع عن أبي جعفر عليه السلام .

و قيل : المراد بها ظلمة الصلب و الرحم و المشيمة و هو خطأ فإن قوله : « في

بطون أمهاتكم « صريح في أن المراد بالظلمات الثلاث ما في بطون النساء دون أصلاب الرجال .

و قوله : « ذلكم الله ربكم » أي الذي وصف لكم في الآيتين بالخلق والتدبير هو ربكم دون غيره لأن الرب هو المالك الذي يدبر أمرها ملكه وإذ كان خالقاً لكم ولكل شيء دونكم وللنظام الجاري فيكم فهو الذي يملككم ويدبر أمركم فهو ربكم لا غير .

وقوله : « له الملك » أي على جميع المخلوقات في الدنيا والآخرة فهو المليك على الإطلاق ، وتقديم الظرف يفيد الحصر . والجملة خبر بعد خبر لقوله : « ذلكم الله » كما أن قوله : « لا إله إلا هو » كذلك ، وانحصار الألوهية فيه تعالى فرع انحصار الربوبية فيه لأن الإله إنما يعبد لأنه رب مدبر فيعبد إما خوفاً منه أو رجاء فيه أو شكراً له .

و قوله : « فأنى تصرفون » أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره وهو ربكم الذي خلقكم ودبر أمركم وهو المليك عليكم .

قوله تعالى : « إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر » إلى آخر الآية . مسوق لبيان أن الدعوة إلى التوحيد وإخلاص الدين لله سبحانه ليست بحاجة منه تعالى إلى إقبالهم إليه بالانصراف عن عبادة غيره بل لعناية منه تعالى بهم فيدعوهم إلى سعادتهم اعتناء بها كما يعتني برزقهم فيفيض النعم عليهم وكما يعتني بحفظهم فيلهمهم أن يدفعوا الآفات عن أنفسهم .

فقوله : « إن تكفروا فإن الله غني عنكم » الخطاب لعامة المكلفين أي إن تكفروا بالله فلم توحّدوه فإنّه غني عنكم لذاته لا ينتفع بإيمانكم وطاعتكم ولا يتضرر بكفركم ومعصيتكم فالنفع والضرر إنما يتحققان في مجال الإمكان والحاجة واما لواجب الغني بذاته فلا يتصور في حقه انتفاع ولا تضرر .

و قوله : « ولا يرضى لعباده الكفر » دفع لما ربما يمكن أن يتوهم من قوله : « فإن الله غني عنكم » أنه إذا لم يتضرر بكفرهم لم ينتفع بإيمانهم فلا موجب له أن

يريد منا الإيمان و الشكر فدفعه بأن "تعلق العناية الإلهية بكم يقتضي أن لا يرضى بكفركم وأنتم عباده .

و المراد بالكفر كفر النعمة الذي هو ترك الشكر بقرينة مقابلة قوله : « وإن تشكروا يرضه لكم » و بذلك يظهر أن التعبير بقوله : « لعباده » دون أن يقول : لكم للدلالة على علة الحكم أعني سبب عدم الرضا .

و المحصل أنكم عباد مملوكون لله سبحانه منغمرون في نعمه و رابطة المولوية و العبودية وهي نسبة المالكية و المملوكية لاتلائمه أن يكفر العبد بنعمة سيده فينسى ولاية مولاه ويتخذ لنفسه أرباباً من دونه و يعصى المولى و يطيع عدوه و هو عبد عليه طابع العبودية لا يملك لنفسه نفعا و لاضرراً .

و قوله : « وإن تشكروا يرضه لكم » الضمير للشكر نظير قوله تعالى : « اعدلوا هو أقرب للتقوى » المائدة : ٨ و المعنى و إن تشكروا الله بالجري على مقتضى العبودية و إخلاص الدين له يرض الشكر لكم و أنتم عباده ، و الشكر و الكفر المقابل له ينطبقان على الإيمان و الكفر المقابل له .

و مما تقدم يظهر أن العباد في قوله : « ولا يرضى لعباده الكفر » عام يشمل الجميع فقول بعضهم : إنه خاص أريد به من عناهم في قوله : « إن عبادي ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الفاوين » الحجر : ٤٢ وهم المخلصون - أو المعصومون على ما فسره الزمخشري - و لازمه أن الله سبحانه رضي الإيمان لمن آمن و رضي الكفر لمن كفر إلا المعصومين فإنه أراد منهم الإيمان ، و صانهم عن الكفر .
سخيف جداً ، و السياق يأباه كل الإباء ، إذ الكلام مشعر حينئذ برضاء الكفر للكافر فيؤل معنى الكلام إلى نحو من قولنا : إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى للأتباع مثلاً الكفر لرضاه لهم الإيمان و إن تشكروا أنتم يرضه لكم و إن تكفروا يرضه لكم و هذا - كما ترى - معنى ردي ساقط و خاصة من حيث وقوعه في سياق الدعوة .

على أن الأنبياء مثلاً داخلون فيمن شكر وقد رضي لهم الشكر و الإيمان

ولم يرض لهم الكفر فلاموجب لإفرادهم بالذكر وقد ذكر الرضا عنهم شكر .
وقوله : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » أي لا تحمل نفس حاملة حمل نفس أخرى
أي لا يؤاخذ بالذنب إلا من ارتكبه .

وقوله : « ثم إلى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون إنه عليم بذات
الصدور » أي هذا في الدنيا من كفر أو شكر ثم يبعثكم الله فيظهر لكم حقيقة أعمالكم
و يحاسبكم على ما في قلوبكم وقد تكرر الكلام في معاني هذه الجملة فيما تقدم .

﴿ كلام في معنى الرضا والسخط من الله ﴾

الرضا من المعاني التي يتصف بها أولو الشعور والإرادة ويقابله السخط و
وكلاهما وصفان وجوديان .

ثم الرضا يتعلق بالمعاني من الأوصاف والأفعال دون الذوات يقال : رضي له
كذا و رضي بكذا قال تعالى : « ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله » التوبة : ٥٩
وقال : « ورضوا بالحياة الدنيا » يونس : ٧ وما ربما يتعلق بالذوات فإِنما هو بعناية ما
ويؤل بالأخرة إلى المعنى كقوله : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى » البقرة : ١٢ .
وليس الرضا هو الإرادة بعينها وإن كان كلما تعلقت به الإرادة فقد تعلق به الرضا
بعد وقوعه بوجه . وذلك لأن الإرادة - كما قيل - تتعلق بأمر غير واقع والرضا إِنما
يتعلق بالأمر بعد وقوعه أو فرض وقوعه فإذن كون الإنسان راضيا بفعل كذا كونه
بحيث يلائم ذلك الفعل ولا ينافره ، وهو وصف قائم بالراضي دون المرضي .

ثم الرضا لكونه متعلقا بالأمر بعد وقوعه كان متحققا بتحقيق المرضي حادثا
بحدوثه فيمتنع أن يكون صفة من الصفات القائمة بذاته لتتزهه تعالى عن أن يكون
محلا للحوادث فما نسب إليه تعالى من الرضا صفة فعل قائم بفعله منتزع عنه كالرحمة
والغضب والإرادة والكراهة قال تعالى : « رضي الله عنهم ورضوا عنه » البينة : ٨
وقال : « و أن أعمل صالحا ترضاه » النمل : ١٩ ، وقال : « ورضيت لكم الإسلام ديناً »
المائدة : ٣ .

فرضاه تعالى عن أمر من الأمور ملائمة فعله تعالى له ، وإذ كان فعله قسمين تكويني وتشريعي انقسم الرضا منه أيضاً إلى تكويني وتشريعي فكل أمر تكويني وهو الذي أراده الله وأوجده فهو مرضي له رضا تكوينياً بمعنى كون فعله وهو إيجاداً عن مشيئة ملائمة لما أوجده ، وكل أمر تشريعي وهو الذي تعلق به التكليف من اعتقاد أو عمل كالإيمان والعمل الصالح فهو مرضي له رضا تشريعياً بمعنى ملائمة تشريعه للمأتي به .

و أما ما يقابل هذه الأمور المأمور بها مما تعلق به نهي فلا يتعلق بها رضى البتة لعدم ملائمة التشريع لها كالكفر والفسوق كما قال تعالى : « إن تكفروا فإن الله غني عنكم ولا يرضى لعباده الكفر » الزمر : ٧ ، وقال : « فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » التوبة : ٩٦ .

قوله تعالى : « وإذا مس الإنسان ضرّاً دعا ربه منيباً إليه » إلى آخر الآية الإجابة الرجوع ، والتحويل العطية العظيمة على وجه الهبة وهي المنحة . على ما في المجمع .

لما مر في الآية السابقة ذكر من كفر النعمة وأن الله سبحانه على غناه من الناس لا يرضى لهم ذلك نبيه في هذه الآية على أن الإنسان كفور بالطبع مع أنه يعرف ربه بالفطرة ولا يلبث عند الاضطراب دون أن يرجع إليه فيسأله كشف ضرّه كما قال : « وكان الإنسان كفوراً » أسرى : ٦٧ ، وقال : « إن الإنسان لظلوم كفار » إبراهيم : ٣٤ . فقوله : « وإذا مس الإنسان ضرّاً دعا ربه منيباً إليه » أي إذا أصاب الإنسان ضرٌّ من شدة أو مرض أو قحط ونحوه دعا ربه - وهو الله يعترف عند ذلك بربوبيته - راجعاً إليه معرضاً عن سواه يسأله كشف الضر عنه .

وقوله : « ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل » أي وإذا أعطاه ربه سبحانه بعد كشف الضر نعمة منه اشتغل به مستغرقاً ونسي الضر الذي كان يدعو إليه أي إلى كشفه من قبل إعطاء النعمة .

فما في قوله : « ما كان يدعو إليه » موصولة والمراد به الضر وضمير « إليه » له

وقيل : مصدريةً والضمير للربّ سبحانه والمعنى نسي دعاءه إلى ربّه من قبل الإعطاء ، وقيل : موصولة والمراد به الله سبحانه وهو أبعد الوجوه .

وقوله : « وجعل الله أنداداً ليضلّ عن سبيله » الأنداد الأمثال والمراد بها - على ما قيل - الأصنام وأربابها ، واللام في « ليضلّ عن سبيله » للعاقبة ، والمعنى واتخذ الله أمثالاً يشاركونه في الربوبية والالوهية على مزعمته لينتهي به ذلك إلى إضلال الناس عن سبيل الله لأنّ الناس مطبوعون على التقليد يتشبه بعضهم ببعض ، وفي الفعل دعوة كالقول .

ولا يبعد أن يراد بالأنداد مطلق الأسباب التي يعتمد عليها الإنسان ويطمئنّ إليها ومن جعلتها أرباب الأصنام عند الوثنيّ وذلك لأنّ الآية تصف الإنسان وهو أعمّ من المشرك نعم مورد الآية هو الكافر .

وقوله : « قل تمتّع بكفرك قليلاً إنّك من أصحاب النار » أي تمتّع تمتعاً قليلاً لا يدوم لك لأنّك من أصحاب النار مصيرك إليها ، وهو أمر تهديديّ في معنى الإخبار أي إنّك إلى النار ولا يدفعها عنك تمتّعك بالكفر أيّما قلائل .

قوله تعالى : « أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربّه » الآية لا تخلو عن مناسبة واتصال بقوله السابق : « ولا تزر وازرة وزر أخرى » فإنّ فحواه أنّ الكافر والشاكر لا يستويان ولا يختلطان فأوضح ذلك في هذه الآية بأنّ القانت الذي يخاف العذاب ويرجو رحمة ربّه لا يساوي غيره .

فقوله : « أم من هو قانت آناء الليل ساجدا وقائماً يحذر الآخرة ويرجو رحمة ربّه » أحد شقّي الترديد محذوف والتقدير أهذا الذي ذكرناه خير أم من هو قانت الخ؟ والقنوت - على ما ذكره الراغب - لزوم الطاعة مع الخضوع ، والآناء جمع أنى وهو الوقت ، و « يحذر الآخرة » أي عذاب الله في الآخرة قال تعالى : « إنّ عذاب ربك كان محذورا » أسرى : ٥٧ ، وقوله : « يرجو رحمة ربّه » هو وما قبله يجمعان خوف العذاب ورجاء الرحمة ، ولم يقيّد الرحمة بالآخرة فإنّ رحمة الآخرة ربّما وسعت الدنيا .

و المعنى أهذا الكافر الذي هو من أصحاب النار خير أم من هو لازم للطاعة و الخضوع لربه في أوقات الليل إذا جن عليه ساجدا في صلاته تارة قائما فيها أخرى يحذر عذاب الآخرة و يرجو رحمة ربه ؟ أي لا يستويان .

و قوله : « قل هل يستوي الذين يعلمون و الذين لا يعلمون » العلم و عدمه مطلقان لكن المراد بهما بحسب ما ينطبق على مورد الآية العلم بالله و عدمه فإن ذلك هو الذي يكمل به الإنسان و ينتفع بحقيقة معنى الكلمة و يتضرر بعدمه ، و غيره من العلم كالمال ينتفع به في الحياة الدنيا و يفنى بفنائها .

و قوله : « إنما يتذكر أولو الألباب » أي ذوو العقول و هو في مقام التعليل لعدم تساوي الفريقين بأن أحد الفريقين يتذكر حقائق الأمور دون الفريق الآخر فلا يستويان بل يترجح الذين يعلمون على غيرهم .

قوله تعالى : « قل يا عبادي الذين آمنوا اتقوا للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة » إلى آخر الآية ، الجار و المجرور « في هذه الدنيا » متعلق بقوله : « أحسنوا » فالمراد بالجملة وعد الذين أحسنوا أي لزموا الأعمال الحسنة أن لهم حسنة لا يقدر ودهفها بقدر .

و قد أطلق الحسنة فلم يقيدها بدنيا أو آخرة و ظاهرها ما يعم الدنيا فللمؤمنين المحسنين في هذه الدنيا طيب النفس وسلامة الروح و صون النفوس عما يتقلب فيه الكفار من تشوش البال و تقسم القلب و غل الصدر و الخضوع للأسباب الظاهرية و تقديم يرجى في كل نائبة و ينصر عند طروق الطارقة و يطمأن إليه في كل نازلة و في الآخرة سعادة دائمة و نعيم مقيم .

و قيل : « في هذه الدنيا » متعلق بحسنة . و ليس بذلك .

و قوله : « و أرض الله واسعة » حث و ترغيب لهم في الهجرة من مكة إذ كان التوقف فيها صعبا على المؤمنين بالنبي ﷺ والمشركون يزيدون كل يوم في التشديد عليهم و فتنهم ، و الآية بحسب لفظها عامة .

و قيل : المراد بأرض الله الجنة أي إن الجنة واسعة لا تراحم فيها فاكسبوها

بالطاعة والعبادة . و هو بعيد .

و قوله : « إِنَّمَا يُوفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » توفية الأجر إعطاؤه تاماً كاملاً ، و السياق يفيد أنَّ القصر في الكلام متوجّه إلى قوله : « بغير حساب » فالجارُّ و المجرور متعلّق بقوله : « بوفى » صفة لمصدر يدلّ عليه و المعنى لا يعطى الصابرون أجرهم إلّا إعطاء بغير حساب ، فالصابرون لا يحاسبون على أعمالهم و لا ينشر لهم ديوان و لا يقدّر أجرهم بزنة عملهم .

و قد أطلق الصابرون في الآية و لم يقيّد بكون الصبر على الطاعة أو عن المعصية أو عند المصيبة وإن كان الذي ينطبق على مورد الآية هو الصبر على مصائب الدنيا و خاصّة ما يصيب من جهة أهل الكفر و الفسوق من آمن بالله و أخلص له دينه و اتّقاء . و قيل : « بغير حساب » حال من « أجرهم » و يفيد كثرة الأجر الذي يوفونه ، و الوجه السابق أقرب .

﴿ بحث روائى ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن يزيد الرقاشي أن رجلاً قال : يا رسول الله ! إننا نعطي أموالنا التماس الذكر فهل لنا في ذلك من أجر ؟ فقال رسول الله ﷺ : إن الله لا يقبل إلّا ممن أخلص له . ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية « ألا لله الدين الخالص » .

و فيه أخرج ابن جرير من طريق جوير عن ابن عباس « و الذين اتّخذوا من دونه أولياء » الآية قال : أنزلت في ثلاثة أحياء : عامر و كنانة و بني سلمة كانوا يعبدون الأوثان و يقولون : الملائكة بناته فقالوا : « إِنَّمَا نَعْبُدُهُمْ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » .

أقول : الآية مطلقة تشمل عامّة الوثنيين ، و قول : « إِنَّمَا نَعْبُدُهُمْ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » قول جميعهم ، و كذا القول بالولد و لا تصريح في الآية بالقول بكون الملائكة بنات فالحق أن الخبر من التطبيق .

وفي الكافي والعلل بإسنادهما عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال : قلت : « آناء الليل ساجداً وقائماً » النخ قال : يعني صلاة الليل .

و في الكافي بإسناده عن أبي جعفر عليه السلام في قوله عز وجل : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب » قال نحن الذين يعلمون ، و عدونا الذين لا يعلمون ، و شيعتنا أولو الألباب .

أقول : وهذا المعنى مروي بطرق كثيرة عن الباقر والصادق عليهما السلام ، و هو جري و ليس من التفسير في شيء .

و في الدر المنثور أخرج ابن سعد في طبقاته و ابن مردويه عن ابن عباس في قوله : « أم من هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً » قال : نزلت في عمار بن ياسر .

أقول : و روى مثله عن جوير عن عكرمة ، و روى عن جوير عن ابن عباس أيضاً أنها نزلت في ابن مسعود و عمار و سالم مولى أبي حذيفة ، و روى عن أبي نعيم و ابن عساكر عن ابن عمر أنه عثمان و قيل غير ذلك ، و الجميع من التطبيق و ليس من النزول بالمعنى المصطلح عليه ، و السورة نازلة دفعة .

و في المجمع روى العياشي بإسناد عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إذا نشرت الدواوين و نصبت الموازين لم ينصب لأهل البلاء ميزان و لم ينشر لهم ديوان . ثم تلا هذه الآية « إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب » .

أقول : و روى ما في معناه في الدر المنثور عن ابن مردويه عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله في حديث .





قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ
 أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ (١٢) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٣)
 قُلِ اللَّهُ أَعْبَدُ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي (١٤) فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ
 الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ
 الْمُبِينُ (١٥) لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظِلٌّ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظِلٌّ ذَلِكَ يُخَوِّفُ
 اللَّهَ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُوا (١٦) وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا
 وَانَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ (١٧) الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ
 فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ (١٨)
 أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ (١٩) لَكِنَّ الَّذِينَ
 اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
 وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ (٢٠).

﴿بيان﴾

في الآيات نوع رجوع إلى أول الكلام وأمره ﷺ أن يبلغهم أن الذي
 يدعوههم إليه من التوحيد وإخلاص الدين لله هو مأمور به كأحدهم ويزيد أنه مأمور
 أن يكون أول مسلم لما يدعو إليه أي يكون بحيث يدعو إلى ما قد أسلم له و آمن به
 قبل ، سواء أجاوبوا إلى دعوته أو ردوها .

فعليهم أن لا يطمعوا فيه أن يخالف فعله قوله و سيرته دعوته فإنه مجيب لربه

مسلم له متصّل في دينه خائف منه أن يعصيه ثم تنذر الكافرين و تبشّر المؤمنين بما أعدّ الله سبحانه لكلّ من الفريقين من عذاب أو نعمة .

قوله تعالى : « قل إنّي أُمّرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين - إلى قوله - أوّل المسلمين » نحو رجوع إلى قوله تعالى في مفتتح السورة : « إنّنا أنزلنا إليك الكتاب فاعبد الله مخلصاً له الدين » بداعي أن يؤيسهم من نفسه ، فلا يطمعوا فيه أن يترك دعوتهم و يوافقهم على الإشراف بالله كما بشير إليه أوّل سورة ص و آيات أخر .

فكأنّه يقول : قل لهم إنّ الذي تلوت عليكم من أمره تعالى بعبادته بإخلاص الدين - وقد وجه به الخطاب إليّ - ليس المراد به مجرد دعوتكم إلى ذلك بإقامتي في الخطاب مقام السامع فيكون من قبيل « إنيّك أعني و اسمعي يا جارة » بل أنا كأحدكم مأمور بعبادته مخلصاً له الدين ، ولا ذلك فحسب ، بل مأمور بأن أكون أوّل المسلمين لما ينزل إليّ من الوحي فأسلم له أوّل لائمه أوّل بلغه لغيري - فأنا أخاف ربّي وأعبده بالأخلاص أنتم به أو كفرتم فلا تطمعوا فيّ .

فقوله : « قل إنّي أُمّرت أن أعبد الله مخلصاً له الدين » إشارة إلى أنّه ﷺ يشارك غيره في الأمر بدين الإخلاص .

وقوله : « و أُمّرت لأن أكون أوّل المسلمين » إشارة إلى أنّ في الأمر المتوجه إليّ زيادة على ما توجه إليكم من التكليف وهو أنّي أُمّرت بما أُمّرت وقد توجه الخطاب إليّ قبلكم والغرض منه أن أكون أوّل من أسلم لهذا الأمر وآمن به .

قيل : اللام في قوله : « لأن أكون » للتعليل والمعنى و أُمّرت بذلك لأجل أن أكون أوّل المسلمين ، وقيل : اللام زائدة كما تركت اللام في قوله تعالى : « قل إنّي أُمّرت أن أكون أوّل من أسلم » الأنعام : ١٤ .

و مآل الوجهين واحد بحسب المعنى فإنّ كونه ﷺ أوّل المسلمين يعطي عنواناً لإسلامه و عنوان الفعل يصحّ أن يجعل غاية للأمر بالفعل و أن يجعل متعلّقاً للأمر فيؤمر به يقال : اضربه للتأديب ، و يقال : أدّب به بالضرب .

قال في الكشف : وفي معناه أوجه : أن أكون أوّل من أسلم في زمانى و من قومي

لأنه أول من خالف دين آبائه وخلع الأصنام وحطمها ، وأن أكون أول الذين دعوتهم إلى الإسلام إسلاما ، وأن أكون أول من دعا نفسه إلى ما دعا غيره لأكون مقتدى بي في قولي وفعلي جميعا ولا تكون صفتي صفة الملوك الذين يأمرون بما لا يفعلون ، وأن أفعل ما أستحق به الأولية من أعمال السابقين دلالة على السبب بالمسبب انتهى .

و أنت خير بأن الأنسب لسياق الآيات هو الوجه الثالث وهو الذي قدّمناه و يلزمه سائر الوجود .

قوله تعالى : « قل إنني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم » المراد بمعصية ربه بشهادة السياق مخالفة أمره بعبادته مخلصا له الدين ، و باليوم العظيم يوم القيامة والآية كالتوطئة لمضمون الآية التالية :

قوله تعالى : « قل الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه » تصريح بأنه ممتثل لأمر ربه مطيع له بعد التكنية عنه في الآية السابقة ، وإيأس لهم أن يطمعوا فيه أن يخالف أمر ربه .

و تقديم المفعول في قوله : « قل الله أعبد » يفيد الحصر ، و قوله : « مخلصا له ديني » يؤكد معنى الحصر ، و قوله : « فاعبدوا ما شئتم من دونه » أمر تهديدي بمعنى أنهم لا ينفعهم ذلك فإنهم مصيبهم وبال إعراضهم عن عبادة الله بالإخلاص كما يشير إليه ذيل الآية « قل إن الخاسرين » الخ .

قوله تعالى : « قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة » الخ الخسر والخسران ذهاب رأس المال إما كلاً أو بعضا والخسران أبلغ من الخسر ، و خسران النفس هو إيرادها مورد الهلكة والشقاء بحيث يبطل منها استعداد الكمال فيفوتها السعادة بحيث لا يطمع فيها وكذا خسارة الأهل .

وفي الآية تعريض للمشركين المخاطبين بقوله : « فاعبدوا ما شئتم من دونه » كأنه يقول : فأيا ما عبدتم فإنكم تخسرون أنفسكم بإيرادها بالكفر مورد الهلكة وأهليكم وهم خاصتكم بحملهم على الكفر والشرك وهي الخسران بالحقيقة .

و قوله : « أَلَاذَلِكَ هُوَ الْخَسْرَانِ الْمُبِينِ » وذلك لأنَّ الخسران المتعلّق بالدنيا - وهو الخسران في مال أو جاه - سريع الزوال منقطع الآخر بخلاف خسران يوم القيامة الدائم الخالد فإنّه لازوال له ولا انقطاع .

على أنَّ المال أو الجاه إذا زال بالخسران أمكن أن يخلفه آخر مثله أو خير منه بخلاف النفس إذا خسرت .

هذا على تقدير كون المراد بالأهل خاصّة الإنسان في الدنيا ، وقيل : المراد بالأهل من أعدّه الله في الجنّة للإنسان لو آمن واتقى من أزواج وخدم وغيرهم و هو أوجه و أنسب للمقام فإنَّ النسب و كلَّ رابطة من الروابط الدنيويّة الاجتماعيّة مقطوعة يوم القيامة قال تعالى : « فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ » المؤمنون : ١٠١ و قال : « يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً » الانفطار : ١٩ إلى غير ذلك من الايات .

و يؤيّدّه أيضاً قوله تعالى : « فَأَمَّا مَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يَحَسْبُ حَسَاباً سِيراً وَ يَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مُسْروراً » الانشقاق : ٩ .

قوله تعالى : « لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظِلٌّ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظِلٌّ » الخ الظلل جمع ظلّة و هي - كما قيل - الستر العالي .

والمراد بكونها من فوقهم و من تحتهم إحاطتها بهم فإنَّ المعهود من النار الجحيمان والباقي ظاهر .

قوله تعالى : « وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى » قال الراغب : الطَّاغُوت عبارة عن كلِّ متعدٍّ و كلِّ معبود من دون الله ، و يستعمل في الواحد و الجمع . انتهى و الظاهر أنَّ المراد بها في الآية الأوثان و كلِّ معبود طاغ من دون الله .

ولم يقتصر على مجرد اجتناب عبادة الطَّاغُوت بل أضاف إليه قوله : « وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ » إشارة إلى أنَّ مجرد النفي لا يجدي شيئاً بل الذي ينفع الإنسان مجموع النفي و الإثبات : عبادة الله و ترك عبادة غيره وهو عبادته مخلصاً له الدين .

و قوله : « لَهُمُ الْبُشْرَى » إنشاء بشري و خبر لقوله : « وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا » الخ .

قوله تعالى : « فبشّر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » إلى آخر الآية كان مقتضى الظاهر أن يقال : فبشّرهم غير أنه قيل : فبشّر عباد و أضيف إلى ضمير التكلم لتشريفهم به ولتوصيفهم بقوله : « الذين يستمعون القول » الخ .
و المراد بالقول بقرينة ما ذكر من الاتباع ماله نوع ارتباط و مساس بالعمل فأحسن القول أرشده في إصابة الحقّ وأوصحه للإنسان ، والإنسان إذا كان ممّن يحبّ الحسن وينجذب إلى الجمال كان كلما زاد الحسن زاد انجذاباً فإذا وجد قبيحاً وحسناً مال إلى الحسن ، وإذا وجد حسناً و أحسن قصد ما هو أحسن ، و أمّا لو لم يمل إلى الأحسن و انجمد على الحسن كشف ذلك عن أنّه لا ينجذب إليه من حيث حسنه وإلاّ زاد الانجذاب بزيادة الحسن .

فتوصيفهم باتّباع أحسن القول معناه أنّهم مطبوعون على طلب الحقّ وإرادة الرشد وإصابة الواقع فكّلما دار الأمر بين الحقّ و الباطل و الرشد و الغي اتبعوا الحقّ والرشد و تركوا الباطل و الغي وكّلما دار الأمر بين الحقّ و الأحقّ و الرشد وما هو أكثر رشداً أخذوا بالأحقّ الأرشد .

فالحقّ و الرشد هو مطلوبهم ولذلك يستمعون القول ولا يردّون قولاً بمجرّد ما قرع سمعهم اتّباعاً لهوى أنفسهم من غير أن يتدبّروا فيه و يفقهوه .
فقوله : « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » مفاده أنّهم طالبوا الحقّ والرشد يستمعون القول رجاء أن يجدوا فيه حقّاً وخوفاً أن يفوتهم شيء منه .

و قيل : المراد باستماع القول و اتّباع أحسنه استماع القرآن و غيره و اتّباع القرآن ، وقيل : المراد استماع أوامر الله تعالى و اتّباع أحسنها كالقصاص والعفو فيتبعون العفو و إبداء الصدقات وإخفائها فيتبعون الإخفاء ؛ والقولان من قبيل التخصيص من غير منخصّص .

وقوله : « أولئك الذين هداهم الله » إشارة إلى أن هذه الصفة هي الهداية الإلهيّة وهذه الهداية أعني طلب الحقّ و التهيّأ التام لاتباع الحقّ أينما وجد هي الهداية الإجماليّة وإليها تنتهي كلّ هداية تفصيليّة إلى المعارف الإلهيّة .

وقوله : « وأولئك هم أولو الألباب » أي ذوو العقول و يستفاد منه أن العقل هو الذي به الاهتداء إلى الحق و آيته صفة اتباع الحق ، وقد تقدم في تفسير قوله : « و من يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه » البقرة : ١٣٠ أنه يستفاد منه أن العقل ما يتبع به دين الله .

قوله تعالى : « أفمن حقت عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار » ثبوت كلمة العذاب وجوب دخول النار بالكفر بقوله عند إهباط آدم إلى الأرض : « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » البقرة : ٣٩ و ما في معناه من الآيات .

ومقتضى السياق أن في الآية إضماراً يدل عليه قوله : « أفأنت تنقذ من في النار » والتقدير أفمن حقت عليه كلمة العذاب ينجو منه وهو أولى من تقدير قولنا : خيرأم من وجبت عليه الجنة .

وقيل : المعنى أفمن وجب عليه وعيده تعالى بالعقاب أفأنت تخلصه من النار فاكتمى بذكر « من النار » عن ذكر الضمير العائد إلى المبتدئ وحيء بالاستفهام مرتين للتأكيد تنبيها على المعنى .

وقيل : التقدير أفأنت تنقذ من في النار منهم فحذف الضمير ، وهو أردء الوجوه .
قوله تعالى : « لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الأنهار » الغرف جمع غرفة وهي المنزل الرفيع . قيل : و هذا في مقابلة قوله في الكافرين : « لهم من فوقهم ظلل من النار و من تحتهم ظلل » .

و قوله : « وعد الله » أي وعدهم الله ذلك وعداً فهو مفعول مطلق قائم مقام فعله وقوله : « لا يخلف الله الميعاد » إخبار عن سنته تعالى في مواعيده و فيد تطيب لنفوسهم .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم » يقول : غبنوا أنفسهم وأهليهم .

وفي المجمع في قوله تعالى : « و الذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها و أنابوا إلى ربهم لهم البشـرى » روى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال : أنتم هم ومن أطاع جبارا فقد عبده .

اقول : و هو من الجري .

و في الكافي : بعض أصحابنا رفعه عن هشام بن الحكم قال : قال لي أبو الحسن موسى بن جعفر عليه السلام : يا هشام إن الله تبارك و تعالى بشر أهل العقل والفهم في كتابه فقال : « فبشر عباد الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله و أولئك هم أولو الألباب » .

و في الدر المنثور أخرج ابن جرير و ابن أبي حاتم عن زيد بن أسلم في قوله تعالى : « و الذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها » قال : نزلت هاتان الآيتان في ثلاثة نفر كانوا في الجاهلية يقولون : لا إله إلا الله ، في زيد بن عمرو بن نفيل و أبي ذر الغفاري و سلمان الفارسي .

اقول : و رواه في المجمع عن عبد الله بن زيد ، و روى في الدر المنثور أيضا عن ابن مردويه عن ابن عمر أنها نزلت في سعيد بن زيد و أبي ذر و سلمان ، و روى أيضا عن جوير عن جابر بن عبد الله أنها نزلت في رجل من الأنصار أعـتق سبعة ممالك لمّا نزل قوله تعالى : « لها سبعة أبواب » الآية ، والظاهر أن الجميع من تطبيق القصة على الآية .





أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ
ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلَفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيَجُ فَتَرِيهِ مَصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ
حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٣١) أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ
لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ
فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٣٢) اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ
مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ
ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)
أَفَمَنْ يَتَّقِ بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا
كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٤) كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَآتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ
لَا يَشْعُرُونَ (٣٥) فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ
الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ
مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٣٧) قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ (٣٨) ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا
لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٩) إِنَّكَ
مَيِّتٌ وَ إِنَّهُمْ مَيِّتُونَ (٤٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ (٤١)

فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصَّدَقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي
 جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ (٣٣) وَالَّذِي جَاءَ بِالصَّدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ
 هُمُ الْمُتَّقُونَ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاؤُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ (٣٥)
 لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي عَمِلُوا وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ الَّذِي كَانُوا
 يَعْمَلُونَ (٣٦) أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَ
 مَنْ يَضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٧) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ
 أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (٣٨) .

﴿بيانات﴾

عود إلى بدء من الاحتجاج على ربوبيته تعالى والقول في اهتداء المهتدين و
 ضلال الضالين والمقايضة بين الفريقين و ما ينتهي إليه عاقبة أمر كل منهما ، وفيها معنى
 هداية القرآن .

قوله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض »
 إلى آخر الآية قال في المجمع : الينابيع جمع ينبوع وهو الذي ينبع منه الماء يقال ينبع
 الماء من موضع كذا إذا فار منه ، والزرع ما ينبت على غير ساق والشجر ما له ساق وأغصان
 والنبات يعم الجميع ، و هاج النبات يهيج هيجا إذا جفّ و بلغ نهايته في اليبوسة ، و
 الحطام فئات التبن والحشيش . انتهى .

وقوله : « فسلكه ينابيع في الأرض » أي فأدخله في عيون و مجاري في الأرض
 هي كالعروق في الأبدان تنقل ما تحمله من جانب إلى جانب ، والباقي ظاهر والآية -
 كما ترى - تحتج على توحيده تعالى في الربوبية .

قوله تعالى : « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » الخ لما ذكر في الآية السابقة أن فيما ذكره من إنزال الماء وإنبات النبات ذكرى لأولي الأبواب وهم عباده المتقون وقد ذكر قبل أنهم الذين هداهم الله ذكر في هذه الآية أنهم ليسوا بغيرهم من الضالين وأوضح السبب في ذلك وهو أنهم على نور من ربهم يبصرون به الحق وفي قلوبهم لين لاتعصى عن قبول ما يلقي إليهم من أحسن القول .

فقوله : « أفمن شرح الله صدره » خبره محذوف يدل عليه قوله : « فويل للقاسية قلوبهم » الخ أي كالقاسية قلوبهم والاستفهام للإيثار أي لا يستويان . و شرح الصدر بسطه ليسع ما يلقي إليه من القول وإذ كان ذلك للإسلام وهو التسليم لله فيما أراد وليس إلا الحق كان معناه كون الإنسان بحيث يقبل ما يلقي إليه من القول الحق ولا يردّه ، وليس قبولاً مرغبراً دراياً وكيفما كان بل عن بصيرة بالحق وعرفان بالرشد ولذا عقبه بقوله : « فهو على نور من ربه » فجعله بحسب التمثيل راکب نور يسير عليه و يبصر ما يمر به في ساحة صدره الرحب الواسع من الحق فيبصره ويميزه من الباطل بخلاف الضال الذي لا في صدره شرح فيسع الحق ولا هو راکب نور من ربه فيبصر الحق ويميزه .

و قوله : « فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله » تفريع على الجملة السابقة بما يدل على أن القاسية القلوب - وقساوة القلب وصلابته لازمة عدم شرح الصدر وعدم النور - لا يتذكرون بآيات الله فلا يهتدون إلى ما تدل عليه من الحق ، ولذا عقبه بقوله : « أولئك في ضلال مبين » .

وفي الآية تعريف الهداية بلازمها وهو شرح الصدر وجعله على نور من ربه ، وتعريف الضلال بلازمه وهو قساوة القلب من ذكر الله .

و قد تقدم في تفسير قوله : « ومن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام » الآية الأ نعم : ١٢٥ كلام في معنى الهداية فراجع .

قوله تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابها مثاني » إلى آخر الآية

كلاهما بعد التفصيل بالنسبة إلى الآية السابقة بالنظر إلى ما يتحصل من الآية في معنى الهداية وإن كانت بيانا لهداية القرآن .

فقوله : « الله نزل أحسن الحديث » هو القرآن الكريم والحديث هو القول كما في قوله تعالى : « فليأتوا بحديث مثله » الطور : ٣٤ ، وقوله : « فبأي حديث بعده يؤمنون » المرسلات : ٥٠ فهو أحسن القول لا شتماله على محض الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو كلامه المجيد .

وقوله : « كتابا متشابها » أي يشبه بعض أجزاء بعضا وهذا غير التشابه الذي في المتشابه المقابل للمحكم فإنه صفة بعض آيات الكتاب وهذا صفة الجميع .

وقوله : « مثاني » جمع مثنى بمعنى المعطوفة لانعطاف بعض آياته على بعض ورجوعه إليه بتبيين بعضها ببعض وتفسير بعضها لبعض من غير اختلاف فيها بحيث يدفع بعضه بعضاً و يناقضه كما قال تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » النساء : ٨٢ .

وقوله : « تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم » صفة الكتاب وليس استثناء ، والاقشعرار تقبض الجلد تقبضا شديداً لخشية عارضة عن استماع أمرهائل أو رؤيته ، وليس ذلك إلا لأنهم على تبصر من موقف نفوسهم قبال عظمة ربهم فإذ اسمعوا كلامه توجهوا إلى ساحة العظمة والكبرياء فغشيت قلوبهم الخشية وأخذت جلودهم في الاقشعرار .

وقوله : « ثم تلين جلودهم و قلوبهم إلى ذكر الله » « تلين » مضمنة معنى السكون والطمأنينة ولذا عدّي بالي والمعنى ثم تسكن و نظمئن . جلودهم و قلوبهم إلى ذكر الله ليننة تقبله أو تلين له ساكنة إليه .

و لم يذكر القلوب في الجملة السابقة عند ذكر الاقشعرار لأن المراد بالقلوب النفوس ولا اقشعرار لها وإنما لها الخشية .

وقوله : « ذلك هدى الله يهدي به من يشاء » أي ما يأخذهم من اقشعرار الجلود من القرآن ثم سكون جلودهم و قلوبهم إلى ذكر الله هو هدى الله وهذا تعريف آخر

للهداية بلازمها .

و قوله : « يهدي به من يشاء من عباده » أي يهدي بهداه من يشاء من عباده و هو الذي لم يبطل استعدادَه للاهتداء و لم يشغل بالوانع عنه كالفسق والظلم وفي السياق إشعار بأن الهداية من فضله وليس بموجب فيها مضطرٌ إليها .

و قيل : المشار إليه بقوله : « ذلك هدى الله » القرآن و هو كما ترى ، و قد استدلّ بالآيات على أن الهداية من صنع الله لا يشاركه فيها غيره ، و الحق أنها خالية عن الدلالة على ذلك وإن كان الحق هو ذلك بمعنى كونها لله سبحانه أصالة و لمن اختاره من عباده لذلك تبعاً كما يستفاد من مثل قوله : « قل إن هدى الله هو الهدى » البقرة : ١٢٠ و قوله : « إن علينا للهدى » الليل : ١١ ، و قوله : « و جعلناهم أئمة يهدون بأمرنا » الأنبياء : ٧٣ ، و قوله : « و إنك لتهدي إلى صراط مستقيم » الشورى : ٥٢ .

فالهداية كلها لله إمّا بلا واسطة أو بواسطة الهداة المهديين من خلقه و على هذا فمن أضلّه من خلقه بأن لم يهده بالواسطة و لا بلا واسطة فلا هادي له و ذلك قوله في ذيل الآية : « و من يضل الله فما له من هاد » و سيأتي الجملة بعد عدة آيات و هي متكررة في كلامه تعالى .

قوله تعالى : « أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة و قيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون » مقايسة بين أهل العذاب يوم القيامة و الآمنين منه و الفريقان هما أهل الضلال و أهل الهدى ولذا عقب الآية السابقة بهذه الآية .

و الاستفهام للإيثار و خبر « من » محذوف و التقدير كمن هو في أمن منه ، و يوم القيامة متعلق بـ يتقى و المعنى أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيامة لكون يده التي بها كان يتقى المكروه مغلوطة إلى عنقه كمن هو آمن من العذاب لا يصيبه مكروه . كذا قيل .

و قيل : الاتقاء بوجهه بالمعنى المذكور لا وجه له لأن الوجه ليس مما يتقى به بل المراد الاتقاء بكليته أو بخصوص وجهه سوء عذاب يوم القيامة و يوم القيامة قيد للعذاب و المراد عكس الوجه السابق ، و المعنى أفمن يتقى سوء العذاب الذي يوم

القيامة في الدنيا بتقوى الله كالمصرّ على كفره ، و لا يخلو من التكلف .

و قوله : « و قيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون » القول لملائكة النار ، والظاهر أن الجملة بتقدير قد أوبدون و الأصل وقيل لهم ذوقوا الخ لكن وضع الظاهر موضع الضمير للدلالة على علّة الحكم و هي الظلم .

قوله تعالى : « كذب الذين من قبلهم فأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون » أي من الجهة التي لا يحتسبون ففوجؤا و أخذوا على غفلة و هو أشدّ الأخذ ، و في الآية و ما بعدها بيان لما أصاب بعض الكفار من عذاب الخزي ليكون عبرة لغيرهم .

قوله تعالى : « فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا و لعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون » الخزي هو الذلّ و الصغار ، و قد أذاقهم الله ذلك في ألوان من العذاب أنزلها عليهم كالغرق و الخسف و الصيحة و الرجفة و المسخ و القتل .

قوله تعالى : « و لقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل لعلمهم يتذكرون » أي ضربنا لهم من كل نوع من الأمثال شيئاً لعلمهم يتنبهون و يعتبرون و يتعظون بتذكّر ما تتضمنه .

قوله تعالى : « قرآنا عربياً غير ذي عوج لعلمهم يتقون » العوج الانحراف و الانعطاف ، و « قرآنا عربياً » منصوب على المدح بتقدير أمدح أو أخصّ و نحوه أوحال معتمد على الوصف .

قوله تعالى : « ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون و رجلاً سلماً لرجل هل يستويان » الخ قال الراغب : الشكس - بالفتح فالكسر - سيء الخلق ، و قوله : « شركاء متشاكسون » أي متشاجرون لشكاسة خلقهم . انتهى و فسروا السلم بالخالص الذي لا يشترك فيه كثيرون .

مثل ضربه الله للمشارك الذي يعبد أرباباً و آلهة مختلفين فيشتركون فيه و هم متنازعون فيأمره هذا بما ينهاء عنه الآخر و كلّ يريد أن يتفرّد فيه و يخصّه بخدمة نفسه ، و للموحد الذي هو خالص لمخدوم واحد لا يشاركه فيه غيره فيخدمه فيما يريد منه من غير تنازع يؤدّي إلى الحيرة فالمشرك هو الرجل الذي فيه شركاء متشاكسون

و الموحّد هو الرجل الذي هو سلم لرجل. لا يستويان بل الذي هو سلم لرجل أحسن حالا من صاحبه .

و هذا مثل سانج ممكن الفهم لعامة الناس لكنّه عند المدافّة يرجع إلى قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » الأنبياء : ٢٢ و عاد برهاناً على نفي تعدّد الأرباب والآلهة .

و قوله : « الحمد لله » ثناء لله بما أن عبوديتهم خير من عبودية من سواه .
و قوله : « بل أكثرهم لا يعلمون » مزية عبادته على عبادة غيره على ماله من الظهور التام لمن له أدنى بصيرة .

قوله تعالى : « إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ » الآية الأولى تمهيد لما يذكر في الثانية من اختصامهم يوم القيامة عند ربهم و الخطاب في «إنكم» للنبي ﷺ و أمته أو المشركين منهم خاصّة و الاختصام - كما في المجمع - ردّ كل واحد من الاثنين ما أتى به الآخر على وجه الإنكار عليه .

و المعنى إن عاقبتك و عاقبتهم الموت ثم إنكم جميعاً يوم القيامة بعد ما حضرتم عند ربكم تختصمون و قد حكى ممّا يلقيه النبي ﷺ « وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » الفرقان : ٣٠ .

و الآيتان عامتان بحسب لفظهما لكن الآيات الأربع التالية تؤيد أن المراد بالاختصام ما يقع بين النبي ﷺ و بين الكافرين من أمته يوم القيامة .

قوله تعالى : « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ » في الآية و ما بعدها مبادرة إلى ذكر ما ينتهي إليه أمر اختصامهم يوم القيامة و تلويح إلى ما هو نتيجة القضاء بينهم كأنه قيل : و نتيجة ما يقضى به بينكم معلومة اليوم و أنّه من هو الناجي منكم ؟ و من هو الهالك ؟ فإنّ القضاء يومئذ يدور مدار الظلم و الإحسان و لا أظلم من الكافر و المؤمن متقّ محسن و الظلم إلى النار و الإحسان إلى الجنة . هذا ما يعطيه السياق .

فقوله : « فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ » أي افترى عليه بأن ادّعى أن له شركاء

و الظلم يعظم بعظم من تعلّق به و إذا كان هو الله سبحانه كان أعظم من كل ظلم و مرتكبه أظلم من كل ظالم .

و قوله : « وكذب بالصدق إذ جاءه » المراد بالصدق الصادق من النبأ و هو الدين الإلهي الذي جاء به الرسول بقرينة قوله : « إذ جاءه » .

و قوله : « أليس في جهنّم مثوى للمتكبرين » المثنوى اسم مكان بمعنى المنزل و المقام ، و الاستفهام للتقرير أي إن في جهنّم مقام هؤلاء الظالمين لتكبرهم على الحق الموجب لافتراءهم على الله و تكذيبهم بصادق النبأ الذي جاء به الرسول .
و الآية خاصّة بمشركي عهد النبي ﷺ أو بمشركي أمّته بحسب السياق و عامّة لكل من ابتدع بدعة و ترك سنة من سنن الدين .

قوله تعالى : « و الذي جاء بالصدق و صدّق به أولئك هم المتّقون » المراد بالمجيء بالصدق الإتيان بالدين الحقّ و المراد بالتصديق به الإيمان به و الذي جاء به النبي ﷺ .

و قوله : « أولئك هم المتّقون » لعلّ الإشارة إلى الذي جاء به بصيغة الجمع لكونه جمعا بحسب المعنى و هو كل نبي جاء بالدين الحقّ و آمن بما جاء به بل وكل مؤمن آمن بالدين الحقّ ودعى إليه فإنّ الدعوة إلى الحقّ قولاً و فعلاً من شؤون اتباع النبي قال تعالى : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا و من اتّبعتني » يوسف : ١٠٨ .

قوله تعالى : « لهم ما يشاؤون عند ربّهم ذلك جزاء المحسنين » هذا جزاؤهم عند ربّهم و هو أن لهم ما تعلّق به مشيئتهم فالمشيئة هناك هي السبب التام لحصول ما يشاؤه الإنسان أيّاماً كان بخلاف ما عليه الأمر في الدنيا فإنّ حصول شيء من مقاصد الحياة فيها يتوقّف - مضافاً إلى المشيئة - على عوامل و أسباب كثيرة منها السعي والعمل المستمد من الاجتماع و التعاون .

فالآية تدلّ أوّلاً على إقامتهم في دار القرب و جوار ربّ العالمين ، و ثانياً أن لهم ما يشاؤون فهذان جزاء المتّقين و هم المحسنون فإنّ حسانهم هو السبب في إيتائهم الأجر

المذكور ، وهذه هي النكتة في إقامة الظاهر مقام الضمير في قوله : «وذلك جزاء المحسنين» وكان مقتضى الظاهر أن يقال : وذلك جزاؤهم .

و توصيفهم بالإحسان و ظاهره العمل الصالح أو الاعتقاد الحق و العمل الحسن جميعا يشهد أن المراد بالتصديق المذكور هو التصديق قولاً و فعلاً . على أن القرآن لا يسمي تارك بعض ما أنزله الله من حكم مصداقه .

قوله تعالى : « ليكفر الله عنهم أسوأ الذي عملوا » إلى آخر الآية و من المعلوم أنه إذا كفر أسوأ أعمالهم كفر مادون ذلك ، و المراد بأسوأ الذي عملوا ما هو كالشرك والكبائر .

قال في مجمع البيان في الآية : أي أسقط الله عنهم عقاب الشرك و المعاصي التي فعلوها قبل ذلك بإيمانهم وإحسانهم و رجوعهم إلى الله تعالى انتهى وهو حسن من جهة تعميم الأعمال السيئة ، و من جهة تقييد التكفير بكونه قبل ذلك بالإيمان والإحسان و التوبة فإن الآية تبين أثر تصديق الصدق الذي أتاهم وهو تكفير السيئات بالتصديق و الجزاء الحسن في الآخرة .

وقوله : « و يجزيهم أجرهم بأحسن الذي كانوا يعملون » .

قيل : المراد أنه ينظر إلى أعمالهم فيجازيهم في أحسنها جزاءه اللائق به و في غير الأحسن يجازيهم جزاء الأحسن فالباء للمقابلة نحو بعت هذا بهذا .

ويمكن أن يقال : إن المراد أنه ينظر إلى أرفع أعمالهم درجة فيترفع درجتهم بحسبه فلا يضيع شيء مما هو آخر ما بلغه عملهم من الكمال لكن في جريان نظير الكلام في تكفير الأسوء خفاء .

و قيل : صيغة التفضيل في الآية «أسوء» و «أحسن» مستعملة في الزيادة المطلقة من غير نظر إلى مفضل عليه فإن معصية الله كلها أسوء و طاعته كلها أحسن .

قوله تعالى : « أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه » المراد بالذين من دونه آلهتهم من دون الله على ما يستفاد من السياق ، والمراد بالعبد من مدحه الله تعالى في الآيات السابقة و يشمل النبي ﷺ شمولاً أو لياً .

والاستفهام للتقرير والمعنى هو يكفيهم ، وفيه تأمين للنبي ﷺ قبال تخويفهم إِيَّاهُ بآلهتهم وكناية عن وعده بالكفاية كما صرَّح به في قوله : « فسيكفيهم الله وهو السميع العليم » البقرة : ١٣٧ .

قوله تعالى : « ومن يضل الله فماله من هاد ومن يهد الله فماله من مضل » الخ جملتان كلمتا كسبتين مرسلتان إرسال الضوابط الكليَّة ولذا جيء فيهما باسم الجلالة وكان من قبيل وضع الظاهر موضع الضمير .

وفي تعقيب قوله : « أليس الله بكاف » الخ بقوله : « ومن يضل » إشارة إلى أن هؤلاء المخوفين لا يهتدون بالإيمان أبدا ولن ينجح مسعاهم وأنهم لن ينالوا بغيتهم ولا أمنيَّتهم من النبي ﷺ فإن الله لن يضلَّه وقدهده .

وقوله : « أليس الله بعزيز ذي انتقام » استفهام للتقرير أي هو كذلك ، وهو تعليل ظاهر لقوله : « ومن يضل الله » الخ فإن عزَّته وكونه ذا انتقام يقتضيان أن ينتقم ممن جحد الحق وأصرَّ على كفره فيضلَّه ولا هادي يهديه لأنَّه تعالى عزيز لا يغلبه فيما يريد غالب ، وكذا إذا هدى عبداً من عباده لتقواه وإحسانه لم يقدر على إضلاله مضل .

وفي التعليل دلالة على أن الإضلال المنسوب إلى الله تعالى هو ما كان على نحو المجازاة والانتقام دون الضلال الابتدائي وقد مرَّ مرارا .

﴿ بحث روائي ﴾

عن روضة الواعظين للمفيد روي أن النبي ﷺ قرأ « أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه » فقال : إنَّ النور إذا وقع في القلب انفسح له وانشرح . قالوا : يا رسول الله فهل لذلك علامة يعرف بها ؟ قال : التجاني عن دار الغرور ، والاناة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن ابن مردويه عن عبد الله بن مسعود وعن الحكيم الترمذي عن ابن عمر ، وعن ابن جرير وغيره عن قتادة .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : «أفمن شرح الله صدره» الآية قال : نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام.

اقول : و نزول السورة دفعة لايلائمه كما مر في نظيره .

و في الدر المنثور أخرج ابن جرير عن ابن عباس قالوا : يا رسول الله لوحدتتنا فنزل : «الله نزل أحسن الحديث» .

اقول : و هو من التطبيق .

و في المجمع في قوله تعالى : « تقشعر منه جلود » الآية روي عن العباس بن عبد المطلب أن النبي صلى الله عليه وآله قال : إذا أقشعر جلد العبد من خشية الله تحاتت ^(١) عنه ذنوبه كما يتحات عن الشجرة اليابسة ورقها .

و في الدر المنثور في قوله تعالى : « قرآن عربيا غير ذي عوج » أخرج الديلمي في مسند الفردوس عن أنس عن النبي صلى الله عليه وآله في قوله : « قرآن عربيا غير ذي عوج » قال : غير مخلوق .

اقول : الآية تأتي عن الانطباق على الرواية و قد تقدم كلام في معنى الكلام في ذيل قوله تعالى : « تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض » البقرة : ٢٥٣ في الجزء الثاني من الكتاب .

و في المجمع في قوله تعالى : « و رجلا سلما لرجل » روى الحاكم أبو القاسم الحسكاني بالإسناد عن علي أنه قال : أنا ذلك الرجل السلم لرسول الله صلى الله عليه وآله .

اقول : ورواه أيضا عن العياشي بإسناده عن أبي خالد عن أبي جعفر عليه السلام وهو من الجري ، والمثل عام .

و فيه في قوله تعالى : « ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون » قال ابن عمر : كنا نرى أن هذه فينا و في أهل الكتابين و قلنا : كيف نختصم نحن و نبينا واحد و كتابنا واحد ؟ حتى رأيت بعضنا يضرب وجوه بعض بالسيف فعلمت أنها فينا نزلت . و قال أبو سعيد الخدري : كنا نقول : إن ربنا واحد و نبينا واحد و ديننا

واحد فما هذه الخصومة ؟ فلما كان يوم صفين وشدّ بعضنا على بعض بالسيوف قلنا :
نعم هو هذا .

اقول : وروى في الدر المنثور الحديث الأول بطرق مختلفة عن ابن عمر وفي ألفاظها اختلاف والمعنى واحد ، ورواه أيضا عن عدة من أصحاب الجوامع عن إبراهيم النخعي ، وروى ما يقرب منه بطريقين عن الزبير بن العوام ، وروى الحديث الثاني عن سعيد بن منصور عن أبي سعيد الخدري .
و الأحاديث تعارض ما روي أن الصحابة مجتهدون مأجورون إن أصابوا وإن أخطأوا .

وفي المجمع في قوله تعالى : « والذي جاء بالصدق وصدق به » قيل : الذي جاء بالصدق محمد ﷺ وصدق به علي بن أبي طالب عليه السلام وهو المروي عن أئمة الهدى من آل محمد ﷺ .

اقول : ورواه في الدر المنثور عن ابن مردويه عن أبي هريرة ، والظاهر أنه من الجري نظرا إلى قوله في ذيل الآية « أولئك هم المتقون » .
و روي من طريقهم أن الذي صدق به أبوبكر وهو أيضا من تطبيق الراوي ، و روي أن الذي جاء به جبريل والذي صدق به محمد ﷺ وهو أيضا تطبيق غير أن السياق يدفعه فإن الآيات مسوقة لوصف النبي والمؤمنين وجبريل أجنبي عنه لاتعلق للكلام به .





وَلَعَنَ سَآئِرَهُمْ مِّنْ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لِيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ
 مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ
 أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ
 الْمُتَوَكِّلُونَ (٣٨) قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ
 تَعْلَمُونَ (٣٩) مَنْ يَأْتِهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ (٤٠)
 إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَ مَن ضَلَّ
 فَاِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَ مَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٤١) اللَّهُ يَتَوَفَّى الْإِنْفُسَ
 حِينَ مَوْتِهَا وَ الَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ
 وَيُرْسِلُ الْآخَرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٤٢)
 أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفْعَاءَ قُلْ أَوْ لَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا
 يَعْقِلُونَ (٤٣) قُلْ لِلَّهِ الشُّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مَلَكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ
 إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٤٤) وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ
 بِالْآخِرَةِ وَ إِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٥) قُلِ اللَّهُمَّ
 فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ
 فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (٤٦) وَ لَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ

جَمِيعًا وَ مِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدُوا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَ بَدَّلْنَاهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ (٤٧) وَ بَدَّلْنَاهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٤٨) فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ وَلَكِنَّا أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٤٩) قَدْ قَالُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا اغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٥٠) فَاصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَ مَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥١) أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) .

﴿ بيان ﴾

في الآيات كرتة أخرى على المشركين بالاحتجاج على توحده تعالى في الربوبية وأنه لا يصلح لها شركاؤهم و أن الشفاعة التي يدعونها لشركائهم لا يملكها إلا الله سبحانه وفيها أمور أخر متعلّقة بالدعوة من موعظة و إنذار و تبشير .

قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله » إلى آخر الآية شروع في إقامة الحجّة وقد قدّم لها مقدّمة تبثني الحجّة عليها وهي مسلّمة عند الخصم وهي أن خالق العالم هو الله سبحانه فإنّ الخصم لا نزاع له في أن الخالق هو الله وحده لا شريك له وإنّما يدعي لشركائه التديرون الخلق .

وإذا كان الخلق إليه تعالى فما في السماوات والأرض من عين ولا أثر إلا وينتهي

وجوده إليه تعالى فما يصيب كل شيء من خير أو شر كان وجوده منه تعالى وليس لأحد أن يمسك خيراً يريدته تعالى له أو يكشف شراً يريدته تعالى له لأنه من الخلق ولا ييجاد ولا شريك له تعالى في الخلق ولا ييجاد حتى يزاحمه في خلق شيء أو يمنع من خلق شيء أو يسبقه إلى خلق شيء والتدبير نظم الأمور وترتيب بعضها على بعض خلق وإيجاد فالله الخالق لكل شيء كاف في تدبير أمر العالم لأنه الخالق لكل شيء وليس وراء الخلق شيء حتى يتوهم استناده إلى غيره فهو الله رب كل شيء وإلهه لا رب سواه ولا إله غيره .

فقوله : « قل أفرأيتم ماتدعون من دون الله » أي أقم الحجّة عليهم بانياً لها على هذه المقدّمة المسلمة عندهم أن الله خالق كل شيء وقل مفرّغاً عليه أخبروني عما تدعون من دون الله ، والتعبير عن آلهتهم بلفظة « ما » دون « من » ونحوه يفيد تعميم البيان للأصنام وأربابها جميعاً فإن الخواص منهم وإن قصرُوا العبادة على الأرباب من الملائكة وغيرهم واتخذوا الأصنام قبلة وذريعة إلى التوجّه إلى أربابها لكن عامتهم ربّما أخذوا الأصنام نفسها أرباباً وآلهة يعبدونها ونتيجة الحجّة عامّة تشمل الجميع . وقوله : « إن أرادني الله بضرٍ هل هنّ كاشفات ضرّه أو أرادني برحمة هل هنّ ممسكات رحمته » الضرّ كالمرض والشدة ونحوهما ، وظاهر مقابلته الرحمة عمومها لكل مصيبة ، وإضافة الضرّ والرحمة إلى ضميره تعالى في « كاشفات ضرّه » و « ممسكات رحمته » لحفظ النسبة لأنّ المانع من كشف الضرّ وإمساك الرحمة هو نسبتها إليه تعالى .

و تخصيص الضرّ والرحمة به ﷺ مع عموم الحجّة له ولغيره لكونه المخاصم الأصيل لهم وقد خوفوه بآلهتهم من دون الله .

و إرجاع ضمير الجمع المؤنث إلى ما يدعونه من دون الله لتغليب جانب غير أولي العقل من الأصنام وهو يؤيد ما قدّمناه في قوله : « أفرأيتم ماتدعون من دون الله » أن التعبير بماتدعون الحجّة للأصنام وأربابها .

وقوله : « قل حسبي الله » أمر بالتوكل عليه تعالى كما يدلّ عليه قوله بعده : « عليه يتوكل المتوكلون » وهو موضوع موضع نتيجة الحجّة كأنّه قيل : قل لهم :

إِنِّي اتَّخَذْتُ اللَّهَ وَكِيلًا لَّأَنْ أَمُرَ تَدِيرِي إِلَيْهِ كَمَا أَنْ أَمُرَ خَلْقِي إِلَيْهِ فَهُوَ فِي مَعْنَى قَوْلِنَا : فَقَدْ دَلَّتِ الْحِجَّةُ عَلَى رَبوبيَّتِهِ وَصَدَّقَتْ ذَلِكَ عَمَلًا بِاتِّخَاذِهِ وَكِيلًا فِي أُمُورِي .
وقوله : « عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ » تقديم لظرف على متعلِّقه للدلالة على الحصر أي عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُونَ لَا عَلَى غَيْرِهِ ، وإِسْنَادُ الْفِعْلِ إِلَى الْوَصْفِ مِنْ مَادَّةِ الدَّلَالَةِ عَلَى كَوْنِ الْمُرَادِ الْمُتَوَكِّلِينَ بِحَقِيقَةِ مَعْنَى التَّوَكَّلِ فِي الْجُمْلَةِ ثَنَاءٌ عَلَيْهِ تَعَالَى بِأَنَّهُ الْأَهْلُ لِلتَّوَكَّلِ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ أَهْلُ الْبَصِيرَةِ فِي التَّوَكَّلِ فَلَا لَوْمَ عَلَيَّ إِنْ تَوَكَّلْتُ عَلَيْهِ وَقُلْتُ : حَسْبِيَ اللَّهُ .

قوله تعالى : « قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ - إِلَى قَوْلِهِ - عَذَابٌ مُقِيمٌ » الْمَكَانَةُ هِيَ الْمَنْزِلَةُ وَالْقَدَرُ وَهِيَ فِي الْمَعْقُولَاتِ كَالْمَكَانِ فِي الْمَحْسُوسَاتِ فَأَمْرُهُمْ بِأَنْ يَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِهِمْ مَعْنَاهُ أَمْرُهُمْ أَنْ يَسْتَمِرُّوا عَلَى الْحَالَةِ الَّتِي هُمْ عَلَيْهَا مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ وَالصَّدِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ .

وقوله : « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ » الظَّاهِرُ أَنَّ « مِنْ » اسْتِفْهَامِيَّةٌ لِمَوْصُولَةِ لظهور العلم فيما يتعلَّقُ بِالْجُمْلَةِ لَا بِالْمُفْرَدِ .

وقوله : « وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ » أَي دَائِمٌ وَهُوَ الْمُنَاسِبُ لِلْحُلُولِ ، وَتَفْكِيكُ أَمْرِ الْعَذَابِينَ يَشْهَدُ أَنَّ الْمُرَادَ بِالْأَوَّلِ عَذَابَ الدُّنْيَا وَبِالثَّانِي عَذَابَ الْآخِرَةِ ، وَفِي الْكَلَامِ أَشَدُّ التَّهْدِيدِ .

وَالْمَعْنَى قُلْ مُخَاطَبًا لِلْمُشْرِكِينَ مِنْ قَوْمِكَ : يَا قَوْمِ اعْمَلُوا - مُسْتَمَرِّينَ - عَلَى حَالَتِكُمُ الَّتِي أَنْتُمْ عَلَيْهَا مِنَ الْكُفْرِ وَالْعِنَادِ إِنِّي عَامِلٌ - كَمَا أُؤْمَرُ غَيْرَ مُنْصَرَفٍ عَنْهُ - فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَذُلُّهُ ؟ وَهُوَ عَذَابُ الدُّنْيَا كَمَا فِي يَوْمِ بَدْرٍ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ وَلَا يَفَارِقُهُ عَذَابٌ دَائِمٌ وَهُوَ عَذَابُ الْآخِرَةِ .

قوله تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ » إِلَى آخِرِ الْآيَةِ . فِي مَقَامِ التَّلْغِيلِ لِلأَمْرِ الَّذِي فِي الْآيَةِ السَّابِقَةِ ، وَالْإِلَاحُ فِي قَوْلِهِ : « لِلنَّاسِ » لِلتَّلْغِيلِ أَيْ لِأَجْلِ النَّاسِ أَنْ تَتْلُوهُ عَلَيْهِمْ وَتُبَلِّغَهُمْ مَا فِيهِ ، وَالْبَاءُ فِي قَوْلِهِ : « بِالْحَقِّ » لِلْمَلَابَسَةِ أَيْ مَلَابَسًا لِلْحَقِّ لَا يَشُوبُهُ بَاطِلٌ .

وقوله : « فَمَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا » أَي

يتفرّع على هذا الإنزال أن من اهتدى فإنما يعود نفعه من سعادة الحياة و ثواب الدار الآخرة إلى نفسه ، ومن ضلّ و لم يهتد به فإنما يعود شقاؤه و وبالهِ من عقاب الدار الآخرة إلى نفسه فالله سبحانه أجلّ من أن ينتفع بهدايم أوتبضرّ بضلالهم .
و قوله : « و ما أنت عليهم بوكيل » أي مفضّلاً إليه أمرهم قائماً بتدبير شؤونهم حتّى توصل ما فيه من الهدى إلى قلوبهم .

و المعنى إنّما أمرناك أن تهتد بهم بما قلنا لأننا نأمرنا عليك الكتاب بالحقّ لأجل أن تقرأه على الناس لاغير فمن اهتدى منهم فإنما يعود نفعه إلى نفسه ومن ضلّ و لم يهتد به فإنما يعود ضرره إلى نفسه و ما أنت وكيلا من قبلنا عليهم تدبّر شؤونهم فتوصل الهدى إلى قلوبهم فليس لك من الأمر شيء .

قوله تعالى : « الله يتوفّى الأنفس حين موتها » إلى آخر الآية قال في المجمع: التوفّى قبض الشيء على الإيفاء و الإتمام يقال : توفّيت حقّي من فلان و استوفيته بمعنى . انتهى . تقديم المسند إليه في الآية يفيد الحصر أي هو تعالى المتوفّى لها لاغير و إذا انضمت الآية إلى مثل قوله تعالى : « قل يتوفّاكم ملك الموت الذي و كلّ بكم » السجدة : ١١ ، و قوله : « حتّى إذا جاء أحدكم الموت توفّته رسلنا » الأنعام : ٦١ أفادت معنى الأصالّة و التبعية أي إنّهُ تعالى هو المتوفّى بالحقيقة و ملك الموت و الملائكة الذين هم أعوانه أسباب متوسّطة يعملون بأمره .

و قوله : « الله يتوفّى الأنفس حين موتها » المراد بالأنفس الأرواح المتعلقة بالأبدان لا بمجموع الأرواح والأبدان لأنّ المجموع غير مقبوض عند الموت و إنّما المقبوض هو الروح يقبض من البدن بمعنى قطع تعلّقه عن البدن تعلّق التصرّف و التدبير والمراد بموتها موت أبدانها إمّا بتقدير المضاف أو بنحو المجاز العقليّ ، و كذا المراد بمنامها .
و قوله : « و الّتي لم تمت في منامها » معطوف على الأنفس في الجملة السابقة ، و الظاهر أنّ المنام اسم زمان و في منامها متعلّق بـ يتوفّى و التقدير و يتوفّى الأنفس الّتي لم تمت في وقت نومها .

ثمّ فصلّ تعالى في القول في الأنفس المتوفّاة في وقت النوم فقال : « فيمسك الّتي

قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى «أي فيحفظ النفس التي قضى عليها الموت كما يحفظ النفس التي توفىها حين موتها ولا يردّها إلى بدنّها ، ويرسل النفس الأخرى التي لم يقض عليها الموت إلى بدنّها إلى أجل مسمى تنتهي إليه الحياة .

وجعل الأجل المسمى غاية للإرسال دليل على أن المراد بالإرسال جنسه بمعنى أنّه يرسل بعض الأ نفس إرسالاً واحداً و بعضها إرسالاً بعد إرسال حتّى ينتهي إلى الأجل المسمى .

و يستفاد من الآية أوّلاً أن النفس موجود مغاير للبدن بحيث تفارقه وتستقل عنه وتبقى بحياها .

و ثانياً أن الموت والنوم كلاهما توفّ وإن افترقا في أن الموت توفّ للإرسال بعده والنوم توفّ ربّما كان بعده إرسال .

ثمّ تمّم الآية بقوله : « إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون » فيتذكّرون أن الله سبحانه هو المدبّر لأمرهم وأنّهم إليه راجعون سيحاسبهم على ما عملوا .

قوله تعالى : « أم اتّخذوا من دون الله شفعاء » الخ « أم » منقطة أي بل اتّخذ المشركون من دون الله شفعاء وهم آلهتهم الذين يعبدونهم ليشفعوا لهم عند الله سبحانه كما قال في أوّل السورة : « ما نعبدهم إلّا ليقربونا إلى الله زلفى » وقال : « وقالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله » يونس : ١٨ .

و قوله : « قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون » أمر بأن يردّه عليهم بالمنافضة في إطلاق كلامهم فإنّ من البديهي أن الشفاعة تتوقّف على علم في الشفيع يعلم به ما يريد ؟ وممن يريد ؟ ولمن يريد ؟ فلامعنى لشفاعة الجماد الذي لا شعوره وكذا تتوقّف على أن يملك الشفيع الشفاعة ويكون له حقّ أن يشفع ولا ملك لغير الله إلّا أن يملكه الله شيئاً ويأذن له في التصرف فيه فقولهم بشفاعة أوليائهم مطلقا الشامل لما لا يملكونه ولا عام لهم بإذنه تعالى لهم فيها تخرّص .

فالاستفهام في «أولوا كانوا» الخ للإيثار والمعنى قل لهم : هل تتخذونهم شفعاء لكم و لو كانوا لا يملكون من عند أنفسهم شيئاً كالملائكة ولا يعقلون شيئاً كالأصنام؟ فإنّه سفيه .

قوله تعالى : « قل لله الشفاعة جميعا له ملك السماوات والأرض » الخ توضيح
و تأكيد لما مر من قوله : « قل أو لو كانوا لا يملكون شيئا » واللام في « لله » للملك ،
وقوله : « لد ملك السماوات والأرض » في مقام التعليل للجملة السابقة و المعنى كل
شفاعة فإنها مملوكة لله فإنه المالك لكل شيء إلا أن يأذن لأحد في شيء منها فيملكه
إياها ، وأما استقلال بعض عباده كالملائكة بملك الشفاعة مطلقا كما يقولون فمما لا
يكون قال تعالى : « ما من شافع إلا من بعد إذنه » يونس : ٣ .

و للآية معنى آخر أدق إذا انضمت إلى مثل قوله تعالى : « ليس لهم من دونه
ولي ولا شفيع » الأ نعم : ٥١ وهو أن الشفيع بالحقيقة هو الله سبحانه وغيره من الشفعاء
لهم الشفاعة باذن منه فقد تقدم في بحث الشفاعة في الجزء الأول من الكتاب أن
الشفاعة ينتهي إلى توسط بعض صفاته تعالى بينه وبين المشفوع له لإصلاح حاله كتوسط
الرحمة والمغفرة بينه وبين عبده المذنب لانجائه من وبال الذنب وتخليصه من العذاب .
والفرق بين هذا الملك وما في الوجه السابق أن المالك لا يتصف بمملوكه في
الوجه السابق كما في ملك زيد للدار بخلاف الملك في هذا الوجه فإن المالك فيه يتصف
بمملوكه كملك زيد الشجاع لشفاعته .

و قوله : « ثم إليه ترجعون » تعليل آخر لكونه يملك الشفاعة جميعا الدال على
الحرص و ذلك أن الشفاعة إنما يملكها الذي ينتهي إليه أمر المشفوع له إن شاء قبلها
و أصلح حال المشفوع له وأما غيره فإنما يملكها إذا رضي بها وأذن فيها و الله سبحانه
هو الذي يرجع إليه العباد دون الذين يدعون من دون الله فالله هو المالك للشفاعة جميعا
فقولهم بكون أوليائهم شفعاء لهم مطلقا ثم عبادتهم لهم كذلك بناء بلا مبنى يعتمد عليه .
وقيل : قوله : « ثم إليه ترجعون » تهديد لهم كأنه قيل : ثم إليه ترجعون
فتعلمون أنهم لا يشفعون لكم و يخيب سعيكم في عبادتهم .

وقيل : يحتمل أن يكون تنصيحا على مالكية الآخرة التي فيها معظم نفع الشفاعة
و إيحاء إلى انقطاع الملك الصوري عما سواه تعالى ، و الوجه ما قد مناه .

قوله تعالى : « وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة »

النح المراد من ذكره تعالى وحده جعله مفردا بالذكر من غير ذكر آلهتهم و من مصاديقه قول لا إله إلا الله و الاشمئزاز الانقباض والنفور عن الشيء .

وإنما ذكر من وصفهم عدم إيمانهم بالآخرة لأن ذلك هو الأصل في اشمئزازهم ولو كانوا مؤمنين بالآخرة وأنهم يرجعون إلى الله فيجازيهم بأعمالهم عبده دون أوليائهم و لم يرغبوا عن ذكره وحده .

و قوله : « و إذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » المراد بالذين من دونه آلهتهم ، و الاستبشار سرور القلب بحيث يظهر أثره في الوجه .

قوله تعالى : « قل اللهم فاطر السماوات و الأرض عالم الغيب و الشهادة أنت تحكم » النح ملأ بلغ الكلام مبلغا لا يرجى معه فيهم خير لنسيانهم أمر الآخرة وإنكارهم الرجوع إليه تعالى حتى كانوا يشمئزون من ذكره تعالى وحده أمره ﷻ أن يذكره تعالى وحده و يذكرهم حكمه بين عباده فيما اختلفوا فيه في صورة الالتجاء إليه تعالى على ما فيه من الإقرار بالبعث و قد وصف الله تعالى بأنه فاطر السماوات و الأرض أي مخرجها من كتم العدم إلى ساحة الوجود ، و عالم الغيب و الشهادة فلا يخفى عليه شيء ، و لازمه أن يحكم بالحق و ينفذ حكمه .

قوله تعالى : « ولو أن للذين ظلموا ما في الأرض جميعا ومثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة » النح المراد بالذين ظلمواهم الذين ظلموا في الدنيا فالفعل يفيد مفاد الوصف ، و الظالمون هم المنكرون للمعاد كما قال : « أن لعنة الله على الظالمين الذين يصدون عن سبيل الله و يبغونها عوجا وهم بالآخرة كفرون » الأعراف : ٤٥ . و المعنى ولو أن للظالمين المنكرين للمعاد ضعفي ما في الأرض من أموال و ذخائر و كنوز لجعلوه فدية من سوء العذاب .

و قوله : « وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون » البداء والبدو بمعنى الظهور و الحساب و الحسبان العد ، و الاحتساب الاعتداد بالشيء بمعنى البناء على عد شيء و كثيراً ما يستعمل الحسبان و الاحتساب بمعنى الظن كما قيل و منه قوله : « ما لم يكونوا يحتسبون » أي ما لم يكونوا يظنون لكن فرق الراغب بين الحسبان و الظن

حيث قال: و الحسبان أن يحكم لأحد النقيضين من غير أن يخطر الآخر بباله و يكون بعرض أن يعتريه فيه شك ، ويقارب ذلك الظن لكن الظن أن يخطر النقيضين بباله فيغلب أحدهما على الآخر . انتهى .

و مقتضى سياق الآية أن المراد بيان أنهم سيواجهون يوم القيامة أموراً على صفة هي فوق ما تصوروه و أعظم و أهول مما خطر ببالهم لا أنهم يشاهدون أموراً ما كانوا يعتقدونها و يدعون بها و بالجملة كانوا يسمعون أن لله حساباً و وزناً للأعمال و قضاء و ناراً و ألواناً من العذاب فيقيسون ما سمعوه - على إنكار منهم له - على ما عهدوه من هذه الأمور في الدنيا فلما شاهدوها إذ ظهرت لهم وجدوها أعظم مما كان يخطر ببالهم من صفتها فهذه الآية في وصف عذابه نظير قوله في وصف نعيم أهل الجنة : « فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين » السجدة : ١٧ .

وأيضاً مقتضى السياق أن البدو المذكور من قبيل الظهور بعد الخفاء والانكشاف بعد الاستتار كما يشير إليه قوله تعالى : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ق : ٢٢ .

قوله تعالى : « و بدلهم سيئات ما كسبوا » إلى آخر الآية أي ظهر لهم سيئات أعمالهم بعد ما كانت خفية عليهم فهو كقوله : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً و ما عملت من سوء » آل عمران : ٣٠ .

و قوله : « و حاق بهم ما كانوا به يستهزئون » أي و نزل عليهم و أصابهم ما كانوا يستهزئون به في الدنيا إذا سمعوه من أولياء الدين من شدائد يوم القيامة و أهواله و أنواع عذابه .

قوله تعالى : « فإذا مس الإنسان ضررٌ دعا ناه إذا خولناه نعمة قال إنما أوتيته على علم » الخ الآية في مقام التعليل البياني لما تقدم من وصف الظالمين و لذا صدرت بالفاء لتفريع على ما تقدم تفرع البيان على المبين .

فهو تعالى لما ذكر من حالهم أنهم أعرضوا عن كل آية دالة على الحق و لم يصغوا إلى الحجج المقامة عليهم ولم يسمعوا موعظة ولم يعتدوا بعبرة فجحدهوا ربوبيته

تعالى وأنكروا البعث والحساب وبلغ بهم ذلك أن اشمازت قلوبهم إذا ذكر الله وحده .

بيّن أن ذلك ممّا يستدعيه طبع الإنسان المائل إلى اتباع هوى نفسه والاعتزاز بمازيّن له من نعم الدنيا والأسباب الظاهرية الحافّة بها فلا إنسان حليف النسيان إذا مسّه الضرّ أقبل إلى ربّه وأخلص له ودعاه ثمّ إذا خوّله ربّه نعمة نسبه إلى علم نفسه وخبرته ونسي ربّه وجعل أنّها فتنة فتن بها .

فقوله : « فإذا مسّ الإنسان ضرّ » أي مرض أو شدة « دعانا » أي خصّنا بالدعاء وانقطع عن غيرنا .

وقوله : « ثمّ إذا خوّلناه نعمة منّا قال إنّما أُوتيته على علم » التخييل إلاّ إعطاء على نحو الهبة ، وتقييد النعمة بقوله : « منّا » للدلالة على كون وصف النعمة محفوظاً لها والمعنى خوّلناه نعمة ظاهراً كونها نعمة .

و ضمير « أُوتيته » للنعمة بما أنّه شيء أو مال والعناية في ذلك بالإشارة إلى أنّه لا يعترف بكونها نعمة منّا بل يقطعها عنّا فيسمّيها شيئاً أو مالاً ونحوه ولا يسمّيها نعمة حتّى يضطرّه ذلك إلى الاعتراف بمنعم والإشارة إليه كما قال : « أُوتيته » فصفح عن الفاعل لذلك والتعبيران أعني « نعمة منّا » « إنّما أُوتيته » من لطيف تعبير القرآن ، وقد وجّهوا تذكير الضمير في « أُوتيته » بوجوه آخر غير موجّهة من أَرادها فليرجع إلى المفصّلات .

و الملائم لسياق الآية أن يكون معنى « على علم » على علم منّي أي أُوتيت هذا الذي أُوتيت على علم منّي وخبرة بطرق كسب المعاش واقتناء الثروة وجمع المال . وقيل : المراد إنّما أُوتيته على علم من الله بخير عندي أستحقّ به أن يؤتيني النعمة ؛ وقيل : المراد على علم منّي برضى الله عنّي ، وأنت خير بأنّ ما تقدّم من معنى قوله : « ثمّ إذا خوّلناه نعمة منّا قال إنّما أُوتيته » لا يلائم شيئاً من القولين . وقوله : « بل هي فتنة ولكنّ أكثرهم لا يعلمون » أي بل النعمة الّتي خوّلناه منّا فتنة أي ابتلاء وامتحان نمتحنه بذلك ولكنّ أكثرهم لا يعلمون بذلك .

و قيل : معناه بل تلك النعمة عذاب لهم ، وقيل : المعنى بل هذه المقالة فتنة لهم يعاقبون عليها و الوجهان بعيدان سيما الأخير .

قوله تعالى : « قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون فأصابهم سيئات ما كسبوا » ضمير «قد قالها» راجع إلى القول السابق باعتبار أنه مقالة أو كلمة .

و الآية رد لقولهم و إثبات لكونها فتنة يمتحنون بها بأنهم لو أوتوها على علم منهم و اكتسبوها بحولهم و قوتهم لأغنى عنهم كسبهم و لم يصبهم سيئات ما كسبوا و حفظوها لأنفسهم و تنعموا بها و لم يهلكوا دونها و ليس كذلك هؤلاء الذين قبلهم قالوا هذه المقالة فما أغنى عنهم كسبهم و أصابهم سيئات ما كسبوا .

و الظاهر أن الآية تشير بقوله : « قد قالها الذين من قبلهم » إلى قارون وأمثاله و قد حكى عنه قول « إنما أوتيته على علم مني » في قصته من سورة القصص .

قوله تعالى : « و الذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم ما كسبوا وما هم بمعجزين » الإشارة بهؤلاء إلى قومه عليه السلام و المعنى أن هؤلاء الذين ظلموا من قومك سبيلهم سبيل من قبلهم سيصيبهم سيئات كسبهم و وبالآات عملهم وما هم بمعجزين لله .

قوله تعالى : « أولم يعلموا أن الله ييسط الرزق لمن يشاء و يقدر » الخ جواب آخر عن قول القائل منهم : « إنما أوتيته على علم » و قد كان الجواب الأول « قد قالها الذين من قبلهم » الخ جواباً من طريق النقض و هذا جواب من طريق المعارضة بالإشارة إلى دلالة الدليل على أن الله سبحانه هو الذي ييسط الرزق و يقدر .

بيان ذلك أن سعي الإنسان عن علم وإرادة لتحصيل الرزق ليس سبباً تاماً موجبا لحصول الرزق و إلا لم يتخلف و من البين خلافه فكم من طالب رجع آيساً و ساع خاب سعيه .

فهناك علل و شرائط زمانية و مكانية و موانع مختلفة باختلاف الظروف خارجة عن حد الإحصاء إذا اجتمعت و توافقت أنتج ذلك حصول الرزق .

و ليس اجتماع هذه العلل والشرائط على ما فيها من الاختلاف والتشتت والتفرق من مادة و زمان و مكان و مقتضيات أخر مرتبطة بها مقارنة أو متقدمة و علل العلل و مقدّماتها الذاهبة إلى ما لا يحصى ، اجتماعا و توافقا على سبيل الاتفاق فإن الاتفاق لا يكون دائماً ولا أكثرية و قانون ارتزاق المرتزقين الشامل للموجودات الحية بل المنبسط على أقطار العالم المشهود و أرجائه ثابت محفوظ في نظام جار على ما فيه من السعة و الانبساط ولو انقطع لهلكت الأشياء لأوّل لحظة و من فورها .

و هذا النظام الجاري بوحده و تناسب أجزائه و تلاؤمها يكشف عن وحدانية ناظمه وفردانية مدبره ومديره الخارج عن أجزاء العالم المحفوظة بنفس النظام الباقية به وهو الله عز اسمه .

على أن النظام من التدبير والتدبير من الخلق كما مرّ مراراً فخالق العالم مدبره ومدبره رازقه وهو الله تعالى شأنه .

ويشير إلى هذا البرهان في الآية قوله : « لمن يشاء » فإنه إذا كان بسط الرزق وقدره بمشيئته تعالى لم يكن بمشيئة الإنسان الذي يتبجح بعلمه وسعيه ولا بمشيئة شيء من العلل و الأسباب و إيجابه كما هو ظاهر و ليس من قبيل الاتفاق بل هو على نظام جار فهو بمشيئة جاعل النظام ومجريه وهو الله سبحانه .

و قد تقدّم كلام في معنى الرزق في ذيل قوله تعالى : « و يرزق من يشاء بغير حساب » آل عمران : ٢٧ و سيأتي كلام فيه في تفسير قوله : « ف ورب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون » الذاريات : ٢٣ إن شاء الله تعالى .

﴿ بحث روائى ﴾

في التوحيد عن عليّ عليه السلام في حديث وقد سأله رجل عما اشبه عليه من الآيات قال : وأما قوله : « يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم » وقوله : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » وقوله : « توفته رسلنا وهم لا يفرطون » وقوله : « الذين يتوفاهم الملائكة

ظالمى أنفسهم» وقوله : « الذين تتوفاهم الملائكة طيبين يقولون سلام عليكم» فإن الله تبارك وتعالى يدبر الأمر كيف يشاء ويوكل من خلقه من يشاء بما يشاء أما ملك الموت فإن الله يوكله بخاصته ممن يشاء من خلقه ويوكل رسله من الملائكة خاصة بمن يشاء من خلقه .

وليس كل العلم يستطيع صاحب العلم أن يفسره لكل الناس لأن فيه القوي والضعيف ، ولأن منه ما يطاق حملة ومنه ما لا يطاق حملة إلا أن يسهل الله له حملة وأعانه عليه من خاصة أوليائه .

وإنما يكفيك أن تعلم أن الله المحيي المميت ، وأنه يتوفى النفس على يدي من يشاء من خلقه من ملائكته وغيرهم .

وفي الخصال عن علي عليه السلام في حديث الأربعمائة : لا ينাম المسلم و هو جنب لا ينام إلا على طهور فإن لم يجد الماء فليتمم بالصعيد فإن روح المؤمن ترفع إلى الله تعالى فيقبلها ويبارك عليها فإن كان أجلها قد حضر جعلها في كنوز رحمته وإن لم يكن أجلها قد حضر بعث بها مع أمثائه من ملائكته فيردونها في جسده .

وفي المجمع روى العياشي بالاسناد عن الحسن بن محبوب عن عمرو بن ثابت عن أبي المقدام عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام قال : ما من أحد ينام إلا عرجت نفسه إلى السماء وبقيت روحه في بدنه و صار بينهما سبب كشعاع الشمس فإن أذن الله في قبض الأرواح أجابت الروح النفس وإن أذن الله في رد الروح أجابت النفس الروح وهو قوله سبحانه : « الله يتوفى الأنفس حين موتها » الآية .

فمهما رأت في ملكوت السماوات فهو ممثاله تأويل و ما رأت فيما بين السماء والأرض فهو ممثا يخیله الشيطان ولا تأويل له .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي حاتم و ابن مردويه عن سليم بن عامر أن عمر بن الخطاب قال : العجب من رؤيا الرجل إنه يبيت فيرى الشيء لم يخطر له على بال فيكون رؤياه كأخذ باليد ويرى الرجل الرؤيا فلا يكون رؤياه شيئاً .

فقال علي بن أبي طالب : أفلا أخبرك بذلك يا أمير المؤمنين يقول الله تعالى :

« الله يتوفى الأ نفس حين موتها و التي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت و يرسل الأخرى إلى أجل مسمى » فالله يتوفى الأ نفس كلها فما رأء و هي عنده في السماء فهي الرؤيا الصادقة ، ومارأء إذا أرسلت إلى أجسادها تلقىها الشياطين في الهواء فكذبها و أخبرتها بالأ باطل فعجب عمر من قوله .

اقول : تقدم تفصيل الكلام في الرؤيا في سورة يوسف و الرجوع إليه يعين في فهم معنى الروايتين ، وقد أطلق فيهما السماء على ما اصطلاح عليه بعالم المثل الأعلى العظيم و ما بين السماء و الأرض على ما اصطلاح عليه بعالم المثل الأصغر فتبصر .





قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ
 إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ
 رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ (٥٤) وَ
 اتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً
 وَ أَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٥٥) أَوْ تَقُولُ نَفْسٌ يَا حَسْرَتِي عَلَىٰ مَا فَرَّقْتُ فِي
 جَنبِ اللَّهِ وَ إِن كُنْتُ لَمِنَ السَّاحِرِينَ (٥٦) أَوْ تَقُولُ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي
 لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (٥٧) أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً
 فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٨) بَلَىٰ قَدْ جَاءَكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ
 وَ كُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٥٩) وَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ
 وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ (٦٠) وَ يُنَجِّي اللَّهُ
 الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ الشُّوْءُ وَ لَهُمْ يَحْزَنُونَ (٦١) .

﴿بيان﴾

في الآيات أمره ﷺ أن يدعوهم إلى الإسلام و اتباع ما أنزل الله و يحذّرهم
 عما يستعقبه إسرافهم على أنفسهم من الحسرة و الندامة يوم لا ينفعهم ذلك مع استكبارهم
 في الدنيا على الحقّ و الفوز و النجاة يومئذ للمتقين و النار و الخسران للكافرين ، و في
 لسان الآيات من الرأفة و الرحمة ما لا يخفى .

قوله تعالى : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله »
 الخ أمره ﷻ أن يدعوهم عن قبله و يناديهم بلفظة يا عبادي وفيه تذكير بحجة الله
 سبحانه على دعوتهم إلى عبادته وترغيب لهم إلى استجابه الدعوة أمّا التذكير بالحجة فلا نه
 يشير إلى أنهم عبادوه و هو مولاهم و من حق المولى على عبده أن يطيعه و يعبده فله
 أن يدعوهم إلى طاعته و عبادته ، و أمّا ترغيبهم إلى استجابة الدعوة فلما فيه من الإضافة
 إليه تعالى الباعث لهم إلى التمسك بذيل رحمته و مغفرته .

و قوله : « الذين أسرفوا على أنفسهم » الإسراف - على ما ذكره الراغب - تجاوز
 الحد في كل فعل يفعله الإنسان و إن كان ذلك في الإنفاق أشهر ؛ وكان الفعل مضمناً
 معنى الجنابة أو ما يقرب منها ولذا عدّي بعلى . و الإسراف على النفس هو التعدي
 عليها باقتراف الذنب أعم من الشرك و سائر الذنوب الكبيرة و الصغيرة على ما يعطيه
 السياق .

و قال جمع : إن المراد بالعباد المؤمنون وقد غلب استعماله فيهم مضافاً إليه تعالى
 في القرآن فمعنى يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم أيها المؤمنون المذنبون .
 و يدفعه أن قوله : « يا عبادي الذين أسرفوا » إلى تمام سبع آيات ذو سياق واحد
 متصل يفصح عن دعوتهم و قوله في ذيل الآيات : « بلى قد جاءتك آياتي فكذب بها و
 استكبرت » الخ كالصريح أو هو صريح في شمول العباد للمشركين .

و ما ورد في كلامه تعالى من لفظ « عبادي » و المراد به المؤمنون بضعة عشر مورداً
 جميعها محفوفة بالقرينة وليس بحيث ينصرف عند الإطلاق إلى المؤمنين كما أن الموارد
 التي أطلق فيها و أريد به الأعم من المشرک و المؤمن في كلامه كذلك .

و بالجملة شمول « عبادي » في الآية للمشركين لا ينبغي أن يرتاب فيه ، و القول
 بأن المراد به المشركون خاصة نظراً إلى سياق الآيات كما نقل عن ابن عباس أقرب
 إلى القبول من تخصيصه بالمؤمنين .

و قوله : « لا تقنطوا من رحمة الله » القنوط اليأس ، و المراد بالرحمة بقرينة خطاب
 المذنبين و دعوتهم هو الرحمة المتعلقة بالآخرة دون ماهي أعم الشاملة للدنيا و الآخرة

و من المعلوم أن الذي يقتدر إليه المذنبون من شؤون رحمة الآخرة بلا واسطة هو المغفرة فالمراد بالرحمة المغفرة ولذا علل النهي عن القنوط من الرحمة بقوله : « إن الله يغفر الذنوب جميعا » .

وفي الآية التفات من التكلم إلى الغيبة حيث قيل : « إن الله يغفر » و لم يقل : إنني أغفر و ذلك للإشارة إلى أنه الله الذي له الأسماء الحسنى ومنها أنه غفور رحيم كأنه يقول لا تقنطوا من رحمتي فإنني أنا الله أغفر الذنوب جميعا لأن الله هو الغفور الرحيم .

وقوله : « إن الله يغفر الذنوب جميعا » تعليل للنهي عن القنوط وإعلام بأن جميع الذنوب قابلة للمغفرة فالمغفرة عامة لكنها تحتاج إلى سبب مخصص ولا تكون جزافا ، والذي عدّه القرآن سبباً للمغفرة أمران : الشفاعة^(١) و التوبة لكن ليس المراد في قوله : « إن الله يغفر الذنوب جميعا » المغفرة الحاصلة بالشفاعة لأن الشفاعة لا تنال الشرك بنص القرآن في آيات كثيرة و قد مرّ أيضاً أن قوله : « إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء » النساء : ٤٨ ناظر إلى الشفاعة و الآية أعني قوله : « إن الله يغفر الذنوب جميعا » موردها الشرك و سائر الذنوب .

فلا يبقى إلا أن يكون المراد بالمغفرة الحاصلة بالتوبة وكلامه تعالى صريح في مغفرة الذنوب جميعا حتى الشرك بالتوبة .

على أن الآيات السبع - كما عرفت - كلام واحد ونساق واحد متصل ينهى عن القنوط - وهو تمهيد لما يتلوه - و يأمر بالتوبة و الإسلام و العمل الصالح و ليست الآية الأولى كلاما مستقلا منقطعا عما يتلوه حتى يحتمل عدم تقييد عموم المغفرة فيها بالتوبة و أي سبب آخر مفروض للمغفرة .

و الآية أعني قوله : « إن الله يغفر الذنوب جميعا » من معارك الآراء بينهم فقد ذهب قوم إلى تقييد عموم المغفرة فيها بالشرك و سائر الكبائر التي وعد الله عليها النار مع عدم تقييد العموم بالتوبة فالمغفرة لا تنال إلا الصغائر من الذنوب .

(١) و قد مر الكلام فيها في مباحث الشفاعة في الجزء الاول من الكتاب .

و ذهب آخرون إلى إطلاق المغفرة و عدم تقيدها بالتوبة و لا بسبب آخر من أسباب المغفرة غير أنهم قيّدوها بالشرك لصراحة قوله : «إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء» الآية فاستنتجوا عموم المغفرة و إن لم يكن هناك سبب مخصّص يرجّح المذهب المغفور له على غيره في مغفرته كالتوبة و الشفاعة و هي المغفرة الجزائية و قد استدّلوا على^(١) ذلك بوجوه غير سديدة .

و أنت خير بأنّ مورد الآية هو الشرك و سائر الذنوب ، و من المعلوم من كلامه تعالى أنّ الشرك لا يغفر إلّا بالتوبة فتقيّد إطلاق المغفرة في الآية بالتوبة ممّا لا مفرّ منه .
قوله تعالى : «وَأُنبِئُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلُمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ» عطف على قوله : « لا تقنطوا » ، و الإجابة إلى الله الرجوع إليه و هو التوبة ، و قوله : « إلى ربكم » من وضع الظاهر موضع المضمّر و كان مقتضى الظاهر أن يقال : و أنبئوا إليه و الوجه فيه الإشارة إلى التعليل فإنّ الملاك في عبادة الله سبحانه صفة ربوبيّته .
و المراد بالإسلام التسليم لله و الانقياد له فيما يريد ، و إنّما قال : « و أسلموا له » و لم يقل : و آمنوا به لأنّ المذكور قبل الآية و بعدها استكبارهم على الحقّ و المقابل له الإسلام .

و قوله : « من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون » متعلّق بقوله : « أنبئوا و أسلموا » و المراد بالعذاب عذاب الآخرة بقرينة الآيات التالية ، و يمكن على بعد أن يراد مطلق العذاب الذي لا تقبل معه التوبة و منه عذاب الاستئصال قال تعالى : «فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا سنة الله التي قد خلت في عباده » المؤمن : ٨٥ .
و المراد بقوله : « ثم لا تنصرون » أنّ المغفرة لا تدرّككم بوجه لعدم تحقّق سببها فالتوبة مفروضة العدم و الشفاعة لا تشمل الشرك .

(١) وقد استدلّ الألوسي في روح المعاني على عدم تقيّد إطلاق المغفرة في الآية بالتوبة بسبعة عشر وجها لا تغني طائلا ، و ناقش في كون المغفرة لا عن سبب مرجح من التوبة و غيرها منافيا للحكمة ثم قيد الآية بتقدير «لمن يشاء» لوقوعه في بعض القراءات غير المشهورة فراجع ان شئت .

قوله تعالى : « و اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة و أنتم لاتشعرون » الخطاب عام للمؤمن والكافر كالخطابات السابقة والقرآن قد أنزل إلى الفريقين جميعا .

و في الآية أمر باتّباع أحسن ما أنزل من الله قيل : المراد به اتّباع الأحكام من الحلال و الحرام دون القصص ، و قيل : اتّباع ما أمر به و نهى عنه كالتيان الواجب و المستحب و اجتناب الحرام و المكروه دون المباح ، و قيل : الاتّباع في العزائم و هي الواجبات و المحرّمات ، و قيل : اتّباع الناسخ دون المنسوخ ، و قيل : ما أنزل هو جنس الكتب السماوية و أحسنها القرآن فاتّباع أحسن ما أنزل هو اتّباع القرآن .

و الإيضاح أن قوله في الآية السابقة : « و أسلموا له » يشمل مضمون كل من هذه الأقوال فحمل قوله : « و اتبعوا أحسن ما أنزل إليكم » على شيء منها لا يخلو عن تكرار من غير موجب .

و لعلّ المراد من أحسن ما أنزل الخطابات التي تشير إلى طريق استعمال حقّ العبودية في امثال الخطابات الإلهية الاعتقادية و العملية و ذلك كالخطابات الداعية إلى ذكر الله تعالى بالاستغراق و إلى حبه و إلى تقواه حقّ ثقافته و إلى إخلاص الدين له فإنّ اتّباع هذه الخطابات يحيي الإنسان حياة طيبة و ينفخ فيه روح الإيمان و يصلح أعماله و يدخله في ولاية الله تعالى و هي الكرامة ليست فوقها كرامة .

و قوله : « من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة و أنتم لاتشعرون » أنسب لهذا المعنى فإنّ الدعوة إلى عمل بالتخويف من مفاجاة الحرمان ومباغتة المانع إنّما تكون غالبا فيما يساهل المدعو في أمره و يطيب نفسه بسوف و لعلّ ، و هذا المعنى أمسّ باصلاح الباطن منه باصلاح الظاهر و الايتان بأجساد الأعمال ، و يقرب منه قوله تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا استجبوا لله و للرسول إذا دعاكم لما يحييكم و اعلموا أن الله يحول بين المرء و قلبه » الأنفال : ٢٤ .

قوله تعالى : « أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله » النخ قال

في المجمع : التفريط إهمال ما يجب أن يتقدم فيه حتى يفوت وقته ، و قال : التحسر
الاعتناء بمآفات وقته لانحساره عنه بما لا يمكن استدراكه . انتهى . و قال الراغب :
الجنب الجارحة . قال : ثم يستعار في الناحية التي تليها لعادتهم في استعارة سائر الجوارح
لذلك نحو اليمين و الشمال . انتهى . فجنب الله جانبه و ناحيته و هي ما يرجع إليه
تعالى مما يجب على العبد أن يعامله و مصداق ذلك أن يعبد وحده و لا يعصيه و التفريط
في جنب الله التقصير في ذلك .

و قوله : « و إن كنت لمن الساخرين » « إن » مخففة من الثقيلة ، و الساخرين
اسم فاعل من سخر بمعنى استهزء .

و معنى الآية إنَّما نخاطبكم بهذا الخطاب حذر أن تقول أو لثلاً تقول نفس
منكم يا حسرتا على ما قصرت في جانب الله وإنِّي كنت من المستهزئين ، و موطن القول
يوم القيامة .

قوله تعالى : « أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين » ضمير تقول
للنفس ، و المراد بالهداية الإرشاد و إراءة الطريق ، و المعنى ظاهر وهو قطع للعدر .
قوله تعالى : « أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة فأكون من المحسنين »
لو للتمني و الكرة الرجعة و المعنى أو تقول نفس متمنية حين ترى العذاب يوم القيامة :
ليت لي رجعة إلى الدنيا فأكون من المحسنين .

قوله تعالى : « بلى قد جاءتك آياتي فكذب بها واستكبرت و كنت من الكافرين »
رد لها و جواب لخصوص قولها ثانيا : لو أن الله هداني لكنت من المتقين « و موطن
الجواب يوم القيامة كما أن موطن القول ذلك و لسياق الجواب شهادة عليه .
و قد فصل بين قولها و جوابه بقوله : « أو تقول حين ترى » النخ و لم يجب إلا عن
قولها : « لو أن الله هداني » النخ .

و الوجه في الفصل أن الأقوال الثلاثة المنقولة عنها مرتبة على ترتيب صدورها
عن المجرمين يوم القيامة فإذا قامت القيامة و رأى المجرمون أن اليوم يوم الجزاء
بالأعمال و قد فرطوا فيها و فاتهم وقتها تحسروا على ما فرطوا و نادوا بالحسرة على

تفريطهم « يا حسرتا على ما فرطت » قال تعالى : « حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها » الأنعام : ٣١ .

ثم إذا حوسبوا وأمر المتقون بدخول الجنة وقيل « وامتازوا اليوم أيها المجرمون » يس : ٥٩ تعللوا بقولهم : « لو أن الله هداني لكنت من المتقين » .

ثم إذا أمروا بدخول النار فأوقفوا عليها ثم أدخلوا فيها تمنوا الرجوع إلى الدنيا ليحسنوا فيها فيسعدوا « أو تقول حين ترى العذاب لو أن لي كرة » قال تعالى : « و لو ترى إن وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا و نكون من المؤمنين » الأنعام : ٢٧ ، وقال حاكيا عنهم : « ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون » المؤمنون : ١٠٧ .

ثم لما نقل الأقوال على ما بينها من الترتيب أخذ في الجواب ولو أخرج القول المجاب عنه حتى يتصل بالجواب أو قدم الجواب حتى يتصل به اختل النظم ^(١) .

وقد خص قولهم الثاني : « لو أن الله هداني » الخ بالجواب و أمسك عن جواب قولهم الأول والثالث لأن في الأول حديث استهزأهم بالحق وأهله وفي الثالث تمنيتهم للرجوع إلى الدنيا والله سبحانه يزجر هؤلاء يوم القيامة ويمنعهم أن يكلموه ولا يجيب عن كلامهم كما يشير إلى ذلك قوله : « قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا و كنّا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون قال اخسؤا فيها ولا تكلمون إنه كان فريق من عبادي يقولون ربنا آمنتنا فأغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين فاتخذتموهم سخرياً حتى أنسوكم ذكراً وكنتم منهم تضحكون إنني جزيتهم اليوم بما صبروا أنتم هم الفائزون » المؤمنون : ١١١ .

قوله تعالى : « و يوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس في جهنم مثوى للمتكبرين » الكذب على الله هو القول بأن له شريكاً وأن له ولداً ومنه البدعة في الدين .

(١) وأصل الوجه مأخوذ من تفسير أبي السعود بإصلاح منا .

و سواد الوجه آية الذلّة وهي جزاء تكبرهم ولذا قال : « أليس في جهنّم مثوى للمتكبرين » .

قوله تعالى : «وينجيّ الله الذين اتقوا بمقازتهم لا يمسّهم السوء ولا هم يحزنون»
الظاهر أن مقازة مصدر ميميّ بمعنى الفوز وهو الظفر بالمراد ، و الباء في « بمقازتهم»
للملابسة أو السبيّة فالفوز الذي يقضيه الله لهم اليوم سبب تنجيتهم .
وقوله : « لا يمسّهم » الخ بيان لتنجيتهم كأنه قيل : ينجيهم لا يمسّهم السوء
من خارج ولا هم يحزنون في أنفسهم .

و للآية نظر إلى قوله تعالى في ذيل آيات سورة المؤمنون المنقولة آنفا : « إنّي جزيتهم اليوم بما صبروا أنّهم هم الفائزون » فتدبر ولا تغفل .

﴿ بحث روائى ﴾

في المجمع عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال : ما في القرآن آية أوسع من « يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم » الآية .

أقول : ورواه في الدر المنثور عن ابن جرير عن ابن سيرين عنه عليه السلام ، وستأتي
إن شاء الله في تفسير سورة الليل الرواية عنه عليه السلام أن قوله تعالى : « ولسوف يعطيك ربك فترضى » أرجى من هذه الآية .

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه والبيهقي
في شعب الإيمان عن ثوبان قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : ما أحبّ أن لي
الدنيا وما فيها بهذه الآية « يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم » إلى آخر الآية .
فقال رجل : يا رسول الله فمن أشرك ؟ فسكت النبي صلى الله عليه وآله ثمّ ظ قال : إلامن أشرك .
أقول : في الرواية شيء فقد تقدّم أن مورد الآية هو الشرك وأن الآية
مقيّدة بالتوبة .

و فيه أخرج ابن أبي شيبة و مسلم عن أبي أيوب الأنصاريّ سمعت رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول : لولا أنّكم تذنّبون لخلق الله خلقا يذنّبون فيغفر لهم .

اقول: ما في الحديث من المغفرة لا يابى التقيّد بأسباب المغفرة كالتوبة والشفاعة. وفي المجمع قيل: هذه الآية يعني قوله: «يا عبادي الذين أسرفوا» الخ نزلت في وحشي قاتل حمزة حين أراد أن يسلم وخاف أن لا تقبل توبته فلمّا نزلت الآية أسلم فقيل: يا رسول الله هذه له خاصّة أم للمسلمين عامّة؟ فقال ﷺ: بل للمسلمين عامّة. وعن كتاب سعد السعود لابن طاوس نقلا عن تفسير الكلبي: بعث وحشي وجماعة إلى النبي ﷺ أنّه ما يمنعنا من دينك إلّا أنّنا سمعناك تقرأ في كتابك أن من يدعو مع الله إلها آخر و يقتل النفس و يزني يلقأثاما و يخلد في العذاب و نحن قد فعلنا ذلك كلّ فبعث إليهم بقوله تعالى: «إلا من تاب وآمن وعمل صالحا» فقالوا: نخاف أن لا نعمل صالحاً.

فبعث إليهم «إن الله لا يغفر أن يشرك به و يغفر ما دون ذلك لمن يشاء» فقالوا نخاف أن لا ندخل في المشيئة. فبعث إليهم «يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا» فجاءوا وأسلموا.

فقال النبي ﷺ لوحشي قاتل حمزة: غيب وجهك عني فإنّي لا أستطيع النظر إليك. قال: فالحق بالشام فمات في الخمر.

اقول: و روى ما يقرب منه في الدر المنثور بعدة طرق وفي بعضها أن قوله: «يا عبادي الذين أسرفوا» الخ نزل فيه كما في خير المجمع السابق، و يضعفه أن السورة مكّيّة وقد أسلم وحشي بعد الهجرة. على أن ظاهر الخبر عدم تقيّد إطلاق المغفرة في الآية بالتوبة وقد عرفت أن السياق يأباه.

وقوله: فمات في الخمر لعلّه بفتح الخاء و تشديد الميم موضع من أعراض المدينة و لعلّه من غلط الناسخ و الصحيح الحمص، و لعل المراد به موته عن شرب الخمر فإنّه كان مدمنا الخمر و قد جلد في ذلك غير مرّة ثم ترك.

و اعلم أن هناك روايات كثيرة عن أئمة أهل البيت ﷺ في تطبيق هذه الآيات على شيعتهم و تطبيق جنب الله عليهم و هي جميعا من الجري دون التفسير و لذا تركنا إيرادها ههنا.



اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢) لَهُ مَقَالِيدُ
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٣)
 قُلْ أَغْفِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَنِي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ (٦٤) وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَ
 إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَنْ أَشْرَكَتَ لِيَجْبَطُنَّ عَمَلُكَ وَ لَتَكُونَنَّ مِنَ
 الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهُ فَاعْبُدْ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَ مَا قَدَرُوا اللَّهَ
 حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ
 سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٦٧) وَنَفَخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ
 وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نَفَخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ (٦٨)
 وَاشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ
 وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٩) وَ وَقِيتَ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ
 وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ (٧٠) وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّىٰ
 إِذَا جَاؤُهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ
 آيَاتِ رَبِّكُمْ وَ يُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَ لَكِنْ حَقَّتْ
 كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٧١) قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا
 فَبِمَا كَفَرْتُمْ مَثْوًى الْأَمْتَكِبِينَ (٧٢) وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا

حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ (٧٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (٧٤) وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٧٥).

﴿بيان﴾

فصل من الآيات به تختتم السورة يذكر فيه خلاصة ما تنتججه الحجج المذكورة فيها قبل ذلك ثم يؤمر ﷺ أن يخاطب المشركين أن ما اقترحوا به عليه أن يعبد آلهتهم ليس إلا جهلاً بمقامه تعالى و يذكر النبي ﷺ ما أوحى إليه وإلى الذين من قبله : لئن أشرك ليحبطن عمله .

ثم يذكر سبحانه أن المشركين ما عرفوه واجب معرفته وإلا لم يرتابوا في ربوبيته لهم ولا عبدوا غيره ثم يذكر تعالى نظام الرجوع إليه وهو تدبير جانب المعاد من الخلقة ببيان جامع كاف لا مزيد عليه و يختتم السورة بالحمد .

قوله تعالى : « الله خالق كل شيء » هذا هو الذي ذكر اعتراف المشركين به من قبل في قوله : « و لئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله » الآية ٣٨ من السورة و بنى عليه استناد الأشياء في تدبيرها إليه .

و الجملة في المقام تمهيد لما يذكر بعدها من كون التدبير مستنداً إليه لما تقدم مراراً أن الخلق لا ينفك عن التدبير فانتقل في المقام من استناد الخلق إليه إلى اختصاص الملك به وهو قوله : « له مقاليد السماوات والأرض » ومن اختصاص الملك به إلى كونه هو الوكيل على كل شيء القائم مقامه في تدبير أمره .

وقد تقدم في ذيل قوله : « ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو خالق كل شيء »

الأنعام : ١٠٢ في الجزء السابع من الكتاب كلام في معنى عموم الخلقة لكل شيء .
قوله تعالى : « و هو على كل شيء وكيل » وذلك لأن انتهاء خلق كل شيء
 وجوده إليه يقتضي أن يكون تعالى هو المالك لكل شيء فلا يملك شيء من الأشياء
 لانفسه ولا شيئاً مما يترشح من نفسه إلا بتملك الله تعالى ، فهو لفقره مطلقاً لا يملك
 تدييراً و الله المالك لتدييره .

و أما تملكه تعالى له نفسه و عمله فهو أيضاً نوع من تدييره تعالى مؤكّد ملكه
 غير ناف له ولا مناف حتّى أن توكيله الملائكة على شيء من الأمر من شؤون وكالته
 تعالى عليهم لا تفويض للأمر وإبطال للوكالة فافهم ذلك .
 و بالجملة إذ كان كل شيء من الأشياء لا يملك لنفسه شيئاً كان سبحانه هو الوكيل
 عليه القائم مقامه المدبّر لأمره والأسباب والمسببات في ذلك سواء فالله سبحانه هو
 ربّها وحده .

فقد تبين أن الجملة مسوقة للإشارة إلى توحّده في الربوبية و هو المقصود
 بيانه فقول بعضهم إن ذكر ذلك بعد قوله : « الله خالق كل شيء » للدلالة على أنه
 هو الغني المطلق وأن المنافع والمضار راجعة إلى العباد ، أو أن المراد أنه تعالى
 حفيظ على كل شيء فيكون إشارة إلى الأشياء محتاجة إليه في بقائها كما أنها محتاجة
 إليه في حدوثها ، أجنبي عن معنى الآية بالمرّة .

قوله تعالى : « له مقاليد السماوات والأرض » الخ المقاليد - كما قيل - بمعنى
 المفاتيح ولا مفرد له من لفظه .

و مفاتيح السماوات والأرض مفاتيح خزائنها قال تعالى : « ولله خزائن السماوات
 والأرض » المنافقون : ٧ و خزائنها غيبها الذي يظهر منه الأشياء والنظام الجاري
 فيها فتخرج إلى الشهادة قال تعالى : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه و ما ننزله إلا
 بقدر معلوم » الحجر : ٢١ .

و ملك مقاليد السماوات والأرض كناية عن ملك خزائنها التي منها وجودات
 الأشياء و أرزاقها و أعمارها وآجالها و سائر ما يواجهها في مسيرها من حين تبتدىء

منه تعالى إلى حين ترجع إليه .

و هو أعني قوله : « له مقاليد » الخ في مقام التعليل لقوله : « و هو على كل شيء وكيل » ولذا جيء به مفصلاً من غير عطف .

وقوله : « والذين كفروا بآيات ربهم أولئك هم الخاسرون » قد تقدم أن قوله : « الله خالق كل شيء - إلى قوله - والأرض » ذكر خلاصة ما تفيدته الحجج المذكورة في خلال الآيات السابقة ، و عليه فقوله : « والذين كفروا بآيات ربهم » الخ معطوف على قوله : « الله خالق كل شيء » والمعنى الذي تدل عليه الآيات والحجج المتقدمة أن الله سبحانه خالق فمالك فوكيل على كل شيء أي متوحد في الربوبية والألوهية والذين كفروا بآيات ربهم فلم يوحدوه ولم يعبدوه أولئك هم الخاسرون .

وقد اختلفوا فيما عطف عليه قوله : « والذين كفروا » الخ فذكروا فيه وجوها مختلفة كثيرة لاجدوى فيها من أرادها فليرجع إلى المطولات .

قوله تعالى : « قل أغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون » لما أورد سبحانه خلاصة ما تنطق به الحجج المذكورة في السورة من توحده تعالى بالخلق والملك والتدبير و لازم ذلك توحده تعالى في الربوبية والألوهية أمر نبيه ﷺ أن يخاطب المشركين المقترحين عليه أن يعبد آلهتهم أنه لا يبقى مع هذه الحجج الباهرة الظاهرة محل لعبادته غير الله وإجابة اقتراحهم وهل هي إلا الجهل ؟

فقوله : « أغير الله تأمروني أعبد » الفاء لتفريع مضمون الجملة على قوله : « الله خالق كل شيء » إلى آخر الآيتين ، والاستفهام إنكاري ، و « غير الله » مفعول « أعبد » قدّم عليه لتعلق العناية به ، و « تأمروني » معترض بين الفعل ومفعوله وأصله تأمروني أدغمت فيه إحدى النونين في الأخرى .

وقوله : « أيها الجاهلون » خطابهم بصفة الجهل للإشارة إلى أن أمرهم إتياء بعبادة غير الله واقتراحهم بذلك مع ظهور آيات وحدته في الربوبية والألوهية ليس إلا جهلاً منهم .

قوله تعالى : « ولقد أوحى إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن »

عملك « الخ فيه تأييد لمداول الحجج العقلية المذكورة بالوحي كأنه قيل : لا تعبد غير الله فإنه جهل وكيف يسوغ لك أن تعبدته وقد دلّ الوحي على النهي عنه كما دلّ العقل على ذلك .

فقوله : « ولقد أُوحي إليك » اللام للقسم ، وقوله : « لئن أشركت ليحبطن عملك » بيان لما أُوحي إليه ، وتقدير الكلام وأقسم لقد أُوحي إليك لئن أشركت الخ وإلى الذين من قبلك من الأنبياء والرسل لئن أشركتم ليحبطن عملكم ولتكونن من الخاسرين .

و خطاب النبي ﷺ وسائر الأنبياء عليهم السلام بالنهي عن الشرك وإنذارهم بحبط العمل والدخول في زمرة الخاسرين خطاب وإنذار على حقيقة معناها كيف ؟ وغرض السورة - كما تقدّم - الإشارة إليه - بيان أن النبي ﷺ مأمور بالإيمان بما يدعو المشركين إلى الإيمان به مكلف بما يكلفهم ولا يسعه أن يجيبهم إلى ما يقترحون به عليه من عبادة آلهم .

و أما كون الأنبياء معصومين بعصمة إلهية يمتنع معها صدور المعصية عنهم فلا يوجب ذلك سقوط التكليف عنهم وعدم صحة توجهه إليهم ولو كان كذلك لم تتصور في حقهم معصية كسائر من لا تكليف عليه فلم يكن معنى لعصمتهم .

على أن العصمة - وهي قوة يمتنع معها صدور المعصية - من شؤون مقام العلم - كما تقدّم - الإشارة إليه في تفسير قوله تعالى : « وما يضلّون إلا أنفسهم وما يضرونك من شيء » النساء : ١١٣ - لاتنافي ثبوت الاختيار الذي هو من شؤون مقام العمل وصحة صدور الفعل والترك عن الجوارح .

فمنع العلم القطعي بمفسدة شيء منعاً قطعياً عن صدوره عن العالم به كمنع العلم بأثر السم عن شربه لا ينافي كون العالم بذلك مختاراً في الفعل لصحة صدوره ولا صدوره عن جوارحه فالعصمة لاتنافي بوجه التكليف .

ومما تقدّم يظهر ضعف ما يستفاد من بعضهم أن نهيه ﷺ عن الشرك ونحوه نهى صوري والمراد به نهى أمته فهو من قبيل « إنيك أعني واسمعي يا جارة » .

و وجه الضعف ظاهر ممّا تقدّم ، و أمّا قولنا كما ورد في بعض الروايات أنّ هذه الخطابات القرآنيّة من قبيل « إِيَّاكَ أَعْنِي و اسمعي يا جارة » فمعناه أنّ التكليف لما كان من ظاهر أمره أنّ يتعلّق بمن يجوز عليه الطاعة و المعصية فلو تعلّق بمن ليس منه إلّا الطاعة مع مشاركة غيره له كان ذلك تكليفاً على وجه أبلغ كاللكناية التي هي أبلغ من التصريح .

و قوله : « و لتكوننّ من الخاسرين » ظهر معناه ممّا تقدّم و يمكن أن يكون اللّام في الخاسرين مفيداً للعهد و المعنى و لتكوننّ من الخاسرين الذين كفروا بآيات الله و أعرضوا عن الحجج الدالّة على وحدانيّته .

قوله تعالى : « بل الله فاعبدوكن من الشاكرين » إضراب عن النهي المفهوم من سابق الكلام كأنّه قيل : فلا تعبد غير الله بل الله فاعبد ، و تقديم اسم الجلالة للدلالة على الحصر .

والفاء في « فاعبد » زائدة للتأكيد على ما قيل ، و قيل : هي فاء الجزاء و قد حذف شرطه و التقدير بل إن كنت عابداً أو عاقلاً فاعبد الله .

و قوله : « و كن من الشاكرين » أي و كن بعبادتك له من الذين يشكرونه على نعمه الدالّة على توحّده في الربوبيّة و الألوهيّة ، و قد تقدّم في تفسير قوله تعالى : « و سيجزي الله الشاكرين » آل عمران : ١٤٤ و قوله : « و لا تجد أكثرهم شاكرين » الأعراف : ١٧ أنّ مصداق الشاكرين بحقيقة معنى الكلمة هم المخلصون بفتح اللّام فراجع .

قوله تعالى : « و ما قدروا الله حقّ قدره » إلى آخر الآية قدر الشيء هو مقداره و كميّته من حجم أو عدد أو وزن و ما أشبه ذلك ثمّ استعير للمعنويّات من المكانة و المنزلة .

فقوله : « و ما قدروا الله حقّ قدره » تمثيل أريد به عدم معرفتهم به تعالى واجب المعرفة إذ لم يعرفوه من حيث المعاد و رجوع الأشياء إليه كما يدلّ عليه تعقيب الجملة بقوله : « و الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة » إلى آخر السورة حيث ذكر فيه انقطاع

كل سبب دونه يوم القيامة ، وقبضه الأرض وطبته السماوات ونفخ الصور لإماتة الكل ثم لا حياتهم وإشراق الأرض بنور ربها ووضع الكتاب والمجيء بالنبئين والشهداء والقضاء وتوفية كل نفس ما عملت وسوق المجرمين إلى النار والمتقين إلى الجنة فمن كان شأنه في الملك والتصرف هذا الشأن وعرف بذلك أوجبت هذه المعرفة الأقبال إليه بعبادته وحده والإعراض عن غيره بالكلية .

لكن المشركين لما لم يؤمنوا بالمعاد ولم يقدروه حق قدره ولم يعرفوه واجب معرفته أعرضوا عن عبادته إلى عبادة من سواه .

وقوله : « والأرض جميعا قبضته يوم القيامة » أي الأرض بما فيها من الأجزاء والأسباب الفعالة بعضها في بعض ، والقبضة مصدر بمعنى المقبوضة ، والقبض على الشيء و كونه في القبضة كناية عن التسلط التام عليه أو انحصار التسلط عليه في القابض والمراد ههنا المعنى الثاني كما يدل عليه قوله تعالى : « والآخر يومئذ لله » الانفطار : ١٩ وغيره من الآيات .

وقد مر مرارا أن معنى انحصار الملك والأمر والحكم والسلطان وغير ذلك يوم القيامة فيه تعالى ظهور ذلك لأهل الجمع يومئذ وإلا فهي له تعالى دائما فمعنى كون الأرض جميعا قبضته يوم القيامة ظهور ذلك يومئذ للناس لا أصله .

وقوله : « والسماوات مطويات بيمينه » يمين الشيء يده اليمنى وجانبه القوي ويكنى بها عن القدرة ، ويستفاد من السياق أن محصل الجملتين أعني قوله : « والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه » تقطع الأسباب الأرضية والسماوية وسقوطها وظهور أن لا مؤثر في الوجود إلا الله سبحانه .

وقوله : « سبحانه وتعالى عما يشركون » تنزيه له تعالى عما أشركوا غيره في ربوبيته وألوهيته فنسبوا تدبير العالم إلى آلهتهم وعبدوها .

قوله تعالى : « ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء الله » النخ ظاهر ما ورد في كلامه تعالى في معنى نفخ الصور أن النفخ نفختان نفخة للإماتة ونفخة للإحياء، وهو الذي تدل عليه روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام وبعض

ماورد من طرق أهل السنة عن النبي ﷺ وإن كان بعض آخر من رواياتهم لا يخلو عن إبهام و لذا اختار بعضهم أنها ثلاث نفحات نفخة للإماتة و نفخة للإحياء و البعث و نفخة للفرع و الصق و قال بعضهم : إنها أربع نفحات و لكن دون إثبات ذلك من ظواهر الآيات خرط القتاد .

و لعلّ انحصار النفخ في نفختي الإماتة و الإحياء هو الموجب لتفسيرهم الصق في النفخة الأولى بالموث مع أن المعروف من معنى الصق الغشية قال في الصحاح : يقال : صق الرجل صقاً و تصعاقاً أي غشي عليه و أصعقه غيره ، ثم قال : و قوله تعالى : « فصعق من في السماوات و من في الأرض » أي مات . انتهى .

و قوله : « إلا من شاء الله » استثناء من أهل السماوات و الأرض و اختلف في

من هم ؟

ف قيل : هم جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل و عزرائيل سادة الملائكة فإنهم إنما يموتون بعد ذلك ، و قيل : هم هؤلاء الأربعة و حملة العرش ، و قيل : هم رضوان و الحور و مالك و الزبانية ، و قيل : و هو أسخف الأقوال : إن المراد بمن شاء الله هو الله سبحانه . و أنت خبير بأن شيئاً من هذه الأقاويل لا يستند إلى دليل من لفظة الآيات يصح الاستناد إليه .

نعم لو تصوّر لله سبحانه خلق وراء السماوات و الأرض جاز استثناءهم من أهلها استثناء منقطعاً أو قيل : إن الموت إنما ياحق الأجساد بانقطاع تعلق الأرواح بها و أما الأرواح فإنها لا تموت فلا أرواح هم المستثنون استثناء متصلاً ، و يؤيد هذا الوجه بعض^(١) الروايات المروية عن أئمة أهل البيت عليه السلام .

و قوله : « و نفخ فيه أخرى فإنها قيام ينظرون » ضمير « فيه » للصور ، و « أخرى » صفة محذوف موصوفها أي نفخة أخرى ، و قيام جمع قائم و « ينظرون » أي ينتظرون أو من النظر بمعناه المعروف .

(١) و هو ما ورد في قوله تعالى : « لمن الملك اليوم ، المومن : ١٦ » أن الجواب

بقوله : « الله الواحد القهار » من أرواح الانبياء و غير ذلك من الروايات .

والمعنى ونفخ في الصور نفخة أخرى فإِذَهِم قائمون من قبورهم ينتظرون ما يؤمرون أو ينتظرون ماذا يفعل بهم أو فإِذَهِم قائمون ينتظرون نظر المبهوتين المتهتيرين .
ولا ينافي ما في هذه الآية من كونهم بعد النفخ قياما ينتظرون ما في قوله : « ونفخ في الصور فإِذَهِم من الأحداث إلى ربهم ينسلون » يس : ٥١ أي يسرعون ، وقوله : « يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا » النبأ : ١٨ ، وقوله : « يوم ينفخ في الصور ففرع من في السماوات ومن في الأرض » النمل : ٨٧ فإن فرعهم بالنفخ وإسراعهم في المشي إلى عرصة المحشر وإتيانهم إليها أفواجا كقيامهم ينتظرون حوادث متقارنة لا يدفع بعضها بعضا .

قوله تعالى : « وأشرق الأرض بنور ربها » إلى آخر الآية إشراق الأرض إضاءةها ، والنور معروف المعنى وقد استعمل النور في كلامه تعالى في النور الحسي كثيرا وأطلق أيضا على الإيمان وعلى القرآن بعناية أن كلا منهما يظهر للمتلبس به ما خفي عليه لولاه قال تعالى : « الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور » البقرة : ٢٥٧ ، وقال : « فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا » التغابن : ٨ .
وقد اختلفوا في معنى إشراق الأرض بنور ربها ف قيل : إنها تضيء بنور يخلقه الله بلا واسطة أجسام مضيئة كالشمس والقمر وإضافته إليه تعالى من قبيل « روعي » و « ناقة الله » .

وفيه أنه لا يستند إلى دليل يعتمد عليه .
وقيل : المراد به تجلي الرب تعالى لفصل القضاء كما ورد في بعض الأخبار من طرق أهل السنة .

وفيه أنه على تقدير صحة الرواية لا يدل على المدعى .
وقيل : المراد به إضاءة الأرض بعدل ربها يوم القيامة لأن نور الأرض بالعدل كما أن نور العلم بالعمل .

وفيه أن صحة استعارة النور للعدل في نفسه لا تستلزم كون المراد بالنور في الآية هو العدل إلا بدليل يدل عليه ولم يأت به .

و في الكشف : قد استعار الله عز وجل النور للحق والبرهان في مواضع من التنزيل و هذا من ذلك ، و المعنى و أشرقت الأرض بما يقيمها من الحق و العدل و يبسطه من القسط في الحساب و وزن الحسنات والسيئات .

و ينادي عليه بأنه مستعار إضافته إلى اسمه لأنه هو الحق العدل ، و إضافة اسمه إلى الأرض لأنه يزيئها حيث ينشر فيها عدله و ينصب فيها موازين قسطه ، و يحكم بالحق بين أهلها ، و لا ترى أزين للباق من العدل و لا أمر لها منه ، و في هذه الإضافة أن ربها و خالقها هو الذي يعدل فيها و إنما يجور فيها غير ربها ، ثم ما عطف على إشراق الأرض من وضع الكتاب و المجيء بالنبيين و الشهداء و القضاء بالحق و هو النور المذكور ، و ترى الناس يقولون للملك العادل : أشرقت الآفاق بعدلك و أضاءت الدنيا بقسطك كما تقول : أظلمت البلاد بجور فلان قال رسول الله صلى الله عليه و سلم : الظلم ظلمات يوم القيامة و كما فتح الآية بإثبات العدل ختمها بنفي الظلم . انتهى .

و فيه أو لا أن قوله إن النور مستعار في مواضع كثيرة من القرآن للحق و القرآن و البرهان فاستعارته للحق و البرهان غير ظاهر في شيء من الآيات .

و ثانيا أن الحق و العدل مفهومان متغايران و إن كانا ربما يتصادقان و كون النور في الآية مستعاراً للحق لا يستلزم كون العدل مراداً به ، و لذا لما أراد بيان إرادة العدل من النور ذكر الحق مع العدل ثم استنتج للعدل دون الحق .

و لا يبعد أن يراد - و الله أعلم - من إشراق الأرض بنور ربها ما هو خاصة يوم القيامة من انكشاف الغطاء و ظهور الأشياء بحقائقها و بدو الأعمال من خير أو شر أو طاعة أو معصية أو حق أو باطل للناظرين ، و إشراق الشيء هو ظهوره بالنور و لا ريب أن مظهرها يومئذ هو الله سبحانه إذ الأسباب ساقطة دونه فالأشياء مشرقة بنور مكسب منه تعالى .

و هذا الإشراق و إن كان عاماً لكل شيء يسعه النور لكن لما كان الغرض بيان ما للأرض و أهلها يومئذ من الشأن خصها بالبيان فقال : « و أشرقت الأرض بنور ربها »

وذكره تعالى بعنوان ربوبيّة الأرض تعريضاً للمشركين المنكرين لربوبيّته تعالى للأرض وما فيها .

و المراد بالأرض مع ذلك الأرض وما فيها و ما يتعلق بها كما تقدّم أن المراد بالأرض في قوله : « و الأرض جميعاً قبضته » ذلك .

و يستفاد ما قدّمناه من مواضع كثيرة من كلامه تعالى كقوله تعالى : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ق : ٢٢ و قوله : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً و ما عملت من سوء » آل عمران : ٣٠ ، و قوله : « يومئذ تحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها يومئذ يصدر الناس أشتاتاً ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره و من يعمل مثقال ذرة شراً يره » الزلزال : ٨ و آيات أخرى كثيرة تدلّ على ظهور الأعمال و تجسّمها و شهادة الأعضاء و غير ذلك .

وقوله : « و وضع الكتاب » قيل : المراد به الحساب وهو كما ترى وقيل : المراد به صحائف الأعمال التي يحاسب عليها و يقضى بها ، و قيل : المراد به اللوح المحفوظ و يؤيّد قوله تعالى : « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق » إنّا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون » الجاثية : ٢٩ .

و قوله : « و جيء بالنبيين و الشهداء » أمّا النبيّون فليسلّوا عن أداء رسالتهم كما يشعر به السياق قال تعالى : « و لنسألنّ الذين أرسل إليهم و لنسألنّ المرسلين » الأعراف : ٦ ، و أمّا الشهداء وهم شهداء الأعمال فليؤدّوا ما تحمّلوه من الشهادة قال تعالى : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد و جئناك على هؤلاء شهيداً » النساء : ٤١ . و قوله : « و قضى بينهم بالحق » وهم لا يظلمون « ضميراً الجمع للناس المعلوم من السياق ، و القضاء بينهم هو القضاء فيما اختلفوا فيه الوارد كراراً في كلامه تعالى قال : « إن ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » يونس : ٩٣ .

قوله تعالى : « و وفيت كل نفس ما عملت و هو أعلم بما يفعلون » التوفية بالإعطاء بالتمام و قد علّقت بنفس ما عملت دون جزائه و يقطع ذلك الريب في كونه قسطاً و عدلاً من أصله و الآية بمنزلة البيان لقوله : « وهم لا يظلمون » .

و قوله : « و هو أعلم بما يفعلون » أي ليس حكمه بهذا النمط من وضع الكتاب و المجيء بالنبيين و الشهداء عن جهل منه و حاجة بل لأن يجري حكمه على القسط و العدل فهو أعلم بما يفعلون .

و الآية السابقة تتضمن القضاء و الحكم و هذه الآية إجراء و الآيات اللاحقة تفصيل إجراءاته .

قوله تعالى : « و سيق الذين كفروا إلى جهنم » إلى آخر الآية السوق بالفتح فالسكون - على ما في المجمع - الحث على السير ، و الزمر جمع زمرة و هي - كما في الصحاح - الجماعة من الناس .

و المعنى « و سيق » وحث على السير « الذين كفروا إلى جهنم زمرا » جماعة بعد جماعة « حتى إذا جاؤوها » بلغوها « فتحت أبوابها » لأجل دخولهم و هي سبعة قال تعالى : « لها سبعة أبواب » الحجر : ٣٤ « و قال لهم خزنتها » و هم الملائكة الموكلون عليها يقولون لهم تهجيناً و إنكاراً عليهم « ألم يأتكم رسل منكم » من نوعكم من البشر « يتلون » و يقرؤن « عليكم آيات ربكم » من الحجج الدالة على وحدانيته و وجوب عبادته « قالوا بلى » قد جاؤا و تلو « ولكن » كفرنا و كذبنا و « حقّت كلمة العذاب على الكافرين » و كلمة العذاب هي قوله تعالى حين أمر آدم بالهبوط : « و الذين كفروا و كذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » البقرة : ٣٩ .

قوله تعالى : « قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين » القائل - على ما يفيد السياق - خزنة جهنم ، و في قوله : « فبئس مثوى المتكبرين » دلالة على أن هؤلاء الذين كفروا هم المكذبون بآيات الله المعاندون للحق .

قوله تعالى : « و سيق الذين اتفقوا ربهم إلى الجنة زمرا » حتى إذا جاؤوها و فتحت أبوابها « لم يذكر في الآية جواب إذا إشارة إلى أنه أمر فوق ما يوصف و وراء ما يقدر بقدر ، و قوله : « و فتحت أبوابها » حال أي جاؤها و قد فتحت أبوابها ، و قوله : « خزنتها » هم الملائكة الموكلون عليها .

و المعنى « و سيق » وحث على السير « الذين اتفقوا ربهم إلى الجنة زمرا » جماعة

بعد جماعة « حتى إذا جاؤها » قد « فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها » الموكلون عليها مستقبلين لهم « سلام عليكم » أنتم في سلام مطلق لا يلقاكم إلا ما ترضون « طبتهم » و لعله تعليل لإطلاق السلام « فادخلوها خالدين » فيها . و هو أثر طيبهم .

قوله تعالى : « وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض » إلى آخر الآية . القائلون هم المتقون والمراد بالوعد ما تكرر في كلامه تعالى وفيما أوحى إلى سائر الأنبياء من وعد المتقين بالجنة قال تعالى : « للذين اتقوا عند ربهم جنات » آل عمران : ١٥ . و قال : « إن للمتقين عند ربهم جنات النعيم » القلم : ٣٤ ، كذا قيل ، و قيل : المراد بالوعد الوعد بالبعث والثواب .

ولا يبعد أن يراد بالوعد الوعد بإيراث الجنة كما في قوله : « أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » المؤمنون : ١١ و يكون قوله : « و أورثنا الأرض » عطف تفسير لقوله « صدقنا وعده » .

و قوله : « وأورثنا الأرض » المراد بالأرض - على ما قالوا - أرض الجنة وهي التي عليها الاستقرار فيها وقد تقدم في أول سورة المؤمنون أن المراد بوراثة الجنة بقاؤها لهم بعدما كانت في معرض أن يشاركها غيرهم أو يملكها دونهم لكنهم زالوا عنها فانتقلت إليهم .

و قوله : « ننبؤ من الجنة حيث نشاء » بيان لإيراثهم الأرض ، و تبديل ضمير الأرض بالجنة للإشارة إلى أنها المراد بالأرض .

و قيل : المراد بالأرض هي أرض الدنيا وهو سخي فإلا أن يوجه بأن الجنة هي عقبي هذه الدار قال تعالى : « أولئك لهم عقبي الدار » الرعد : ٢٢ .

والمعنى و قال المتقون بعد دخول الجنة : الحمد لله الذي صدقنا وعده أن سيدخلنا أو أن سيورثنا الجنة نسكن منها حيث نشاء و نختار - فلهم ما يشاؤون فيها - . و قوله : « فنعم أجر العاملين » أي فنعم الأجر أجر العاملين لله تعالى ، و هو على ما يعطيه السياق قول أهل الجنة ، و احتمال أن يكون من قوله تعالى .

قوله تعالى : « وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم »

إلى آخر الآية . الحفّ الإحداق والإحاطة بالشيء ، والعرش هو المقام الذي يصدر منه الفرامين والأوامر الإلهية التي يدبّر بها العالم ، والملائكة هم المجرّون لمشيئته العاملون بأمره ، ورؤية الملائكة على تلك الحال كناية عن ظهور ذلك وقد طويت السماوات .

والمعنى وترى يومئذ الملائكة والحال أنهم محدقون بالعرش مطيفون به لا جراء الأمر الصادر منه وهم يسبحون بحمد ربهم .

وقوله : « وقضى بينهم » احتمال رجوع الضمير إلى الملائكة ، ورجوعه إلى الناس والملائكة جميعا ، ورجوعه إلى جميع الخلائق ، ورجوعه إلى الناس فالقضاء بين أهل الجنة وأهل النار منهم أو بين الأنبياء وأممهم .

ويضعف الاحتمال الأخير أن القضاء بين الناس قد ذكر قبلا في قوله : « وقضى بينهم بالحق » وهم لا يظلمون » فذكر القضاء بينهم ثانياً تكرار من غير موجب .

لكن ظاهر القضاء بين جماعة هو الحكم لبعضهم على بعض لوجود اختلاف ما بينهم ولا تحقق للاختلاف بين الملائكة ، وهذا يؤيد أن يكون الضمير لغيرهم والقضاء بين الناس غير أن القضاء كما يطلق على نفس حكم الحاكم يصح إطلاقه على مجموع الحكم ومقدّماته وتبعاته من حضور المتخاصمين وطرح الدعوى وشهادة الشهود وحكم الحاكم وإيفاء المحقّ حقّه فمن الممكن أن يكون المراد بالقضاء المذكور أو لا نفس الحكم الإلهي وبهذا القضاء المذكور ثانياً هو مجموع ما يجري عليهم من حين يبعثون إلى حين دخول أهل النار النار وأهل الجنة الجنة واستقرارهم فيهما وبذلك يندفع إشكال التكرار من غير موجب .

وقوله : « وقيل الحمد لله رب العالمين » كلمة خاتمة للبدء والعود وثناء عام له تعالى أنه لم يفعل ولا يفعل إلاّ الجميل .

قيل : قائله المتّقون وكان حمدهم الأوّل على دخولهم الجنة والثاني للقضاء بينهم وبين غيرهم بالحق ، وقيل : قائله الملائكة ولم ينسب إليهم صريحاً لتعظيم أمرهم ، وقيل : القائل جميع الخلائق .

و يؤيد الأول قوله تعالى في صفة أهل الجنة : « و آخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين » يونس : ١٠ و هو حمد عام خاتم للخلق كما سمعت .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « لئن أشركت ليحبطن عملك و لتكونن من الخاسرين » فهذه مخاطبة النبي ﷺ و المعنى لأمرته ، و هو ما قال الصادق عليه السلام : إن الله عز وجل بعث نبيه بايأك أعني و اسمعي يا جارة .

و عن كتاب التوحيد باسناده إلى الفضيل بن يسار قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : إن الله عز وجل لا يوصف .

قال : و قال زرارة : قال أبو جعفر عليه السلام : إن الله لا يوصف و كيف يوصف و قد قال في كتابه : « و ما قدروا الله حق قدره ؟ » فلا يوصف بقدر إلا كان أعظم من ذلك .

و فيه باسناده عن سليمان بن مهران قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : « و الأرض جميعا قبضته يوم القيامة » قال : ملكه لا يملكها معه أحد .

و القبض عن الله تعالى في موضع آخر المنع و البسط منه الإعطاء و التوسع كما قال عز وجل : « و الله يقبض و يبسط و إليه ترجعون » يعني يعطي و يوسع و يضيق ، و القبض منه عز وجل في وجه آخر الأخذ و الأخذ في وجه القبول منه كما قال : « و يأخذ الصدقات » أي يقبلها من أهلها و يثيب عليها .

قلت : فقول عز وجل : « و السماوات مطويات بيمينه » ؟ قال : اليمين اليد و اليد القدرة و القوة يقول عز وجل : « و السماوات مطويات بيمينه » أي بقدرته و قوته سبحانه و تعالى عما يشركون .

أقول : و روى في الدر المنثور عن أبي هريرة عن النبي ﷺ في قوله تعالى : « فصعق من في السماوات و من في الأرض إلا من شاء الله » أنهم الشهداء مقلدون بأسيا فهم حول عرشه الخبر و ظاهره أن النفخة غير نفخة الإماتة و قد تقدم أن الآية ظاهرة في خلافه .

و روى عن أنس عنه رضي الله عنه أنهم جبريل و ميكائيل و إسرافيل و ملك الموت و حملة العرش و أنهم يموتون بعدها الخبر والآية ظاهرة في خلافه .

وروى عن جابر : استثنى موسى لأنه كان صعق قبل ، الخبر و فيه أن الصعق سواء أخذ بمعنى الموت أو بمعنى الغشية لا يختص الصعق قبل ذلك بموسى عليه السلام .

و في المجمع في قوله تعالى : « لها سبعة أبواب » فيه قولان أحدهما ما روي عن أمير المؤمنين عليه السلام أن جهنم لها سبعة أبواب أطباق بعضها فوق بعض و وضع إحدى يديه على الأخرى فقال : هكذا وأن الله وضع الجنان على العرض ، و وضع النيران بعضها فوق بعض فأسفلها جهنم ، و فوقها لظى ، و فوقها الحطمة ، و فوقها سقر ، و فوقها الجحيم ، و فوقها السعير ، و فوقها الهاوية و في رواية الكلبى أسفلها الهاوية و أعلاها جهنم .

و في الخصال عن أبي عبد الله عن أبيه عن جدّه عن علي عليه السلام قال : إن للجنة ثمانية أبواب : باب يدخل منه النبيون و الصديقون ، و باب يدخل منه الشهداء و الصالحون ، و خمسة أبواب يدخل منها شيعتنا و محبونا .

فلا أزال واقفا على الصراط أدعو و أقول : رب سلم شيعتي و محبتي و أنصاري و من تولاني في دار الدنيا فاذا النداء من بطنان العرش قد أجيبت دعوتك و شفعت في شيعتك و يشفع كل رجل من شيعتي و من تولاني و نصرني و حارب من حاربي بفعل أو قول في سبعين ألفاً من جيرانه و أقربائه .

و باب يدخل منه سائر المسلمين ممن يشهد أن لا إله إلا الله و لم يكن في قلبه مثقال ذرة من بغضا أهل البيت .



سورة المؤمن مكيّة وهي خمس وثمانون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَمْ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ (٢) غَافِرِ الذَّنْبِ وَ قَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ
إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ (٣) مَا يُجَادِلُ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا
فَلَا يَغْرُوكَ تَقْلِبُهُمْ فِي الْبِلَادِ (٤) كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَ الْأَحْزَابُ
مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرُسُولِهِمْ لِيَاخُذُوهُ وَ جَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا
بِهِ الْحَقَّ فَآخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٥) وَ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ
عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٦) .

﴿ بَيَان ﴾

تتكلم السورة في استكبار الكافرين ومجادلتهم بالباطل ليدحضوا به الحق الذي يدعون إليه و لذلك نراها تذكر جدالهم و تعود إليه عودة بعد عودة « ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد » « الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أثاهم كبر مقتا » « ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنسى يصرفون » .
فتكسر سورة استكبارهم وجدالهم بذكر ما عاقب الله به الماضين من الأمم المكدّين وما أعد الله لهم من العذاب المهيّن بذكر طرف مما يجري عليهم في الآخرة .

وتدحض باطل أقوالهم بوجوه من الحجج الناطقة بتوحيده في الربوبية والالهوية وتأمّر النبي ﷺ بالصبر و تعدّه و المؤمنين به بالنصر ، و تأمره أن يؤذّنهم أنّه مسلم لربه غير تارك لعبادته فليأسوا منه .

و السورة مكيّة كلّها لاتصل آياتها وشهادة مضامينها بذلك ، و ما قيل فيه من الآيات أنّه نزل بالمدينة لايعبّؤه و سيجيء الإشارة إليها إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « حمّ تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم » التنزيل مصدر بمعنى المفعول فقوله : « تنزيل الكتاب » من قبيل إضافة الصفة إلى موصوفها و التقدير هذا كتاب منزل من الله .

و تخصيص الوصفين : « العزيز العليم » بالذكر قيل : للإشارة إلى ما في القرآن من الإعجاز وأنواع العلوم التي يضيق عنها نطاق الأفهام ، و قيل : هومن باب التفتّن . والوجه أن يقال : إنّ السورة لما كانت تتكلّم حول جحد الجاحدين ومجادلتهم في آيات الله بالباطل جهلا و هم يحسبونه علما و يعتزّون به كما حكى ذلك عنهم في خاتمة السورة بقوله : « فلمّا جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم » وكما حكى عن فرعون قوله لقومه في موسى : « إنّي أخاف أن يبدّل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد » وقوله لهم : « ما أريكم إلّا ما أرى وما أهديكم إلّا سبيل الرشاد » .

افتتح الكلام في السورة بما فيه إشارة إلى أنّ هذا الكتاب النازل عليهم تنزيل ممن هو عزيز على الإطلاق لا يغلبه غالب حتّى يخاف على ما نزلّه من استعلائهم و استكبارهم بحسب أوهامهم ، عليم على الإطلاق لا يداخل علمه جهل و ضلال فلا يقاوم جدالهم بالباطل ما نزلّه من الحقّ و بيّنه بحججه الباهرة .

و يؤيّد هذا الوجه ما في الآية التالية من قوله : « غافر الذنب و قابل التوب » الخ على ما سنبين .

قوله تعالى : « غافر الذنب و قابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلّا هو إليه المصير » الإتيان بصيغة اسم الفاعل في « غافر الذنب و قابل التوب » - لعلّه - للدلالة على الاستمرار التجدديّ فإنّ المغفرة و قبول التوب من صفاته الفعلية و لا يزال تعالى يغفر الذنب ثمّ يغفر و يقبل التوب ثمّ يقبل .

و إنّما عطف قابل التوب على ما قبله دون « شديد العقاب ذي الطول » لأنّ غافر الذنب و قابل التوب مجموعهما كصفة واحدة متعلّقة بالعباد المذنبين يغفر لهم تارة بتوبة

و تارة بغيرها كالشفاعة .

والعقاب و المعاقبة الاؤاخذة التي تكون في عاقبة الذنب قال الراغب : والعُقْبُ والعقبى يختصان بالثواب نحو خير ثوابا و خير عقبا ، و قال تعالى : اُولَئِكَ لَهُمْ عَقِبَى الدار ، و العاقبة إطلاقها يختص بالثواب نحو و العاقبة للمتقين ، وبالإضافة قد تستعمل في العقوبة نحو ثم كان عاقبة الذين أساءوا ، وقوله : فكان عاقبتهما أنهما في النار يصح أن يكون ذلك استعارة من ضده ، والعقوبة والمعاقبة والعقاب تختص بالعذاب . انتهى . فشد يد العقاب كذي انتقام من أسماء الله الحسنى تحكي صفته تعالى في جانب العذاب كما يحكي الغفور و الرحيم صفته تعالى في جانب الرحمة ..

و الطول - على ما في المجمع - الإي نعام الذي تطول مدته على صاحبه فذو- الطول من أسمائه الحسنى في معنى المنعم لكنه أخص من المنعم لعدم شموله النعم القصار . و ذكر هذه الأسماء الأربعة : غافر الذنب و قابل التوب شديد العقاب ذي الطول بعد اسم العليم للإشارة إلى أن تنزيل هذا الكتاب المشتمل على دعوته الحقّة المبني على العلم مبني على أساس ما تقتضيه مضامين هذه الأسماء الأربعة .

و ذلك أن العالم الإنساني كما يتحد قبيلًا واحدًا في نيل الطول الإلهي و التنعم بنعمه المستمرة المتوالية مدى الحياة الدنيا ينقسم من حيث حياته الآخرة قسمين وينشعب إلى شعبتين : سعيد وشقيّ ، والله سبحانه عالم بتفاصيل خلقه وكيف لا يعلم ؟ وهو خالقها و فاعلها ، و مقتضى كونه غافراً للذنوب قابلاً للتوب أن يغفر لمن استعد للمغفرة و أن يقبل توبة التائب إليه ، و مقتضى كونه شديد العقاب أن يعاقب من استحق ذلك . و مقتضى ذلك أن يهدي الناس إلى صراط السعادة كما قال : « إن علينا لهدى وإن لنا للآخرة والأولى » الليل : ١٣ ، و قال : « و على الله قصد السبيل » النحل : ٩ . لينقسم الناس بذلك قسمين ويتميز عنده السعيد من الشقيّ والمهتدي من الضال فيرحم هذا ويعذب ذلك .

فتنزيل الكتاب من الله العزيز العليم مبني على علمه المحيط بخلقهم أنهم في حاجة إلى دعوة يهدي بها قوم و يضلّ بردها آخرون ليغفر لقوم ويعذب آخرين ،

وفي حاجة إليها لينتظم بها نظام معاشهم في الدنيا فينعموا بطوله ونعمته في الدنيا ثم في دار القرار .

فهذا شأن كتابه المنزل بعلمه الذي لا يشوبه جهل و المبني على الحق الذي لا يداخله باطل ، و أين هو من تكذيب الذين لا يعلمون إلا ظاهراً من الحياة وجدالهم بالباطل ليدحضوا به الحق .

وعلى هذا الذي ذكرنا من العناية بالعلم يشهد ما سيذكره تعالى من دعاء الملائكة للمؤمنين بالمغفرة : « ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك ، فمدبر فيه .

وقوله : « لا إله إلا هو إليه المصير » ذكر كلمة التوحيد للإشارة إلى وجوب عبادته وحده فلا تلغوا الدعوة الدينية بتزليل الكتاب ، و ذكر كون مصير الكل و رجوعهم إليه وهو البعث للإشارة إلى أنه هو السبب العمدة الداعي إلى الإيمان بالكتاب واتباعه فيما يدعو إليه لأن الاعتقاد بيوم الحساب هو الذي يستتبع الخوف و الرجاء خوف العقاب و رجاء الثواب الداعين إلى عبادة الله سبحانه .

قوله تعالى : « ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد » لما ذكر تنزيل الكتاب و أشار إلى الحجّة الباهرة على حقيته ، المستفادة من صفاته الكريمة المعدودة في الآيتين ، الدالة على أنه منزل بعلمه الذي لا يشوبه جهل و بالحق الذي لا يدحضه باطل تعرض لحال الذين قابلوا حججه الحقّة بباطل جدالهم فلوّح إلى أن هؤلاء أهل العقاب وليسوا بفائتين و لا مغفولاً عنهم فأنّه كما نزل الكتاب ليغفر الذنب و يقبل التوب كذلك نزل له ليعاقب أهل العقاب فلا يسوعن النبي ﷺ جدالهم ولا يفرّنه ما يشاهده من حالهم .

فقوله : « ما يجادل في آيات الله » لم يقل : ما يجادل فيه أي في القرآن ليدل على أن الجدل في الحق الذي تدل عليه الآيات بما هي آيات . على أن طرف جدالهم هو النبي ﷺ وهو داع إلى الحق الذي تدل عليه الآيات فجدالهم لدفع الحق لا للدفاع عن الحق . على أن الجدل في الآية التالية مقيّدة بالباطل لا إحاض الحق .

فالمراد بالمجادلة في آيات الله هي المجادلة لإدحاضها ودفعها وهي المذمومة ولا تشمل الجدل لإثبات الحق والدفاع عنه كيف؟ وهو سبحانه يأمر نبيه ﷺ بذلك إذا كان جدالا بالتي هي أحسن قال تعالى: «وجادلهم بالتي هي أحسن» النحل: ١٢٥.

وقوله: «إلا الذين كفروا» ظاهر السياق أنهم الذين رسخ الكفر في قلوبهم فلا يرجى زواله، وقد قيل: «ما يجادل» ولم يقل: لا يجادل، وكذا ظاهر قوله: «فلا يغركم تقلبهم في البلاد» أن المراد بهم الكفار المعاصرون للنبي ﷺ وإن لم يكونوا من أهل مكة.

وتقلبهم في البلاد انتقالهم من طور من أطوار الحياة إلى طور آخر ومن نعمة إلى نعمة في سلامة وصحة وعافية، وتوجيه النهي عن الغرور إلى تقلبهم في البلاد كناية عن نهى النبي ﷺ عن الاغترار بما يشاهده منهم أن يحسب أنهم أعجزوه سبحانه.

قوله تعالى: «كذب قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم» الخ في مقام الجواب عما يسبق إلى الوهم أنهم استكبروا وجادلوا في آيات الله فلم يكن بهم بأس وسبقوا في ذلك.

ومحصل الجواب أن الأمم الماضية كقوم نوح والأحزاب من بعدهم كعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم سبقوا هؤلاء إلى مثل صنيعهم من التكذيب والجدال بالباطل وهموا برسولهم ليأخذوه فحل بهم العقاب وكذلك قضى في حق الكفار العذاب فتوهم أن هؤلاء سبقوا الله إلى ما يريد توهم باطل.

فقوله: «كذب قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم» دفع للدخل السابق ولذا جيئ بالفصل، وقوله: «وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه» يقال: هم به أي قصده ويغلب فيه القصد بالسوء أي قصدوا رسولهم ليأخذوه بالقتل أو الإخراج أو غيرهما كما قصه الله تعالى في قصصهم.

وقوله: «وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق» الإدحاض الإزالة والإبطال

و قوله : « فأخذتهم » أي عذبّتهم، وفيه التفات من الغيبة إلى التكلّم وحده و النكتة فيه الإشارة إلى أن أمرهم في هذا الطغيان و الاستكبار إلى الله وحده لا يدخل بينه و بينهم أحد بنصرة أو شفاعة كما قال : « فصبّ عليهم ربك سوط عذاب إن ربك لبالمرصاد » الفجر : ١٤ .

و قوله : « فكيف كان عقاب » توجيه لذهن المخاطب إلى ما يعلمه من كيفية إهلاكهم و قطع دابرهم ليحضر شدّة ما نزل بهم و قد قصّه الله فيما قصّ من قصصهم .
قوله تعالى : « وكذلك حقّت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار »
 ظاهر السياق أن المشبّه به هو ما في الآية السابقة من أخذهم و عقابهم، و المراد بالذين كفروا مطلق الكفار من الماضين و المعنى كما أخذ الله المكذّبين من الماضين بعذاب الدنيا كذلك حقّت كلمته على مطلق الكافرين بعذاب الآخرة ، و الذين كفروا من قومك منهم .

و قيل: المراد بالذين كفروا كفّار مكّة، و لا يساعد عليه السياق و التشبيه لا يخلو عليه من اختلال .

و في قوله : « كلمة ربك » و لم يقل : كلمتي تطيب لنفس النبي ﷺ و تأيد له بالإشارة إلى أن الركن الذي يركن إليه هو الشديد القوي .





الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ
 بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ
 لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ (٧) رَبَّنَا وَادْخُلِهِمْ
 جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ
 إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٨) وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ
 فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادُونَ لِمَقْتُ
 اللَّهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ (١٠) قَالُوا
 رَبَّنَا آمَنَّا أَتَمْتَنَا وَأَحْيَيْتَنَا أَتَمْتَنَا فَاعْتَرَفْنَا بِذُنُوبِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ
 سَبِيلٍ (١١) ذَلِكَمْ بَأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَخَذَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا
 فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ (١٢) .

﴿ بَيَان ﴾

لما ذكر سبحانه تكذيب الذين كفروا وجدالهم في آيات الله بالباطل ولوَّح إلى
 أنهم غير معجزين ولا مغفول عنهم بل معنيون في هذه الدعوة والعناية فيهم أن يتميزوا
 فيحق عليهم كلمة العذاب فيعاقبوا عاد إلى بدء الكلام الذي أشار فيه إلى أن تنزيل
 الكتاب وإقامة الدعوة لمغفرة جمع وقبول توبتهم وعقاب آخرين فذكر أن الناس قبال
 هذه الدعوة قبيلان: قبيل تستغفر لهم حملة العرش والحافون به من الملائكة وهم التائبون
 إلى الله المتبوعون سبيله ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، وقبيل ممقوتون

معدّون وهم الكافرون بالتوحيد .

قوله تعالى : «الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به » إلى آخر الآية . لم يعرف سبحانه هؤلاء الحاملين للعرش من هم ؟ و لا في كلامه تصريح بأنهم من الملائكة لكن يشعر عطف قوله : «و من حوله » عليهم و قد قال فيهم : « و ترى الملائكة حافين من حول العرش » الزمر : ٧٥ أن حملة العرش أيضا من الملائكة .

و قد تقدم تفصيل الكلام في معنى العرش في الجزء الثامن من الكتاب .
فقوله : «الذين يحملون العرش ومن حوله» أي الملائكة الذين يحملون العرش الذي منه تظهر الأوامر و تصدر الأحكام الإلهية التي بها يدبر العالم، و الذين حول العرش من الملائكة و هم المقرّبون منهم .

وقوله : «يسبحون بحمد ربهم » أي ينزهون الله سبحانه و الحال أن تنزيههم له يصاحب ثناءهم لربهم فهم ينزهونه تعالى عن كل ما لا يليق بساحة قدسه و من ذلك وجود الشريك في ملكه و يثنون عليه على فعله و تدبيره .

و قوله : « و يؤمنون به » إيمانهم به - و الحال هذه الحال عرش الملك و التدبير لله و هم حاملوه أو مطيفون حوله لتلقي الأوامر و ينزهونه عن كل نقص و يحمّدونه على أفعاله - معناه الإيمان بوحدايته في ربوبيته و ألوهيته ففي ذكر العرش و نسبة التنزيه و التحميد و الإيمان إلى الملائكة ردّ للمشركين حيث يعدّون الملائكة المقرّبين شركاء لله في ربوبيته و ألوهيته و يتخذونهم أربابا آلهة يعبدونهم .

و قوله : « و يستغفرون للذين آمنوا » أي يسألون الله سبحانه أن يغفر للذين آمنوا .

و قوله : « ربنا وسعت كل شيء رحمة و علما » الخ حكاية متن استغفارهم و قد بدأ فيه بالثناء عليه تعالى بسعة الرحمة و العلم ، و إنّما ذكروا الرحمة و شفّعوها بالعلم لأنّه برحمته ينعم على كل محتاج فالرحمة مبدء إفاضة كل نعمة ، و بعلمه يعلم حاجة كل محتاج مستعد للرحمة .

وقوله : « فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ » تفريع على ما أثنوا به من سعة الرحمة والعلم ، والمراد بالسبيل التي اتبعوها هو ما شرع لهم من الدين وهو الإسلام واتباعهم له هو تطبيق عملهم عليه فالمراد بتوبتهم رجوعهم إليه تعالى بالإيمان والمعنى فاغفر للذين رجعوا إليك بالإيمان بوحدايتك وسلوك سبيلك الذي هو الإسلام وقهم عذاب الجحيم وهو غاية المغفرة وغرضها .

قوله تعالى : « رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ » إلى آخر الآية تكرار النداء بلفظة ربنا لمزيد الاستعطاف والمراد بالوعد وعده تعالى لهم بلسان رسله وفي كتبه .

وقوله : « وَ مِنْ صَلَحٍ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ » عطف على موضع الضمير في قوله : « وَأَدْخِلْهُمْ » والمراد بالصلوح صلاحية دخول الجنة ، والمعنى وأدخل من صلح لدخول الجنة من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم جنات عدن .

ثم من المعلوم من سياق الآيات أن استغفارهم لعامة المؤمنين ، ومن المعلوم أيضاً أنهم قسموهم قسمين اثنين قسموهم إلى الذين تابوا واتبعوا سبيل الله وقدموهم الله جنات عدن ، وإلى من صلح وقد جعلوا الطائفة الأولى متبوعين والثانية تابعين . ويظهر منه أن الطائفة الأولى هم الكاملون في الإيمان والعمل على ما هو مقتضى حقيقة معنى قولهم : « الَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ » فذكروهم وسألوه أن يغفر لهم و ينجز لهم ما وعدهم من جنات عدن ، والطائفة الثانية دون هؤلاء في المنزلة ممن لم يستكمل الإيمان والعمل من ناقص الإيمان ومستضعف وسيئ العمل من منسوبي الطائفة الأولى فذكروهم وسألوه تعالى أن يلحقهم بالطائفة الأولى الكاملين في جناتهم ويقيمهم السيات .

فالآية في معنى قوله تعالى : « وَ الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ » الطور : ٢١ غير أن الآية التي نحن فيها أوسع وأشمل لشمولها الآباء والأزواج بخلاف آية سورة الطور ، والمأخوذ فيها الصلوح وهو أعم من الإيمان المأخوذ في آية الطور .

وقوله : « إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » تعليل لقولهم : « فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا » إلى آخر مسألتهم ، و كان الذي يقتضيه الظاهر أن يقال : إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ لَكُنْ عَدْلٌ إِلَى ذِكْرِ الْوَصْفَيْنِ : الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لِأَنَّهُ وَقَعَ فِي مَقْتَضِ مَسْأَلَتِهِمُ الثَّنَاءَ عَلَيْهِ تَعَالَى بِقَوْلِهِمْ : « رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا » . و لازم سعة الرحمة وهي عموم الإعطاء أَنْ لَهُ أَنْ يُعْطِيَ مَا يَشَاءُ مَنْ يَشَاءُ وَيَمْنَعُ مَا يَشَاءُ مَنْ يَشَاءُ وَهَذَا مَعْنَى الْعِزَّةِ الَّتِي هِيَ الْقُدْرَةُ عَلَى الْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ ، وَلاَزِمَ سَعَةُ الْعِلْمِ لِكُلِّ شَيْءٍ أَنْ يَنْفُذَ الْعِلْمُ فِي جَمِيعِ أَقْطَارِ الْفِعْلِ فَلَا يَدْخُلُ الْجَهْلُ شَيْئاً مِنْهَا وَلاَزِمَهُ إِتْقَانُ الْفِعْلِ وَهُوَ الْحِكْمَةُ .

فقوله : « إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » في معنى الاستشفاع بسعة رحمته وسعة علمه تعالى المذكورتين في مفتتح المسألة تمهيدا وتوطئة لذكر الحاجة وهي المغفرة والجنة .
قوله تعالى : « وَفَهُمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ » الخ ظاهر السياق أَنْ الضمير في « فَهُمُ » لِلَّذِينَ تَابُوا وَمَنْ صَلَحَ جَمِيعًا .

و المراد بالسَّيِّئَاتِ - على ما قيل - تبعات المعاصي وهي جزاؤها وسميت التبعات سَيِّئَاتٍ لِأَنَّ جَزَاءَ السَّيِّئِ سَيِّئٌ قَالَ تَعَالَى : « وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا » الشورى : ٤٠ .
وقيل : المراد بالسَّيِّئَاتِ المعاصي والذنوب نفسها والكلام على تقدير مضاف و التقدير وفهم جزاء السَّيِّئَاتِ أَوْ عَذَابُ السَّيِّئَاتِ .

والظاهر أَنَّ الْآيَةَ مِنَ الْآيَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى أَنَّ الْجَزَاءَ بِنَفْسِ الْأَعْمَالِ خَيْرٌ هَاوِشَرًا ، وَقَدْ تَكَرَّرَ فِي كَلَامِهِ تَعَالَى أَمْثَالُ قَوْلِهِ : « إِنَّمَا تَجْزُونَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » التحريم : ٧ .
و كيف كان فالمراد بالسَّيِّئَاتِ الَّتِي سَأَلُوا وَقَايَتَهُمْ عَنْهَا هِيَ الْأَهْوَالُ وَالشَّدَائِدُ الَّتِي تَوَاجَهُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غَيْرَ عَذَابِ الْجَحِيمِ فَلَا تَكَرَّرُ فِي قَوْلِهِمْ : « وَفَهُمُ عَذَابُ الْجَحِيمِ » وَفَهُمُ السَّيِّئَاتِ .

و قيل : المراد بالسَّيِّئَاتِ نفس المعاصي الَّتِي فِي الدُّنْيَا ، وَقَوْلُهُمْ : « يَوْمَئِذٍ » إِشَارَةٌ إِلَى الدُّنْيَا ، وَ الْمَعْنَى وَاحْفَظْهُمْ مِنْ اقْتِرَافِ الْمَعَاصِي وَارْتِكَابِهَا فِي الدُّنْيَا بِتَوْفِيقِكَ .

وفيه أَنَّ السِّياقَ يُؤَيِّدُ كَوْنَ الْمُرَادِ بِيَوْمَئِذٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا يَشْهَدُ بِهِ قَوْلُهُمْ : « وَفَهُمُ عَذَابُ الْجَحِيمِ » وَقَوْلُهُمْ : « وَادْخُلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ » الخ فَالْحَقُّ أَنَّ الْمُرَادَ بِالسَّيِّئَاتِ

ما يظهر للناس يوم القيامة من الأحوال و الشدائد .

ويظهر من هذه الآيات المشتعلة على دعاء الملائكة ومسألتهم :

أو لا أن من الأدب في الدعاء أن يبدأ بحمده والثناء عليه تعالى ثم يذكر الحاجة ثم يستشفع بأسمائه الحسنی المناسبة له .

و ثانياً أن سؤال المغفرة قبل سؤال الجنة وقد كثر ذكر المغفرة قبل الجنة في كلامه تعالى إذا ذكرا معاً ، و هو الموافق للاعتبار فإن حصول استعداد أي نعمة كانت بزوال المانع قبل حصول نفس النعمة .

و ذكر بعضهم أن في قوله : « فاعفر للذين تابوا » الآية دلالة على أن إسقاط العقاب عند التوبة تفضل من الله تعالى إذ لو كان واجباً لكان لا يحتاج فيه إلى مسألتهم بل كان يفعله الله سبحانه لا محالة .

وفيه أن وجوب صدور الفعل عنه تعالى لا ينافي صحة مسأله و طلبه منه تعالى كما يشهد به قولهم بعد الاستغفار : « ربنا و أدخلهم جنات عدن التي وعدتهم » فقد سألوا لهم الجنة مع اعترافهم بأن الله وعدهم إيها و وعده تعالى واجب الإتيان فأنه لا يخلف الميعاد ، و أصرح من هذه الآية قوله يحكي عن المؤمنين : « ربنا و آتنا ما وعدتنا على رسلك و لا تخزنا يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد » آل عمران : ١٩٤ .

وقبول التوبة مما أوجبه الله تعالى على نفسه و جعله حقاً للتائبين عليه قال تعالى : « إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم » النساء : ١٧ فطلب كل حق أوجبه الله تعالى على نفسه منه كسؤال المغفرة للتائب هو في الحقيقة رجوع إليه لاستنجاز ما وعده و إظهار اشتياق للفوز بكرامته .

وكذا لا يستلزم التفضل منه تعالى كون الفعل جائز الصدور غير واجبه فكل عطية من عطاياه تفضل سواء كانت واجبة الصدور أم لم تكن إذ لو كان فعل من أفعاله واجب الصدور عنه لم يكن إيجابه عليه بتأثير من غيره فيه و قهره عليه إذ هو المؤثر في كل شيء لا يؤثر فيه غيره بل كان ذلك بإيجاب منه تعالى على نفسه و يؤل معناه إلى قضائه تعالى فعل شيء من الأفعال و إفاضة عطية من العطايا قضاء حتم فيكون سبحانه

إنما يفعله بمشيئة من نفسه منزهاً عن إلزام الغير إياه عليه متفضلاً به فالفعل تفضل منه وإن كان واجب الصدور ، وأما لولم يكن الفعل واجب الصدور فكونه تفضلاً أوضح .
قوله تعالى : « إن الذين كفروا ينادون لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم إذ تدعون إلى الإيمان فتكفرون » المقت أشد البغض . لما ذكر المؤمنين ببعض ما لهم من جهة إيمانهم رجع إلى ذكر الكافرين ببعض ما عليهم من جهة كفرهم .

و ظاهر الآية والآية التالية أن هذا النداء المذكور فيها إنما ينادون به في الآخرة بعد دخول النار حين يذوقون العذاب لكفرهم فيظهر لهم أن كفرهم في الدنيا إذ كانوا يدعون من قبل الأنبياء إلى الإيمان كان مقتاو شدة بغض منهم لأنفسهم حيث أوردوها بذلك مورد الهلاك الدائم .

و ينادون من جانب الله سبحانه فيقال لهم : أقسم لمقت الله وشدة بغضه لكم أكبر من مقتكم أنفسكم وشدة بغضكم لها إذ تدعون - حكاية حال ماضية - إلى الإيمان من قبل الأنبياء فتكفرون .

قوله تعالى : « قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل » سياق الآية وما قبلها يشعر بأنهم يقولون هذا القول بعد استماع النداء السابق ، وإنما يقولونه وهم في النار بدليل قولهم : « فهل إلى خروج من سبيل » .

و تقديم هذا الاعتراف منهم نوع تسبیب و توسل إلى التخلص من العذاب و لات حين مناص ؛ وذلك أنهم كانوا - وهم في الدنيا - في ريب من البعث و الرجوع إلى الله فأنكروه و نسوا يوم الحساب و كان نسيان ذلك سبب استرسالهم في الذنوب و ذهابهم لوجوههم في المعاصي و نسيان يوم الحساب مفتاح كل معصية و ضلال قال تعالى : « إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » ص : ٢٦ .

ثم لما أماتهم الله إماتة بعد إماتة وأحياهم إحياءة بعد إحياءة زال ارتيابهم في أمر البعث و الرجوع إلى الله بما عاينوا من البقاء بعد الموت والحياة بعد الحياة و قد كانوا

يرون أن الموت فناء ، و يقولون إن هي إلا حياتنا الدنيا و ما نحن بمبعوثين .
و بالجملة زال عنهم الارتباب بحصول اليقين و بقيت الذنوب و المعاصي و لذلك
توسلوا إلى التخلص من العذاب بالاعتراف فتارة اعترفوا بحصول اليقين كما حكا الله
عنهم في قوله : « ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا و سمعنا
فارجعنا لعمل صالحا إنا موقنون » الم السجدة : ١٢ ، و تارة اعترفوا بذنوبهم كما في
الآية المبسوطة عنها و قد كانوا يرون أنهم أحرار مستقلون في إرادتهم و أفعالهم لهم أن
يشاؤا ما شاؤا و أن يفعلوا ما فعلوا و لا حساب و لا ذنب .

و من ذلك يظهر وجه ترتب قولهم : « فاعترفنا بذنوبنا » على قولهم : « أمتنا
اثنتين وأحييتنا اثنتين » فالاعتراف في الحقيقة مترتب على حصول اليقين بالمعاد الموجب
لحصول العلم بكون انحرافاتهم عن سبيل الله ضلالات و ذنوبا .

و المراد بقولهم : « أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » - كما قيل - الإماتة عن الحياة
الدنيا و الإحياء للبرزخ ثم الإماتة عن البرزخ و الإحياء للحساب يوم القيامة فالآية
تشير إلى الإماتة بعد الحياة الدنيا و الإماتة بعد الحياة البرزخية و إلى الإحياء في
البرزخ و الإحياء ليوم القيامة و لولا الحياة البرزخية لم تتحقق الإماتة الثانية لأن
كلّ من الإماتة و الإحياء يتوقف تحققه على سبق خلافه .

و لم يتعرضوا للحياة الدنيا و لم يقولوا : وأحييتنا ثلاثا و إن كانت إحياء لكونها
واقعة بعد الموت الذي هو حال عدم ولوج الروح لأن مرادهم ذكر الإحياء الذي هو
سبب الإيقان بالمعاد وهو الإحياء في البرزخ ثم في القيامة و أمّا الحياة الدنيوية فإنها
وإن كانت إحياء لكنّها لا توجب بنفسها يقينا بالمعاد فقد كانوا مرتابين في المعاد وهم أحياء
في الدنيا .

و بما تقدّم من البيان يظهر فساد ما اعترض عليه بأنّه لو كان المراد بالإحياءتين
ما كان في البرزخ وفي الآخرة لكان من الواجب أن يقال : « أمتنا اثنتين وأحييتنا ثلاثا »
إذ ليس المراد إلا ذكر ما مرّ عليهم من الإماتة و الإحياء و ذلك إماتتان اثنتان و
إحياءات ثلاث .

و الجواب أنه ليس المراد هو مجرد ذكر الإماتة و الإحياء اللتين مرت عليهما
كيفما كانتا بل ذكر ما كان منهما مورثا لليقين بالمعاد ، و ليس الإحياء الدنيوي على
هذه الصفة .

و قيل : المراد بالإماتة الأولى حال النطفة قبل ولوج الروح ، و بالإحياء
الأولى ما هو حال الإنسان بعد ولوجها ، و بالإماتة الثانية إماتته في الدنيا ، و بالإحياء
الثانية إحياءه بالبعث للحساب يوم القيامة ، و الآية منطبقة على ما في قوله تعالى : « كيف
تكفرون بالله و كنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم » البقرة : ٢٨ .
و لما أحسوا بعدم صدق الإماتة على حال الإنسان قبل ولوج الروح في جسده
لتوقفها على سبق الحياة تمحلوا في تصحيحه تمحلات عجيبة من أراد الوقوف عليها فليراجع
الكشاف و شروحه .

على أنك قد عرفت أن ذكرهم مامر عليهم من الإماتة و الإحياء إشارة إلى
أسباب حصول يقينهم بالمعاد و الحياة الدنيا و الموت الذي قبلها لأثر لهما في ذلك .
و قيل : إن الحياة الأولى في الدنيا و الثانية في القبر ، و الموت الأولى في الدنيا
و الثانية في القبر و لا تعرض في الآية لحياة يوم البعث ، و يرد عليه ما تقدم أن الحياة
الدنيا لا تعلق لها بالغرض فلا موجب للتعرض لها ، و الحياة يوم القيامة بالخلاف من ذلك .
و قيل : المراد بالإحياءتين إحياء البعث و الإحياء الذي قبله و إحياء البعث
قسمان إحياء في القبر و إحياء عند البعث و لم يتعرض لهذا التقسيم في الآية فتشمل الآية
الإحياءات الثلاث و الإماتتين جميعا .

و يرد عليه ما يرد على الوجهين السابقين عليه مضافا إلى ما أورد عليه أن ذكر
الإماتة الثانية التي في القبر دليل على أن التقسيم ملحوظ و المراد التعدد الشخصي
لا النوعي .

و قيل : المراد إحياء النفوس في عالم الذر ثم الإماتة ثم الإحياء في الدنيا ثم
الإماتة ثم الإحياء للبعث ، و يرد عليه ما يرد على سوابقه .

و قيل : المراد بالثنائية التكرار كما في قوله تعالى : « فارجع البصر كرّتين »

الملك : ٤ ، و المعنى أمتنا إمامة بعد إمامة وأحييتنا إحياء بعد إحياء .
و أورد عليه أنه إنما يتم لو كان القول : أمتنا إمامتين و أحييتنا إحياءتين أو
كرتين مثلا لكن المقول نفس العدد وهو لا يحتمل ذلك كما قيل في قوله : «للهين اثنين»
النحل : ٥١ .

و قولهم : « فهل إلى خروج من سبيل » دعاء ومسألة في صورة الاستفهام ، و في
تنكير الخروج و السبيل إشارة إلى رضاهم بأي نوع من الخروج كان من أي سبيل
كانت فقد بلغ بهم الجهد واليوم يوم تقطعت بهم الأسباب فلا سبب يرجى أثره في تخلصهم
من العذاب .

قوله تعالى : « ذلكم بأنه إذ ادعى الله وحده كفرتم و إن يشرك به تؤمنوا » الخ
خطاب تشديد للكفار موطنه يوم القيامة ، و يحتمل أن يكون موطنه الدنيا خو طبوا
بداعي زجرهم عن الشرك .

و الإشارة بقوله : « ذلكم » إلى ما هم فيه من الشدة ، و في قوله : « و إن يشرك
به » دلالة على الاستمرار ، و الكلام مسوق لبيان معاندتهم للحق و معاداتهم لتوحيد
تعالى فهم يكفرون بكل ما يلوح فيه أثر التوحيد و يؤمنون بكل ما فيه سمة الشرك
فهم لا يراعون الله حقاً ولا يحترمون له جانباً فالله سبحانه يحرّم عليهم رحمته ولا يراعي في
حكمه لهم جانباً .

و بهذا المعنى يتصل قوله : « فالحكم لله العلي الكبير » بأول الآية ويتفرّع
عليه كأنه قيل : فإنّا قطعتم عن الله بالمرّة و كفرتم بكل ما يريد و آمنتم بكل ما
يكرهه فهو يقطع عنكم و يحكم فيكم بما يحكم من غير أي رعاية لحالكم .

فالآية في معنى قوله : « نسوا الله فنسيهم » التوبة : ٦٧ ، و الجملة أعني قوله :
« فالحكم لله العلي الكبير » خاصّة بحسب السياق وإن كانت عامّة في نفسها ، وفيها تهديد
و يتأكّد التهديد باختتامها بالاسمين العلي الكبير .





هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَ يَنْزِلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَ مَا يَتَذَكَّرُ
 إِلَّا مَنْ يُنِيبُ (١٣) فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (١٤)
 رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ
 عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ (١٥) يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ
 شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (١٦) الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ
 نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٧) وَ أَنْذَرَهُمْ يَوْمَ
 الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاطْمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَ لَا شَفِيعٍ
 يُطَاعُ (١٨) يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَ مَا تُخْفِي الصُّدُورُ (١٩) وَ اللَّهُ يَقْضِي
 بِالْحَقِّ وَ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ
 الْبَصِيرُ (٢٠).

﴿بيان﴾

احتجاج على التوحيد و إنذار بعد تقسيم الناس إلى راجع إلى الله متبع سبيله
 مكذب بالآيات مجادل بالباطل .

قوله تعالى : « هو الذي يريكم آياته » إلى آخر الآية المراد بالآيات هي
 العلامات والحجج الدالة على وحدانيته تعالى في الربوبية و الألوهية بدليل ماسيحي
 من تفريع قوله : « فادعوا الله مخلصين له الدين » عليه ، و الآيات مطلقة شاملة للآيات
 الكونية المشهودة في العالم لكل إنسان صحيح الإدراك و الآيات التي تجري على

أبدي الرسل والحجج القائمة من طريق الوحي .

و الجملة مشتملة على حجة فإنّه لو كان هناك إله تجب عبادته على الإنسان و كانت عبادته كملاً للإنسان و سعادة له كان من الواجب في تمام التدبير و كامل العناية أن يهدي الإنسان إليه ، و الذي تدلّ الآيات الكونية على ربوبيّته و ألوهيته و يؤيد دلائلها الرسل و الأنبياء بالدعوة و الإتيان بالآيات هو الله سبحانه ، و أمّا آلهتهم الذين يدعونهم من دون الله فلا آية من قبلهم تدلّ على شيء فالله سبحانه هو الإله وحده لا شريك له ، و إلى هذه الحجة يشير عليّ عليه السلام بقوله فيما روي عنه : « لو كان لربك شريك لأتتكم رسله » .

وقوله : « و ينزل لكم من السماء رزقاً » حجة أخرى على وحدانيّته تعالى من جهة الرزق فإنّ رزق العباد من شؤون الربوبيّة و الألوهيّة و الرزق من الله دون شركائهم فهو الربّ الإله دونهم .

و قد فسروا الرزق بالمطر ، و السماء بجهة العلو ، و لا يبعد أن يراد بالرزق نفس الأشياء التي يرتزق بها و بنزولها من السماء بروزها من الغيب إلى الشهادة على ما يفيد قوله : « و إن من شيء إلّا عندنا خزائنه و ما ننزله إلّا بقدر معلوم » الحجر : ٢١ .

وقوله : « و ما يتذكّر إلّا من ينيب » معترضة تبين أنّ حصول التذكّر بهذه الحجج إنّما هو شأن إحدى الطائفتين المذكورتين من قبل و هم المنيبون الراجعون إلى ربهم دون المجادلين الكافرين فإنّ الكفر والجحود يبطل استعداد التذكّر بالحجة و الاتّباع للحقّ .

قوله تعالى : « فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون » الأنسب للسياق أن يكون الخطاب عامّاً للمؤمنين وغيرهم متفرّعا على الحجة السابقة غير أنّه لا يشمل الكافرين المذكورين في آخر الآية و هم المكذّبون المجادلون بالباطل .

كأنّه قيل : إذا كانت الآيات تدلّ على وحدانيّته تعالى و هو الرازق فعلى غير الكافرين الذين كذبوا و جادلوا أن يدعوا الله مخلصين له الدين ، و أمّا الكافرون الكارهون

للتوحيد فلا مطمع فيهم ولا آية تفيدهم ولا حجة تقنعهم فاعبدوه بالآخلاص ودعوا الكافرين يكرهون ذلك .

قوله تعالى : « رفيع الدرجات ذو العرش يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده » الخ صفات ثلاث له تعالى و كل منها خبر بعد خبر للضمير في قوله : « هو الذي يريكم آياته » والآية و ما بعدها مسوقة للإنداز .

و قد أوردوا لقوله : « رفيع الدرجات » تفاسير شتى فقيل : معناه رافع درجات الأنبياء والأولياء في الجنة ، وقيل : رافع السماوات السبع التي منها تصعد الملائكة إلى عرشه ، وقيل : رفيع مصاعد عرشه ، وقيل : كناية عن رفعة شأنه و سلطانه .

و الذي يعطيه التدبر أن الآية و ما بعدها يصفان ملكه تعالى على خلقه أن له عرشا تجتمع فيه أزمة أمور الخلق و ينزل منه الأمر متعالياً بدرجات رفيعة هي مراتب خلقه و لعلها السماوات التي وصفها في كلامه بأنها مساكن ملائكته و أن أمره ينزل بينهن و هي التي تحجب عرشه عن الناس .

ثم إن له يوما هو يوم التلاقي يرفع فيه الحجاب ما بينه و بين الناس بكشف الغطاء عن بصائرهم وطي السماوات بيمينه و إظهار عرشه لهم فيكشف لهم أنه هو المليك على كل شيء لا ملك إلا ملكه فيحكم بينهم .

فالمراد بالدرجات الدرجات التي يرتقى منها إلى عرشه و يعود قوله : « رفيع الدرجات ذو العرش كناية استعارية عن تعالى عرش ملكه عن مستوى الخلق و غيبته و احتجابه عنهم قبل يوم القيامة بدرجات رفيعة و مراحل بعيدة .

وقوله : « يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده » إشارة إلى أمر الرسالة التي من شأنها الإنداز ، و تقييد الروح بقوله : « من أمره » دليل على أن المراد بها الروح التي ذكرها في قوله : « قل الروح من أمر ربي » أسرى : ٨٥ ، وهي التي تصاحب ملائكة الوحي كما يشير إليه قوله : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا » النحل : ٢ .

فالمراد باللقاء الروح على من يشاء تنزيلها مع ملائكة الوحي عليه ، والمراد

بقوله : « من يشاء من عباده » الرسل الذين اصطفاهم الله لرسالته ، و في معنى الروح الملقاة على النبي أقوال آخر لا يعزبها .

و قوله : « لينذر يوم التلاق » وهو يوم القيامة سمي به لالتقاء الخلائق فيه أو لالتقاء الخالق و المخلوق أو لالتقاء أهل السماء و الأرض أو لالتقاء الظالم و المظلوم أو لالتقاء المرء وعمله و لكل من هذه الوجوه قائل .

ويمكن أن يتأيد القول الثاني بما تكرر في كلامه تعالى من حديث اللقاء كقوله : « بقاء ربهم كافرون » الروم : ٨ ، و قوله : « إنهم ملاقوا ربهم » هود : ٢٩ ، وقوله : « يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه » الانشقاق : ٦ و معنى اللقاء تقطع الأسباب الشاغلة و ظهور أن الله هو الحق المبين و بروزهم لله .

قوله تعالى : « يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء » الخ تفسير ليوم التلاق ، و معنى بروزهم لله ظهور ذلك لهم و ارتفاع الأسباب الوهمية التي كانت تجذبهم إلى نفسها و تحجبهم عن ربهم و تغفلهم عن إحاطة ملكه و تفرده في الحكم و توحده في الربوبية و الألوهية .

فقوله : « يوم هم بارزون » إشارة إلى ارتفاع كل سبب حاجب ، وقوله : « لا يخفى على الله منهم شيء » تفسير لمعنى بروزهم لله و توضيح فقلوبهم وأعمالهم بعين الله و ظاهرهم و باطنهم وما ذكروه وما نسوه مكشوفة غير مستورة .

وقوله : « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » سؤال وجواب من ناحيته سبحانه تبين بهما حقيقة اليوم وهي ظهور ملكه و سلطانه تعالى على الخلق على الإطلاق . و في توصيفه تعالى بالواحد القهار تعليل لانحصار الملك فيه لأنه إذ قهر كل شيء ملكه و تسلط عليه بسلب الاستقلال عنه و هو واحد فله الملك وحده .

قوله تعالى : « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب » الباء في « بما كسبت » للصلة و المراد بيان خصيصة اليوم و هي أن كل نفس تجزى عين ما كسبت فجزاؤها عملها قال تعالى : « يا أيها الذين كفروا لا تعتذروا اليوم إنما تجزون ما كنتم تعملون » التحريم : ٧ .

وقوله : « إنَّ اللهَ سريع الحساب » تعليل لنفي الظلم في قوله : « لا ظلم اليوم » أي إنَّه تعالى سريع في المحاسبة لا يشغله حساب نفس عن حساب أخرى حتَّى يخطئ فيجزى نفساً غير جزائها فيظلمها .

وهذا التعليل ناظر إلى نفي الظلم الناشي عن الخطاء و أمَّا الظلم عن عمد وعلم فانقضاء مفروغ عنه لأنَّ الجزء لما كان بنفس العمل لم يتصور معه ظلم .

قوله تعالى : « و أنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين » إلى آخر الآية . الآزفة من أوصاف القيامة ومعناها القريبة الدانية قال تعالى : « إنَّهم يرونه بعيداً ونراه قريباً » المعارج : ٧ .

و قوله : « إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين » الحناجر جمع حنجرة و هي رأس الغلصمة من خارج و كون القلوب لدى الحناجر كناية عن غاية الخوف كأنَّها تزول عن مقرِّها و تبلغ الحناجر من شدَّة الخوف ، و كاظمين من الكظم وهو شدَّة الاعتنام . وقوله : « ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » الحميم القريب أي ليس لهم قريب يقوم بنصرهم بحميَّة القربة قال تعالى : « فلا أنساب بينهم يومئذ » المؤمنون : ١٠١ ، ولا شفيع يطاع في شفاعته .

قوله تعالى : « يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور » قيل : الخائنة مصدر كالخيانة نظيرة الكاذبة واللاغية بمعنى الكذب واللغو ، وليس المراد بخائنة الأعين كلَّ معصية من معاصيها بل المعاصي التي لا تظهر للغير كسارقة النظر بدليل ذكرها مع ما تخفي الصدور .

و قيل : « خائنة الأعين » من قبيل إضافة الصفة إلى الموصوف ، ولزامه كون العلم بمعنى المعرفة والمعنى يعرف الأعين الخائنة ، و الوجه هو الأوَّل .

وقوله : « وما تخفي الصدور » وهو ما تسرُّه النفس و تستره من وجوه الكفر و النفاق و هيآت المعاصي .

قوله تعالى : « والله يقضي بالحق » و الذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء » الخ هذه حجة أخرى على توحده تعالى بالألوهية أقامها بعد ما ذكر حديث انحصار

الملك فيه يوم القيامة و عامه بخائنة الأعين وما تخفي الصدور تمهيداً وتوطئة .
و محصلها أن من اللازم الضروري في الألوهية أن يقضى الإله في عباده وبينهم
والله سبحانه هو يقضى بين الخلق وفيهم يوم القيامة والذين يدعون من دونه لا يقضون
بشيء لأنهم عباد مملوكون لا يملكون شيئاً .

و من قضائه تعالى تدبيره جزئيات أمور عباده بالخلق بعد الخلق فإنه مصداق
القضاء والحكم قال تعالى : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » يس :
٨٣ ، وقال : « إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » آل عمران : ٤٧ و لا نصيب
لغيره تعالى في الخلق فلا نصيب له في القضاء .

و من قضائه تعالى تشريع الدين و ارتضاؤه سبيلاً لنفسه قال تعالى : « و قضى ربك
أن لا تعبدوا إلا إياه » الآية أسرى : ٢٣ .
و قوله : « إن الله هو السميع البصير » أي له حقيقة العلم بالمسموعات والمبصرات
لذاته ، و ليس لغيره من ذلك إلا ما ملكه الله و أذن فيه لا لذاته .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي في قوله تعالى : « يلقي الروح من أمره على من يشاء عباده » قال :
روح القدس و هو خاص برسول الله و الأئمة صلوات الله وسلامه عليهم .
و في المعاني بإسناده عن حفص بن غياث عن أبي عبد الله عليه السلام قال : يوم التلاق
يوم يلتقي أهل السماء و أهل الأرض .

اقول : و رواه القمي في تفسيره مضمراً مرسلًا .

وفي التوحيد بإسناده عن ابن فضال عن الرضا عن آبائه عن حماد بن عمار في حديث
قال : و يقول الله عز وجل : « لمن الملك اليوم » ثم ينطق أرواح أنبيائه و رسله و
حججه فيقولون : « لله الواحد القهار » ثم يقول الله جل جلاله : « اليوم تجزى كل
نفس بما كسبت » الآية .

وفي نهج البلاغة : و إنَّه سبحانه يعود بعد فناء الدنيا وحده لا شيء معه ، كما كان

قبل ابتدائها كذلك يكون بعد فنائها ، بلا وقت ولا زمان ولا حين ولا مكان ، عدمت عند ذلك الآجال والأوقات ، وزالت السنون والساعات ، فلا شيء إلا الله الواحد القهار الذي إليه مصير جميع الأمور ، بلا قدرة منها كان ابتداء خلقها ، وبغير امتناع منها كان فناؤها ، ولو قدرت على الامتناع لدام بقاؤها .

وفي تفسير القميّ بإسناده عن ثوير بن أبي فاختة عن عليّ بن الحسين عليه السلام قال : سئل عن النفختين كم بينهما ؟ قال : ما شاء .

ثم ذكر عليه السلام كيفية النفخ وموت أهل الأرض والسماء إلى أن قال - فيمكنون في ذلك ما شاء الله ثم يأمر السماء فتمور ويأمر الجبال فتسير وهو قوله : « يوم تمور السماء مورا وتسير الجبال سيرا » يعني يبسط وتبدل الأرض غير الأرض يعني بأرض لم تكسب عليها الذنوب بارزة ليس عليها جبال ولا نبات كما دحاها أوّل مرّة ، ويعيد عرشه على الماء كما كان أوّل مرّة مستقلاً بعظمته وقدرته .

قال : فعند ذلك ينادي الجبار جلّ جلاله بصوت من قبله جهوريّ يسمع قطار السماوات والأرضين « لمن الملك اليوم » فلم يجبه مجيب فعند ذلك يقول الجبار عزّ وجلّ مجيباً لنفسه « لله الواحد القهار » الحديث .

اقول : التدبّر في الروايات الثلاث الأخيرة يهدي إلى أن الذي يفنى من الخلق استقلال وجودها والنسب وروابط التأثير التي بينها كما تفيد الآيات القرآنيّة وأنّ الأرواح لا تموت ، وأنّ لا وقت بين النفختين فلا تغفل ، وفي الروايات لطائف من الإشارات تظهر للمتدبّر ، وفيها ما يخالف بظاهره ما تقدّم .

وفي روضة الكافي بإسناده عن ابن أبي عمير عن موسى بن جعفر عليه السلام في حديث قال : يا أبا أحمد ما من مؤمن يرتكب ذنباً إلاّ ساء ذلك وندم عليه وقد قال النبي صلى الله عليه وآله : « كفى بالندم توبة » وقال : « من سرّته حسنته وساءت سيّئته فهو مؤمن » فإن لم يندم على ذنب يرتكبه فليس بمؤمن ولم تجب له شفاعته وكان ظالماً والله تعالى يقول : « ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » .

وفي المعاني بإسناده إلى عبدالرحمان بن سلمة الحريريّ قال : سألت أبا عبد الله

عليه السلام عن قول الله عز وجل: « يعلم خائنة الأعين » فقال : ألم تر إلى الرجل ينظر إلى الشيء وكأنه لا ينظر فذلك خائنة الأعين .

وفي الدر المنثور أخرج أبو داود والنسائي وابن مردويه عن سعد قال : لما كان يوم فتح مكة آمن رسول الله ﷺ الناس إلا أربعة نفر وامرأتين، وقال : اقتلوهم وإن وجدتموهم متعلقين بأستار الكعبة منهم عبدالله بن سعد بن أبي سرح فاقتبا عند عثمان بن عفان .

فلما دعا رسول الله ﷺ الناس إلى البيعة جاء به فقال : يا رسول الله بايع عبدالله فنظر إليه ثلاثا كل ذلك يأبى أن يبايعه ثم بايعه ثم أقبل على أصحابه فقال : أما كان فيكم رجل رشيد يقوم إلى هذا حين رأي كفت يدي عن بيعته فيقتله ؟ فقالوا : ما يدرينا يا رسول الله ما في نفسك هلا أو مات إلينا بعينك . قال : إنه لا ينبغي لنبي أن يكون له خائنة الأعين .





أَوْ لَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا
 مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَ آثَارًا فِي الْأَرْضِ فَاخَذَهُمُ اللَّهُ
 بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ (٢١) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ
 رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَاخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٢٢) وَلَقَدْ
 أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُبِينٍ (٢٣) إِلَى فِرْعَوْنَ وَ هَامَانَ وَ
 قَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ (٢٤) فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا
 اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَ مَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا
 فِي ضَلَالٍ (٢٥) وَ قَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي
 أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ (٢٦) وَ قَالَ
 مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ (٢٧)
 وَ قَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ
 يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَ أَنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ
 كَذِبُهُ وَ أَنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبَكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي
 مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (٢٨) يَا قَوْمِ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي
 الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنَ بَنِي اللَّهِ أَنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا

ارى و ما اهديكم الا سبيل الرشاد (٢٩) وقال الذى آمن يا قوم
 انى اخاف عليكم مثل يوم الاحزاب (٣٠) مثل داب قوم نوح و عاد
 و ثمود و الذين من بعدهم و ما الله يريد ظلماً للعباد (٣١) و يا قوم
 انى اخاف عليكم يوم التناد (٣٢) يوم تولون مدبرين ما لكم من الله
 من عاصم و من يضل الله فما له من هاد (٣٣) و لقد جاءكم يوسف من
 قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى اذا هلك قلتم لن
 يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب (٣٤)
 الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان اتيتهم كبر مقتاً عند الله و عند
 الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار (٣٥) وقال
 فرعون يا هامان ابن لى صرحاً لعلى ابغغ الاسباب (٣٦) اسباب السموات
 فاطلع الى اله موسى و انى لاظنه كاذباً و كذلك زين لفرعون سوء
 عمله و صد عن السبيل و ما كيد فرعون الا فى تباب (٣٧) وقال الذى
 آمن يا قوم اتبعون اهديكم سبيل الرشاد (٣٨) يا قوم انما هذه
 الحيوۃ الدنيا متاع و ان الآخرة هى دار القرار (٣٩) من عمل سيئة
 فلا يجرى الا مثلاً و من عمل صالحاً من ذكر او انثى و هو مؤمن فاولئك
 يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب (٤٠) و يا قوم ما لى ادعوكم الى

النَّجْوَةَ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ (٣٩) تَدْعُونَنِي لِأَتَكْفُرَ بِاللَّهِ وَاشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ
لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ (٤٠) لَأَجْرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ
لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنْ
الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ (٤١) فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَوضُ
أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٤٢) فَوَقَّيْهِ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا
وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ (٤٣) النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا
وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (٤٤) وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ
فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضَّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَقَهْلَ أَنْتُمْ مَغْنُونَ
عَنَا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (٤٥) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ
حَكَّمَ بَيْنَ الْعِبَادِ (٤٦) وَ قَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ
يُخَفِّفْ عَنَا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ (٤٧) قَالُوا أَوْ لَمْ نَكُ تَابِعِيكُمْ رُسُلَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ
قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَا الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (٤٨) إِنَّا
لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ (٤٩)
يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَ لَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٥٠)
وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَ أَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ (٥١) هُدًى
وَ ذِكْرًا لِلأُولَى الْآلِ الْآلِ (٥٢) .

﴿ بيان ﴾

في الآيات موعظتهم بالإرجاع إلى آثار الأمم الماضية و قصصهم للنظر والاعتبار
 فلينظروا فيها و ليعتبروا بها و يعلموا أن الله سبحانه لا تعجزه قوة الأقوياء و استكبار
 المستكبرين و مكر الماكرين و تذكر منهما من باب الأنموذج طرفاً من قصص موسى و فرعون
 و فيها قصة مؤمن آل فرعون .

قوله تعالى : « أو لم يسيروا في الأرض فينظروا » إلى آخر الآية الاستفهام
 إنكاري ، والواقي اسم فاعل من الوقاية بمعنى حفظ الشيء مما يؤذيه و يضره .
 و المعنى « أولم يسيروا » هؤلاء الذين أرسلناك إليهم « في الأرض فينظروا » نظر
 تفكر و اعتبار « كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم » من الأمم الدارجة المكذّبين
 لرسولهم « كانوا هم أشدّ منهم قوة » أي قدرة و تمكّناً و سلطة « و آثارا » كالمداخن الحصينة
 و القلاع المنيعّة و القصور العالية المشيدة « في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم » و أهلكتهم
 بأعمالهم « و ما كان لهم من الله من واق » يقيهم و حافظ يحفظهم .

قوله تعالى : « ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات » الخ الإشارة بذلك
 إلى الأخذ الإلهي ، و المراد بالبينات الآيات الواضحات ، و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : « و لقد أرسلنا موسى بآياتنا و سلطان مبين » لعل المراد بالآيات
 الخوارق المعجزة التي أرسل بها كالعصا و اليد و غيرها و بالسلطان المبين السلطة
 الإلهية القاهرة التي أيد بها فمنعت فرعون أن يقتله و يطفئ نوره ، و قيل : المراد
 بالآيات الحجج و الدلالات و بالسلطان معجزاته من العصا و اليد و غيرها ، و قيل :
 غير ذلك .

قوله تعالى : « إلى فرعون و هامان و قارون فقالوا ساحر كذاب » فرعون جبّار
 القبط و ملكهم ، و هامان وزيره و قارون من طغاة بني إسرائيل ذوالخزائن المليئة ؟
 و إنّما اختص الثلاثة من بين الأمّتين بالذكر لكونهم أصولاً ينتهي إليهم كل فساد
 و فتنة فيهما .

قوله تعالى : « فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه » الخ مقايضة بين ما جاءهم به موسى و دعاهم إليه و بين ما قبلوه به من كيدهم فقد جاءهم بالحق و كان من الواجب أن يقبلوه لأنّه حق و كان ما جاء به من عند الله و كان من الواجب أن يقبلوه ولا يردّوه فقبلوه بالكيد وقالوا ما قالوا لئلا يؤمن به أحد لكنّ الله أضلّ كيدهم فلم يصب المؤمنين معه .

ويشعر السياق أنّ من القائلين بهذا القول قارون وهو من بني إسرائيل ولاضير فيه لأنّ الحكم يقتل الأبناء واستحياء النساء كان قبل الدعوة صادرا في حقّ بني إسرائيل عامّة وهذا الحكم في حقّ المؤمنين منهم خاصّة فلعلّ قارون وافقهم عليه لعداوته وبغضه موسى و المؤمنين من قومه .

وفي قوله : « الذين آمنوا معه » ولم يقل : آمنوا به إشارة إلى مظاهرهم موسى في دعوته .

قوله تعالى : « وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربّه » الخ « ذروني » أي اتركوني ، خطاب يخاطب به ملأه ، وفيه دلالة على أنّه كان هناك قوم يشيرون عليه أن لا يقتل موسى و يكفّ عنه كما يشير إليه قوله تعالى : « قالوا أرجه وأخاه » الشعراء : ٣٦ .

وقوله : « وليدع ربّه » كلمة قالها كبراً وعتوّاً يقول : اتركوني أقتله وليدع ربّه فلينجيه من يدي وليخلصه من القتل إن قدر .

و قوله : « إنّي أخاف أن يبدّل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد » تعليل لما عزم عليه من القتل وقد ذكر أنّه يخافه عليهم من جهة دينهم و من جهة دنياهم: أمّا من جهة دينهم - وهو عبادة الأصنام - فإنّ يبدّله ويضع موضعه عبادة الله وحده ، وأمّا من جهة دنياهم فكان يعظم أمره و يتقوى جانبه و يكثر متبّعوه فيتظاهروا بالتمرد و المخالفة فيؤل الأمر إلى المشاجرة و القتال و انسلاب الأمان .

قوله تعالى : « وقال موسى إنّي عذت بربي وربكم من كل متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب » مقابلة منه ﷺ لتهديد فرعون إياه بالقتل واستعاذه منه بربه ، وقوله:

« عذت بربّي وربكم » فيه مقابلة منه أيضا لفرعون في قوله : « وليدع ربّه » حيث خصّ ربوبيته تعالى بموسى فأشار موسى بقوله : « عذت بربّي وربكم » إلى أنّه تعالى ربهم كما هو ربّه نافذ حكمه فيهم كما هو نافذ فيه فله أن يقي عائذه من شرهم وقد وقى .

و من هنا يظهر أنّ الخطاب في قوله : « وربكم » لفرعون ومن معه دون قومه من بني إسرائيل .

وقوله : « من كل متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب » يشير به إلى فرعون وكل من يشاركه في صفتي التكبر وعدم الإيمان بيوم الحساب ولا يؤمن ممّن اجتمعت فيه الصفتان شرّ أصلا .

قوله تعالى : « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه » إلى آخر الآية .
ظاهر السياق أنّ « من آل فرعون » صفة رجل و « يكتم إيمانه » صفة أخرى فكان الرجل من القبط من خاصّة فرعون وهم لا يعلمون بإيمانه لكنمائه إياهم ذلك تقيّة .
وقيل : قوله : « من آل فرعون » مفعول ثان لقوله : « يكتم » قدّم عليه ، والغالب فيه وإن كان التعلّي إلى المفعول الثاني بنفسه كما في قوله : « ولا يكتمون الله حديثا » النساء : ٤٢ لكنّه قد يتعدّى إليه بمن كما صرّح به في المصباح .

و فيه أنّ السياق يأباه فلانكته ظاهرة تقتضي تقدّم المفعول الثاني على الفعل من حصر ونحوه . على أنّ الرجل يكرّر نداء فرعون وقومه بلفظة « يا قومي » ولولم يكن منهم لم يكن له ذلك .

وقوله : « أقتلون رجلا أن يقول ربّي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » إنكار لعزمهم على قتله ، و في قوله : « من ربكم » دليل على أنّ في البينات التي جاء بها دلالة على أنّ الله ربهم أيضا كما اتخذها ربّا فقتله قتل رجل جاء بالحق من ربهم .
وقوله : « وإن يك كاذبا فعليه كذبه » قيل : إنّ ذكره هذا التقدير تلطّف منه لأنّه كان شاكّا في صدقه .

و قوله : « وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم » فيه تنزّل في المخاصمة

بالاكتفاء على أيسر التقادير وأقلها كأنه يقول : وإن يك صادقا يصبكم ما وعدكم من أنواع العذاب ولا أقلّ من إصابة بعض ما يعدكم مع أن لازم صدقه إصابة جميع ما وعد .
 و قوله : « إن الله لا يهدي من هو مسرف كذاب » تعليل للتقدير الثاني فقط
 والمعنى إن يك كاذبا كفاه كذبه وإن يك صادقا يصبكم بعض الذي يعدكم لأنكم حينئذ مسرفون متعدّون طوركم كذاً أبون في نفي ربوبيّة ربكم واتخاذ أرباب من دونه والله لا يهدي من هو مسرف كذاب ، وأما على تقدير كذبه فلا ربوبيّة لمن اتّخذ رباحاً حتى يهديه أولاً يهديه .

ومن هنا يظهر أن ما ذكره بعضهم من كون الجملة تعليلًا للتقديرين جميعاً متعلّقة بكلتا الجملتين غير مستقيم .

قوله تعالى : « يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا » ظهورهم غلبتهم وعلوهم في الأرض ، و الأرض أرض مصر ، وبأس الله أخذه وعذابه والاستفهام للإِنكار .

والمعنى يا قوم لكم الملك حال كونكم غالبين عالين في أرض مصر على من دونكم من بني إسرائيل فمن ينصرنا من أخذ الله وعذابه كما يعدنا به موسى إن جاءنا ؟ وقد أدخل نفسه فيهم على تقدير مجيء البأس ليكون أبلغ في النصيح وأوقع في قلوبهم أنه يريد لهم من العافية ما يريده لنفسه .

قوله تعالى : « قال فرعون ما أريكم إلّا ما أرى وما أهديكم إلّا سبيل الرشاد » أي طريق الصواب المطابقة للواقع يريد أنه على يقين ممّا يهدي إليه قومه من الطريق وهي مع كونها معلومة له مطابقة للواقع ، وهذا كان تمويهاً منه وتجلّداً .

قوله تعالى : « وقال الذي آمن يا قوم إنّي أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب - إلى قوله - للعباد » المراد بالذي آمن هو مؤمن آل فرعون ، ولا يعبؤ بما قيل : إنه موسى لقوّة كلامه ، والمراد بالأحزاب الأمم المذكورون في الآية التالية قوم نوح و عاد و ثمود و الذين من بعدهم ، و قوله : « مثل دأب قوم نوح » بيان للمثل السابق و الدأب هو العادة .

و المعنى يا قوم إنني أخاف عليكم مثل يوم الأ أقوام الماضين مثل العادة الجارية من العذاب عليهم واحداً بعد واحد لكفرهم و تكذيبهم الرسل ، أو مثل جزاء عادتهم الدائمة من الكفر والتكذيب و ما الله يريد ظلماً للعباد .

قوله تعالى : « و يا قوم إنني أخاف عليكم يوم التناد - إلى قوله - من هاد » يوم التناد يوم القيامة ، و لعل^١ تسميته بذلك لكون الظالمين فيه ينادي بعضهم بعضاً و ينادون بالويل و الشبور على ما اعتادوا به في الدنيا .

و قيل : المراد بالتنادي المناداة التي تقع بين أصحاب الجنة و أصحاب النار على ما ذكره الله تعالى في سورة الأعراف ، و هناك وجوه أخر ذكروها لا جدوى فيها .

و قوله : « يوم تولون مدبرين ما لكم من الله من عاصم » المراد به يوم القيامة و لعل^٢ المراد أنهم يفرون في النار من شدة عذابها ليتخلصوا منها فردوا إليها كما قال تعالى : « كلما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها و ذوقوا عذاب الحريق » الحج : ٢٢ .

و قوله : « و من يضل الله فما له من هاد » بمنزلة التعليل لقوله : « ما لكم من الله من عاصم » أي تفرون مدبرين ما لكم من عاصم و لو كان لكان من جانب الله و ليس وذلك لأن الله أضلهم و من يضل الله فما له من هاد .

قوله تعالى : « و لقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات » إلى آخر الآية . لما ذكر أن الله أضلهم و لاهدي لهم استشهد له بما عاملوا به يوسف عليه السلام في رسالته إليهم حيث شكوا في نبوته ما دام حياً ثم إذا مات قالوا : لا نبي بعده .

فالمعنى و أقسم لقد جاءكم يوسف من قبل بالآيات البينات التي لا تدع ريباً في رسالته من الله فما زلتم في شك مما جاءكم به مادام حياً حتى إذا هلك و مات قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا فناقضتم أنفسكم و لم تبالوا .

ثم أؤكد - و هو في معنى التعليل - بقوله : « كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب » .

قوله تعالى : «الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم» الخ وصف لكل مسرف مرتاب فإن من تعدى طوره بالإعراض عن الحق واتباع الهوى واستقر في نفسه الارتياب فكان لا يستقر على علم ولا يطمئن إلى حجة تهديه إلى الحق جادل في آيات الله بغير برهان إذا خالفت مقتضى هواه .

وقوله : «كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار» يفيد أن قلوبهم مطبوع عليها فلا يفقهون حجة ولا يركنون إلى برهان .

قوله تعالى : « وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً - إلى قوله - في تباب » أمر منه لوزير هامان أن يبني له بناء يتوصل به إلى الإطلاع إلى إله موسى ولعله أصدر هذا الأمر أثناء حاجة الذي آمن و بعد الانصراف عن قتل موسى و لذلك وقع ذكره بين مواضع الذي آمن و احتجاجاته .

والصرح - على ما في المجمع - البناء الظاهر الذي لا يخفى على عين الناظر وإن بعد ، والأسباب جمع سبب وهو ما تتوصل به إلى ما يبعد عنك .

و قوله : « لعلي أبلغ الأسباب » في معنى التعليل لأمره ببناء الصرح والمعنى أمرك ببنائه لأنني أرجو أن أبلغ بالصعود عليه الأسباب ثم فسر الأسباب بقوله : « أسباب السماوات » و فرّع عليه قوله : « فأطلع إلى إله موسى » كأنه يقول : إن الإله الذي يدعوه ويدعو إليه موسى ليس في الأرض إذ لا إله فيها غيري فلعله في السماء فابن لي صرحاً لعلي أبلغ بالصعود عليه الأسباب السماوية الكاشفة عن خبايا السماء فأطلع من جهتها إلى إله موسى وإنني لأظنه كاذباً .

وقيل : إن مراده أن يبني له رسدا يرصد فيه الأوضاع السماوية لعله يعثر فيها على ما يستدل به على وجود إله موسى بعد اليأس عن الظفر عليه بالوسائل الأراضية وهو حسن ، و على أي حال لا يستقيم ما ذكره على شيء من مذاهب الوثنية فلعله كان منه تمويها على الناس أوجهاً منه وما هو من الظالمين ببعيد .

وقوله : « و كذلك زين فرعون سوء عمله وصدّ عن السبيل » مفاد السياق أنه في معنى إعطاء الضابط لما واجه به فرعون الحق الذي كان يدعوه إليه موسى فقد زين

الشیطان له قبیح عمله فرآه حسنا و صدّه عن سبیل الرشاد فرآی انصداده عنها ركوبا علیها فجادل فی آیات الله بالباطل و أتى بمثل هذه الأعمال القبیحة و المكائد السفیة لإدحاض الحق .

و لذلك ختمت الآية بقوله : « وما کید فرعون إلا فی تباب » أي هلاك و انقطاع .

قوله تعالى : « و قال الذی آمن یاقوم اتبعون أهدکم سبیل الرشاد » یدعوهم إلى اتباعه لیهدیهم ، و اتباعه اتباع موسى ، و سبیل الرشاد السبیل الّتی فی سلوکها إصابة الحقّ و الظفر بالسعادة ، و الهدایة بمعنی إراءة الطریق ، و فی قوله : « أهدکم سبیل الرشاد » تعریض لفرعون حیث قال : « و ما أهدیکم إلا سبیل الرشاد » و الباقی ظاهر .

قوله تعالى : « یا قوم إنما هذه الحیاة الدنیا متاع و إن الآخرة هی دارالقرار » هذا هو السناد الذی یستند إلیه سلوک سبیل الرشاد و التّدينّ بدين الحقّ لاغنى عنه بحال و هو الاعتقاد بأنّ للإنسان حیاة خالدة مؤبّدة هی الحیاة الآخرة وأنّ هذه الحیاة الدنیا متاع فی الآخرة و مقدّمة مقصودة لأجلها ، و لذلك بدّعه فی بیان سبیل الرشاد ثمّ ذکر السيئة و العمل الصالح .

قوله تعالى : « من عمل سیئة فلا یجزی إلا مثلها » إلى آخر الآية . أي إنّ الذی یصیبه و یعیش به فی الآخرة یشاکل ما أتى به فی هذه الحیاة الدنیا الّتی هی متاع فیها فإنّما الدنیا دار عمل و الآخرة دار جزاء .

من عمل فی الدنیا سیئة ذات صفة المساءة فلا یجزی فی الآخرة إلا مثلها ممّا یسوّه و من عمل صالحا من ذکر أو أنثى من غیر فرق بینهما فی ذلك و الحال أنّه مؤمن فأولئك یدخلون الجنة یرزقون فیها بغير حساب .

و فیهِ إشارة إلى المساواة بین الذکر و الأنثى فی قبول العمل و تقیید العمل الصالح فی تأثیره بالإیمان لکون العمل حبطا بدون الإیمان قال تعالى : « و من یکفر بالإیمان فقد حبط عمله » المائدة : ٥ إلى غیرها من الآیات .

وقد جمع الدين الحق وهو سبيل الرشاد في أوجزيان وهو أن للإنسان دار قرار يجزى فيها بما عمل في الدنيا من عمل سيئ أو صالح فليعمل صالحاً ولا يعمل سيئاً، وزاد بياناً إذ أفاد أنه إن عمل صالحاً يرزق بغير حساب .

قوله تعالى : « و يا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة و تدعونني إلى النار - إلى قوله - العزيز الغفار » كأنه لما دعاهم إلى التوحيد قابلوه بدعوته إلى عبادة آلهتهم أو قدرها لهم لما شاهد جدالهم بالباطل وإصرارهم على الشرك فنسب إليهم الدعوة بشهادة حالهم فأظهر العجب من مقابلتهم دعوته الحقّة بدعوتهم الباطلة .

فقال : و يا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة أي النجاة من النار و تدعونني إلى النار و قد كان يدعوهم إلى سبب النجاة و يدعونه إلى سبب دخول النار فجعل الدعوة إلى السببين دعوة إلى المسببين أو لأنّ الجزاء هو العمل بوجه .

ثم فسّر ما دعوه إليه و ما دعاهم إليه فقال : تدعونني لأكفر أي إلى أن أكفر بالله و أشرك به ما ليس لي به علم أي أشرك به شيئاً لا حجة لي على كونه شريكاً ففترى على الله بغير علم ، و أنا أدعوكم إلى العزيز الذي يغلب ولا يغلب ، الغفار لمن تاب إليه و آمن به أي أدعوكم إلى الإيمان به و الإسلام له .

قوله تعالى : « لاجرم أنّ ما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة » الخ لاجرم بمعنى حقاً أو بمعنى لا بدّ ، و مفاد الآية إقامة الحجّة على عدم كون ما يدعون إليه إلهاً من طريق عدم الدعوة إليه و في ذلك تأييد لقوله في الآية السابقة « ما ليس لي بدعلم » .

و المعنى ثبت ثبوتاً أنّ ما تدعونني إليه ممّن تسمّونه شريكاً له سبحانه ليس له دعوة في الدنيا إذ لم يعهد نبيّ أرسل إلى الناس من ناحيته ليُدعُوهم إلى عبادته ، ولا في الآخرة إذ لا رجوع إليه فيها من أحد ، و أمّا الذي أدعوكم إليه وهو الله سبحانه فإنّ له دعوة في الدنيا وهي التي تصدّأها أنبياءه و رسله المبعوثون من عنده المؤيّدون بالحجج و البينات ، و في الآخرة وهي التي يتبعها رجوع الخلق إليه لفصل القضاء بينهم قال تعالى : « يوم يدعوكم فتستجيبون بحمده » أسرى : ٥٢ .

و من المعلوم كما قرناه في ذيل قوله تعالى : « هو الذي يريكم آياته » الآية ١٣ من السورة أن الربوبية لا تتم بدون دعوة في الدنيا و نظيرتها الدعوة في الآخرة ، و إذ كان الذي يدعوهم إليه نادعوه في الدنيا والآخرة دون ما يدعونه إليه فهو الاله بدون ما يدعون إليه .

وقوله : « وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار » معطوف على قوله : « أن ماتدعونني » أي لاجرم أن مردنا إلى الله فيجب الإسلام له و اتباع سبيله ورعاية حدود العبودية ، و لاجرم أن المسرفين و هم المتعدون طور العبودية - وهم أئتم - أصحاب النار فالذي أدعوكم إليه فيه النجاة دون ماتدعونني إليه .

قوله تعالى : « فستذكرون ما أقول لكم و أفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد » صدر الآية موعظة و تخويف لهم ، وهو تفريع على قوله : « وأن مردنا إلى الله » الخ أي إذ كان لابد من الرجوع إلى الله و حلول العذاب بالمسرفين و أئتم منهم ولم تسمعوا اليوم ما أقول لكم فستذكرون ما أقول لكم حين عاينتم العذاب و تعلمون عند ذاك أنني كنت ناصحاً لكم .

وقوله : « و أفوض أمري إلى الله » التفويض على ما فسره الراغب هو الرد تفويض الأمر إلى الله رده إليه فيقرب من معنى التوكل و التسليم و الاعتبار مختلف : فالتفويض من العبد رده ما نسب إليه من الأمر إلى الله سبحانه و حال العبد حينئذ حال من هو أعزل لا أمر راجعاً إليه ، و التوكل من العبد جعله ربه و كيلاً يتصرف فيما له من الأمر ، و التسليم من العبد مطاوعته المحضة لما يريده الله سبحانه فيه و منه من غير نظر إلى انتساب أمر إليه فهي مقامات ثلاث من مقامات العبودية : التوكل ثم التفويض وهو أدق من التوكل ثم التسليم وهو أدق منهما .

وقوله : « إن الله بصير بالعباد » تعليل لتفويضه أمره إلى الله ، و في وضع اسم الجلالة موضع ضميره - و كان مقتضى الظاهر الإضمار إشارة إلى علّة بصيرته بالعباد كأنه قيل : إنه بصير بالعباد لأنه الله عز اسمه .

قوله تعالى : « فوқа الله سيئات ما مكروا » تفريع على تفويضه الأمر إلى الله

فكفاه الله شرهم ووقاه سيئات مكرهم ، وفيه إشارة إلى أنهم قصدوه بالسوء لكن الله دفعهم عنه .

قوله تعالى : « وحق بال فرعون سوء العذاب - إلى قوله - أشد العذاب » أي نزل بهم وأصابهم العذاب السيئ فسوء العذاب من إضافة الصفة إلى موصوفها وفي التوصيف بالمصدر مبالغة ، و آل فرعون أشياء وأتباعه ، وربما يقال آل فلان ويشمل نفسه .

و قوله : « النار يعرضون عليها غدواً وعشياً و يوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب » ظاهر السياق أنه بيان لسوء العذاب وليس من الاستئناف في شيء . والآية صريحة أولاً في أن هناك عرضاً على النار ثم إدخالاً فيها والإدخال أشد من العرض ، وثانياً في أن العرض على النار قبل قيام الساعة التي فيها الإدخال وهو عذاب البرزخ - عالم متوسط بين الموت والبعث - ، وثالثاً أن التعذيب في البرزخ و يوم تقوم الساعة بشيء واحد وهونار الآخرة لكن البرزخيين يعدون بها من بعيد وأهل الآخرة بدخولها .

وفي قوله : « غدواً وعشياً » إشارة إلى التوالي من غير انقطاع ، ولعل لأهل البرزخ لعدم انقطاعهم عن الدنيا بالكلية نسبة ما إلى الغداة والعشي . وفي قوله : « و يوم تقوم الساعة أدخلوا » إيجاز بالحذف والتقدير يقال : أدخلوا آل فرعون أشد العذاب .

قوله تعالى : « وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا - إلى قوله - بين العباد » يفيد السياق أن الضمير في « يتحاجون » لآل فرعون ومن الدليل على ذلك تغيير السياق في قوله بعد : « وقال الذين في النار » والمعنى وحق بال فرعون سوء العذاب إذ يتحاجون في النار أو وأذكر من سوء عذابهم إذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء منهم للذين استكبروا إننا كنا في الدنيا لكم تبعاً وكان لازم ذلك أن تكفونا في الحوائج وتنصرونا في الشدائد ولاشدة أشد مما نحن فيه فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار وإن لم يكن جميع عذابها فقد قنعنا ببعض .

وهذا ظهور مما رسخ في نفوسهم في الدنيا من الالتجاء بكبرائهم ومتبوعهم من دون الله يظهر منهم ذلك يوم القيامة وهم يعلمون أنهم في يوم لا تغني فيه نفس عن نفس شيئاً والأمر يومئذ لله وله نظائر محكية عنهم في كلامه تعالى من كذبهم يومئذ وحلفهم وإنكارهم أعمالهم وتكذيب بعضهم لبعض وغير ذلك .

وقوله : « قال الذين استكبروا إننا كلٌّ فيها إن الله قد حكم بين العباد » جواب من مستكبريهم عن قولهم ومحصله أن اليوم يوم جزاء لا يوم عمل فالأسباب ساقطة عن التأثير وقد طاحت منّا ما كنّا نتوهمه لأنفسنا في الدنيا من القوة والقدرة فحالنا وحالكم - ونحن جميعا في النار - واحدة .

فقولهم : « إنّا كلٌّ فيها إن الله قد حكم بين العباد » مفاده أن ظهور الحكم الإلهي قد أبطل أحكام سائر الأسباب وتأثيراتها وأثبتنا على ما نحن فيه من الحال في حدّ سواء فلنسا نخصّ دونكم بقوة حتّى نغني عنكم شيئاً من العذاب .
ومما قيل في الآية أن الضمير في قوله : « يتحاجّون » مطلق الكفّار من أهل النار وهو بعيد كما عرفت ، وقيل : الضمير لقريش وهو أبعد .

قوله تعالى : « وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب » مكالمة بين أهل النار - ومنهم آل فرعون - وبين خزنة جهنم أوردّها سبحانه تلوقة آل فرعون ، وهم إنّما سألوها الخزنة أن يدعوا لهم ليأسهم من أن يستجاب منهم أنفسهم .

و المراد باليوم من العذاب ما يناسب من معنى اليوم لعالمهم الذي هم فيه، ويؤل معناه إلى قطعة من العذاب .

قوله تعالى : « قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » . أجابوهم بالاستخبار عن إتيان رسلهم إيّاهم بالبينات فاعترفوا بذلك وهو اعتراف منهم بأنهم كفروا بهم مع العلم بكونهم على الحق وهو الكفر بالنبوة فلم يجبهم الخزنة فيما سألوهم من الدعاء إثباتاً ولا نفيّاً بل ردّوهم إلى أنفسهم مشيرين إلى أنهم لا يستجاب لهم دعاء .

و قوله : « وما دعاء الكافرين إلا في ضلال » أي إن دعاءهم قد أحاط به الضلال فلا يهتدي إلى هدف الإجابة و هو تتمّة كلام الخزنة على ما يعطيه السياق ، و يحتمل أن يكون من كلامه تعالى ، على بعد .

و الجملة على أيّ حال تفيد معنى التعليل و المحصل : ادعوا فلا يستجاب لكم فإني كنكم كافرون ، و الكافرون لا يستجاب لهم دعاء .

و تعليق حكم عدم الاستجابة بوصف الكفر مشعر بعليته و ذلك أن الله سبحانه و إن وعد عباده وعداً قطعياً أن يجيب دعوة من دعاه منهم فقال : « أُجيب دعوة الداع إذا دعان » البقرة ١٨٦ ، و الدعاء إذا كان واقعاً على حقيقته لا يردّ البتّة لكنّ الذي يتضمّنه متن هذا الوعد هو أن يكون هناك دعاء و طلب حقيقة و أن يتعلّق ذلك بالله حقيقة أي يدعوا الداعي و يطلب جداً و ينقطع في ذلك إلى الله عن سائر الأسباب التي يسميها أسباباً .

و الكافر بعذاب الآخرة وهو الذي ينكرها و يستر حقيقتها لا يتمشّي منه طلب جدّيّ لرفعه أمّا في الدنيا فظاهر ، و أمّا في الآخرة فلائنه و إن أيقن به بالمعينة و انقطع إلى الله سبحانه لما هو فيه من الشدّة و قد انقطعت عنه الأسباب لكنّ صفة الإنكار لزمته وبالا و قد جوزي بها فلا تدعه يطلب ما كان ينكره طلباً جدّيّاً .

على أن الكلام في انقطاعه إلى الله أيضاً كالكلام في طلبه الجدّيّ للتخلّص و أني له الانقطاع إلى الله هناك و لم يتلبّس به في الدنيا فافهمه .

وبذلك يظهر ضعف الاستدلال بالآية على أن دعاء الكافر لا يستجاب مطلقاً فإنك عرفت أن مدلول الآية عدم استجابة دعائه فيما يكفر به و ينكره لا مطلقاً كيف ؟ و هناك آيات كثيرة تذكر استجابة دعائه في موارد الاضطرار .

قوله تعالى : « إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ » الأَشْهَاد جمع شهيد بمعنى شاهد ، و الآية وعد نوعي لا وعد شخصي لكل واحد شخصي منهم في كل واقعة شخصيّة ، و قد تقدّم كلام في معنى النصر الإلهي في تفسير قوله تعالى : « إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ » الصافات : ١٧٢ .

قوله تعالى : « يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم و لهم اللعنة و لهم سوء الدار »
 تفسير ليوم يقوم الأَشهاد ، و ظاهر إضافة المصدر إلى فاعله في قوله « معذرتهم » و لم
 يقل : أن يعتذروا ، تحقق معذرة ما منهم يومئذ ، و أمّا قوله : « هذا يوم لا ينطقون
 و لا يؤذن لهم فيعتذرون » المرسلات : ٣٦ فمحمول على بعض مراحل يوم القيامة و
 عقباته لدلالة آيات أخرى على وقوع تكلم ما منهم يومئذ .
 و قوله : « و لهم اللعنة » أي البعد من رحمة الله ، و قوله : « و لهم سوء الدار »
 أي الدار السيئة و هي جهنم .

قوله تعالى : « و لقد آتينا موسى الهدى و أورثنا بني إسرائيل الكتاب - إلى
 قوله - الألباب » خاتمة لما تقدم من إرسال موسى بالآيات و السلطان المبين و مجادلة
 آل فرعون في الآيات بالباطل و حاجة مؤمن آل فرعون ، يشير بها وقد صدرت بلام
 القسم إلى حقيقة ما أرسل به و ظلمهم فيما قبلوه به .
 و المراد بالهدى الدين الذي أوتيته موسى ، و « بإيراث بني إسرائيل الكتاب »
 إبقاء التوراة بينهم يعملون بها و يهتدون .
 و قوله : « هدى و ذكرى لأولي الألباب » أي حالكون الكتاب هدى يهتدي
 به عامتهم و ذكرى يتذكروا به خاصتهم من أولي الألباب .

﴿ بحث روائي ﴾

في العلل بإسناد عن إسماعيل بن منصور أبي زياد عن رجل عن أبي عبد الله عليه السلام
 في قول فرعون : « ذروني أقتل موسى » ما كان يمنعه ؟ قال : منعه رشده ، و لا يقتل
 الأنبياء و لا أولاد الأنبياء إلا أولاد الزنا .
 و في المجمع قال أبو عبد الله : التقيّة ديني و دين آبائي ، و لا دين لمن لا تقيّة
 له ، و التقيّة ترس الله في الأرض لأن مؤمن آل فرعون لو أظهر الإسلام لقتل .
أقول : و الروايات من طرق الشيعة فيها كثيرة والآيات تؤيدها كقوله : « إلا
 أن تتقوا منهم تقاة » آل عمران : ٢٨ و قوله : « إلا من أكره و قلبه مطمئن بالإيمان »

النحل : ١٠٦ .

وفي المحاسن بإسناده عن أيوب بن الحرّ عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله : «فوقاه الله سيئات ما مكروا» قال : أما لقد سطوا عليه وقتلوه ولكن أتدرون ما وقاه ؟ وقاه أن يفتنوه في دينه .

اقول : وفي معناه بعض روايات أخر و في بعض ماورد من طرق أهل السنة أن الله نجّاه من القتل .

وفي الخصال عن الصادق عليه السلام قال : عجبت لمن يفرع من أربع كيف لا يفرع إلى أربع ؟ - إلى أن قال - وعجبت لمن مكربه كيف لا يفرع إلى قوله : « وأفوض أمري إلى الله إن الله بصير بالعباد » فإني سمعت الله تعالى يقول بعقبها : « فوقاه الله سيئات ما مكروا » .

اقول : وهو مروى في غير هذا الكتاب .

وفي تفسير القمي قال رجل لأبي عبد الله عليه السلام : ما تقول في قول الله عز وجل : « النار يعرضون عليها غدواً وعشياً » ؟ فقال أبو عبد الله عليه السلام : ما يقول الناس ؟ فقال : يقولون : إنها في نار الخلد وهم لا يعدّون فيما بين ذلك فقال : فهم من السعداء . فقيل له : جعلت فداك فكيف هذا ؟ فقال : إنما هذا في الدنيا فأما في دار الخلد فهو قوله : « ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب » .

اقول : مراده عليه السلام بالدنيا البرزخ وهو كثير الورد في رواياتهم .

وفي المجمع عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال : إن أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة والعشي فإن كان من أهل الجنة فمن الجنة ، وإن كان من أهل النار فمن النار يقال : هذا مقعدك حتى يبعثك الله يوم القيامة أورده البخاري ومسلم في الصحيح .

اقول : ورواه السيوطي في الدر المنثور عنهما وعن ابن أبي شعبة وابن مردويه وهذا المعنى كثير الورد في روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام ، وقد مرّ كثير منها في البحث عن البرزخ في الجزء الأول من الكتاب وغيره من المواضع .

فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ
وَالْأَبْكَارِ (٥٥) إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتِيهِمْ إِنْ
فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ (٥٦) لَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرَ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٥٧) وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مِمَّا تَتَذَكَّرُونَ (٥٨) إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ
لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٩) وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي
أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ
دَاخِرِينَ (٦٠) .

﴿ بَيَان ﴾

لَمَّا قَصَّ قِصَّةَ مُوسَى وَإِرْسَالَهُ بِالْحَقِّ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ ، وَ مَجَادَلَتِهِمْ فِي آيَاتِ اللَّهِ
بِالْبَاطِلِ وَ مَكْرِهِمْ فِيهَا وَنَصْرَهُ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ وَ إِبْطَالَهُ كَيْدَهُمْ وَ مَا آلَ إِلَيْهِ أُمُورُهُمْ مِنْ خِيْبَةِ
السَّعْيِ وَ سَوْءِ الْمُنْقَلَبِ فَرَّغَ عَلَى ذَلِكَ أَمْرَ نَبِيِّهِ ﷺ بِالصَّبْرِ مِنْبَهًا لَهُ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ بِالنَّصْرِ
حَقٌّ وَ أَنَّ كَيْدَ قَوْمِهِ وَ جِدَالَهِمْ بِالْبَاطِلِ وَ اسْتِكْبَارَهُمْ عَنْ قَبُولِ دَعْوَتِهِ سَيَبْطُلُ وَ يَمْعُودُونَ بِأَلَا
عَلَى أَنْفُسِهِمْ فَلْيَسُوا بِمَعْجِزِي اللَّهِ وَ سَتَقُومُ السَّاعَةُ الْمَوْعُودَةُ وَ يَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ .

قوله تعالى : « فاصبر إن وعد الله حق » إلى آخر الآية . تفريع على ما تقدم
من الأمر بالاعتبار في قوله : « أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين

كانوا من قبلهم» وما أورد بعده من قصة موسى ومآل أمر المستكبرين المجادلين بالباطل ونصره تعالى للحق وأهله .

و المعنى إذا كان الأمر على ذلك فاصبر على إيذاء المشركين ومجادلتهم بالباطل إن وعد الله حق وسيفي لك بما وعد ، والمراد بالوعد ما في قوله قبيل هذا : « إِنَّا لَنَنْصُرَ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا » الآية من وعد النصر .

و قوله : « واستغفر لذنبك » أمر له بالاستغفار لما يعد بالنسبة إليه ذنبا وإن لم يكن ذنبا بمعنى المخالفة للأمر المولوي لمكان عصمته ﷺ ، وقد تقدم كلام في معنى الذنب والمغفرة في أواخر الجزء السادس من الكتاب .

و للذنب المنسوب إليه ﷺ معنى آخر سنشير إليه في تفسير أول سورة الفتح إن شاء الله تعالى ، وقيل : المراد بذنبه ﷺ ذنب أمته أعطى الشفاعة فيه .

و قوله : « و سبح بحمد ربك بالعشي » والإبكار « أي نزهة سبحانه مصاحبا لحمده على جميل آلائه مستمر متواليا بتوالي الأيام أو في كل صباح ومساء ، وكونه بالعشي » والإبكار على المعنى الأول من قبيل الكناية .

و قيل : المراد به صلاتا الصبح والعصر ، والآية مدنيّة .

وفيه أن المسلم من الروايات ومنها أخبار المعراج أن الصلوات الخمس فرضت جميعا بمكة قبل الهجرة فلو كان المراد به الفريضتين كان ذلك بمكة قبل فرض بقية الصلوات الخمس .

قوله تعالى : « إِنّ الَّذِينَ يَجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَّهِمًا بِبَالِغِهِ » الخ تأكيد لما تقدم في الآية السابقة من أمره ﷺ بالصبر و تطيب نفسه بتأييد وعد النصر ومحصله أن هؤلاء المجادلين لا ينالون بغيتهم ولن ينالوا فلا يحزنك جدالهم وطب نفساً من ناحيتهم .

فقوله : « إِنّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا » حصر للسبب الموجب لمجادلتهم في الكبر أي ليس عاملهم في ذلك طلب الحق أو الارتياح في آياتنا والشك فيها حتى يريدوا بها

ظهور الحق ولا حجة ولا سلطان عندهم حتى يريدوا إظهارها بل الذي في صدورهم وهو الداعي لهم إلى الجدل ، الكبر ، يريدون به إدحاض الحق الصريح .

وقوله : « ما هم ببالغه » الضمير لكبر باعتبار مسيئته فإن الكبر سبب للجدال و الجدال يراد به إبطال الحق ومحق الدعوة الحقّة والمعنى ما هم ببالغه مرادهم وبغيتهم من الجدال الذي يأتون به لكبرهم .

وقوله : « فاستعذ بالله » أي فاستعذ بالله منهم بما لهم من الكبر كما استعاذ موسى من كل متكبر مجادل كما قال : « وقال موسى إنني عذت بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب » .

وقوله : « إنه هو السميع البصير » أي السميع لدعاء عباده البصير بحوائجهم والذي يبصر ما هم فيه من شدة أو رخاء .

قوله تعالى : « لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون » اللام للقسام ، والمراد بالسماوات والأرض مجموع العالم ، ومعنى الآية حسب ما يعطيه المقام أنهم ليسوا ببالغه بغيتهم وليسوا بمعجزين فإن الله الذي قدر على خلق مجموع العالم ولم يعجزه ذلك على ما فيه من العظمة ليس يعجزه جزء يسير منه وهو الناس المخلوقون الذين هم أهون عليه ولكن أكثر الناس جاهلون يظنون بجهلهم أنهم يعجزون الله بجدال يجادلونه أو أي كيد يكيدونه .

قوله تعالى : « ولا يستوي الأعمى والبصير » الخ لما ذكر أن أكثر الناس لا يعلمون أكد أنه ليسوا على وتيرة واحدة فإن منهم الأعمى والبصير ولا يستويان وعطف عليهما الذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيء فالطائفة الأولى أولو بصيرة يتذكرون بها والثانية أعمى الله قلوبهم فلا يتذكرون .

وقوله : « قليلا ماتذكرون » خطاب للناس بداعي التوبيخ وهو الوجه في الالتفات من الغيبة إلى الحضور .

قوله تعالى : « إن الساعة آتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون »

ذَكَرَهُمْ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِإِتْيَانِ السَّاعَةِ وَفِي الْآيَةِ التَّالِيَةِ بِدَعْوَةِ رَبِّهِمْ إِلَيْهِمْ إِلَى دَعَائِهِ وَعِبَادَتِهِ كَمَا نَبَّهَ الَّذِي آمَنَ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ فِي الْقِصَّةِ السَّابِقَةِ بِإِتْيَانِ السَّاعَةِ وَبَأَنَّ لِلَّهِ الدَّعْوَةَ وَلَيْسَ لَأَهْلَتِهِمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ .

قوله تعالى : « وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » دَعْوَةٌ مِنْهُ تَعَالَى لِعِبَادِهِ إِلَى دَعَائِهِ وَوَعْدٌ بِالِاسْتِجَابَةِ ، وَقَدْ أُطْلِقَ الدَّعْوَةُ وَالدَّعَاءُ وَالِاسْتِجَابَةُ إِطْلَاقًا ، وَقَدْ أَشْبَعْنَا الْكَلَامَ فِي مَعْنَى الدَّعَاءِ وَالْإِجَابَةِ فِي ذِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى : « أُجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَا » الْبَقَرَةِ : ١٨٦ فِي الْجُزْءِ الْأَوَّلِ مِنَ الْكِتَابِ .

وَقَوْلُهُ : « إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » الدُّخُورُ الذَّلَّةُ ، وَقَدْ بَدَّلَ الدَّعَاءَ عِبَادَةً فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الدَّعَاءَ عِبَادَةٌ .

﴿ بحث روائي ﴾

فِي الصَّحِيفَةِ السَّجَّادِيَّةِ : « وَقُلْتُ : « ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » فَسَمَّيْتُ دَعَاءَكَ عِبَادَةً وَتَرَكْتُهِ اسْتِكْبَارًا وَتَوَعَّدْتُ عَلَى تَرْكِهِ دُخُولَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ .

وَفِي الْكَافِي بِإِسْنَادِهِ عَنْ حَمَّادِ بْنِ عِيسَى عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ : سَمِعْتُهُ يَقُولُ : ادْعُ وَلَا تَقُلْ : قَدْ فَرَّغَ مِنَ الْأَمْرِ فَإِنَّ الدَّعَاءَ هُوَ الْعِبَادَةُ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ : « إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » وَقَالَ : « ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » .

اقول : قَوْلُهُ عليه السلام : فَإِنَّ الدَّعَاءَ - إِلَى قَوْلِهِ - دَاخِرِينَ احْتِجَاجٌ عَلَى مَا نَدَّبَ إِلَيْهِ أَوْ لَا يَقُولُهُ : ادْعُ ، وَقَوْلُهُ : وَقَالَ : « ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » احْتِجَاجٌ عَلَى مَا قَالَهُ ثَانِيًا : وَلَا تَقُلْ : قَدْ فَرَّغَ مِنَ الْأَمْرِ وَلِذَا قَدَّمَ عليه السلام فِي بَيَانِهِ ذِيلَ الْآيَةِ عَلَى صَدْرِهَا . وَفِي الْخِصَالِ عَنْ مَعَاوِيَةَ بْنِ عَمَّارٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ : يَا مَعَاوِيَةُ مَنْ أُعْطِيَ ثَلَاثَةً لَمْ يَحْرَمْ ثَلَاثَةً : مَنْ أُعْطِيَ الدَّعَاءَ أُعْطِيَ الْإِجَابَةَ ، وَمَنْ أُعْطِيَ الشُّكْرَ أُعْطِيَ

الزيادة ، و من أُعطي التوكل أُعطي الكفاية فإن الله عزّ وجلّ يقول في كتابه :
 « ومن يتوكل على الله فهو حسبه » ، وقال : « لئن شكرتم لأزيدنكم » ، وقال : « ادعوني
 أستجب لكم » .

و في التوحيد بإسناده إلى موسى بن جعفر عليه السلام قال : قال قوم للصادق عليه السلام :
 ندعوه فلا يستجاب لنا . قال : لأنكم تدعون من لا تعرفونه .
اقول : وقد أوردنا جملة من روايات الدعاء في ذيل قوله : أُجيب دعوة الداع
 إذا دعان « البقرة : ١٨٦ في الجزء الأول من الكتاب .





اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ
 لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٦١) ذَلِكَمُ اللَّهُ
 رَبُّكُمْ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانِي تُوَفَّقُونَ (٦٢) كَذَلِكَ يُؤَفِّكُ
 الَّذِينَ كَانُوا بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٦٣) اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ
 قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ
 ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا
 هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٥) قُلْ إِنِّي
 نُهَيْتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ رَبِّي
 وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٦٦) هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ
 مِنْ نَظْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا
 شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ
 تَعْقِلُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ
 كُنْ فَيَكُونُ (٦٨).

﴿ بيان ﴾

رجع سبحانه ثانيا إلى الإشارة إلى آيات التوحيد توحيد الربوبية والألوهية
 بعد ما بدء بها في السورة أولا بقوله : « هو الذي يريكم آياته » .

قوله تعالى : « هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً » الآية .
أي جعل لأجلكم الليل مظلماً لتسكنوا فيه من التعب الذي عرض لكم وجه النهار من
جهة السعي في طلب الرزق ، والنهار مبصراً لتبتغوا من فضل ربكم وتكسبوا الرزق ،
وهذا من أركان تدبير الحياة الإنسانية .

وقد ظهر بذلك أن نسبة الإبصار إلى النهار من المجاز العقلي لكن ليس من
المبالغة في شيء كما ادّعاء بعضهم .

وقوله : « إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون » امتنان
عليهم بالفضل و تقريع لهم بعدم شكرهم له قبال هذا الفضل العظيم و لو شكروه لعبدوه
و وضع « الناس » الثاني موضع الضمير للإشارة إلى أن من طبع الناس بما هم ناس
كفران النعم كما قال : « إن الإنسان لظلوم كفار » إبراهيم : ٣٤ .

قوله تعالى : « ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا إله إلا هو فأنى تؤفكون »
أي ذلكم الذي يدبر أمركم ورزقكم بسكون الليل وسعي النهار هو الله تعالى وهو
ربكم لأن تدبير أمركم إليه .

وقوله : « خالق كل شيء » أي ورب كل شيء لأنه خالق كل شيء والخلق
لا ينفك عن التدبير ولازم ذلك أن لا يكون في الوجود رب غيره لا لكم ولا لغيركم و
لذلك عقبه بقوله : « لا إله إلا هو » أي فإذن لا معبود بالحق غيره إن لو كان هناك
معبود آخر كان رب آخر فإن الألوهية من شؤون الربوبية .

و قوله : « فأنى تؤفكون » أي فكيف تصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره .

قوله تعالى : « كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجدون » أي كمثل هذا
الإفك يؤفك الجاحدون لآيات الله فإن الآيات ظاهرة غير خفية فلا نصراف عن مدلولها
لا سبب له إلا الجحد .

قوله تعالى : « الله الذي جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء » إلى آخر
الآية القرار المستقر الذي يستقر عليه ، و البناء - على ما قيل - القبّة و منه أبنية

العرب للقباب المضروبة عليهم . يذكر تعالى نعمة استقرار الإنسان على الأرض وتحت السماء .

وقوله : «وصوّرکم فأحسن صورکم» الفاء للتفسير والمعنى أحسن خلق صورکم وذلك أن الإنسان جهّز من دقائق التجهيز في صورته بما يقوى به من الأعمال المتنوّعة العجيبة على ما لا يقوى عليه شيء من سائر الموجودات الحيّة ، ويلتذّ من مزايا الحياة بما لا يتيسّر لغيره أبداً .

وقوله : « و رزقکم من الطيّبات » هي الأرزاق المتنوّعة التي تلائم بطبائعها طبيعة الإنسان من الحبوب والفواكه واللحوم وغيرها ، وليس في الحيوان متنوّع في الرزق كالإنسان .

وقوله : « ذلكم الله ربّکم » أي المدبّر لأمرکم ، وقوله : « فتبارک الله ربّ العالمین » ثناء عليه عزّ وجلّ ربّوبيّته لجميع العالمین ، وقد فرّعه على ربوبيّته وتديره للإنسان إشارة إلى أن الربوبيّة واحدة وتديره لأمر الإنسان عين تديره لأمر العالمین جميعاً فإنّ النظام الجاري نظام واحد روعي في انطباقه على كلّ ، انطباقه على الكلّ فهو سبحانه متبارک منشأ للخير الكثير فتبارک الله ربّ العالمین .

قوله تعالى : « هو الحيّ لا إله إلاّ هو فادعوه مخلصين له الدين » الخ في جملة « هو الحيّ » إطلاق لأمقيّد له لا عقلا ولا نقلا مضافا إلى إفادة الحصر فمفادها أن له تعالى وحده حياة لا يداخلها موت ولا يزيلها فناء فهو تعالى حيّ بذاته وغيره كائناتنا كان حيّ بإحياء غيره .

وإذا فرض هناك حيّ بذاته وحيّ بغيره لم يستحقّ العبادة بذاته إلاّ من كان حيّا بذاته ، ولذلك عقب قوله : « هو الحيّ » بقوله : « لا إله إلاّ هو » .

وقد سبقت الجملتان توطئة للأمر بدعائه ولا مطلق دعائه بل دعائه بالتوحيد وإخلاص الدين له وحده لأنّه الحيّ بذاته دون غيره ولأنّه المعبود بالاستحقاق الذاتي دون غيره ، ولذلك فرّع على قوله : « هو الحيّ لا إله إلاّ هو » قوله : « فادعوه مخلصين له الدين » .

وقوله : « الحمد لله رب العالمين » ثناء عليه بربوبيته للعالمين .

قوله تعالى : « قل إني نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءني البينات من ربي وأمرت أن أسلم لرب العالمين » معنى الآية ظاهر ، وفيه إيأس للمشركين من موافقته عليه السلام لهم في عبادة آلهتهم ، وقد تكرر هذا المعنى في سورة الزمر ويمكن أن يستأنس منه أن هذه السورة نزلت بعد سورة الزمر .

قوله تعالى : « هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة » النخ المراد بخلقهم من تراب خلق أبيهم آدم من تراب فإن خلق غيره ينتهي إليه فخلقه من تراب هو خلقهم منه أو المراد بخلقهم من تراب تكوين النطفة من البسائط الأرضية .

وقوله : « ثم من نطفة » النخ أي ثم خلقناكم من نطفة حقيرة معلومة الحال ثم من علقه » كذلك « ثم يخرجكم » من بطون أمهاتكم « طفلا » أي أطفالا ، والطفل - كما قيل - يطلق على الواحد والجمع قال تعالى : « أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء » النور : ٣١ .

« ثم لتبلغوا أشدكم » اللام للغاية و كأن متعلقها محذوف والتقدير ثم ينشئكم لتبلغوا أشدكم وهو من العمر زمان اشتداد القوى « ثم لتكونوا شيوخا » معطوف على « لتبلغوا » ومنكم من يتوفى من قبل فلا يبلغ أحده هذه المراحل من العمر كالشيخوخة و بلوغ الأشد وغيرهما .

« و لتبلغوا أجلا مسمى » وهو النهاية من الأمد المضروب الذي لاسبيل للتغير إليه أصلا ، و هو غاية عامة لجميع الناس كيفما عمروا قال تعالى : « و أجل مسمى عنده » الأنعام : ٢ ، و لذلك لم تعطف الجملة بـ ثم حتى تتميز من الغائتين المذكورتين سابقا .

وقوله : « و لعنكم تعقلون » أي تدركون الحق بالتعقل المغروزيكم ، وهذا غاية خلقه الإنسان بحسب حياته المعنوية كما أن بلوغ الأجل المسمى غاية حياته الدنيا الصورية .

قوله تعالى : « هو الذي يحيي ويميت » النخ أي هو الذي يفعل الأحياء و

الإماتة و فيهما نقل الأحياء من عالم إلى عالم وكل منهما مبدء لتصرفاته بالنعم التي يتفضل بها على من يدبر أمره .
 وقوله : « فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » تقدم تفسيره كراراً .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج عبد بن حميد و ابن أبي حاتم بسند صحيح عن أبي العالية قال : إن اليهود أتوا النبي ﷺ و قالوا إن الدجال يكون منا في آخر الزمان و يكون من أمره فعظموا أمره و قالوا يصنع كذا فأنزل الله : « إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه » قال : لا يبلغ الذي يقول . « فاستعد بالله » فأمر نبيه ﷺ أن يتعوذ من فتنة الدجال « لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس » الدجال .

و فيه أخرج ابن أبي حاتم عن كعب الأحمري في قوله : « إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان » قال : هم اليهود نزلت فيهم فيما ينتظرونه من أمر الدجال . وفيه أخرج ابن المنذر عن ابن جريح في قوله : « لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس » قال : زعموا أن اليهود قالوا : يكون منّا ملك في آخر الزمان البحر إلى ركبتيه ، و السحاب دون رأسه ، يأخذ الطير بين السماء و الأرض ، معه جبل خبز و نهر فنزلت : « لخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس » .

اقول : قد عرفت فيما تقدم أن غرض السورة - كما يستفاد من سياق آياتها - التكلّم حول استكبارهم و مجادلتهم في آيات الله بغير الحق فمنها ابتداء الكلام و إليها يعود عودة بعد عودة كقوله : « ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا » وقوله : « وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق » ، وقوله : « الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا » ، وقوله : « إن الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إن في صدورهم إلا كبر » ، وقوله : « ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون » .

فسياق آيات السورة يأبى أن يكون بعضها يختص^٢ بسبب في نزولها لا يشار كهافيه غيرها كما هو مؤدى^٣ هذه الروايات الثلاث .

على أن^٤ ما في الروايات من قصة إخبار اليهود بالدجال لا ينطبق على الآيتين انطباقاً ظاهراً بعد التأمل في مضمون الآيتين نفسيهما أعني قوله : « إن^٥ الذين يجادلون - إلى قوله - ولكن^٦ أكثر الناس لا يعلمون » .

و من هذا يظهر أن^٧ القول بكون الآيتين مدينتين استناداً إلى هذه الروايات كما ترى .





أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنِّي يُضْرَفُونَ (٦٩)
الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٧٠)
إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ يُسْحَبُونَ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي
النَّارِ يَسْجَرُونَ (٧٢) ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَشْرِكُونَ (٧٣) مِنْ دُونِ
اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ
الْكَافِرِينَ (٧٤) ذَلِكَمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا
كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ (٧٥) ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى
الْمُتَكَبِّرِينَ (٧٦) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَأَمَّا نُرَيْنَاكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ
أَوْ تَتَوَقَّعُكَ فَاثْنًا يَرْجِعُونَ (٧٧) وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ
مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ
يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ
الْمُبْطِلُونَ (٧٨) .

﴿بيانات﴾

رجوع بعد رجوع إلى حديث المجادلين في آيات الله وقد تعرض لبيان مآل أمرهم
بذكر ما آل إليه أمر أشباههم من الأمم الخالية ونصره تعالى لدينه في أول السورة
إجمالاً ثم يذكر الحال في دعوة موسى عليه السلام بالخصوص فيما قصه من قصته ونصره له

بالخصوص ثم في ضمن أمر النبي ﷺ بالصبر و وعده بالنصر .

و هذا آخر كرامة عليهم يذكر فيها مآل أمرهم و ما يُصرفون إليه و هو العذاب المخلّد ثم يأمر النبي ﷺ بالصبر و يعدّ بالنصر و يطيب نفسه بأنّ وعد الله حقّ .
قوله تعالى : « ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنّى يُصرفون »
« ألم تر » مفيد للتعجيب و « أنى » بمعنى كيف ، والمعنى ألا تعجب أو ألم تعجب من أمر هؤلاء المجادلين في آيات الله كيف يُصرفون عن الحقّ إلى الباطل وعن الهدى إلى الضلال .
والتعرّض لحال المجادلين ههنا من حيث الإشارة إلى كونهم مصروفين عن الحقّ و الهدى و مآل ذلك ، و فيما تقدّم من قوله : « إنّ الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان أتاهم إنّ في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه » من حيث إنّ الداعي لهم إلى ذلك الكبر وأنّهم لا يبلغون ما يريدون فلا تكرر .

و منه يظهر ما في قول بعضهم : إنّ تكرير ذكر المجادلة محمول على تعدّد المجادل بأن يكون المجادلون المذكورون في الآية السابقة غير المذكورين في هذه الآية أو على اختلاف ما فيه المجادلة كأن يكون المجادلة هناك في أمر البعث و ههنا في أمر التوحيد .
على أنّ فيه غفلة عن غرض السورة كما عرفت .

قوله تعالى : « الذين كذبوا بالكتاب و بما أرسلنا به أرسلنا به رسلاً فسوف يعلمون »
الذي يعطيه سياق الآيات التالية أنّ المراد بهؤلاء المجادلين هم المجادلون من قوم النبي ﷺ ، وعليه فالأنسب أن يكون المراد بالكتاب هو القرآن الكريم ، وبقوله :
« بما أرسلنا به رسلاً » ما جاءت به الرسل ﷺ من عند الله من كتاب و دين فالوثنية منكرون للنبوّة .

و قوله : « فسوف يعلمون » تفريع على مجادلتهم و تكذيبهم و تهديد لهم أي سوف يعلمون حقيقة مجادلتهم في آيات الله و تكذيبهم بالكتاب و بالرسل .

قوله تعالى : « إذا لا غلال في أعناقهم و السلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون » في المجمع : الأغلال جمع غلّ وهو طوق يدخل في العنق للذلّ و الألم ، و أصله الدخول ، و قال : السلاسل جمع سلسلة وهي الحلق منتظمة في جهة الطول مستمرة

وقال : السحب جرّ الشيء على الأرض . هذا أصله ، وقال : السجر أصله إلقاء الحطب في معظم النار كاللتور الذي يسجر بالوقود . انتهى .

وقوله : « إذ الأغلال في أعناقهم و السلاسل » ظرف لقوله : « فسوف يعلمون » قيل : الإتيان بإذ - وهو للماضي - للدلالة على تحقق الوقوع وإن كان موقعه المستقبل فلاتناهي الجمع بين سوف و إذ .

و«الأغلال في أعناقهم» مبتدأ وخبر ، و«السلاسل» معطوف على الأغلال ، و«يسحبون في الحميم» خبر بعد خبر ، و«في النار يسجرون» معطوف على «يسحبون» . والمعنى سوف يعلمون حقيقة عملهم حين تكون الأغلال و السلاسل في أعناقهم يجرون في الماء الحار الشديد الحرارة ثم يقذفون في النار .

وقيل : معنى قوله : « ثم في النار يسجرون » ثم يصيرون وقود النار ، ويؤيده قوله تعالى في صفة جهنم : « وقودها الناس و الحجارة » البقرة : ٢٤ ، وقوله : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم » الأنبياء : ٩٨ .

قوله تعالى : « ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا » إلى آخر الآية . أي قيل لهم وهم يتقلبون بين السحب و السجر : أين ما كنتم تشركون من شركائكم من دون الله حتى ينصروكم بالإلّ نجاء من هذا العذاب أو يشفعوا لكم كما كنتم تزعمون أنهم سيشفعون لكم قبال عبادتكم لهم ؟

وقوله : « قالوا ضلوا عنا » أي غابوا عنا من قولهم : ضلّت الدابة إذا غابت فلم يعرف مكانها ، وهذا جوابهم عما قيل لهم : أين ما كنتم تشركون من دون الله .

وقوله : « بل لم تكن ندعو من قبل شيئاً » إضراب منهم عن الجواب الأوّل لما يظهر لهم أن الآلهة الذين كانوا يزعمونهم شركاء لم يكونوا إلا أسماء لا مسميات لها و مفاهيم لا يطابقها شيء ولم يكن عبادتهم لها إلا أسدى ، و لذلك نفوا أن يكونوا يعبدون شيئاً قال تعالى : « فزيتلنا بينهم » يونس : ٢٨ و قال : « لقد تقطع بينكم و ضلّ عنكم ما كنتم تزعمون » الأنعام : ٩٤ .

و قيل: هذا من كذبهم يوم القيامة على حدّ قوله: «والله ربّنا ما كنّا مشركين»
الأنعام: ٢٣ .

و قوله: «كذلك يضلّ الله الكافرين» أي إضلاله تعالى للكافرين و هم الساترون للحقّ يشبه هذا الضلال وهو أنّهم يرون الباطل حقّاً فيقصّدونه ثمّ يتبيّن لهم بعد ضلال سعيهم أنّه لم يكن إلّا باطلاً في صورة حقّ و سراباً في سيماء الحقيقة .
و المعنى على الوجه الثاني أعني كون قولهم: « بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً» كذباً منهم: كمثّل هذا الإضلال يضلّ الله الكافرين فيؤلّ أمرهم إلى الكذب حيث لا ينفع مع علمهم بأنّه لا ينفع .

و قد فسّرت الجملة بتفسير أخرى متقاربة و قريبة ممّا ذكرناه .

قوله تعالى: « ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحقّ وبما كنتم تمرحون»
الفرح مطلق السرور، و المرح الإفراط فيه و هو مذموم ، و قال الراغب: الفرح انشراح الصدر بلذّة عاجلة و أكثر ما يكون ذلك في اللذات البدنيّة ، و قال: المرح شدّة الفرح و التوسّع فيه . انتهى .

و قوله: « ذلكم بما كنتم » الإشارة إلى ما هم فيه من العذاب و الباء في « بما كنتم » للسببيّة أو المقابلة .

والمعنى ذلكم العذاب الذي أنتم فيه بسبب كونكم تفرحون في الأرض بغير الحقّ من اللذات العاجلة و بسبب كونكم تفرطون في الفرّح و ذلك لتعلّق قلوبهم بعرض الدنيا و زينتها و معاداتهم لكلّ حقّ يخالف باطلهم فيفرحون و يمرحون باحياء باطلهم و إماتة الحقّ و اضطهاده .

قال في المجمع: قيّد الفرّح و أطلق المرح لأنّ الفرّح قد يكون بحقّ فيحمد عليه و قد يكون بالباطل فيذمّ عليه ، و المرح لا يكون إلّا باطلاً . انتهى .

قوله تعالى: « ادخلوا أبواب جهنّم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين »
أي ادخلوا أبوابها المقسومة لكم خالدين فيها فبئس مقام الذين يتكبرون عن الحقّ

جهنم ، و قد تقدّم أن أبواب جهنم دركاتُها .

قوله تعالى : « فاصبر إن وعد الله حق » لما بين مال أمر المجادلين في آيات الله وهي النار وأن الله يضلهم بكفرهم فرّج عليه أمر نبيه ﷺ بالصبر معللاً ذلك بأن وعد الله حق .

وقوله : « فإما نريك بعض الذي نعدهم » هو عذاب الدنيا « أو نتوفينك » بالموت « فلم نرك ذلك » فإلينا يرجعون » ولا يفوتونا فننجز فيهم ما وعدناه .

قوله تعالى : « ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك الخ بيان لكيفية النصر المذكور في الآية السابقة أن آية النصر - التي جرت سنة الله على إثرها للقضاء بين كل رسول وأُمَّته وإظهار الحق على الباطل كما يشير إليه قوله : « ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون » يونس : ٤٧ - لم يفوض أمرها إلى رسول من الرسل من قبلك بل كان يأتي بها من يأتي منهم بإذن الله ، و حالك حالهم ، فمن الممكن أن نأذن لك في الإتيان بها فنريك بعض ما نعدهم ، ومن الممكن أن تتوفاك فلا نريك غير أن أمر الله إذا جاء قضي بينهم بالحق وخسر هنالك المبطلون . هذا ما يفيد السياق .

فقوله : « ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك » مسوق للإشارة إلى كون ما سيذكره سنة جارية منه تعالى .

وقوله : « وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله » الآية وإن كانت أعم من الآية المعجزة التي يؤتاها الرسول لتأييد رسالته ، و الآية التي تنصر الحق و تقضي بين الرسول و بين أُمَّته و الكل بإذن الله لكن مورد الكلام كما استفدناه من السياق القسم الثاني وهي القاضية بين الرسول وأُمَّته .

وقوله : « فإذا جاء أمر الله قضي بالحق وخسر هنالك المبطلون » أي فإذا جاء أمر الله بالعذاب قضي بالحق فأظهر الحق وأزهق الباطل وخسر عند ذلك المتمسكون بالباطل في دنياهم بالهلاك وفي آخرتهم بالعذاب الدائم .

واستدلّ بالآية على أن من الرسل من لم تذكر قصته في القرآن ، وفيه أن الآية مكّية لا تدلّ على أزيد من عدم ذكر قصة بعض الرسل إلى حين نزولها بمكة ، وقد ورد في سورة النساء : « ورسلا قد قصصناهم عليك من قبل ورسلا لم نقصصهم عليك » النساء : ١٦٤ و لم يذكر في السور النازلة بعد سورة النساء اسم أحد من الرسل المذكورين بأسمائهم في القرآن .

و في المجمع وروي عن عليّ عليه السلام أنّه قال : بعث الله نبياً أسود لم يقصّ علينا قصته ، وروي في الدر المنثور عن الطبراني في الأوسط وابن مردويه عنه ما في معناه .





اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ (٧٩) وَ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَ تَتَّبَلُّغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَ عَلَيْهَا وَ عَلَى الْفَلَاحِ تَحْمِلُونَ (٨٠) وَ يُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَآيَ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ (٨١) أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَ أَشَدَّ قُوَّةً وَ آثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَ حَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٨٣) فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ (٨٤) فَلَمْ يَكْ يَنْفَعَهُمْ إِيْمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَنَتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَ خَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ (٨٥) .

﴿بيان﴾

رجوع بعد رجوع إلى ذكر بعض آيات التوحيد و إرجاع لهم إلى الاعتبار بحال الأمم الدارجة الهالكة و سنة الله الجارية فيهم بإرسال رسله إليهم ثم القضاء بين رسلهم و بينهم المؤدّي إلى خسران الكافرين منهم ، و عند ذلك تختتم السورة .

قوله تعالى : « اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ » ذكر سبحانه مما ينتفع به الإنسان في حياته و يدبر به أمره الأنعام و المراد بها الإبل و البقر و الغنم ، و قيل : المراد بها ههنا الإبل خاصة .

فقوله : « جعل لكم الأنعام لتركبوا منها و منها تأكلون » الجعل هنا الخلق أو

التسخير ، و اللآم في « لتركبوا » للغرض و « من » للتبويض ، و المعنى خلق لأجلكم أو سخر لكم الأنعام و الغرض من هذا الجعل أن تركبوا بعضها كبعض الإبل و بعضها كبعض الإبل و البقر و الغنم تأكلون .

قوله تعالى : « و لكم فيها منافع » الخ كاتفاكم بألبانها و أصوافها و أوبارها و أشعارها و جلودها و غير ذلك ، و قوله : « و لتبلغوا عليها حاجة في صدوركم » أي و من الغرض من جعلها أن تبلغوا ، حال كونكم عليها بالركوب ، حاجة في صدوركم و هي الانتقال من مكان إلى مكان لأغراض مختلفة .

و قوله : « و عليها و على الفلك تحملون » كناية عن قطع البر و البحر بالأنعام و الفلك .

قوله تعالى : « و يريكم آياته فأَيُّ آيات الله تنكرون » تقدم معنى إراءته تعالى آياته في تفسير أوائل السورة ، و كأن الجملة أعني قوله : « و يريكم آياته » غير مقصودة لنفسها حتى يلزم التكرار و إنما هي تمهيد و توطئة للتوبيخ الذي في قوله : « فأَيُّ آيات الله تنكرون » أي أي هذه الآيات التي يريكم الله إيّاها عيانا و بيانا ، تنكرون إنكاراً يمهد لكم الإعراض عن توحيده .

قوله تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا » إلى آخر الآية توبيخ لهم و عطف لأنظارهم إلى ما جرى من سنة القضاء و الحكم في الأمم السالفة ، و قد تقدمت نظيرة الآية في أوائل السورة و كان الغرض هناك أن يتبين لهم أن الله أخذ كلاً منهم بذنوبهم لما كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فيكفرون بهم ولذا ذيل الآية بقوله : « فأخذهم الله بذنوبهم » ، و الغرض ههنا أن يتبين لهم أنهم لم يغنهم ما كسبوا و لم ينفعهم في دفع عذاب الله ما فرحوا به من العلم الذي عندهم و لا توبتهم و ندامتهم مما عملوا .

و قد صدرت الآية بفاء التفريع فقيل : « أفلم يسيروا » الخ مع الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ، و كأن الكلام تفريع على قوله : « فأَيُّ آيات الله تنكرون » فكأنه لما ذمهم و أنكر إنكارهم لآياته رجع و انصرف عنهم إلى النبي ﷺ مشيراً إلى سقوطهم من منزلة الخطاب و قال : إذا كانت آياته تعالى ظاهرة بيّنة لا تقبل الإنكار و من حملتها

ما يرد على الأول .

ومنها أن ضمير فرحوا للكفار وضمير « عندهم » للرسول والمعنى فرح الكفار بما عند الرسول من العلم فرح ضحك واستهزاء وفيه أن لازمته اختلاف الضمائر المتسقة مضافا إلى أن الضحك والاستهزاء لا يسمى فرحا ولا قرينة .

ومنها أن ضميري « فرحوا بما عندهم » للرسول ، والمعنى أن الرسول لما جاءهم وشاهدوا ما هم فيه من الجهل والتمادي على الكفر والجحود وعلموا عاقبة أمرهم فرحوا بما عندهم من العلم الحق وشكروا الله على ذلك .

وفيه أن سياق الآيات أصدق شاهد على أنها سبقت لبيان حال الكفار بعد إتيان رسلهم بالبينات وكيف آلت إلى نزول العذاب و لم ينفعهم الإيمان بعد مشاهدة البأس ؟ وأي ارتباط له بفرح الرسول بعلومهم الحقّة ؟ على أن لازمته أيضاً اختلاف الضمائر .

قوله تعالى : « فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين »
البأس شدة العذاب ، و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا » الخ و ذلك لعدم استناد الإيمان حينئذ إلى الاختيار ، وقوله : « سنة الله التي قد خلت في عباده » أي سنتها الله سنة ماضية في عباده أن لا تقبل توبة بعد رؤية البأس « و خسر هنالك الكافرون » .



ما في آثار الماضين من الآيات الناطقة وهم قد ساروا في الأرض و شاهدوها فلم لم ينظروا فيها فيتبين لهم أن الماضين مع كونهم أقوى من هؤلاء كما وكيف لم ينفعهم ما فرحوا به من علم وقوة .

قوله تعالى : « فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم » الخ ضمائر الجمع في الآية - وهي سبع - للذين من قبلهم ، والمراد بما عندهم من العلم ما وقع في قلوبهم و شغل نفوسهم من زينة الحياة الدنيا وفنون التدبير للظفر بها وبلوغ لذائذها وقد عد الله سبحانه ذلك علما لهم وقصر علمهم فيه قال تعالى : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » الروم : ٧ ، وقال : « فأعرض عمن تولى عن ذكرنا و لم يرد إلّا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم » النجم : ٣٠ .

و المراد بفرحهم بما عندهم من العلم شدة إعجابهم بما كسبوه من الخبرة والعلم الظاهري و انجذابهم إليه الموجب لإعراضهم عن المعارف الحقيقية التي جاءت بها رسلهم ، واستهانتهم بها و سخریتهم لها ، ولذا عقب فرحهم بما عندهم من العلم بقوله : « و حاق بهم ما كانوا به يستهزؤن » .

وفي معنى قوله : « فرحوا بما عندهم من العلم » أقوال أخر :

منها أن المراد بما عندهم من العلم عقائدهم الفاسدة و آراؤهم الباطلة وتسميتها علما للتبهكّم فهم كانوا يفرحون بها و يستحقرون لذلك علم الرسل ، و أنت خير بأنّه تصوير من غير دليل .

و منها أن المراد بالعلم هو علوم الفلاسفة من يونان والدهريين فكانوا إذا سمعوا بالوحي ومعارف النبوة صغروا علم الأنبياء وتبجحوا بما عندهم ، وهو كسابقه على أنّه لا ينطبق على أحد من الأمم التي قص القرآن قصتهم كقوم نوح وعاد و ثمود و قوم إبراهيم وقوم لوط وقوم شعيب و غيرهم .

ومنها أن أصل المعنى فلما جاءتهم رسلهم بالبينات لم يفرحوا بما جاءهم من العلم فوضع موضعه فرحوا بما عندهم من الجهل ثم بدل الجهل علما تهكّم قبيلاً : فرحوا بما عندهم من العلم ، وهذا الوجه - على ما فيه من التكلف والبعد من الفهم - يرد عليه

سورة حم السجدة مكيّة و هي أربع و خمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ حَمْ (١) تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٢)
كِتَابٌ فَصَّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَ نَذِيرًا فَأَعْرَضَ
أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ (٤) وَ قَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ
وَ فِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَ مِنْ بَيْنِنَا وَ بَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّا نَامِلُونَ (٥) قُلْ
إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ
وَ اسْتَغْفِرُوهُ وَ وَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ (٦) الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَ هُمْ بِالْآخِرَةِ
هُمْ كَافِرُونَ (٧) إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ
مَمْنُونٍ (٨) قُلْ إِنْتُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَ تَجْعَلُونَ
لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٩) وَ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَ بَارَكَ
فِيهَا وَ قَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلْمُتَلَقِّينَ (١٠) ثُمَّ اسْتَوَى
إِلَى السَّمَاءِ وَ هِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَ لِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا
أَتَيْنَا طَائِعِينَ (١١) فَقَضَيْتُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَ أَوْحَى فِي كُلِّ
سَّمَاءٍ أَمْرَهَا وَ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَ حِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ
الْعَلِيمِ (١٢) .

﴿بيان﴾

تتكلم السورة حول إعراضهم عن الكتاب المنزل عليهم وهو القرآن الكريم فهو الغرض الأصلي^١ ولذلك ترى طائف الكلام يطوف حوله و يبتدىء به ثم يعود إليه فصلاً بعد فصل فقد افتتح بقوله : « تنزيل من الرحمان الرحيم » الخ ثم قيل : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن » الخ ، وقيل : « إن الذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا » الخ ، وقيل : « إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم » الخ ، وقيل - وهو في خاتمة الكلام - : « قل أرايتم إن كان من عند الله ثم كفرتم به » الخ .

ولازم إعراضهم عن كتاب الله إنكار الأصول الثلاثة التي هي أساس دعوته الحقّة وهي الوحدانيّة والنبوّة والمعاد فبسطت الكلام فيها وضمّنته التبشير والإنذار .
و السورة مكّية لشهادة مضامين آياتها على ذلك وهي من السور النازلة في أوائل البعثة على ما يستفاد من الروايات .

قوله تعالى : « حم تنزيل من الرحمان الرحيم » خبر مبتدء محذوف ، والمصدر بمعنى المفعول ، والتقدير هذا منزل من الرحمان الرحيم ، والتعرّض للصفتين الكريمتين : الرحمان الدال على الرحمة العامّة للمؤمن والكافر ، والرحيم الدال على الرحمة الخاصّة بالمؤمنين للإشارة إلى أن هذا التنزيل يصلح للناس دنياهم كما يصلح لهم آخرتهم .

قوله تعالى : « كتاب فصلت آياته قرآنا عربياً لقوم يعلمون » خبر بعد خبر ، والتفصيل يقابل الأحكام والإجمال ، والمراد بتفصيل آيات القرآن تمييز أبعاضه بعضها من بعض بإزاله إلى مرتبة البيان بحيث يتمكن السامع العارف بأساليب البيان من فهم معانيه وتعقّل مقاصده و إلى هذا يشير قوله تعالى : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » هود : ١ ، وقوله : « والكتاب المبين إنّا جعلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون وإنّه في أم الكتاب لدينا لعليّ حكيم » الزخرف : ٤ .

وقوله : « قرآنا عربياً » حال من الكتاب أو من آياته ، وقوله : « لقوم يعلمون »

اللام للتعليل أو للاختصاص ، و مفعول « يعلمون » إمّا محذوف و التقدير لقوم يعلمون معانيه لكونهم عارفين باللسان الذي نزل به وهم العرب و إمّا متروك والمعنى لقوم لهم علم .

ولازم المعنى الأول أن يكون هناك عناية خاصة بالعرب في نزول القرآن عربياً وهو الذي يشعر به أيضاً قوله الاتي : « ولوجعلناه قرآنا أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته ءأعجمي وعربي » الآية وقريب منه قوله : « ولو نزلناه على بعض الأعجمين فقرأه عليهم ماكانوا به يؤمنون » الشعراء : ١٩٩ .

ولا ينافي ذلك عموم دعوته ﷺ لعامة البشر لأن دعوته ﷺ كانت مرتبة على مراحل فأول ما دعى إلى الناس بالموسم فقبول بـ إنكار شديد منهم ثم كان يدعو بعد ذلك سرا مدة ثم أمر بدعوة عشيرته الأقربين كما يشير إليه قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » الشعراء : ٢١٤ ثم أمر بدعوة قومه كما يشير إليه قوله : « فاصدع بما تؤمر و أعرض عن المشركين » الحجر : ٩٣ ثم أمر بدعوة الناس عامة كما يشير إليه قوله : « قل يا أيها الناس إنني رسول الله إليكم جميعا » الأعراف : ١٥٨ ، وقوله : « وأوحى إليّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » الأنعام : ١٩ .

على أن من المسلم تاريخا أنه كان من المؤمنين به سلمان و كان فارسياً ، و بلال و كان حبشياً ، و صهيب و كان رومياً ، و دعوته لليهود و وقائعه ﷺ معهم ، و كذا كتابه إلى ملك إيران و مصر و حبشة و الروم في دعوتهم إلى الإسلام كل ذلك دليل على عموم الدعوة .

قوله تعالى : « بشيراً و نذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون » « بشيراً و نذيراً » حالان من الكتاب في الآية السابقة ، والمراد بالسمع المنفي سمع القبول كما يدل عليه قرينة الإعراض .

قوله تعالى : « وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه » إلى آخر الآية . قال الراغب : البكن ما يحفظ فيه الشيء . قال : الكنان الغطاء الذي يكن فيه الشيء و الجمع أكنة نحو غطاء و أعطية قال تعالى : « وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه » . انتهى .

فقوله : « قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه » كناية عن كون قلوبهم بحيث لا تفقه ما يدعو ﷻ إليه من التوحيد كأنها مغطاة بأغطية لا يتطرق إليها شيء من خارج .
 و قوله : « وفي آذاننا وقر » أي ثقل من الصمم فلا تسمع شيئاً من هذه الدعوة ،
 و قوله : « ومن بيننا وبينك حجاب » أي حاجز يحجزنا منك فلا نجتمع معك على شيء مما تريد فقد أياسوه ﷻ من قبول دعوته بما أخبروه أولاً بكون قلوبهم في أكنة فلا تقع فيها دعوته حتى يفقهوها ، وثانياً بكون طرق ورودها إلى القلوب وهي الآذان مسدودة فلا تلجها دعوة ولا ينفذ منها إنذار وتبشير ، وثالثاً بأن بينهم وبينه ﷻ حجاباً مضروباً لا يجمعهم معه جامع وفيه تمام الإيأس .

وقوله : « فاعمل إننا عاملون » تفريع على ماسبق ، و لا يخلو من شوب تهديد ،
 وعليه فالمعنى إذا كان لاسبيل إلى التفاهم بيننا فاعمل بما يمكنك العمل به في إبطال أمرنا
 إننا عاملون في إبطال أمرك .

وقيل : المعنى فاعمل على دينك فإننا عاملون على ديننا ، و قيل : المعنى فاعمل في هلاكنا فإننا عاملون في هلاكك ، و لا يخلوان من بعد .

قوله تعالى : « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إليكم إله واحد فاستقيموا إليه و استغفروه » في مقام الجواب عن قولهم : « قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه » على ما يعطيه السياق فمحصله قل لهم : إنما أنا بشر مثلكم أعاشركم كما يعاشر بعضكم بعضاً و اكلمكم كما يكلم أحدكم صاحبه فلست من جنس يباينكم كالمملك حتى يكون بيني و بينكم حجاب مضروب أولاً ينفذ كلامي في آذانكم أولاً يرد قولي في قلوبكم غير أن الذي أقول لكم وأدعوكم إليه وحي يوحى إلي وهو أنما إليكم الذي يستحق أن تعبدوه إله واحد لا آلهة متفرقون .

وقوله : « فاستقيموا إليه و استغفروه » أي فإذالم يكن إلهاً واحداً لاشريك له فاستووا إليه بتوحيده و نفى الشركاء عنه و استغفروه فيما صدر عنكم من الشرك و الذنوب .

قوله تعالى : « وويل للمشركين الذين لا يثوتون الزكاة وهم بالآخرة هم كفرون »

تهديد للمشركين الذين يثبتون لله شركاء ولا يوحّدونه ، وقد وصفهم من أخص صفاتهم بصفتين هما عدم إيتائهم الزكاة وكفرهم بالآخرة .

و المراد بإيتاء الزكاة مطلق إنفاق المال للفقراء والمساكين لوجه الله فإن الزكاة بمعنى الصدقة الواجبة في الإسلام لم تكن شرعت بعد عند نزول السورة وهي من أقدم السور المكيّة .

وقيل: المراد بإيتاء الزكاة تركية النفس وتطهيرها من أوساخ الذنوب وقذاراتها وإنماؤها نماء طيباً بعبادة الله سبحانه ، وهو حسن لو حسن إطلاق إيتاء الزكاة على ذلك .

وقوله : « وهم بالآخرة هم كافرون » وصف آخر للمشركين هو من لوازم مذهبهم وهو إنكار المعاد ، ولذلك أتى بضمير الفصل ليفيد أنهم معروفون بالكفر بالآخرة .

قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون » أي غير مقطوع بل متصل دائم كما فسره بعضهم ، وفسره آخرون بغير معدود كما قال تعالى : « يرزقون فيها بغير حساب » المؤمن : ٤٠ .

و جواز أن يكون المراد أنه لا أذى فيه من المن الذي يكدر الصنعة، ويمكن أن يوجه هذا الوجه بأن في تسمية ما يؤتونه بالأجر دلالة على ذلك لا شعاره بالاستحقاق وإن كان هذا الاستحقاق بجعل من الله تعالى لالهم من عند أنفسهم قال تعالى : « إن هذا كان لكم جزاء وكان سعيكم مشكورا » الدهر : ٢٢ .

قوله تعالى : « قل إنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا » الآية . أمره ثانيا أن يستفهم عن كفرهم بالله بمعنى شركهم مع ظهور آيات وحدانيته في خلق السماوات والأرض وتدبير أمرهما بعد ما أمره أو لا بدفع قولهم : « قلوبنا في أكنة » النخ .

والاستفهام للتعجب ولذا أكد المستفهم عنه بإن واللام كأن المستفهم لا يكاد يذعن بكفرهم بالله وقولهم بالأنداد مع ظهور الحجّة واستقامة الحجّة .

و قوله: « وتجعلون له أندادا » تفسير لقوله: « لتكفرون بالذي خلق الأرض » الخ، والأنداد جمع ندّ و هو المثل والمراد بجعل الأنداد له اتخاذ شركاء له يماثلونه في الربوبية والالهية .

وقوله: « ذلك ربّ العالمين » في الإشارة بلفظ البعيد رفع لساحته تعالى وتنزيهه عن أمثال هذه الأوهام فهو ربّ العالمين المدبّر لأمر الخلق أجمعين فلا مسوّغ لأن يتوهّم ربّاً آخر سواه وإلهاً آخر غيره .

و المراد باليوم في قوله: « خلق الأرض في يومين » برهة من الزمان دون مصداق اليوم الذي نعده و نحن على بسيط أرضنا هذه و هو مقدار حركة الكرة الأرضية حول نفسها مرّة واحدة فإنّه ظاهر الفساد، وإطلاق اليوم على قطعة من الزمان تحوي حادثة من الحوادث كثير الورد شائع الاستعمال، ومن ذلك قوله تعالى: « وتلك الأيام نداولها بين الناس » آل عمران : ١٤٠ ، وقوله: « فهل ينتظرون إلّا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم » يونس : ١٠٢ ، و غير ذلك .

فاليومان اللذان خلق الله فيهما الأرض قطعتان من الزمان تمّ فيهما تكوّن الأرض أرضاً تامّة، وفي عدّها يومين لا يوماً واحداً دليل على أن الأرض لاقت زمان تكوّنها الأوّل مرحلتين متغيرتين كمرحلة النّبيء والنضج أو الذوبان والانقعاد أو نحو ذلك .

قوله تعالى: « وجعل فيها رواسي من فوقها » إلى آخر الآية . معطوف على قوله: « خلق الأرض في يومين » ولاخير في تخلّل الجملتين: « وتجعلون له أندادا ذلك ربّ العالمين » بين المعطوف والمعطوف عليه لأنّ الأوّل تفسير لقوله: « لتكفرون » والثانية تقرير للتعجيب الذي يفيد الاستفهام .

والرواسي صفة لموصوف محذوف والتقدير جبلاً رواسي أي ثابتات على الأرض و ضمائر التأنيت الخمس في الآية للأرض .

و قوله: « وبارك فيها » أي جعل فيها الخير الكثير الذي ينتفع به ما على الأرض من نبات و حيوان و إنسان في حياته أنواع الانتفاعات .

و قوله : « وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيّام سواء للسائلين » قيل : الظرف أعني قوله : « في أربعة أيّام » بتقدير مضاف وهو متعلّق بقدرّ ، و التقدير قدرّ الأقوات في تتمّة أربعة أيّام من حين بدء الخلق - فيومان لخلق الأرض و يومان - وهما تتمّة أربعة أيّام - لتقدير الأقوات .

و قيل: متعلّق بحصول الأقوات و تقدير المضاف على حاله ، و التقدير قدرّ حصول أقواتها في تتمّة أربعة أيّام - فيها خلق الأرض و أقواتها جميعا - .
و قيل: متعلّق بحصول جميع الأمور المذكورة من جعل الرواسي من فوقها و المباركة فيها و تقدير أقواتها و التقدير و حصول ذلك كلّ في تتمّة أربعة أيّام و فيه حذف و تقدير كثير .

و جعل الزمخشريّ في الكشف الظرف متعلّقاً بخبر مبتدئ محذوفين من غير تقدير مضاف و التقدير كلّ ذلك كائن في أربعة أيّام فيكون قوله : « في أربعة أيّام » من قبيل الفذلّة كأنّه قيل : خلق الأرض في يومين و أقواتها و غير ذلك في يومين فكلّ ذلك في أربعة أيّام .

قالوا : و إنّما لم يجز حمل الآية على أن جعل الرواسي وما ذكر عقيبها أو تقدير الأقوات في أربعة أيّام لأنّ لازمه كون خلق الأرض وما فيها في ستّة أيّام و قد ذكر بعده أن السماوات خلقت في يومين فيكون المجموع ثمانية أيّام و قد تكرر في كلامه تعالى أنّه خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام فهذا هو الوجه في حمل الآية على أحد الوجوه السابقة على ما فيها من ارتكاب الحذف و التقدير .

و الإيضاف أن الآية أعني قوله : « وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيّام سواء للسائلين » ظاهرة في غير ما ذكره و القرائن الحافّة بها تؤيد كون المراد بها تقدير أقواتها في الفصول الأربعة التي يكوّنّها ميل الشمس الشماليّ و الجنوبيّ بحسب ظاهر الحسن فلا أيّام الأربعة هي الفصول الأربعة .

و الذي ذكر في هذه الآيات من أيّام خلق السماوات والأرض أربعة أيّام يومان لخلق الأرض و يومان لتسوية السماوات سبعا بعدكونها دخانا وأمّا أيّام الأقوات فقد

ذكرت أياماً لتقديرها لا لخلقها ، وما تكرر في كلامه تعالى هو خلق السماوات والأرض في ستة أيام لا مجموع خلقها وتقدير أمرها فالحق أن الطرف قيد للجملة الأخيرة فقط ولا حذف ولا تقدير في الآية والمراد بيان تقدير أقوات الأرض وأرزاقها في الفصول الأربعة من السنة .

وقوله : «سواء للسائلين» مفعول مطلق لفعل مقدّر أي استوت الأقوات المقدرة استواء للسائلين أو حال من الأقوات أي قدرها حال كونها مستوية للسائلين يقتاتون بها جميعاً وتكفيهم من دون زيادة أو نقصان .

و السائلون هم أنواع النبات والحيوان والإنسان فإنهم محتاجون في بقائهم إلى الأرزاق والأقوات فهم سائلون ربهم^(١) قال تعالى : «يسأله من في السماوات والأرض» الرحمن : ٢٩ ، وقال : « و آتاكم من كل ما سألتموه » إبراهيم : ٣٤ .

قوله تعالى : «ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قلنا أتينا طائعين» الاستواء - على ما ذكره الراغب - إذا عدّي بعلی أفاد معنى الاستيلاء نحو الرحمن على العرش استوى ، وإذا عدّي بالی أفاد معنى الانتهاء إليه . وأيضاً في المفردات أن الكره بفتح الكاف المشقة التي تنال الإنسان من خارج فيما يحمل عليه بإكراه ، والكره بضم الكاف ما تناله من ذاته وهو يعافه .

فقوله : « ثم استوى إلى السماء » أي توجه إليها وقصدها بالخلق دون قصد المكان الذي لا يتم إلا بالتقال القاصد من مكان إلى مكان ومن جهة إلى جهة لتنزله تعالى عن ذلك .

و ظاهر العطف بـ «ثم» تأخر خلق السماوات عن خلق الأرض لكن قيل : إن «ثم» لا إفادة التراخي بحسب الخبر لا بحسب الوجود والتحقق ويؤيده قوله تعالى : «أم السماء بناها - إلى أن قال - والأرض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها

(١) ظاهر اليتين وإن كان اختصاصهما بذوى العقول لكنهما خاصة الثانية تفيدان

إن المراد بالسؤال هو الحاجة والاستعداد وعليه فالآية تعم النبات والأتیان بضمير أولى العقل للتغليب .

و الجبال أرساها » النازعات : ٣٢ فإنه يفيد تأخّر الأرض عن السماء خلقا .
والاعتراض عليه بأن مفاده تأخّر دحو الأرض عن بناء السماء ودحوها غير
خلقها مدفوع بأن الأرض كريمة فليس دحوها و بسطها غير تسويتها كرة و هو خلقها
على أنه تعالى أشار بعد ذكر دحو الأرض إلى إخراج مائها ومرعاها و إرساء جبالها
و هذه بعينها جعل الرواسي من فوقها و المباركة فيها و تقدير أقواتها التي ذكرها في
الآيات التي نحن فيها مع خلق الأرض و عطف عليها خلق السماء بـ «ثم» فلا مناص عن
حمل ثم على غير التراخي الزماني فإن قوله في آية النازعات : « بعد ذلك » أظهر في
التراخي الزماني من لفظة « ثم » فيه في آية حم السجدة والله أعلم .
و قوله : « و هي دخان » حال من السماء أي استوى إلى السماء بالخلق حال كونها
شيأ سماه الله دخانا و هو مادتها التي ألبسها الصورة و قضاها سبع سموات بعد ما لم
تكن معدودة متميِّزا بعضها من بعض ، و لذا أفرد السماء فقال : « استوى إلى
السماء » .

و قوله : « فقال لها و للأرض اثنيان طوعا أو كرها » تفريع على استوائه إلى السماء
والمورد مورد التكوين بلا شك فقوله لها و للأرض : « اثنيان طوعا أو كرها » كلمة
إيجاد و أمر تكويني كقوله لشيء أراد وجوده : كن قال تعالى : «إنما أمره إذا أراد
شيأ أن يقول له كن » يس : ٨٣ .

و مجموع قوله لهما : « اثنيان » النخ و قولهما له : « أثينا » النخ تمثيل لصفة الإيجاد
والتكوين على الفهم الساذج العربي و حقيقة تحليلية بناء على ما يستفاد من كلامه
تعالى من سراية العلم في الموجودات و كون تكليم كل شيء بحسب ما يناسب حاله ،
وقد أوردنا بعض الكلام فيه فيما تقدّم من المباحث ، وسيجيء شطر من الكلام فيه في
تفسير قوله : « قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » الآية ٢١ من السورة
إن شاء الله .

و قول بعضهم : إن المراد بقوله : « اثنيان » النخ أمرهما بإظهار ما فيهما من
الآثار والمنافع دون الأمر بأن توجدا و تكونا مدفوع بأن تكون السماء المذكور فيما

بعد ولا معنى لتقديم الأمر بإظهار الآثار والمنافع قبل ذكر التكوّن .

وفي قوله : « اثّيا طوعا أو كرها » إيجاب الاّتيان عليهما و تخييرهما بين أن تفعلّا ذلك بطوع أو كره ، و لعلّ المراد بالطوع والكره - وهما بوجه قبول الفعل و نوع ملائمة و عدمه - هو الاستعداد السابق للكون و عدمه فيكون قوله : « اثّيا طوعا أو كرها » كناية عن وجوب إتيانهما بلامنّاص وأنّه أمر لا يتخلّف البتّة أَرادتا أو كرهتا سألتاه أو لم تسألا فأجابنا أنّهما يمثلان الأمر عن استعداد سابق و قبول ذاتيّ و سؤال فطريّ إذ قلنا : أتينا طائعين .

و قول بعضهم : إنّ قوله : « طوعا أو كرها » تمثيل لتحتّم تأثير قدرته تعالى فيهما و استحالة امتناعهما من ذلك لا إثبات الطوع والكهر لهما . مدفوع بقوله بعد : « قلنا أتينا طائعين » إذ لو كان التريديد المذكور تمثيلا فقط من غير إثبات كما ذكره لم يكن لإثبات الطوع في الجواب وجه .

و قوله : « قلنا أتينا طائعين » جواب السماء والأرض لخطابه تعالى باختيار الطوع ، والتعبير باللفظ الخاصّ بأولي العقل - طائعين - مكان المخاطبة والجواب و هما من خواصّ أولي العقل ، والتعبير بلفظ الجمع دون أن تقولّا : أتينا طائعتين لعلّه تواضع منهما بعد أنفسهما غير متميّزة من سائر مخلوقاته تعالى اطّيعته لأمره فأجابنا عن لسان الجميع ، نظير ما قيل في قوله تعالى : « إياك نعبد و إياك نستعين » الحمد : ٥ .

ثمّ إنّ تشريك الأرض مع السماء في خطاب « اثّيا » النّح مع ذكر خلقها و تدبير أمرها قبلا لا يخلو من إشعار بأنّ بينهما نوع ارتباط في الوجود واتّصال في النّظام الجاري فيهما و هو كذلك فإنّ الفعل و الانفعال و التأثير و التّأثر دائر بين أجزاء العالم المشهود .

وفي قوله : « فقال لها و للأرض » تلويح على أيّ حال إلى كون « ثمّ » في قوله : « ثمّ استوى » للتراخي بحسب رتبة الكلام .

قوله تعالى : « فقضاهنّ سبع سماوات في يومين و أوحى في كلّ سماء أمرها »

الأصل في معنى القضاء فصل الأمر ، و ضمير « هن » للسماء على المعنى ، و « سبع سماوات » حال من الضمير و « في يومين » متعلق بقضاهن فتفيد الجملة أن السماء لما استوى سبحانه إليها و هي دخان كان أمرها مبهما غير مشخص من حيث فعلية الوجود ففصل تعالى أمرها بجعلها سبع سماوات في يومين .

و قيل : إن القضاء في الآية مضمن معنى التصيير و « سبع سماوات » مفعوله الثاني ، و قيل فيها وجوه آخر لا يهمننا إيرادها .

و الآية و ما قبلها ناظرة إلى تفصيل ما أُجمل في قوله : « أولم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » الأنبياء : ٣٠ .

و قوله : « و أوحى في كل سماء أمرها » قيل : المراد بأمر السماء ما تستعد له أو تقضيه الحكمة فيها من وجود ملك أو كوكب و ما أشبه ذلك ، و الوحي هو الخلق و الإيجاد ، و الجملة معطوفة على قوله : « قضاهن » مقيّدة بالوقت المذكور للمعطوف عليه ، و المعنى و خلق في كل سماء ما فيها من الملائكة و الكواكب وغيرها .

و أنت خير بأن إرادة الخلق من الوحي و أمثال الملك و الكوكب من الأمر تحتاج إلى عناية زائدة لا تثبت إلا بدليل يبين ، و كذا تقيّد الجملة المعطوفة بالوقت المذكور في المعطوف عليها .

و قيل : المراد بالأمر التكليف الإلهي المتوجّه إلى أهل كل سماء من الملائكة و الوحي بمعناه المعروف و المعنى و أوحى إلى أهل كل سماء من الملائكة ما أمرهم به من العبادة .

و فيه أن ظاهر الآية و قد قال تعالى : « في كل سماء » و لم يقل : إلى كل سماء لا يوافق تلك الموافقة .

و قيل : المراد بأمرها ما أراد الله منها ، و هذا الوجه في الحقيقة راجع إلى أحد الوجهين السابقين فإن أريد بالوحي الخلق و الإيجاد رجع إلى أول الوجهين و إن أريد به معناه المعروف رجع إلى ثانيهما .

و الذي وقع في كلامه تعالى من الأمر المتعلق بوجه بالسماء يلوح إلى معنى

أدقّ ممّا ذكروه فقد قال تعالى : « يدبّر الأمر من السماء إلى الأرض ثمّ يعرج إليه »
 المّ السجدة : ٥ ، وقال : « الله الَّذي خلق سبع سماوات ومن الأرض مثلهنّ يتنزّل
 الأمر بينهنّ » الطلاق : ١٢ ، وقال : « ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنّا عن
 الخلق غافلين » المؤمنون : ١٧ .

دلّت الآية الأولى على أنّ السماء مبدء لأمره تعالى النازل إلى الأرض بوجه
 والثانية على أنّ الأمر يتنزّل بين السماوات من سماء إلى سماء حتّى ينتهي إلى
 الأرض ، والثالثة على أنّ السماوات طرائق لسلوك الأمر من عند ذي العرش أولسلك
 الملائكة الحاملين للأمر إلى الأرض كما يشير إليه قوله : « تنزّل الملائكة والروح
 فيها بأذن ربّهم من كلّ أمر » القدر : ٤ ، وقوله : « فيها يفرق كلّ أمر حكيم »
 الدخان : ٤ .

ولو كان المراد بالأمر أمره تعالى التكوينيّ وهو كلمة الإيجاد كما يستفاد من
 قوله : « إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن » يس : ٨٣ ، أفادت الآيات بانضمام
 بعضها إلى بعض أنّ الأمر الإلهيّ الَّذي مضيه في العالم الأرضيّ هو خلق الأشياء و
 حدوث الحوادث تحمله الملائكة من عند ذي العرش تعالى وتسلك في تنزيله طرق
 السماوات فتنزّله من سماء إلى سماء حتّى تنتهي به إلى الأرض .

و إنّما تحمله ملائكة كلّ سماء إلى من دونهم كما يستفاد من قوله : « حتّى
 إذا فرّغ من قولهم قالوا ماذا قال ربّكم قالوا الحقّ وهو العليّ الكبير » سبا : ٢٣
 وقد تقدّم الكلام فيه والسماوات مساكن الملائكة كما يستفاد من قوله : « وكم من ملك
 في السماوات » النجم : ٢٦ ، وقوله : « لا يستمعون إلى الملا الأعلى و يقذفون من
 كلّ جانب » الصافات : ٨ .

فللأمر نسبة إلى كلّ سماء باعتبار الملائكة الساكنين فيها ، ونسبة إلى كلّ قبيل
 من الملائكة الحاملين له باعتبار تحميلة لهم وهو وحيه إليهم فإنّ الله سبحانه سمّاه
 قولاً كما قال : « إنّما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن » النحل : ٤٠ .

فتحصّل بما مرّ أنّ معنى قوله : « و أوحى في كلّ سماء أمرها » أوحى في كلّ

سما إلى أهلها من الملائكة الأمر الإلهي. المنسوب إلى تلك السماء المتعلق بها، وأما كون اليومين المذكورين في الآية ظرفاً لهذا الوحي كما هما ظرف لخلق السماوات سبعا فلا دليل عليه من لفظ الآية .

قوله تعالى : « و زيننا السماء الدنيا بمصابيح و حفظا ذلك تقدير العزيز العليم » توصيف هذه السماء بالدنيا للدلالة على أنها أقرب السماوات من الأرض وهي طباق بعضها فوق بعض كما قال : خلق سبع سماوات طباقا « الملك : ٣ .

والظاهر من معنى تزيينها بمصابيح وهي الكواكب كما قال : « إِنَّا زَيْنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ » الصافات : ٦ أن الكواكب في السماء الدنيا أودونها كالقناديل المعلقة ولو كانت متفرقة في جميع السماوات من غير حجب بعضها بعضا لكون السماوات شفافة كما قيل كانت زينة لجمعها ولم تختص الزينة ببعضها كما يفيد السياق فلا وجه لقول القائل : إنها في الجميع لكن لكونها ترى متألثة على السماء الدنيا عدت زينة لها .

و أما قوله : « ألم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا و جعل القمر فيهن نورا و جعل الشمس سراجا » نوح : ١٦ فهو بالنسبة إلينا معاشر المستضيئين بالليل و النهار كقوله : « وجعلنا سراجا وهاجا » النبأ : ١٣ .

وقوله : « و حفظا » أي و حفظناها من الشياطين حفظا كما قال : « و حفظناها من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين » الحجر : ١٨ .
و قوله : « ذلك تقدير العزيز العليم » إشارة إلى ما تقدم من النظم والترتيب .

❦ كلام فيه تتميم ❦

قد تحصل مما تقدم :

أو لا أن المستفاد من ظاهر الآيات الكريمة - وليست بنص - أن السماء الدنيا من هذه السبع هي عالم النجوم والكواكب فوقنا .

و ثانياً أن هذه السماوات السبع المذكورة جميعاً من الخلق الجسماني فكأنها طبقات سبع متطابقة من عالم الأجسام أقربها منّا عالم النجوم والكواكب ، ولم يصف القرآن شيئاً من السماوات الست الباقية دون أن ذكر أنها طباق .
وثالثاً أن ليس المراد بالسماوات السبع الأجرام العلوية أو خصوص بعضها كالشمس والقمر أو غيرهما .

و رابعاً أن ما ورد من كون السماوات مساكن للملائكة وأنهم ينزلون منها بأمر الله حاملين له ويعرجون إليها بكتب الأعمال ، وأن للسماء أبواباً لا تفتح للكفار وأن الأشياء والأرزاق تنزل منها وغير ذلك مما تشير إليه متفرقات الآيات والروايات يكشف عن أن لهذه الأمور نوع تعلق بهذه السماوات لا تعلق ما نراه من الأجسام بمحالتها وأماكنها الجسمانية الموجبة لحكومة النظام المادي فيها وتسرب التغيير والتبدل والدثور والفتور إليها .

و ذلك أن من الضروري اليوم أن لهذه الأجرام العلوية كائنة ما كانت كينونة عنصرية جسمانية تجري فيها نظائر الأحكام والآثار الجارية في عالمنا الأرضي العنصري والنظام الذي يثبت للسماء وأهلها والأمور الجارية فيها مما أشرنا إليه يبين هذا النظام العنصري المشهود . أضف إلى ذلك ما ورد أن الملائكة خلقوا من نور ، وأن غذاءهم التسبيح ، وما ورد من توصيف خلقهم ، وما ورد في توصيف خلق السماوات وما خلق فيها إلى غير ذلك .

فللملائكة عوالم ملكوتية سبعة مترتبة سميت سماوات سبعة ونسبت مالها من الخواص والآثار إلى ظاهر هذه السماوات بلحاظ مالها من العلو والإحاطة بالنسبة إلى الأرض تسهيلاً للفهم الساذج .



﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد وأبو يعلى والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي كلاهما في الدلائل وابن عساكر عن جابر بن عبد الله قال : اجتمع قريش يوماً فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر فليات هذا الرجل الذي قد فرق جماعتنا ، وشتت أمرنا و غاب ديننا فليكنمه و لينظر ماذا يرد عليه ؟ فقالوا : ما نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة قالوا : أنت يا أبا الوليد .

فأتاه فقال : يا محمد أنت خير أم عبد الله ؟ أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله ﷺ قال : فإن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى نسمع منك .

أما والله ما رأينا سلحة قط أشأم على قومك منك فرقت جماعتنا ، وشتت أمرنا و عبت ديننا ، و فضحتنا في العرب حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحرا ، و أن في قريش كاهنا والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الجبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف . يأيها الرجل إن كان نمابك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلا واحداً وإن كان نمابك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلنزوجك عشرا .

فقال رسول الله ﷺ : فرغت ؟ قال : نعم . فقال رسول الله ﷺ : « بسم الله الرحيم حم تنزيل من الرحمان الرحيم كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون » حتى بلغ « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » .

فقال عتبة : حسبك . ما عندك غير هذا ؟ قال : لا فرجع إلى قريش فقالوا : ما وراءك ؟ قال : ما تركت شيأ أرى أنكم تكلمون به إلا كلمته قالوا : فهل أجابك ؟ قال : والذي نصبها بنيت ما فهمت شيأ مما قال غير أنه قال : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود قالوا : وملك يكلّمك الرجل بالعربية و ماتدري ما قال ؟ قال : لا والله ما فهمت شيأ مما قال غير ذكر الصاعقة .

اقول : ورواه عن عدة من الكتب قريبا منه ، وفي بعض الطرق قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : والله إنني قد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة ، والله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ ، وفي بعضها غير ذلك .

وفي تلاوته عليه السلام آيات أول السورة على وليد بن المغيرة رواية أخرى ستوافيك إن شاء الله في تفسير سورة المدثر في ذيل قوله تعالى : « ذرني ومن خلقت وحيداً » الآيات .

وفيه أخرج ابن جرير عن أبي بكر قال : جاء اليهود إلى رسول الله ﷺ فقالوا : يا محمد أخبرنا ما خلق الله من الخلق في هذه الأيام الستة ؟ فقال : خلق الله الأرض يوم الأحد والاثني ، وخلق الجبال يوم الثلاثاء ، وخلق المدائن والأقوات والأنهار وعمرانها وخرابها يوم الأربعاء ، وخلق السماوات والملائكة يوم الخميس إلى ثلاث ساعات يعني من يوم الجمعة ، وخلق في أول ساعة الآجال وفي الثانية الآفة وفي الثالثة آدم . قالوا : صدقت إن تمت فعرف النبي ﷺ ما يريدون فغضب فأنزل الله « وما مسنا من لغوب فاصبر على ما يقولون » .

اقول : وروى ما يقرب منه عن ابن عباس وعبد الله بن سلام وعن عكرمة وغيره وقد ورد في بعض أخبار الشيعة ، وقوله : قالوا : صدقت إن تمت أي تمت كلامك في الخلق بأن تقول : إن الله تعالى فرغ من الخلق يوم السبت واستراح فيه . والروايات لا تخلو من شيء :

أما أولاً فمن جهة اشتغالها على تصديق اليهود ما ذكر فيها من ترتيب الخلق وهو مخالف لما ورد في أول سفر التكوين من التوراة مخالفة صريحة ففيها أنه خلق النور والظلمة - النهار والليل - يوم الأحد ، وخلق السماء يوم الاثنين ، وخلق الأرض والبحار والنبات يوم الثلاثاء ، وخلق الشمس والقمر والنجوم يوم الأربعاء وخلق دواب البحر والطيور يوم الخميس ، وخلق حيوان البر والإنسان يوم الجمعة وفرغ من الخلق يوم السبت فاستراح فيه ، والقول بأن التوراة الحاضرة غير ما كان

في عهد النبي ﷺ كما ترى .

و أما ثانياً فلأنّ اليوم من الأسبوع وهو نهار مع ليلته يتوقف في كينونته على حركة الأرض الوضعية دورة واحدة قبال الشمس فما معنى خلق الأرض في يومين ولم يخلق السماء والسمائيات بعد ولا تمت الأرض كرة متحركة ؟ و نظير الاشكال جار في خلق السماء والسمائيات ومنها الشمس ولا يوم حيث لا شمس بعد .

و أما ثالثاً فلأنّه عدّ فيها يوم لخلق الجبال وقد جزم الفحص العلمي بأنّها تخلق تدريجاً ، و نظير الاشكال جار في خلق المدائن والأ نهار والأ قوات .

وفي روضة الكافي بإسناده عن محمد بن عطية عن أبي جعفر (عليه السلام) أنّه قال : و خلق الشيء الذي جميع الأشياء منه وهو الماء الذي خلق الأشياء منه فجعل نسب كل شيء إلى الماء ولم يجعل للماء نسباً يضاف إليه ، و خلق الريح من الماء .

ثمّ سلط الريح على الماء فشقت الريح متن الماء حتّى ثار من الماء زبد على قدر ما شاء أن يثور فخلق من ذلك الزبد أرضاً بيضاء نقيّة ليس فيها صدع ولا ثقب ولا صعود ولا هبوط ولا شجرة ثمّ طواها فوضعها فوق الماء .

ثمّ خلق الله النار من الماء فشقت النار متن الماء حتّى ثار من الماء دخان على قدر ما شاء الله أن يثور فخلق من ذلك الدخان سماء صافية نقيّة ليس فيها صدع ولا ثقب وذلك قوله : « و السماء بناها » .

اقول : وفي هذه المعنى بعض روايات أخر ، و يمكن تطبيق ما في الرواية و كذا مضامين الآيات على ما تسلمته الأبحاث العلمية اليوم في خلق العالم و هيئته غير أنّا تركنا ذلك احترازاً من تحديد الحقائق القرآنية بالأحداس و الفرضيات العلمية مادامت فرضية غير مقطوع بها من طريق البرهان العلمي .

و في نهج البلاغة : فمن شواهد خلقه خلق السماوات موطّئات بلا عمد قائمات بلا سند ، دعاهنّ فأجبن طائعات مدعنات غير متلکّثات ولا مبطّئات ، ولو لا إقرارهنّ له بالربوبية ، و إزعاجهنّ له بالطواعية لما جعلهنّ موضعاً لعرشه ، و لا مسكناً لملائكته و لا مصعداً للكلم الطيّب و العمل الصالح من خلقه .

و في كمال الدين بإسناده إلى فضيل الرستان قال : كتب محمد بن إبراهيم إلى أبي
 عبدالله عليه السلام : أخبرنا ما فضلكم أهل البيت ؟ فكتب إليه أبو عبدالله عليه السلام : إن الكواكب
 جعلت أماناً لأهل السماء فأذا ذهب نجوم السماء جاء أهل السماء ما كانوا يوعدون ، و
 قال رسول الله صلى الله عليه وآله : جعل أهل بيتي أماناً لأمتي فأذا ذهب أهل بيتي جاء أمتي ما
 كانوا يوعدون .

اقول : و ورد هذا المعنى في غير واحد من الروايات .

و في البحار عن كتاب الغارات بإسناده عن ابن نباتة قال : سئل أمير المؤمنين عليه السلام
 كم بين السماء والأرض ؟ قال : مد البصر و دعوة المظلوم .
اقول : و هو من لطائف كلامه عليه السلام يشير به إلى ظاهر السماء و باطنها كما
 تقدم .





فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادَ وَ ثَمُودَ (١٣)
 إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ
 قَالُوا تَوْ شَاءَ رَبِّنَا لِأَنْزِلْ مَلَكًا فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (١٤) فَأَمَّا
 عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ قَالُوا مَنْ أَشَدُّ قُوَّةَ أَوْ لَمْ
 يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (١٥)
 فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحْسَاتٍ لِنَذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ
 فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ (١٦) وَأَمَّا
 ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَآخَذْتَهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ
 الَّتِي هُمْ بِهَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (١٧) وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (١٨)
 وَ يَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (١٩) حَتَّى إِذَا مَا
 جَاؤَهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠)
 وَ قَالُوا لَجُلُودُهُمْ لَمْ شَهِدَتْهُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ
 شَيْءٍ وَ هُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تَرْجِعُونَ (٢١) وَ مَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ
 أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَ لَا أَبْصَارُكُمْ وَ لَا جُلُودُكُمْ وَ لَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ
 اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ (٢٢) وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ

أَزْدِيكُمْ فَاصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) فَإِنْ يَصْبِرُوا فَالْآزْمُ مَثْوًى لَّهُمْ وَإِنْ
يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ (٢٤) وَ قَيِّضْنَا لَهُمْ قُرْنَاءَ قَزَيْنَا لَهُمْ مَا
بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ
قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (٢٥) .

﴿ بيان ﴾

الآيات تتضمن الإنذار بالعذاب الدنيوي الذي ابتليت به عاد و ثمود بكفرهم
بالرسل و جحدهم لآيات الله ، و بالعذاب الآخروي الذي سيبتلى به أعداء الله من أهل
البحرود الذين حقّت عليهم كلمة العذاب ، و فيها إشارة إلى كيفية إضلالهم في الدنيا
و إلى استنطاق أعضائهم في الآخرة .

قوله تعالى : « فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَ ثَمُودَ » قال
في المجمع: الصاعقة المهلكة من كل شيء انتهى ، و قال الراغب : قال بعض أهل اللغة:
الصاعقة على ثلاثة أوجه : الموت كقوله : « صعق من في السماوات » و قوله : « فأخذتهم
الصاعقة » و العذاب كقوله : « أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَ ثَمُودَ » و النار كقوله :
« وَ يرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء » و ما ذكره فهو أشياء حاصلة من الصاعقة
فإن الصاعقة هي الصوت الشديد من الجو ثم يكون نار فقط أو عذاب أو موت و هي في
ذاتها شيء واحد ، و هذه الأشياء تأثيرات منها . انتهى .

و على ما مرّ تنطبق الصاعقة على عذابي عاد و ثمود و هما الريح و الصيحة ، و
التعبير بالماضي في قوله : « أَنْذَرْتُكُمْ » للدلالة على التحقق و الوقوع .

قوله تعالى : « إِذْ جَاءَتْهُمْ الرُّسُلُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَ مِنْ خَلْفِهِمْ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا
اللَّهَ » الخ ظرف لصاعقة الثانية فإن الإنذار بالصاعقة بالحقيقة إنذار بوقوعها و حلولها

فالمعنى مثل حلول صاعقة عادو ثمود إن جاءتهم النخ .

و نسبة المبعوثين إلى الرسل و هو جمع - مع أن الذي ذكر في قصتهم رسولان هما هود و صالح - باعتبار أن الرسل دعوتهم واحدة و المبعوث منهم إلى قوم مبعوث آخرين وكذا القوم المكذبون لأحدهم مكذبون لآخرين قال تعالى : « كذب عاد المرسلين » الشعراء : ١٢٣ و قال : « كذب ثمود المرسلين » الشعراء : ١٤١ ، و قال : « كذب قوم لوط المرسلين » ١٦٠ إلى غير ذلك .

و قول بعضهم : إن إطلاق الرسل و هو جمع على هود و صالح عليهما السلام و هما اثنان من إطلاق الجمع على ما دون الثلاثة و هو شائع ، و من هذا القبيل إرجاع ضمير الجمع في قوله : « إن جاءتهم » إلى عاد و ثمود .

ممنوع بما تقدم ، و أمّا إرجاع ضمير الجمع إلى عاد و ثمود فإنما هو لكون مجموع الجمعين جمعاً مثلهما .

و قوله : « من بين أيديهم و من خلفهم » أي من جميع الجهات فاستعمال هاتين الجهتين في جميع الجهات شائع ، و جواز أن يكون المراد به الماضي و المستقبل فقوله : « جاءتهم الرسل من بين أيديهم و من خلفهم » كناية عن دعوتهم لهم من جميع الطرق الممكنة خلوة و جلوة و فرادى و مجتمعين بالتبشير و الإنذار و لذلك فسر مجيئهم كذلك بعد بقوله : « أن لا تعبدوا إلا الله » و هو التوحيد .

و قوله : « قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة » ردّ منهم لرسالتهم بأن الله لو شاء إرسال رسول إلينا لأرسل من الملائكة ، و قد تقدم كراراً معنى قولهم هذا و أنه مبني على إنكارهم نبوة البشر .

و قوله : « فإننا بما أرسلتم به كافرون » تفريع على النفي المفهوم من الجملة السابقة أي فإذا لم يشأ و لم يرسل فإننا بما أرسلتم به و هو التوحيد كافرون .

قوله تعالى : « فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق » النخ رجوع إلى تفصيل حال كل من الفريقين على حدته ، من كفرهم و وبال ذلك ، و قوله : « بغير الحق » قيد توضيحي للاستكبار في الأرض فإنه بغير الحق دائماً ، و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : «فأرسلنا عليهم ريحا صرصراً في أيام نحسات » الخ فسر الصرصر بالريح الشديدة السموم ، و بالريح الشديدة البرد ، و بالريح الشديدة الصوت وتلازم شدة الهبوب ، و النحسات بكسر الحاء صفة مشبهة من نحس ينحس نحسا خلاف سعد فالأيام النحسات الأيام المشؤمات .

وقيل : أيام نحسات أي ذوات الغبار والتراب لا يرى فيها بعضهم بعضا ، ويؤيده قوله في سورة الأحقاف : « فلمّا رأوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم » الأحقاف : ٢٤ .
و قوله : « و ماله من ناصرين » أي لا منج ينجيهم و لا شفيع يشفع لهم .
و الباقي ظاهر .

قوله تعالى : « و أمّا ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى » الخ المراد بهدائيتهم إراءتهم الطريق ودلالتهم على الحق بيان حق الاعتقاد و العمل لهم ، والمراد بالاستحباب الإيثار و الاختيار ، و لعلّه بالتضمن و لذا عدّي إلى المفعول الثاني بعلى و المراد بالعمى الضلال استعارة ، و في مقابلة الهدى له إيماء إلى أن الهدى بصر كما أن الضلالة عمى ، و الهون مصدر بمعنى الذلّ و توصيف العذاب به للمبالغة أو بحذف ذي و التقدير صاعقة العذاب ذي الهون .

و المعنى و أمّا قوم ثمود فدلّلناهم على طريق الحقّ و عرفناهم الهدى بتمييزه من الضلال فاختراروا الضلال الذي هو عمى على الهدى الذي هو بصر فأخذتهم صيحة العذاب ذي المذلة - أو أخذهم العذاب بناء على كون الصاعقة بمعنى العذاب والإضافة بيانية - بما كانوا يكسبون .

قوله تعالى : « و نجّينا الذين آمنوا و كانوا يتّقون » ضمّ التقوى إلى الإيمان معبراً عن التقوى بقوله : « و كانوا يتّقون » اندالّ على الاستمرار للدلالة على جمعهم بين الإيمان و العمل الصالح و ذلك هو السبب لنجاتهم من عذاب الاستئصال على ما وعده الله بقوله : « و كان حقّا علينا نصر المؤمنين » الروم : ٤٧ .

والظاهر أن الآية متعلّقة بالقصتين جميعا متممة لهما و إن كان ظاهر المفسرين

تعلقها بالقصة الثانية .

قوله تعالى : « و يوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون » الحشر إخراج الجماعة عن مقرهم وإزعاجهم عنه إلى الحرب و نحوها . كذا قال الراغب ، و « يوزعون » من الوزع وهو حبس أول القوم ليلحق بهم آخرهم فيجتمعوا .

قيل : المراد بحشرهم إلى النار إخراجهم إلى المحشر للسؤال والحساب ، وجعل النار غاية لحشرهم لأن عاقبتهم إليها ، والدليل عليه ما ذكره من أمر شهادة الأعضاء فإنها في الموقف قبل الأمر بهم إلى النار .

وقيل : المراد حشرهم إلى النار نفسها ومن الممكن أن يستشهد عليهم مرتين مرة في الموقف ومرة على شفيع جهنم وهو كما ترى .

و المراد بأعداء الله - على ما قيل - المكذّبون بالنبي ﷺ من مشركي قومه لا مطلق الكفار والدليل عليه قوله الآتي : « و حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم » الآية .

قوله تعالى : « حتى إذا ما جاءوها شهدت عليهم سمعهم و أبصارهم و جلودهم بما كانوا يعملون » « ما » في « إذا ما جاءوها » زائدة للتأكيد والضمير للنار .

و شهادة الأعضاء أو القوى يوم القيامة ذكرها وإخبارها ماتحملته في الدنيا من معصية صاحبها فهي شهادة أداء لما تحمّله ، ولولا التحمّل في الدنيا حين العمل كما لو جعل الله لها شعوراً و نطقاً يوم القيامة فعلمت ثم أخبرت بما عملته أو أوجد الله عندها صوتاً يفيد معنى الإخبار من غير شعور منها به لم يصدق عليه الشهادة ، ولاتمّت بذلك على العبد المنكر حجة وهو ظاهر .

و بذلك يظهر فساد قول بعضهم : إن الله يخلق يوم القيامة للأعضاء علماً وقدره على الكلام فتخبر بمعاصي صاحبها وهو شهادتها وقول بعضهم : إنه يخلق عندها أصواتاً في صورة كلام مدلوله الشهادة ، و كذا قول بعضهم : إن معنى الشهادة دلالة الحال على صدور معصية كذائبة منهم .

و ظاهر الآية أن شهادة السمع و البصر أدأؤهما ماتحمللاه وإن لم يكن معصية

ماتياً بها بواسطتهما كشهادة السمع أنه سمع آيات الله تتلى عليه فأعرض عنها صاحبه أو أنه سمع صاحبه يتكلم بكلمة الكفر ، و شهادة البصر أنه رأى الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى فأعرض عنها صاحبه أو أنه رأى صاحبه يستمع إلى الغيبة أو سائر ما يحرم الإصغاء إليه فتكون الآية على حد قوله تعالى : « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً » أسرى : ٣٦ .

و على هذا يختلف السمع والأبصار والجلود فيما شهدت عليه فالسمع والأبصار تشهد على معصية العبد وإن لم تكن بسببهما والجلود تشهد على المعصية التي كانت هي آلات لها بالمباشرة ، وهذا الفرق هو السبب لتخصيصهم الجلود بالخطاب في قولهم : « لم شهدتم علينا » على ماسيجي .

و المراد بالجلود على ظاهر إطلاق الآية مطلق الجلود وشهادتها على أنواع المعاصي التي تتم بالجلود من التمتع المحرمة كالزنا ونحوه ، و يمكن حينئذ أن تعمم الجلود بحيث تشمل شهادتها ما شهدت الأيدي والأرجل المذكورة في قوله : « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم » يس : ٤٥ على بعد .
وقيل : المراد بالجلود الفروج وقد كنيت بها عنها تأدبا .

قوله تعالى : « وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا » اعتراض وعتاب منهم لجلودهم في شهادتها عليهم ، و قيل : الاستفهام للتعجب فهو سؤال عن السبب لرفع التعجب و إنما خصوها بالسؤال دون سمعهم وأبصارهم مع اشتراكها في الشهادة لأن الجلود شهدت على ما كانت هي بنفسها أسبابا وآلات مباشرة له بخلاف السمع والأبصار فإنها كسائر الشهداء تشهد بما ارتكبه غيرها .

و قيل : تخصيص الجلود بالذكر تقريع لهم و زيادة تشنيع و فضاحة و خاصة لو كان المراد بالجلود الفروج و قيل غير ذلك .

قوله تعالى : « قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » الخ إرجاع ضمير أولي العقل إلى الجوارح لمكان نسبة الشهادة والنطق إليها وذلك من شأن أولي العقل . و المتيقن من معنى النطق إذا استعمل على الحقيقة من غير تجوز هو إظهارها

في الضمير من طريق التكلم فيتوقف على علم و كشفه لغيره قال الراغب : ولا يكاد يستعمل النطق في غير الإنسان إلا تبعاً و بنوع من التشبيه و ظاهر سياق الآيات و ما فيها من ألفاظ القول و التكلم و الشهادة و النطق أن المراد بالنطق ما هو حقيقة معناه . فشهادة الأعضاء على المجرمين كانت نطقاً و تكلماً حقيقة عن علم تحملته سابقاً بدليل قولها : « أنطقنا الله » . ثم إن قولها : « أنطقنا الله » جواباً عن قول المجرمين : « لم شهدتم علينا » ؟ إراءة منها للسبب الذي أوجب نطقها و كشف عن العلم المدخر عندها المكنون في ضميرها فهي ملجأة إلى التكلم و النطق ، و لا يضر ذلك نفوذ شهادتها و تمام الحجّة بذلك فإنّها إنّما ألجئت إلى الكشف عمّا في ضميرها لا على الستر عليه و إلاّ أخبار بخلافه كذباً و زوراً حتّى ينافي جواز الشهادة و تمام الحجّة . و قوله : « الذي أنطق كل شيء » توصيف لله سبحانه و إشارة إلى أن النطق ليس مختصّاً بالأعضاء حتّى تختصّ هي بالسؤال بل هو عامّ شامل لكل شيء و السبب الموجب له هو الله سبحانه .

و قوله : « و هو خلقكم أوّل مرّة و إليه ترجعون » من تتمّة الكلام السابق أو هو من كلامه ، و هو احتجاج على علمه بأعمالهم و قد أنطق الجوارح بما علم . يقول : إن وجودكم يبتدىء منه تعالى و ينتهي إليه تعالى فعند ما تظهرون من كتم العدم - و هو خلقكم أوّل مرّة - يعطيكم الوجود و يملككم الصفات والأفعال فتنسب إليكم ثم ترجعون و تنتهون إليه فيرجع ما عندكم من ظاهر الملك الموهوب إليه فلا يبقى ملك إلا و هو لله سبحانه .

فهو سبحانه المالك لجميع ما عندكم أوّلاً و آخراً فما عندكم من شيء في أوّل وجودكم هو الذي أعطاكموه و ملكه لكم و هو أعلم بما أعطى و أودع ، و ما عندكم من شيء حينما ترجعون إليه هو الذي يقبضه منكم إليه و يملكه فكيف لا يعلمه ، و انكشافه له سبحانه حينما يرجع إليه إنطاقه لكم و شهادتكم على أنفسكم عنده .

و بما مرّ من البيان يظهر وجه تقييد قوله : « و هو الذي خلقكم » بقوله : « أوّل مرّة » فالمراد به أوّل وجودهم .

و لهم في قوله : « قالوا أنطقنا الله » في معنى الإِنطاق نظائر ما تقدّم في قوله : « شهدت عليهم » من الأقوال فمن قائل : إنَّ الله يخلق لهم يومئذ العلم والقدرة على النطق فينطقون ، ومن قائل : إنَّه يخلق عند الأعضاء أصواتا شبيهة بنطق الناطقين وهو المراد بنطقهم ، ومن قائل : إنَّ المراد بالنطق دلالة ظاهر الحال على ذلك .

وكذا في عموم قوله : « أنطق كل شيء » فقيل : هو مخصّص بكلّ شيء نطق إن ليس كل شيء ولا كل شيء ينطق بالنطق الحقيقيّ ومثل هذا التخصيص شائع ومنه قوله تعالى في الريح المرسلّة إلى عاد : « تدمر كل شيء » الأحقاف : ٢٥ .

وقيل : النطق في « أنطقنا » بمعناه الحقيقيّ وفي قوله : « أنطق كل شيء » بمعنى الدلالة فيبقى الإِطلاق على حاله .

ويرد عليهما أنّ تخصيص الآية أو حملها على المعنى المجازيّ مبنيّ على تسلّم كون غير ما نعدّه من الأشياء حيّاً ناطقاً كالإنسان والحيوان والملك والجنّ فاقداً للعلم والنطق على ما نراه من حالها .

لكن لا دليل على فقدان الأشياء غير ما استثنيناه للشعور والإرادة سوى أنّنا في حجاب من بطون ذواتها لا طريق لنا إلى الإِطلاع على حقيقة حالها ، والآيات القرآنيّة وخاصّة الآيات المتعرّضة لشؤون يوم القيامة ظاهرة في عموم العلم .

﴿ بحث اجمالاً قرآني ﴾

كرّرنا الإِشارة في الأبحاث المتقدّمة إلى أنّ الظاهر من كلامه تعالى أنّ العلم سار في الموجودات عامّة كما تقدّم في تفسير قوله تعالى : « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » أسرى : ٤٣ فإنّ قوله : « ولكن لا تفقهون » نعم الدليل على كون التسبيح منهم عن علم وإرادة لا بلسان الحال .

ومن هذا القبيل قوله : « فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرها قالتا أتينا طائعين » وقد تقدّم تفسيره في السورة .

و من هذا القبيل قوله : « و من أضلّ ممّن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة و هم عن دعائهم غافلون وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين » الأحقاف : ٦ فالمراد بمن لا يستجيب الأصنام فقط أوهي و غيرها ، و قوله : « يومئذ تحدث أخبارها بأنّ ربك أوحى لها » الزلزال : ٥ .

و من هذا القبيل الآيات الدالة على شهادة الأعضاء ونطقها و تكليمها لله والسؤال منها و خاصة ما ورد في ذيل الآيات الماضية آنفا من قوله : « أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء » الآية .

لا يقال : لو كان غير الإنسان و الحيوان كالجماد و النبات ذاشعور و إرادة لبانت آثاره و ظهر منها ما يظهر من الإنسان و الحيوان من الأعمال العلميّة و الأفعال و الانفعالات الشعوريّة .

لأنّه يقال : لادليل على كون العلم ذاسنخ واحد حتّى تتشابه الآثار المترشحة منه فمن الممكن أن يكون ذا مراتب مختلفة تختلف باختلافها آثارها .

على أنّ الآثار و الأعمال العجيبة المتقنة المشهودة من النبات و سائر الأنواع الطبيعيّة في عالمنا هذا لا تقصر في إتقانها و نظمها و ترتيبها عن آثار الأحياء كالأإنسان و الحيوان .

﴿بحث اجمالي فلسفي﴾

حقّق في مباحث العلم من الفلسفة أنّ العلم وهو حضور شيء لشيء يساوق الوجود المجرّد لكون ماله من فعليّة الكمال حاضراً عنده من غير قوّة فكلّ وجود مجرّد يمكنه أن يوجد حاضراً لمجرّد غيره أو يوجد له مجرّد غيره و ما أمكن لمجرّد بالامكان العام فهو له بالضرورة .

فكلّ عالم فهو مجرّد و كذا كلّ معلوم و ينعكسان بعكس النقيض إلى أنّ

المادة و ما تألف منها ليس بعالم ولا معلوم .

فالعلم يساوق الوجود المجرد ، والوجودات المادية لا يتعلّق بها علم ولا لها علم بشيء لكن لها ، على كونها ماديّة متغيّرة متحرّكة لا تستقرّ على حال ، ثبوتاً من غير تغيّر ولا تحوّل لا ينقلب عمّا وقع عليه .
فلها من هذه الجهة تجرّد والعلم سار فيها كما هو سار في المجرّدات الملحضة العقلية والمثالية فافهم ذلك .

قوله تعالى : « وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم » الخ لا شك أن الله سبحانه خالق كل شيء لا موجد غيره فلا يحول بين خلقه وبينه شيء ولا يحجب خلقه منه حاجب فهو تعالى مع كل شيء أينما كان وكيفما كان قال تعالى : « إن الله على كل شيء شهيد » الحج : ١٧ وقال : « و كان الله على كل شيء رقيباً » الأحزاب : ٥٢ .

فالإنسان أينما كان كان الله معه ، وأي عمل عمله كان الله مع عمله ، وأي عضو من أعضائه استعمله وأي سبب أو أداة أو طريق اتخذ له عمله كان مع ذلك العضو والسبب والأداة والطريق قال تعالى « وهو معكم أينما كنتم » الحديد : ٤ ، وقال : « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » الرعد : ٣٣ ، وقال : « إن ربك لبالمرصاد » الفجر : ١٤ .

و من هنا يستنتج أن الإنسان - وهو جار في عمله - واقع بين مراصد كثيرة يرصده من كل منها ربه ويرقبه ويشهده فمرتكب المعصية وهو متوغّل في سيئته غافل عنه تعالى في جهل عظيم بمقام ربه واستهانة به سبحانه وهو يرصده ويرقبه .
وهذه الحقيقة هي التي تشير إليه الآية أعني قوله : « وما كنتم تستترون » الخ على ما يعطيه السياق .

فقوله : « وما كنتم تستترون » نفى لاستتارهم وهم في المعاصي قبلًا وهم في الدنيا وقوله : « أن تشهد » الخ منصوب بنزع الخافض والتقدير من أن تشهد الخ .

وقوله: « و لكن ظننتم أن الله لا يعلم » استدراك في معنى الإضراب عن محذوف يدل عليه صدر الآية والتقدير و لم تظنوا أنها لا تعلم أعمالكم و لكن ظننتم الخ و الآية تفرع وتوبيخ للمشركين أو لمطلق المجرمين يوجه إليهم يوم القيامة من قبله تعالى .

و محصل المعنى و ما كنتم تستخفون في الدنيا عند المعاصي من شهادة أعضائكم التي تستعملونها في معصية الله و لم يكن ذلك لظنكم أنها لا إدراك فيها لعملكم بل لظنكم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون أي لم تستهينوا عند المعصية بشهادة أعضائكم و إنما استهنتم بشهادتنا .

فلاستدراك و معنى الإضراب في الآية نظير ما في قوله تعالى : « و ما رميت إذ رميت و لكن الله رمى » الأنفال : ١٧ ، و قوله : « و ما ظلمونا و لكن كانوا أنفسهم يظلمون » البقرة : ٥٧ .

و قوله : « كثيرا مما تعملون » و لم يقل : لا يعلم ما تعملون و لعل ذلك لكونهم معتقدين بالله و بصفاته العليا التي منها العلم فهم يعتقدون فيه العلم في الجملة لكن حالهم في المعاصي حال من لا يرى علمه بكثير من أعماله .

و يستفاد من الآية أن شهادة الشهود شهادته تعالى بوجه قال تعالى : « و لا تعملون من عمل إلا كنّا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه » يونس : ٦١ .

و لهم في توجيه معنى الآية أقوال أخر لا يساعد عليها السياق و لا تخلو من تكلف أضربنا عن التعرض لها .

قوله تعالى : « و ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » الإرداء من الردى بمعنى الهلاك ، و « ذلكم ظنكم » مبتدئ وخبر و « أرداكم » خبر بعد خبر ، ويمكن أن يكون « ظنكم » بدلا من ذلكم .

و معنى الآية على الأول و ذلكم الظن الذي ذكر ظن ظننتموه لا يغني من الحق شيئا والعلم والشهادة على حالها أهلككم ذلك الظن فأصبحتم من الخاسرين .

و على الثاني وظنكم الذي ظننتم بربكم أنه لا يعلم كثيرا مما تعملون أهللكم
إذهون عليكم أمر المعاصي و أدنى بكم إلى الكفر فأصبحتم من الخاسرين .

قوله تعالى : « فإن يصبروا فالنار مثوى لهم و إن يستعبدوا فمأوىهم من المعتبين »
في المفردات : الثواء الإقامة مع الاستقرار . انتهى ، وفي المجمع الاستعاب طلب العتبي
وهي الرضا وهو الاسترضاء ، والإعتاب الإرضاء ، وأصل الإعتاب عند العرب استصلاح
الجلد بأعاداته في الدباغ ثم استعير فيما يستعطف به البعض بعضا لأعاداته ما كان من
الإلفة . انتهى .

و معنى الآية فإن يصبروا فالنار مأواهم ومستقرهم وإن يطلبوا الرضى ويعتذروا
لينجوا من العذاب فليسوا ممن يرضى عنهم و يقبل إعتابهم و معذرتهم فالآية في معنى
قوله : « اصلوها فاصبروا أولا تصبروا سواء عليكم » الطور : ١٦ .

قوله تعالى : « و قِضْنَا لَهُمْ قَرْنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ » إلى
آخر الآية . أصل التقيض - كما في المجمع - التبديل ، و القرناء جمع قرين و هو
معروف .

فقوله : « و قِضْنَا لَهُمْ قَرْنَاءَ » إشارة إلى أنهم لو آمنوا و اتقوا لأيدىهم الله بمن
يسدّدهم و يهديهم كما قال : « أولئك كتب في قلوبهم الإيمان و أيدهم بروح منه »
المجادلة : ٢٢ لكنهم كفروا و فسقوا فبدّل الله لهم قرناء من الشياطين يقارنونهم و
يلازمونهم ، و إنما يفعل ذلك بهم مجازاة لكفرهم و فسوقهم .

و قيل : المعنى بدلناهم قرناء سوء من الجنّ و الإنس مكان قرناء الصدق الذين
أمروا بمقارنتهم فلم يفعلوا ، و لعلّ ما قدّمناه أحسن .

وقوله : « فَزَيَّنُوا لَهُمْ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ » لعلّ المراد التمتعّات المادّية
التي هم مكبّون عليها في الحال و ما تعلّقت به آمالهم و أمانيتهم في المستقبل .

و قيل : ما بين أيديهم ما قدّموه من أعمالهم السيئة حتّى ارتكبوها ، و ما خلفهم
ما سنّوه لغيرهم ممّن يأتي بعدهم ، و يمكن إدراج هذا الوجه في سابقه .

وقيل : ما بين أيديهم هو ما يحضرهم من أمر الدنيا فيؤثرونه و يقبلون إليه و يعملون له ، و ما خلفهم هو أمر الآخرة حيث يدعوهم قرناؤهم إلى أنه لا بعث ولا نشور ولا حساب ولا الجنة ولا نار ، وهو وجه بعيد إذ لا يقال لمن ينكر الآخرة أنها زينت له .

وقوله : « وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن و الإنس » أي ثبت ووجب عليهم كلمة العذاب حال كونهم في أمم مماثلين لهم ماضين قبلهم من الجن و الإنس ، وكلمة العذاب قوله تعالى : « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » البقرة : ٣٩ كقوله : « لا ملأن جهنم مذك و ممّن تبعك منهم أجمعين » ص : ٨٥ . وقوله : « إنهم كانوا خاسرين » تعليل لوجوب كلمة العذاب عليهم أولجميع ما تقدم .

و يظهر من الآية أن حكم الموت جارفي الجن مثل الإنس .

﴿ بحث روائي ﴾

في الفقيه عن أمير المؤمنين عليه السلام في وصيته لابن الحنفية : قال الله تعالى : « وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم » يعني بالجلود الفروج .

و في تفسير القمي بإسناده عن أبي عمرو الزيري عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية : يعني بالجلود الفروج والأفخاذ .

وفي المجمع قال الصادق عليه السلام : ينبغي للمؤمن أن يخاف الله خوفا كأنه يشرف على النار ، ويرجوه رجاء كأنه من أهل الجنة إن الله تعالى يقول : « و ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم » الآية ، ثم قال : إن الله عند ظن عبده إن خيرا فخير و إن شرا فشر .

و في تفسير القمي بإسناده عن عبد الرحمن بن الحجاج عن أبي عبد الله عليه السلام في

حديث قال رسول الله ﷺ : ليس من عبد يظن بالله عز وجل خيراً إلا كان عند ظنّه به و ذلك قوله عز وجل : « و ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم » الآية .

و في الدر المنثور أخرج أحمد و الطبراني و عبد بن حميد و مسلم و أبو داود و ابن ماجه و ابن حبان و ابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله فإن قوما قد أروا هم سوء ظنهم بالله عز وجل قال الله : « و ذلكم ظنكم الذي ظننتم بربكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » .

اقول : و قد روي في سبب نزول بعض الآيات السابقة ما لا يلائم سياقها تلك الملاءمة ولذلك أغمضنا عن إيراده :





وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ
تُغْلِبُونَ (٢٦) فَلَنَذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا وَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَعَ
الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٧) ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَهُمْ فِيهَا دَارُ
الْخُلْدِ جَزَاءَ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٢٨) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا
أَرَنَا الَّذِينَ اضَلَّانَا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ نَجْعَلُهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونُوا
مِنَ الْآسَفِينَ (٢٩) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ
الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠)
نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي
أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ (٣١) نَزَّلًا مِنْ غَفُورٍ رَحِيمٍ (٣٢) وَ مَنْ
أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٣)
وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ
وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَ مَا يُلْقِيهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا
يُلْقِيهَا إِلَّا دُحُوظٌ عَظِيمٌ (٣٥) وَ إِنَّمَا يَنْزِعُكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْعٌ فَاسْتَعِذْ
بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٦) وَ مِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ
وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن

كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧) فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ
بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ (٣٨) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَرَى الْأَرْضَ
خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي
الْمُتَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) .

﴿ بيان ﴾

رجوع إلى حديث كفرهم بالقرآن المذكور في أوّل السورة وذكر كيدهم لا بطل
حجّته، وفي الآيات ذكر الكفار و بعض ما في عقبي ضلالتهم و أهل الاستقامة من
المؤمنين و بعض ما لهم في الآخرة، ومتفرقات أخر .

قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن و الغوا فيه لعلكم
تغلبون » اللغومن الأمر ما لا أصل له و من الكلام ما لا معنى له يقال : لغى وبلغى وبلغو
لغوا أي أنى بالغوا ، و الإشارة إلى القرآن مع ذكر اسمه دليل على كمال عنايتهم
بالقرآن لا عفاء أثره .

والآية تدلّ على نهاية عجزهم عن مخاصمة القرآن ببيان كلام يعادله ويمائله
أو إقامة حجة تعارضه حتّى أمر بعضهم بعضا أن لا ينصتوا له و يأتوا بلغوا الكلام عند
قراءة النبي ﷺ القرآن ليختلّ به قراءته و لا تفرع أسماع الناس آياته فيلغو أثره
و هو الغلبة .

قوله تعالى : « فلنذيقنّ الذين كفروا عذابا شديدا » الخ اللام للقسم، والمراد
بالذين كفروا بحسب مورد الآية هم الذين قالوا : لا تسمعوا لهذا القرآن و إن كانت
الآية مطلقة بحسب اللفظ .

وقوله : « ولنجزينهم أسوء الذي كانوا يعملون » قيل : المراد العمل السيئ الذي

كانوا يعملون بتجريد أفعل عن معنى التفضيل ، وقيل : المراد بيان جزاء ما هو أسوء أعمالهم و سكت عن الباقي بمبالغة في الزجر .

قوله تعالى : « ذلك جزاء أعداء الله النار » الخ « ذلك جزاء » مبتدء و خبر و « النار » بدل أو عطف بيان من « ذلك » أو خبر مبتدء محذوف و التقدير هي النار أو مبتدء خبره « لهم فيها دار الخلد » .

و قوله : « لهم فيها دار الخلد » أي النار محيطة بهم جميعا و لكل منهم فيها دار تخصه خالداً فيها .

وقوله : « جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون » مفعول مطلق لفعل مقدّر و التقدير يجزون جزاء أو للمصدر المتقدم أعني قوله : « ذلك جزاء » نظير قوله : « فإن جهنم جزاؤكم جزاء موفورا » أسرى : ٦٣ .

قوله تعالى : « وقال الذين كفروا ربنا أرونا اللذين أضلانا من الجن والإانس » محكي قول يقولونه وهم في النار ، يسألون الله أن يريهم متبوعيهم من الجن والإانس ليجعلوهما تحت أقدامهم إذ لا لهما وتشديداً لعذابهما كما يشعربه قولهم ذبلا : « نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين » .

قوله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة » الخ قال الراغب : الاستقامة يقال في الطريق الذي يكون على خط مستو ، وبه شبه طريق الحق نحو « اهدنا الصراط المستقيم » . قال : واستقامة الإنسان لزومه المنهج المستقيم نحو قوله : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » . انتهى . وفي الصحاح : الاستقامة الاعتدال يقال : استقام له الأمر . انتهى .

فالمراد بقوله : « ثم استقاموا » لزوم وسط الطريق من غير ميل و انحراف و الثبات على القول الذي قالوه ، قال تعالى : « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم » التوبة : ٧ وقال : « واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم » الشورى : ١٥ وما ورد فيها من مختلف التفاسير يرجع إلى ما ذكر .

والآية وما يتلوها بيان حسن حال المؤمنين كما كانت الآيات قبلها بيان سوء حال الكافرين .

وقوله : « تنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » إخبار عما سيستقبلهم به الملائكة من تقوية قلوبهم وتطيب نفوسهم والبشرى بالكرامة .

فالملائكة يؤمنونهم من الخوف والحزن ، والخوف إنما يكون من مكروه متوقع كالعذاب الذي يخافونه والحرمان من الجنة الذي يخشونه ، والحزن إنما يكون من مكروه واقع وشر لازم كالسيئات التي يحزنون من اكتسابها والخيرات التي يحزنون لفوتها عنهم فيطيب الملائكة أنفسهم أنهم في أمن من أن يخافوا شيئاً أو يحزنوا لشيء فالذنوب مغفورة لهم والعذاب مصروف عنهم .

ثم يبشرونهم بالجنة الموعودة بقولهم : « وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون » وفي قولهم : « كنتم توعدون » دلالة على أن تنزلهم بهذه البشرى عليهم إنما هو بعد الحياة الدنيا .

قوله تعالى : « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة » الخ من تمتمة البشارة ، وعلى هذا فذكر ولايتهم لهم في الحياة الدنيا مع انقضاء وقتها كما تقدم من باب التوطئة والتمهيد إلى ذكر الآخرة للإشارة إلى أن ولاية الآخرة مترتبة على ولاية الدنيا فكأنه قيل : نحن أولياؤكم في الآخرة كما كنا - لما كنا - أولياءكم في الحياة الدنيا وسنتولى أمركم بعد هذا كما توليناه قبل .

وكون الملائكة أولياء لهم لا ينافي كونه تعالى هو الولي لأنهم وسائط الرحمة والكرامة ليس لهم من الأمر شيء ، ولعل ذكر ولايتهم لهم في الآية دون ولايته تعالى للمقابلة والمقايضة بين أوليائه تعالى وأعدائه إذ قال في حق أعدائه : « وقيضنا لهم قرناء » الخ وقال في حق أوليائه عن لسان ملائكته : « نحن أولياؤكم » .

والمقابلة يستفاد أن المراد ولايتهم لهم بالتسديد والتأييد فإن الملائكة المسددون دينهم بالخصوص بأهل ولاية الله ، وأما الملائكة الحرّس وموكلوا الأرزاق

و الآجال و غيرهم فمشتركون بين المؤمنين و الكافر .
و قيل : الآية من كلام الله دون الملائكة .

و قوله : « و لكم فيها ما تشتهي أنفسكم و لكم فيها ما تدعون » ضمير « فيها » في الموضعين للآخرة ، و أصل الشهوة نزوع النفس بقوة من قواها إلى ما تريده تلك القوة و تلذذ به كشهوة الطعام و الشراب و النكاح ، و أصل الادعاء - و هو افتعال من الدعاء - هو الطلب فالجملة الثانية أعني قوله : « و لكم فيها ما تدعون » أوسع نطاقا من الأولى أعني قوله : « لكم فيها ما تشتهي أنفسكم » فإن الشهوة طلب خاص و مطلق الطلب أعم منها .

فالآية تبشّرهم بأن لهم في الآخرة ما يمكن أن تتعلق به شهواتهم من أكل و شرب و نكاح و غير ذلك بل ما هو أوسع من ذلك نطاقا و أعلى كعبا و هو أن لهم ما يشاؤون فيها كما قال تعالى : « لهم ما يشاؤون فيها » ق : ٣٥ .

قوله تعالى : « و من أحسن قولا ممن دعا إلى الله و عمل صالحا وقال إنني من المسلمين » للآية اتصال بقوله السابق : « و قال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن و الغوا فيه » الآية فإنهم كانوا يخاصمون النبي ﷺ كما ينازعون القرآن ، و قد ذكر في أوّل السورة قولهم : « قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه » الآية فأيد سبحانه في هذه الآية نبيه بأن قوله و هو دعوته أحسن القول .

فقوله : « و من أحسن قولا ممن دعا إلى الله » المراد به النبي ﷺ و إن كان لفظ الآية يعم كل من دعا إلى الله و لما أمكن أن يدعو الداعي إلى الله لغرض فاسد و ليست الدعوة التي هذا شأنها من القول الأحسن قيده بقوله : « و عمل صالحا » فإن العمل الصالح يكشف عن نيّة صالحة غير أن العمل الصالح لا يكشف عن الاعتقاد الحق و الالتزام به ، ولا حسن في قول لا يقول به صاحبه و لذا قيده بقوله : « و قال إنني من المسلمين » و المراد بالقول الرأي و الاعتقاد على ما يعطيه السياق .

فإنّا تمّ الإسلام لله و العمل الصالح للإنسان ثم دعا إلى الله كان قوله أحسن القول لأن أحسن القول أحقّه و أنفعه و لا قول أحق من كلمة التوحيد و لا أنفع منها

وهي الهادية للإنسان إلى حاق سعادته .

قوله تعالى : « لا تستوي الحسنة ولا السيئة » الآية لما ذكر أحسن القول و أنه الدعوة إلى الله و القائم به حقاً هو النبي ﷺ التفت إليه ببيان أحسن الطريق إلى الدعوة و أقربها من الغاية المطلوبة منها و هي التأثير في النفوس فخطبه بقوله : « لا تستوي » الخ .

فقوله : « لا تستوي الحسنة ولا السيئة » أي الخصلة الحسنة و السيئة من حيث حسن التأثير في النفوس ، و « لا » في « ولا السيئة » زائدة لتأكيد النفي .

و قوله : « ادفع بالتي هي أحسن » استئناف في معنى دفع الدخلكان المخاطب لما سمع قوله : « لا تستوي » الخ قال : فما ذا أصنع ؟ فقيل : « ادفع » الخ و المعنى ادفع بالخلعة التي هي أحسن الخصلة السيئة التي تقابلها وتضادها فادفع بالحق الذي عندك باطلهم لا يباطل آخر وبحلمك جهلهم و بعفوك إساءتهم و هكذا .

وقوله: «فاذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم» بيان لأثر الدفع بالأحسن و نتيجته ، والمراد أنك إن دفعت بالتي هي أحسن فاجأك أن عدوك صار كأنه ولي شفيق . قيل : « الذي بينك وبينه عداوة » أبلغ من « عدوك » و لذا اختاره عليه مع اختصاره .

ثم عظم الله سبحانه الدفع بالتي هي أحسن ومدحه أحسن التعظيم وأبلغ المدح بقوله : « وما يلقاها إلا الذين صبروا و ما يلقاها إلا ذو حظ عظيم » أي ذو نصيب وافر من كمال الإنسانية و خصال الخير .

و في الآية مع ذلك دلالة ظاهرة على أن الحظ العظيم إنما يوجد لأهل الصبر خاصة .

قوله تعالى : « وإما ينزغتك من الشيطان نزغ فاستعد بالله إنه هو السميع العليم » النزغ النخس وهو غرز جنب الدابة أو مؤخرها بقضيب ونحوه ليهيج ، و«ما» في «إما ينزغتك» زائدة و الأصل و إن ينزغك فاستعد .

و النازغ هو الشيطان أو تسويله و وسوسته ، و الأول هو الأنسب لمقام النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ فَإِنَّهُ لَا سَبِيلَ لِلشَّيْطَانِ إِلَيْهِ بِالْوَسْوَسةِ غَيْرَ أَنَّهُ يُمْكِنُ أَنْ يَقْلَبَ لَهُ الْأُمُورَ بِالْوَسْوَسةِ عَلَى الْمَدْعُوعِينَ مِنْ أَهْلِ الْكُفْرِ وَالْجُحُودِ فَيُبَالِغُوا فِي جُحُودِهِمْ وَمَشَاقَّتِهِمْ وَإِذَا نَهَمَ لَهُ فَلَا يُوَثَّرُ فِيهِمُ الدَّفْعُ بِالْأَحْسَنِ وَيُوَلِّ هَذَا إِلَى تَرْغٍ مِنَ الشَّيْطَانِ بِتَشْدِيدِ الْعَدَاوَةِ فِي الْبَيْنِ كَمَا فِي قَوْلِهِ : « مِنْ بَعْدِ أَنْ تَرْغِ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي » يَوْسُفُ : ١٠٠ ، قَالَ تَعَالَى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ » الْآيَةُ الْحَجَّ : ٥٢ .

وَلَوْ حَمَلَ عَلَى الْوَجْهِ الثَّانِي فَاطْمَعِيَّتَ حَمَلِهِ عَلَى مَطْلُوقِ الدِّسْتُورِ تَمِيمًا لِلْأَمْرِ ، وَهُوَ بَوَاجِهُ مِنْ بَابِ « إِيَّاكَ أَغْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَةَ » .

وَقَوْلُهُ : « فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ » الْعُذُورُ وَالْعِيَانُ بِكَسْرِ الْعَيْنِ وَالْمَعَاذُ وَالِاسْتِعَاذَةُ بِمَعْنَى وَهُوَ الْإِلْتِجَاءُ وَالْمَعْنَى فَالْتَجِيءُ بِاللَّهِ مِنْ تَرْغِهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ لِمَسْأَلَتِكَ الْعَلِيمُ بِحَالِكَ أَوْ السَّمِيعُ لِأَقْوَالِكُمُ الْعَلِيمُ بِأَفْعَالِكُمُ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ » الْخُ لَمَّا ذَكَرَ سُبْحَانَهُ كَوْنُ دَعْوَتِهِ ﷺ أَحْسَنَ الْقَوْلِ وَوَصَّاهُ أَنْ يَدْفَعَ بِأَحْسَنِ الْخُصَالِ عَادَ إِلَى أَصْلِ الدَّعْوَةِ فَاحْتِجَّ عَلَى الْوَحْدَانِيَّةِ وَالْمَعَادِ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الثَّلَاثِ .

فَقَوْلُهُ : « وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ » الْخُ احْتِجَاجُ بَوْحِدَةِ التَّدْيِيرِ وَاتِّصَالِهِ عَلَى وَحْدَةِ الرَّبِّ الْمُدَبِّرِ ، وَبَوْحِدَةِ الرَّبِّ عَلَى وَجُوبِ عِبَادَتِهِ وَحْدَهُ ، وَلِذَلِكَ عَقَّبَهُ بِقَوْلِهِ « لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ » الْخُ .

فَالْكَلَامُ فِي مَعْنَى دَفْعِ الدَّخْلِ كَأَنَّهُ لَمَّا قِيلَ : « وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ » الْخُ فَأُثْبِتَ وَحْدَتَهُ فِي رَبُّوبِيَّتِهِ قِيلَ : فَمَاذَا نَصْنَعُ ؟ فَقِيلَ : لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ هُمَا مَخْلُوقَانِ مُدَبَّرَانِ مِنْ خَلْقِهِ بَلْ خَصَّوهُ بِالسَّجْدَةِ وَاعْبُدُوهُ وَحْدَهُ ، وَعَامَّةُ الْوُثْنِيِّينَ كَانُوا يَعْظُمُونَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَإِنْ لَمْ يَعْبُدْهُمَا غَيْرَ الصَّابِئِينَ عَلَى مَا قِيلَ ، وَضَمِيرُ « خَلَقْنَهُ » لِلَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ .

وَقَوْلُهُ : « إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ » أَيِ إِنْ عِبَادَتُهُ لَا تَجَامِعُ عِبَادَةَ غَيْرِهِ .

قَوْلُهُ تَعَالَى : « فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ

لا يسأمون « السأمة الملال ، والمراد « بالذين عند ربك » الملائكة والمخلصون من عباد الله ، وقد تقدم كلام في ذلك في تفسير قوله : « إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون » الأعراف : ٢٠٦ .

و قوله : « يسبحون له » ولم يقل : يسبحونه للدلالة على الحصر والاختصاص أي يسبحونه خاصة ، وقوله : « بالليل والنهار » أي دائماً لا ينقطع فإن الملائكة ليس عندهم ليل ولا نهار .

و المعنى فإن استكبر هؤلاء الكفار عن السجدة لله وحده فعبادته تعالى لا ترتفع من الوجود فهناك من يسبحه تسبيحاً دائماً لا ينقطع من غير سأة وهم الذين عند ربك .

قوله تعالى : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة » الخ الخشوع التذلل ، والاهتزاز التحرك الشديد ، والربو النشوء والنماء والعلو ، واهتزاز الأرض و ربوها تحرّكها بنباتها وارتفاعه .

و في الآية استعارة تمثيلية شَبَّهت فيها الأرض في جذبها وخلقها عن النبات ثم اخضرارها و نمو نباتها و علو شخص كان وضع الحال رث الثياب متذللًا خاشعاً ثم أصاب مالاً يقيم أوده فلبس أفخر الثياب و انتصب ناشطاً متبخترًا يعرف في وجهه نضرة النعيم .

و الآية مسوقة للاحتجاج على المعاد ، وقد تكررت البحث عن مضمونها في السور المتقدمة .

﴿ ببحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : « أرنا الذين أضلّنا » يعنون إبليس الأبالسة وقايل بن آدم أول من أبدع المعصية . روي ذلك عن علي عليه السلام .

اقول : و لعله من نوع الجري فالآية عامة .

و فيه في قوله تعالى : « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » روي عن أنس

قال : قرء علينا رسول الله ﷺ هذه الآية ثم قال : قد قالها ناس ثم كفر أكثرهم فمن قالها حتى يموت فقد استقام عليها .

وفيه في قوله تعالى : « تنزل عليهم الملائكة » يعني عند الموت عن مجاهد و السدي و روي ذلك عن أبي عبد الله عليه السلام .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا » قال : كنّا نحرسكم من الشياطين « و في الآخرة » أي عند الموت .

و في المجمع في الآية قيل : « نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا » أي نحرسكم في الدنيا و عند الموت في الآخرة .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « ادفع بالتي هي أحسن » قال : ادفع سيئة من أساء إليك بحسنتك حتى يكون الذي بينك و بينه عداوة كأنه ولي حميم .





اِنَّ الَّذِيْنَ يُلْحِدُوْنَ فِيْ آيَاتِنَا لَا يَخَفُوْنَ عَلَيْنَا اَفَمَنْ يَلْقَى فِي النَّارِ
 خَيْرًا مِّنْ يَّاتِيْ اٰمِنًا يَوْمَ الْقِيَمَةِ اَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ اِنَّهٗ بِمَا تَعْمَلُوْنَ
 بَصِيْرٌ (٤٠) اِنَّ الَّذِيْنَ كَفَرُوْا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَاِنَّهٗ لِكِتَابٌ عَزِيْزٌ (٤١)
 لَا يَاتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهٖ تَنْزِيْلٌ مِنْ حَكِيْمٍ حَمِيْدٍ (٤٢)
 مَا يُقَالُ لَكَ اِلَّا مَا قَدْ قَبِلَ لِلرَّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ اِنْ رَبُّكَ لَذُوْ مَغْفِرَةٍ
 وَ ذُوْ عِقَابٍ اَلِيْمٍ (٤٣) وَ لَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْاٰنًا اَعْجَمِيًّا لَقَالُوْا تَوَلَّا فُصِّلَتْ
 آيَاتُهٗ اَعْجَمِيٌّ وَ عَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِيْنَ اٰمَنُوْا هُدًى وَ شِفَاەءٌ وَ الَّذِيْنَ
 لَا يُؤْمِنُوْنَ فِيْ اٰذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى اُولٰٓئِكَ يُنَادُوْنَ مِنْ مَّكَانٍ
 بَعِيْدٍ (٤٤) وَ لَقَدْ اَتَيْنَا مُوسٰى الْكِتٰبَ فَاخْتَلَفَ فِيْهِ وَلَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ
 مِنْ رَبِّكَ لَقَضٰى بَيْنَهُمْ وَ اَنَّهُمْ لَقٰى شَاكٍ مِنْهُ مُرِيْبٍ (٤٥) مَنْ عَمِلَ
 صَالِحًا فَلِنَفْسِهٖ وَ مَنْ اَسَاءَ فَلَعَلِّيْهَا وَ مَا رَبُّكَ بِظَلٰمٍ لِّلْعَبِيْدِ (٤٦) اِلَيْهِ
 يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَ مَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرٰتٍ مِنْ اَكْمَامِهَا وَ مَا تَحْمِلُ مِنْ
 اُنْثٰى وَ لَا تَضَعُ اِلَّا بِعِلْمِهٖ وَ يَوْمَ يُنَادِيهِمْ اَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوْا اٰذْنٰكَ مَا
 مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ (٤٧) وَ ضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوْا يَدْعُوْنَ مِنْ قَبْلُ وَظَنُّوْا مَا لَهُمْ
 مِنْ مَّحِيصٍ (٤٨) لَا يَسْتَعِيْزُ الْاِنْسَانُ مِنْ دُعَاەئِ الْخَيْرِ وَاِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَئُوْسُ

قَنُوطُ (٤٩) وَ لَعَنَ أَذْقَنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسْتَه لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لِلْحَسَنِ فَلَنُتْبِعَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَ لَنُذِيقَنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ (٥٠) وَ إِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَ نَأْبِجُنِيهِ وَ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَوَّوْ دُعَاءَ عَرِيضٍ (٥١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٢) سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) إِلَّا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ إِلَّا أَنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ (٥٤) .

﴿ بيان ﴾

عودة أخرى إلى حديث القرآن و كفرهم به على ظهور آيته و رفعة درجته و ما فرطوا في جنبه و رميهم النبي ﷺ و جحدتهم الحق و كفرهم بالآيات و ما يتبع ذلك ، و تختتم السورة .

و الآية الأولى أعني قوله : « إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا » الآية كالبرزخ الرابط بين هذا الفصل و الفصل السابق من الآيات لما وقعت بين قوله : « إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ » الآية و بين قوله : « وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ » الآية وقوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ » الخ .

قوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَخْفُونَ عَلَيْنَا » الخ سياق تهديد

لملحدي هذه الأمة كما يؤيده الآية التالية ، و إلا لحاد الميل .

و إطلاق قوله : « يلحدون » وقوله : « آياتنا » يشمل كل إلحاد في كل آية فيشمل الإلحاد في الآيات التكوينية كالشمس والقمر وغيرهما فيعدونها آيات لله سبحانه ثم يعودون فيعبدها ، ويشمل آيات الوحي والنبوة فيعدون القرآن افتراء على الله وتقولا من النبي ﷺ أو يلغون فيه لتختل تلاوته فلا يسمعه سامع أو يفسروا منه من عند أنفسهم أو يؤولونه ابتغاء الفتنة فكل ذلك إلحاد في آيات الله بوضعها في غير موضعها والميل بها إلى غير مستقرها .

وقوله : « أفمن يلقي النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة » إيدان بالجزء وهو الإلقاء في النار يوم القيامة قسرا من غير أي مؤمن متوقع كشفيح أو ناصر أو عذر مسموع فليس لهم إلا النار يلقون فيها ، والظاهر أن قوله « أم من يأتي آمنا يوم القيامة » لا بانه أنهما قبيلان لاثالث لهما فمستقيم في الإيمان بالآيات وملحديها ويظهر به أن أهل الاستقامة في أمن يوم القيامة .

وقوله : « اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير » تشديد في التهديد .

قوله تعالى : « إن الذين كفروا بالذكر ملأ جاءهم - إلى قوله - من حكيم حميد » المراد بالذكر القرآن لما فيه من ذكر الله ، و تقييد الجملة بقوله : « ملأ جاءهم » يدل على أن المراد بالذين كفروا هم مشركوا العرب المعاصرين للقرآن من قریش وغيرهم .

وقد اختلفوا في خبر « إن » ويمكن أن يستظهر من السياق أنه محذوف يدل عليه قوله : « إن الذين يلحدون في آياتنا » الخ فإن الكفر بالقرآن من مصاديق الإلحاد في آيات الله فالتقدير إن الذين كفروا بالذكر ملأ جاءهم يلحدون في النار يوم القيامة ، وإنما حذف ليذهب فيه وهم السامع أي مذهب ممكن والكلام مسوق للوعيد .

و إلى هذا المعنى يرجع قول الزمخشري في الكشف : إن قوله : « إن الذين كفروا » الخ يدل من قوله : « إن الذين يلحدون في آياتنا » .

وقيل : خبر إن قوله الآتي : « أولئك ينادون من مكان بعيد » ، و قيل :

الخبر قوله : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » بحذف ضمير عائذ إلى اسم إن والتقدير لا يأتيه منهم أي لا يأتيه من قبلهم ما يبطله ولا يقدرّون على ذلك أو بجعل أل في الباطل عوضاً من الضمير والمعنى لا يأتيه باطلهم .
وقيل : إن قوله : « وإنه لكتاب عزيز » الخ قائم مقام الخبر والتقدير إن الذين كفروا بالذكر كفروا به وإنه لكتاب عزيز .

وقيل : الخبر قوله : « ما يقال لك » الخ بحذف الضمير وهو « فيهم » والمعنى ما يقال لك في الذين كفروا بالذكر إلا ما قد قيل للرسول من قبلك إن لهم عذاب الاستئصال في الدنيا وعذاب النار في الآخرة ، ووجوه التكلف في هذه الوجوه غير خفية على المتأمل البصير .

وقوله : « وإنه لكتاب عزيز » الضمير للذكر وهو القرآن ، والعزيز عديم النظير أو المنيع الممتنع من أن يغلب ، والمعنى الثاني أنسب لما يتعقبه من قوله : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » .

وقوله : « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » إتيان الباطل إليه ورود فيه وضرورة بعض أجزائه أو جميعها باطلاً بأن يصير ما فيه من المعارف الحقّة أو بعضها غير حقّة أو ما فيه من الأحكام والشرائع وما يلحقها من الأخلاق أو بعضها لغى لا ينبغي العمل به .

وعليه فالمراد بقوله : « من بين يديه ولا من خلفه » زمانا الحال والاستقبال أي زمان النزول وما بعده إلى يوم القيامة ، وقيل : المراد بما بين يديه ومن خلفه جميع الجهات كالصباح والمساء كناية عن الزمان كلّهُ فهو مصون من البطلان من جميع الجهات ، وهذا العموم على الوجه الأوّل مستفاد من إطلاق النفي في قوله : « لا يأتيه » .

والمدلّول على أيّ حال أنّه لا تناقض في بياناته ، ولا كذب في أخباره ، ولا بطلان يتطرّق إلى معارفه وحكمه وشرائعه ، ولا يعارض ولا يغيّر بإدخال ما ليس منه فيه أو بتحريف آية من وجهه إلى وجه .

فَالْآيَةُ تَجْرِي مَجْرَى قَوْلِهِ : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ »

الحجر : ٩ .

و قوله : « تنزيل من حكيم حميد » بمنزلة التعليل لكونه كتابا عزيزا لا يأتيه الباطل الخ أي كيف لا يكون كذلك و هو منزل من حكيم متقن في فعله لا يشوب فعله وهن ، محمود على الإطلاق .

قوله تعالى : « ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك » الخ « ما » في « ما يقال لك » نافية ، و القائلون هم الذين كفروا حيث قالوا : إنه ساحر أو مجنون أو شاعر لا غ في كلامه أو يريد أن يتأمر علينا ، و القائلون لما قد قيل للرسل أمهم .

و المعنى ما يقال لك من قبل كفار قومك حيث أرسلت إليهم فدعوتهم فرموك بمارموك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك أي مثل ما قد قيل لهم .

و قوله : « إن ربك لذو مغفرة و ذو عقاب أليم » في موضع التهديد و الوعيد أي إن ربك ذواتين الصفتين أي فانظر أو فلينظروا ماذا يصيبهم من ربهم وهم يقولون ما يقولونه لرسوله ؟ أهو مغفرة أم عقاب ؟ فالآية في معنى قوله : « اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير » أي ما عملتم من حسنة أو سيئة أصابكم جزاؤه بعينه .

و قيل : المعنى ما يوحى إليك في أمر هؤلاء الذين كفروا بالذكر إلا ما قد أوحى للرسل من قبلك و هو أن ربك لذو مغفرة و ذو عقاب أليم فالمراد بالقول الوحي ، و « إن ربك » الخ بيان لما قد قيل .

قوله تعالى : « ولو جعلناه قرآنا أعجميا لقالوا لولا فصلت آياته ءأعجمي وعربي » قال الراغب : العجمة خلاف الإبانة . قال : و العجم خلاف العرب و العجمي منسوب إليهم ، و الأعجم من في لسانه عجمة عربيا كان أو غير عربي اعتبارا بقلته فهمهم عن العجم . انتهى فالأعجمي غير العربي البليغ سواء كان من غير أهل اللغة العربية أو كان منهم و هو غير مفصح للكثرة في لسانه ، و إطلاق الأعجمي على الكلام كإطلاق العربي من المجاز .

فالمعنى و لو جعلنا القرآن أعجميا غير مبين لمقاصده غير بليغ في نظمه لقال

الذين كفروا من قومك : هَلَا فَصَّلْتُ وَبَيَّنْتُ آيَاتِهِ وَأَجْزَأُوهُ فَانْفَصَلَتْ وَبَانَتْ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ بِالْعَرَبِيَّةِ وَالْبَلَاغَةِ أَكْتُابٍ مَرْسَلٍ أُعْجِمِي* وَمَرْسَلٍ إِلَيْهِ عَرَبِيٌّ* ؟ أَيْ يَتَنَافِيَانِ وَلَا يَتَنَاسَبَانِ .

وإنما قال : « عَرَبِيٌّ » و لم يقل : عَرَبِيَّتُونِ أَوْ عَرَبِيَّةٌ مَعَ كَوْنٍ مِنْ أُرْسَلٍ إِلَيْهِ جَمْعًا وَ هُمْ جَمَاعَةُ الْعَرَبِ ، إِذَا الْقَصْدُ إِلَى مَجْرَدِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ دُونِ خُصُوصِيَّةِ لِلكَثْرَةِ بَلِ الْمُرَادُ بَيَانُ التَّنَافِيِ بَيْنَ الْكَلَامِ وَ بَيْنَ الْمَخَاطَبِ بِهِ لَا بَيَانُ كَوْنِ الْمَخَاطَبِ وَاحِدًا أَوْ كَثِيرًا . قَالَ فِي الْكَشَافِ : فَانْ قُلْتُ : كَيْفَ يَصِحُّ أَنْ يَرَادَ بِالْعَرَبِيِّ الْمُرْسَلِ إِلَيْهِمْ وَ هُمْ أُمَّةُ الْعَرَبِ ؟ قُلْتُ : هُوَ عَلَى مَا يَجِبُ أَنْ يَقَعَ فِي إِنْكَارِ الْمُنْكَرِ لَوْ رَأَى كِتَابًا عَجْمِيًّا كَتَبَ إِلَى قَوْمٍ مِنَ الْعَرَبِ يَقُولُ : كِتَابٌ أُعْجِمِي* وَ مَكْتُوبٌ إِلَيْهِ عَرَبِيٌّ* وَ ذَلِكَ لِأَنَّ مَبْنِيَّ الْإِنْكَارِ عَلَى تَنَافُرِ حَالَتِي الْكِتَابِ وَ الْمَكْتُوبِ إِلَيْهِ لَا عَلَى أَنَّ الْمَكْتُوبَ إِلَيْهِ وَاحِدٌ أَوْ جَمَاعَةٌ فَوَجِبَ أَنْ يَجْرُدَ مَا سَبَقَ إِلَيْهِ مِنَ الْغَرَضِ وَ لَا يُوَصَّلَ بِهِ مَا يَخِلُّ غَرَضًا آخَرَ أَلَّا تَرَكَ تَقُولُ وَ قَدْ رَأَيْتَ لِبَاسًا طَوِيلًا عَلَى امْرَأَةٍ قَصِيرَةٍ : اللَّبَاسُ طَوِيلٌ وَ اللَّابِسُ قَصِيرٌ وَلَوْ قُلْتُ : وَ اللَّابِسَةُ قَصِيرَةٌ جِئْتُ بِمَا هُوَ لَكِنَّةٌ وَ فَضُولٌ قَوْلٍ لِأَنَّ الْكَلَامَ لَمْ يَقَعْ فِي ذِكُورَةِ اللَّابِسِ وَ أُنُوِّثُهُ إِنَّمَا وَقَعَ فِي غَرَضٍ وَرَاءَهُمَا .

و قوله : « قَدْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَ شَفَاءٌ » بَيَانُ أَنَّ أَثَرَ الْقُرْآنِ وَ خَاصَّتَهُ لَا يَدُورُ مَدَارَ لُغَتِهِ بَلِ النَّاسُ تَجَاهَهُ صَنَافَانِ وَ هُمُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ، وَ هُوَ هُدًى وَ شَفَاءٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَهْدِيهِمْ إِلَى الْحَقِّ وَ يَشْفِي مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ مَرَضِ الشَّكِّ وَ الرِّيبِ ، وَ هُوَ عَمَى عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ - وَ هُمُ الَّذِينَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ - يَعْصِمُهُمْ فَلَا يَبْصُرُونَ الْحَقَّ وَ سَبِيلَ الرِّشَادِ .

وَ فِي تَوْصِيفِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِأَنَّ فِي آذَانِهِمْ وَقْرًا إِيْمَاءٌ إِلَى اعْتِرَافِهِمْ بِذَلِكَ الْمُنْقُولِ عَنْهُمْ فِي أَوَّلِ السُّورَةِ : « وَ فِي آذَانِنَا وَقْرٌ » .

و قوله : « أُولَئِكَ يَنَادُونَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ » أَيْ فَلَا يَسْمَعُونَ الصَّوْتَ وَلَا يَرَوْنَ الشَّخْصَ وَ هُوَ تَمْثِيلٌ لِحَالِهِمْ حَيْثُ لَا يَقْبَلُونَ الْعِظَةَ وَ لَا يَعْقِلُونَ الْحُجَّةَ .

قوله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَخْتَلَفَ فِيهِ » الْخِ تَسْلِيَةٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ

عن جحود قومه وكفرهم بكتابه .

وقوله : « ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم » الكلمة هي قوله : « و لكم في الأرض مستقرٌ و متاع إلى حين » الأعراف : ٢٤ .

وقوله : « وإنهم لفي شك منه مريب » أي في شك مريب من كتاب موسى عليه السلام . بيان حال قومه ليتسلى به النبي ﷺ فيما يرى من قومه .

قوله تعالى : « من عمل صالحاً فلنفسه و من أساء فعليها » الخ أي إن العمل قائم بصاحبه ناعت له فلو كان صالحاً نافعاً انتفعت به نفسه وإن كان سيئاً ضاراً تضررت به نفسه فليس في إيصاله تعالى نفع العمل الصالح إلى صاحبه و هو الثواب ولا في إيصال ضرر العمل السيئ إلى صاحبه و هو العقاب ظلم و وضع للشيء في غير موضعه .

ولو كان ذلك ظلماً كان تعالى في إثابته و تعذيبه من لا يحصى من العباد في ما لا يحصى من الأعمال ظالماً للعبيد لكنه ليس بظلم و لا أنه تعالى ظالم لعبيده و بذلك يظهر وجه التعبير باسم المبالغة في قوله : « و ما ربك بظالم للعبيد » و لم يقل : و ما ربك بظالم .

قوله تعالى : « إليه يرد علم الساعة - إلى قوله - إلا يعلمه » ارتداد علم الساعة إليه اختصاصه به فلا يعلمها إلا هو ، و قد تكرر ذلك في كلامه تعالى .

و قوله : « و ما تخرج من ثمرات من أكمامها » « ثمرات » فاعل « تخرج » و « من » زائدة للتأكيد كقوله : « و كفى بالله شهيداً » النساء : ٧٩ ، و أكمام جمع كم وهو وعاء الثمرة و « ما » مبتدأ خبره « إلا يعلمه » و المعنى و ليس تخرج ثمرات من أوعيتها و لا تحمل أنثى و لا تضع حملها إلا مصاحباً لعلمه أي هو تعالى يعلم جزئيات حالات كل شيء .

فهو تعالى على كونه خالقاً للأشياء محوّل لأحوالها عالم بها و بجزئيات حالاتها مراقب لها ، و هذا هو أحسن التدبير فهو الرب وحده ، ففي الآية إشارة إلى توحيده تعالى في الربوبية و الألوهية ، و لذا ذيل هذا الصدر بقوله : « و يوم يناديهم أين شركائي » الخ .

قوله تعالى : « و يوم يناديهم أين شركائي قالوا آذناك مامننا من شهيد - إلى قوله - من محيص » الظرف متعلق بقوله : « قالوا » وقيل : ظرف لمضر مؤخر قد ترك إيداننا بقصور البيان عنه كما في قوله تعالى : « و يوم يجمع الله الرسل » ، وقيل : متعلق بمحذوف نحو اذكر ، و لعل الوجه الأول أنسب لصدر الآية بالمعنى الذي ذكرناه فتكون الآية مسوقة لنفي الشركاء ببيان قيام التدبير به تعالى واعتراف المشركين بذلك يوم القيامة .

والإيدان الإِعلام ، و المراد بالشهادة الشهادة القولية أو الشهادة بمعنى الرؤية الحضورية و على الثاني فقوله : « و ضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل » عطف تفسير يبين به سبب انتفاء الشهادة .

و قوله : « و ظنوا ما لهم من محيص » الظن - على ما قيل - بمعنى اليقين ، و المحيص المهرب و المفتر ، و المعنى و يوم ينادي الله المشركين : أين شركائي ؟ - على زعمكم - قالوا : أعلمناك مامننا من يشهد عليك بالشركاء - أو مامننا من يشاهد الشركاء و غاب عنهم ما كانوا يدعون من دون الله في الدنيا ، و أيقنوا أن ليس لهم مهرب من العذاب .

قوله تعالى : « لا يسأم إلا إنسان من دعاء الخير و إن مسه الشر فيؤس قنوط » السأمة الملل ، و اليأس و القنوط بمعنى وهو انقطاع الرجاء ، والدعاء الطلب . شروع في ختم الكلام في السورة ببيان ما هو السبب في جحودهم و دفعهم الحق الصريح ، وهو أن الإنسان مغتر بنفسه فإذا مسه شر يعجز عن دفعه يؤس من الخير و تعلق بذيل الدعاء والمسألة وتوجه إلى ربه ، وإذا مسه خير اشتغل به وأعجب بنفسه و أنساه ذلك كل حق و حقيقة .

و المعنى لا يمل إلا إنسان من طلب الخير وهو ما يراه نافعا لحياته و معيشته وإن مسه الشر فكثير اليأس والقنوط لما يرى من سقوط الأسباب التي كان يستند إليها ، وهذا لا ينافي تعلق رجائه إذ ذاك بالله سبحانه كما سيأتي .

قوله تعالى : « و لئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي »

الخب الأصل بالنظر إلى مضمون الآية السابقة أن يقال : وإن ذاق خيراً قال : هذا لي لكن بدلاً ذاق من « أذقناه » و « خيراً » من قوله : « رحمة منا » ليدل على أن الخير الذي ذاقه هو رحمة من الله أذاقه إياها وليس بمصيبه برأسه ولا هو يملكه ولو كان يملكه لم ينفك عنه ولم يمسه الضراء ، ولذا قيد قوله : « ولئن أذقناه » الخ بقوله : « من بعد ضراء مسته » .

وقوله : « ليقولن هذا لي » أي أنا أملكه فلي أن أفعل فيه ما أشاء وأتصرف فيه كيف أريد ، فليس لأحد أن يمنعني من شيء منه أو يحاسبني على فعل ، ولهذا المعنى عقبه بقوله : « وما أظن الساعة قائمة » فإن الساعة هي يوم الحساب .

وقوله : « ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى » أي للمثوبة الحسنى أو للعاقبة الحسنى ، وهذا مبني على ما يراه لنفسه من الكرامة واستحقاق الخير كأنه يقول : ما ملكته من الخير لو كان من الله فإنما هو لكرامة نفسي عليه و على هذا فإن قامت الساعة ورجعت إلى ربي كانت لي عنده العاقبة الحسنى .

فالمعنى وأقسم لئن أذقنا الإنسان رحمة هي منا ولا يستحقها ولا يملكها فأذقناها من بعد ضراء مسته وذلك يدل على أنه لا يملك ما أذيقه نسي ما كان من قبل وقال : هذا لي - يشير إلى شخص النعمة ولا يسميها رحمة - وليس لأحد أن يمنعني عما أفعل فيه ويحاسبني عليه وما أظن الساعة - وهي يوم الحساب - قائمة ، وأقسم لئن رجعت إلى ربي وقامت ساعة كانت لي عنده العاقبة الحسنى لكرامتي عليه كما أنعم علي من النعمة .

و الآية نظيرة قوله في قصة صاحب الجنة : « ما أظن أن تبدي هذه أبداً وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً » الكهف: ٣٦ . وقد تقدم بعض الكلام فيه .

و قوله : فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقنهم من عذاب غليظ تهديد ووعيد .

قوله تعالى : « وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونآجانبه وإذ مسه الشر »

فدو دعاء عريض « النَّأْيُ الْإِبْتَعَادُ ، والمراد بالجانب الجارحة وهي الجنب أو المراد الجهة و المكان فقوله : « نَأَى بِجَانِبِهِ » كناية عن الابتعاد بنفسه وهو كناية عن التكبر والخيلاء ، والمراد بالعريض الوسيط ، والدعاء العريض كالدعاء الطويل كناية عما استمر وأصر عليه الداعي ، والآية في مقام ذم الإنسان وتوبيخه أنه إذا أنعم الله عليه أعرض عنه وتكبر وإذا سلب النعمة ذكر الله وأقبل عليه بالدعاء مستمر أمصراً .

قوله تعالى : « قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَضَلِّ مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ » « أَرَأَيْتُمْ » أي أخبروني ، والشقاق والمشاققة الخلاف ، والشقاق البعيد الخلاف الذي لا يقارب الوفاق وهو شديده ، وقوله : « مِمَّنْ هُوَ فِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ » كناية عن المشركين ولم يقل : منكم بل أتى بالموصول والصلة وذلك في معنى الصفة ليدل على علة الحكم وهو الشقاق البعيد من الحق .

و المعنى قل للمشركين أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله ثم كفرتم به من أضل منكم ؟ أي لا أضل منكم لأنكم في خلاف بعيد من حق ما فوقه حق .

فمفاد الآية أن القرآن يدعوكم إلى الله ناطقاً بأنه من عند الله فلا أقل من احتمال صدقه في دعواه وهذا يكفي في وجوب النظر في أمره دفعاً للضرر المحتمل وأي ضرر أقوى من الهلاك الأبدي فلا معنى لإعراضكم عنه بالكلية .

قوله تعالى : « سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ » الخ الآفاق جمع أفق وهو الناحية ، والشهد بمعنى الشاهد أو بمعنى المشهود وهو المناسب لسياق الآية .

و ضمير « إِنَّهُ » للقرآن على ما يعطيه سياق الآية و يؤيده الآية السابقة التي تذكر كفرهم بالقرآن ، وعلى هذا فالآية تعد إراءة آيات في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين بها كون القرآن حقاً ، والآيات التي شأنها إثبات حقيقة القرآن هي الحوادث والمواعيد التي أخبر القرآن أنها ستقع كإخباره بأن الله سينصر نبيه ﷺ والمؤمنين ويمكن لهم في الأرض و يظهر دينهم على الدين كله و ينتقم من مشركي قريش إلى غير ذلك .

فأمر الله تعالى نبيه ﷺ بالهجرة إلى المدينة وقد اشتد الأمر عليه وعلى من آمن به غايتها فلاسماء تظلمهم ولا أرض تقلهم ثم قتل صناديد قريش في بدر ولم يزل يرفع ذكره و يفتح على يديه حتى فتح مكة و دانت له جزيرة العرب ثم فتح بعد رحلته للمسلمين معظم المعمورة فأرى سبحانه المشركين آياته في الآفاق وهي النواحي التي فتحها للمسلمين ونشر فيها دينهم ، وفي أنفسهم وهو قتلهم الذريع في بدر .

وليست هذه آيات في أنفسها فكم من فتح و غلبة يذكره التاريخ و مقاتل ذريعة يقصها لكتبتها آيات بما أن الله سبحانه وعدها والقرآن الكريم أخبر بها قبل وقوعها ثم وقعت على ما أخبر بها .

و يمكن أن يكون المراد براءة الآيات و تبين الحق بذلك ما يستفاد من آيات أخرى أن الله سيظهر دينه بتمام معنى الظهور على الدين كله فلا يعبد على الأرض إلا الله وحده و تظل السعادة على النوع الإنساني وهي الغاية لخلقهم ، وقد تقدم استفادة ذلك من قوله تعالى : « وعد الله الذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض » الآية النور : ٥٥ وغيره و أيّدناه بالدليل العقلي .

والفرق بين الوجهين أن وجه الكلام على الأول إلى مشركي مكة و من يتبعهم خاصة وعلى الثاني إلى مشركي الأمة عامة والخطاب على أي حال اجتماعي ، ويمكن الجمع بين الوجهين .

و يمكن أن يكون المراد ما يشاهده الإنسان في آخر لحظة من لحظات حياته الدنيا حيث تطير عنه الأوهام و تذل عنه الدعاوي و تبطل الأسباب و لا يبقى إلا الله عز اسمه ، و يؤيده ذيل الآية و الآية التالية ، و ضمير « أنه الحق » على هذا الله سبحانه .

و لهم في الآية أقوال أخرى أغمضنا عن إيرادها .

و قوله : « أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » فاعل « لم يكف » هو « بربك » و الباء زائدة ، و « إنه على كل شيء شهيد » بدل من الفاعل ، و الاستفهام للإنكار ، و المعنى أولم يكف في تبين الحق كون ربك مشهوداً على كل شيء إذما

من شيء إلا وهو فقير من جميع جهاته إليه متعلق به وهو تعالى قائم به قاهر فوقه فهو تعالى معلوم لكل شيء وإن لم يعرفه بعض الأشياء .

و اتصال الجملة أعني قوله : « أولم يكف بربك » الخ بقوله : « سنريهم » الخ على الوجه الأخير من الوجوه الثلاثة الماضية ظاهر، وأمّا على الوجهين الأولين فلعل الوجه فيه أن المشركين إنما كفروا بالقرآن لدعوته إلى التوحيد فانتقل من الدلالة على حقيقة القرآن للدلالة على حقيقة ما يدعو إليه إلى الدلالة على حقيقة ما يدعو إليه مستقيماً من غير واسطة كأنه قيل : سنريهم آياتنا ليتبين لهم أن القرآن الذي يخبرهم بها حق فيتبين أن ربك واحد لا شريك له ثم قيل : وهذا طريق بعيد هناك ما هو أقرب منه أولم يكفهم أن ربك مشهود على كل شيء ؟

قوله تعالى : « ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم » الخ الذي يفيد السياق أن في الآية تنبيها على أنهم لا ينتفعون بالاحتجاج على وحدانيته تعالى بكونه شهيدا على كل شيء وهو أقوى براهين التوحيد وأوضحها لمن تعقل لأنهم في مرية وشك من لقاء ربهم وهو كونه تعالى غير محجوب بصفاته وأفعاله عن شيء من خلقه .
ثم نبه بقوله : « ألا إنه بكل شيء محيط » على ما ترتفع به هذه المرية وتنبت من أصلها وهو إحاطته تعالى بكل شيء على ما يليق بساحة قدسه وكبريائه فلا يخلو عنه مكان وليس في مكان ولا يفقده شيء وليس في شيء .
و للمفسرين في الآية أقوال لوراجعتها لرأيت عجبا .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن عساكر عن عكرمة في قوله : « أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمنا يوم القيامة » نزلت في عمار بن ياسر وفي أبي جهل .
أقول : ورواه أيضاً عن عدة من الكتب عن بشر بن تميم ، وروى أيضاً عن ابن مردويه عن ابن عباس « أفمن يلقى في النار » قال : أبوجهل بن هشام ، و « أم من يأتي آمناً يوم القيامة » قال : أبوبكر الصديق ، و الروايات من التطبيق .

وفي تفسير القمي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « إن الذين كفروا بالذكر لمّا جاءهم » يعني القرآن « لا يأتيه الباطل من بين يديه » قال : لا يأتيه الباطل من قبل التوراة و لا من قبل الإنجيل و الزبور « و لا من خلفه » قال : لا يأتيه من بعده كتاب يبطله .

و في المجمع في الآية قيل فيه أقوال - إلى أن قال - و ثالثها معناه أنه ليس في إخباره عما مضى باطل و لا في إخباره عما يكون في المستقبل باطل بل إخباره كلها موافقة لمخبراتها ، و هو المروي عن أبي جعفر و أبي عبد الله عليهما السلام .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : « أعجمي » و عربي » قال : لو كان هذا القرآن أعجمياً لقالوا : كيف نتعلمه و لساننا عربي و أثبتنا بقرآن أعجمي فأحب الله أن ينزل له بلسانهم و قد قال الله عز وجل : « و ما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه » .

و في روضة الكافي بإسناده عن الطيار عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل : « سنريهم آياتنا في الآفاق و في أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » قال : خسف و مسخ و قذف . قال : قلت : « حتى يتبين لهم ؟ قال : دع ذا ذاك قيام القائم .

و في إرشاد المفيد عن علي بن أبي حمزة عن أبي الحسن موسى عليه السلام في الآية قال : الفتن في آفاق الأرض و المسخ في أعداء الحق .

و في روضة الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام في الآية قال : يريهم في أنفسهم المسخ ، و يريهم في الآفاق انتقاض الآفاق عليهم فيرون قدرة الله عز وجل في أنفسهم و في الآفاق . قلت له : حتى يتبين لهم أنه الحق ؟ قال : خروج القائم هو الحق عند الله عز وجل يراه الخلق .

تم و الحمد لله



فهرس بعض المواضيع المبحوث عنها فى هذا الجزء

رقم الايات	موضوع البحث	نوع البحث	الصحيفة
سورة فاطر ١	كلام في الملائكة .	قرآنى	٩
١٥ - ٢٦	كلام في معنى عموم الانذار .	عقلي	٣٧
الصافات ١١-١	كلام في معنى الشهب .	قرآنى	١٣٠
١١٤-١٣٢	كلام في قصة اليباس <small>عليه السلام</small> .	قرآنى وروائى	١٦٦
	١ - قصته في القرآن .	»	
	٢ - الأحاديث فيه .	»	
١٣٣-١٤٨	كلام في قصة يونس <small>عليه السلام</small> في فصول .	مختلط	١٧٣
	١ - قصته في القرآن .		
	٢ - قصته عند اهل الكتاب .		١٧٥
	٣ - ثناؤه تعالى عليه .		
سورة ص ١٧-٢٩	كلام في قصص داود <small>عليه السلام</small> في فصول .	قرآنى	٢١١
	١ - قصته في القرآن .	»	
	٢ - جميل الثناء عليه .		
	٣ - حول قصة المتخاصمين .	»	٢١٢
٤١-٤٨	كلام في قصة ايوب <small>عليه السلام</small> في فصول .	قرآنى وروائى	٢٢٤
	١ - قصته في القرآن .		
	٢ - جميل ثنائه .		
	٣ - قصته في الروايات .		٢٢٥
	خبر اليسع و ذي الكفل <small>عليهما السلام</small> .	روائى	٢٢٨
سورة الزمر ١-١٠	كلام في معنى الرضا و السخط من الله .	عقلي وقرآنى	٢٥٥
حم السجدة ١-١١	كلام فيه تميم في معنى السماء .	قرآنى	٣٩٢
١٣-٢٥	بحث اجمالى في سراية العلم .	قرآنى	٤٠٥
	بحث اجمالى آخر في ذلك .	فلسفى	٤٠٦

جدول الخطأ و الصواب

ص	س	خطأ	صواب	ص	س	خطأ	صواب
١٣	٢٣	الإشراك	الإشراك	١٣٩	٣	عنا	منا
٣١	٣	'يحمل'	'يحمل'	١٣٩	٣	لقوله	كقوله
٤٣	٤٢	عملوا	عملوا	١٤٣	١٧	غيرهن	غيرهم
٤٨	١٥	منهم	عنهم	١٥١	٣	ابراهيم	ابراهيم
٥٢	٨	ليكونن	ليكونن	١٦١	١٠	ان	ان
٥٣	١٣	منه	عنه	١٦٨	٣	ابنه	الله
٦٠	٤	لا يقادمه	لا يقاومه	١٩٢	١٣	قيله	قبله
٦٤	٤	فتلخص	فتلخص	٢٠١	١٩	عن الشر	من الشر
٦٦	٩	وإن	وان	٢١٣	١٠	حسن	حسن
٧٤	٧	و السعاة	و السعادة	٢٣٠	٢	لحسن	لحسن
٧٧	١٦	وفيه	وفيه	٢٣٤	٤	لي	لي
٨٨	١٤	و تمرا	و ثمرها	٢٧١	١٦	كلامه	كلامه
٩٨	٢٤	اليل	الليل	«	١٩	و نظمئن	و نظمئن
١٠٣	١٨	واظها	واظهار	٢٧٤	٩	اليقامة	القيامة
١٠٧	٢١	كسبوها	كسبوها بها	٢٨٠	٤	يتوكل	يتوكل
١١٥	١٤	المعفى	المعنى	٢٨٢	٤	نظم	وهو نظم
١٣٤	١٠	إن	أن	«	١٠	بفيد	يفيد
١٣٥	١٨	وإذا	عإذا	٢٩١	١٦	ويرزق	وترزق

ص	س	خطأ	صواب	ص	س	خطأ	صواب
٢٩١	١٦	يشاء	تشاء	٣٥٠	١٢	يبعد	يبتعد
٣٠٣	٩	ينظرون	ينظرون	٣٧٢	٥	الجميع	في الجميع
٣٠٥	١٥	الاشياء	ان الاشياء	٣٨٤	٢٤	واستقامة	واستقامة
٣٣٤	١٤	مكذب	ومكذب			الحجة	المحجة
٣٤١	٩	اما	اما	٣٩٤	٢٠	بنية	بنية
٣٤٢	٩	اقتل	اقتل	٤٠٧	٢٣	ان تشهد مرتين	ان يشهد
٣٤٥	١٦	المبين	المبين	٤٣١	٢٣	إنه	أنه
٣٤٩	١٩	ريتا	ريبا				

